ديوان الإنشاء

او

أساليب الحكيم

في منهج الإنشاء القويم

تأليف

السيد أحمد الهاشمي بك
مدير مدارس فؤاد الأول ومراقب مدارس فكتوريا الانجليزية سابقاً

الطبعة التاسعة
١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة حجازي

بسم الله الرحمن الرحيم

نتلو آيات الحمد والثناء على من أنشأ آدم وعلمه الأسماء . وأنطق بنيه باللغات البينات . في عموم الأنحاء والجهات . ونروى أحاديث الصلاة والتسليم . على سيدنا محمد المنزل عليه القرآن الكريم، والمرسل بدينه القويم . ذى (الأسلوب الحكيم) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهادين إلى الصراط المستقيم

﴿أما بعد﴾ فإن العلوم وان كثرت رياضها . وتدفقت بالفوائد حياضها . فأبهجها حديقة سقيت أدواحها بماء الكمال، وأينعت أزهارها فأنبتت مكارم الأخلاق وحميد الخلال (علم الإنشاء) الذى هو غريزة فطرية ، تعززها ملكة اكتسابية — ولما عنيت بتدريس هذا العلم في المدارس الثانوية وضعت هذا الكتاب وسميته في الطبعات السابقة ﴿أسلوب الحكيم . في منهج الإنشاء القويم﴾ بيد أنى دعوته في هذه الطبعة الجديدة «ديوان الإنشاء»

وأمتن سلفاً لكل أديب مخلص النية على ما يتحفنى به من ملاحظاته — وأسأل الله تعالى أن يمنحنى توفيقه وهو المستعان

المؤلف

السيد أحمد الهاشمى

١ — ﴿ توحيد وتمجيد المولى سبحانه وتعالى ﴾

سبحان الذى توحد بوجوب الوجود ودوام البقاء، وتفرد بامتناع العدم واستحالة الفناء. دل على وجوده خلق الأرض والسموات العلى وشهد بوحدانيته انتفاء الفساد عن الارض والسماء، تنزه عن مشابهة الامثال والأكفاء، وتقدس عن الحدوث والانقسام والتأليف والأجزاء، أحاط علمه بدبيب النملة السوداء عَلَى الصخرة الصماء. فى دياجير الظلماء. وأبدع المواد بقدرة قديمة ممتنعة عن الانتهاء. له الاعادة ومنه الإبداء. دبر الكائنات. وأحصي المخلوقات. وأحاط علمه بما لا يتناهى عده وإحصاؤه. جلت قدرته وتباركت أسماؤه وعظمت نعمته، وعمت آلاؤه وقصرت عن إدراك ذاته أفكار العقلاء. وتحيرت فى بيداء ألوهيته أنظار العلماء

وفى كل شىء له آية تدل على انه الواحد

وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا) فالنظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره. وعليها تجلت أنواره وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام

كيفية المرء ليس المرء يدركها فكيف كيفية الجبار فى القدم

هو الذى أنشأ الأَشياء مبتدعاً فكيف يدركه مستحدث النسم

وكلما رق الوجدان ولطفت الأَذهان ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنها كمال قدرة واجب الوجود ونهاية عظمته

كل ما يرتقى إليه بوهم من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أَعلى منه سبحان مبدع الأشياء

٢ – ﴿ الآثار العجيبة التى أبدعها مبدع الكائنات ﴾

(ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأَرض لآيات لقوم يعقلون) « قرآن كريم »

ان من أجال فكره فى هذه الموجودات . وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات . وما فيهما من العجائب والغرائب ، ومن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان ، والمجىء والذهاب مع تعاقبهما على ذلك بحالة منتظمة لا يتغيران مهما تعاقبت الفصول وتوالت الأعوام . ومن السفن التى تجرى على الماء لينتفع

الناس بها في أمور معاشهم ومن انزال الماء من السماء فتنبت به الأرض بعد يبسها وتنتشر فيهـا الدواب بما تأكله من ذلك النبات . ومن تصريف الرياح وتقلبها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً حارة وباردة ومن الغيم المسخر بين السماء والأرض بلا علاقة تمنعه من السقوط ولا ممسك يمسكه يسير حيث شاء الله تعالى لاستدل على كمال قدرته ونهاية عظمته

انظر إلى السموات وما اشتملت عليه من الكواكب وعجائبها ودورانها فى أفلاكها بهذه الحركات المنتظمة مع اختلافها فى الصغر والكبر والنور والظلمة — وغير ذلك

وانظر إلى الأرض وما اشتملت عليه من البحار والجبال والأودية والكهوف والسهول والمعادن وخواصها ومنافعها

وانظر إلى الحيوان الذى بلغ فى الصنع أعلى منازل الغرابة وأسمى درجات الإحكام لو تأمل العاقل ما انطوى عليه من غريب التكوين وبديع الصنع وما اشتمل عليه من الأعضاء الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلاف أبنيتها ودقائق صنعها لا نبهر عقله وتحير لبه ، لا سيما وقد اختلفت أصنافه — فمنه ما يعيش فى الهواء وما يعيش فى الماء وما يعيش على سطح الأرض وما يعيش فى اثنين من ذلك ومنه ما يمشى على أربع ، ومنه ما يمشى على بطنه فسبحانه تعالت قدرته

وانظر إلي النبات وتباينه في الأشكال والأزهار والأوراق والثمار والبذور والروائح والطعوم والألوان والمنافع والمضار قال الله تعالى (أو لم يتفكروا في أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإنّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) وقال تعالي (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت . وإلى السماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نُصبت ، وإلى الأَرض كيف سُطِحَتْ)

فلا جرم أن من أوجد هذه الموجودات المتقدمة وأحكمها وأبدع إيجادها على غاية الإحكام والاتقان يكون موجوداً وقادراً أتم القدرة فسبحان من لا يقدر قدر قدرته إلا هو ولا يحيط بعظمته سواه

مليك عزيز لايرد قضاؤه حكيم عليم نافذ الأَمر قاهر

٣ ﴿ رأس الحكمة مخافة الله ﴾

مخافة الله هي الشعور بالقرب المعزّز بالخشية من الذات العلية يبعثنا ذلك الشعور الى فعل المأمور به وترك المنهي عنه في الاجتماع والعزلة وإلى التسلّي والرضاء عند وقوع البلاء بينما الانسان لا ساعد له سواه جل شأنه . وباشتراط القرب يعلم الفرق بين الخوف من الله والخوف من غيره ، فان خوف الانسان من غيره يستدعي بعداً لا قرباً وأما مخافة الله فتستدعي قرباً يجده الانسان من نفسه شاء أم أبى ولذلك قال أبو القاسم القشيري مَنْ خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله

هرب اليه . ويختلف خوف الناس منه سبحانه وتعالى

فمنهم من يخافه هرباً من العقاب والعذاب وطلبا للأجر والثواب وذلك حاصل بأصل الإيمان وعليه عامة الخلق قال عز شأنه (وخافون إن كنتم مؤمنين)

ومنهم من يخافه لذاته وجلاله ، ويراد من الخوف هنا الخشية وعليه العارفون بالله — قال وهو أصدق القائلين (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى العارفون بذاته وبجلاله . وقال عليه الصلاة والسلام (أنا أخوفكم إلى الله جل جلاله)

وكذلك يختلف حب الناس له تبارك وتعالى مقداراً وكيفية فمنهم من يحبه لاحسانه وللنعيم

ومنهم من يحبه لكونه تعالى مظهر الجمال والكمال : وهذا هو الحب الحقيقى الذى هام به أهلوه الألى أشرقت عليهم شمس الحكمة فطربوا لها

وبالجملة فالتعرف بالألوهية لايحتاج إلى مرشد خارجى بل هو حاصل بالفطرة والطبيعة — وتبيين المعبود الحق جل شأنه هو المحتاج لا محالة إلى الإرشاد ولم يكن ذلك إلا بهدايته سبحانه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ليتمموا معرفة الانسان به عز وجل فيهتدى بهديه وينتهى بنهيه كى يحظى بالنعيم الأبدى المقيم — وأم ماهدتنا

اليه الرسل لا سيما المصطفى صلى الله عليه وسلم هو محبة الله تعالى . وقد جعلها الشارع شرطا فى الإيمان بقوله (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما) وقال تعالى (والذين آمنوا أشدُّ حبا لله) فمحبتنا لله سبحانه وتعالى لذاته ولكونه محسنا منعما متفضلا على جميع عباده بجلائل النعم

وخوفنا منه تبارك وتعالى لجلالته وعظمته ، ولكونه مصدر الخير والكمال نأتمر بأمره وننتهى بنهيه حبا فيه لا خوفا من عقابه ولا طلبا لثوابه فان الخير كله فيما أمر الله به تعالى والشر كله فيما نهي عنه

٤ — ﴿فوائد إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام﴾

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وطبعهم على أخلاق حسنة تساعدهم على انتظام حالهم ، وأخلاق تخالفها لأجل أن يتسابقوا بها فى عمارة هذا الكون الذى قدر وجودهم فيه إلى أجل معلوم — لكن لما كان تحديد الرغبة فى السبق يوجب وقوف كل راغب عند حده ويأسه من مجاوزته وبذلك تتعطل حركة المسابقة لم تعدل الاخلاق فى أصل الفطرة فصارت تلك الاخلاق السيئة فى معرض الطغيان والوصول إلى حد يصبح به ضررها أكبر من نفعها — لذلك اقتضت رحمة الله بعباده بمحض اختياره أن يرسل لهم انسانا منهم فطرهم على الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة وأطلعهم على مكامن الأخلاق

وأسرارها وكيفية علاجها ودرجة الاعتدال منها ليهدوهم ويرشدوهم إلى مافيه صلاحهم وتقويم أخلاقهم أوتهـذيب نفوسهم ، ويبينوا لهم الخير ليتبعوه والشر ليجتنبوه، ويردوهم إلى حد الاعتدال فى مثل هذه الأخلاق قال تعـالى (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقد بين الله تعالى وظيفة هؤلاء الرسل وحكمة إرسالهم فى قوله (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنـاس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل لهؤلاء الرسل من الآيات والعلامات الواضحات والحجج القاطعة والبراهين الساطعة مايلجىء خصومهم إلى الاذعان والتصديق بكل ماجاءوا به من عنده جل وعلا ، ويتركون ماهم عليه من العنـاد والحسد والتقليد قال تعالى (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب) فهؤلاء الرسل والانبياء مهّدوا طرق الهدى وأوضحوا منار الحقيقة وطمسوا أعلام الجهالة فانتقلت الخليقة من الخشونة إلى النعومة ومن حضيض الهمجية إلى ذروة المدنية ، ونادى منادى الخير فى أهل الارض أن أبشروا فقد غرست البركة « وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

وبالجملة إن نوع الانسان يحتاج إلى المصالح الضرورية الكثيرة التي لا بقاء له بدونها مثل الغذاء واللباس والمسكن والآلات وغيرها وإن الانسان الواحد لا يقدر أن يقوم بجميع هذه المصالح الضرورية بل لا بد أن يكون معه آخرون من بنى نوعه حتى يطحن هذا لذلك ويخبز ذاك لهذا ، ويزرع لهما ثالث وهكذا الحال في البناء وغيره من الصناعات فهو يحتاج في تعيشه إلى اجتماعه مع بني نوعه للتعاون والتشارك فى تحصيل تلك المصالح الضرورية ولذلك قيل (الانسان مدني بالطبع) فان االتمدن هو هذا الاجتماع وذلك التعاون والتشارك لا يتمان بدون المعاملات والمعاوضات التي تجرى بينهم ، ويقع فيها غالباً التنازع المؤدي إلى الاختلاف والقتل واختلال أمور الدين والدنيا فلا بد لهم من قانون متفق عليه مبني على العدل والإنصاف بعيد عن الجور والاعتساف مشتمل على نظام أمور معاشهم

والعناية الأزلية وإن عمت جميع الحيوانات بحيث أعطت كل حيوان ما يليق من الآلات وهدته إلى ما فيه بقاؤه وبه قوامه لكنها فى الانسان أشد لأنه أشرف الأنواع الحيوانية وما عداه من تلك الأنواع مسخر له فكيف يتصور أن الله مع تلك العناية الأزلية الشديدة فى حقه لا يهديه إلى قانون من قبله لينقاد له العوام

والخواص ، ويحصل به انتظام أمور المعاش والمعاد — ذلك القانون هو « الشرع » .

ولما كانت ذات الله فى غاية التقدس ، وذواتنا فى غاية التدنس ، فلا يمكن وصول هذا الشرع بلا واسطة — ولا بد أن تكون هذه الواسطة ذات جهتين تكون لها مناسبة بالله بجهة — وبنا بجهة أخرى ولهذا يلزم أن يكون الوسيط إنسانا مقدسا متميزا عن الآخرين بخصوصية فيه من الله ، مختصا بأمر يدل على تصديقه حتى يطاع وينقاد الناس إليه .

٥ — ﴿ ما هى الحاجة الماسة إلى الأديان ﴾

إن الدين أقوى أساس تشاد عليه دعائم الروابط الاجتماعية بين أفراد أمم النوع الإنسانى مهما تباينت مشاربهم واختلفت أغراضهم وافترقت أهواؤهم وتعددت لغاتهم ، فرابطة الدين أقوى مؤثر فى النفوس لأنها أحرزت الشرفين ، وهما اتصال سندها بمبدع الكائنات ودوامها إلى آخر العمر ، فهى أجمع من الجامعات الأخرى كالجنسية والوطن واللغة — وذلك لأن رابطة الجنس وإن دامت بدوام سببها وهى القرابة فمصدرها وهم الآباء أقل مرتبة من الربوبية — قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ولهذا نرى الرجل يقطع

أقاربه برابطة الدين مهما تمكنت فى قلبه ، وهذا معلوم فى كل زمان ومكان ، وكم فى الحوادث من شواهد على ذلك ، وإذا كانت الوحدة الجنسية بهذه المثابة من الضعف فمن باب أولى ما هو أضعف منها وهو الوطن واللغة التى تترجم عن تلك النفوس المودعة فى تلك اللطيفة فهى ترجمان عنها ، فرع لها ، تابعة لاشارتها

فرابطة الدين إذا تمكنت من القلوب كانت حصناً حصيناً يلجأ إليه الخائفون عند الدفاع عن أوطانهم والذب عن حياضهم — كما أرهب سيدنا معاوية رضى الله تعالى عنه قيصر الروم (وقد انتهز فرصة التشاجر بينه وبين سيدنا على فكتب إليه يهدده بالحرب أو دفع الجزية) فكتب يقول له « ان لم تكف عن هذا وإلا سلمت الأمر لصاحبي وكنت أول سهم من سهامه يرمى به إليك » فكأنما ألجم فاه بهذا الخطاب بما أوقع فى قلبه من الرعب مع اشتداد الأمر بينه وبين سيدنا على رضى الله عنه — كيف لا وان الرابطة الدينية هي السبب فى تقدم الفتح الاسلامى وانتشاره فى بقاع الأرض فى أقرب زمن

أنظر إلى ألفة الأوس والخزرج فى زمن النبوة مع ما كان بينهم من شقاق وحروب دامت أعواما كثيرة فألف الله بين قلوبهم بوحدة الاسلام

وهؤلاء ملوك الغربيين أعمالهم شاهدة على ذلك باتحادهم على الشرقيين خصوصاً الصينيين وتألبهم أيام حروب اليونان واقتسامهم بلاد أفريقيا وغير ذلك مما لا يحصى فى الحرب العالمية الكبرى سنة ١٩١٤ م

وبالجملة فالدين هدى وعقل ، من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشده إليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه ، وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الاعمى انكاراً ، ولا الأصم إعراضاً ، ولم يدع هذا الدين أصلاً من أصول الفضائل الا أتى عليه ، ولا أما من الامهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه انهاض العزائم إلى العمل وسوقها فى سبيل السعى

٦ — ﴿ فوائد الاتحاد ومضار التنازع ﴾

إنما الامة الوحيدة كالجسم ... وأفرادها كالأعضاء
كل عضو له وظيفة صنع ... لا ترى الجسم عنه فى استغناء

من أعظم الاسباب وألزم الوسائل لسعادة الامة هو وحدتها التي تجعلها كالجسم الواحد ، إذا شكى منه عضو تداعت له سائر

الأعضاء قال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وقال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) وقال عليه الصلاة والسلام (مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى)

ومن المعلوم ان الناس مدنيون بالطبع «أى لا بد لهم من الاجتماع والمخالطة» لأن الفرد الواحد لا يمكن أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة إلى الاجتماع الذى يجلب إلى أمته الخير ويدفع عنها الشر والضير

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعر واخدم

فالاتحاد وارتباط القلوب ببعضها وتضافرها على أمر واحد واجتماعها على كلمة واحدة من أهم أسباب السعادة وأقوى دواعى المودة والمحبة فكم به عمرت بلاد. وسادت عباد. وانتشر عمران وتقدمت أوطان وأسست ممالك . وسهلت مسالك . وقويت شوكة وأمنت غوائل وكثر تواصل — إلى غير ذلك من فوائد الاتحاد الذى هو أعظم الفضائل وأمتن الأسباب والوسائل — فمن تمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى وفاز بالسبب الأقوى فهنيئاً لأمة اتحدت . وعلى الخيرات اجتمعت . فتفوز على الامم الأخرى فوزاً عظيماً وتبلغ شأواً جليلاً وتخلد لها ذكرا جميلا على صفحات التاريخ بكرة وأصيلا

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه كان أحدهم يرث الآخر دون قراباته وذوى رحمه ، وبذلك كانت نصرتهم على عدوهم مع قلة عددهم فدوخوا الممالك وافتتحوا البلاد ومصروا الأمصار ومدوا ظلال العمران وشيدوا الممالك وسهلوا المسالك قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا

وأما التنازع والتفرق فى الكلمة والرأى فهو سبب الضعف والخذلان والفشل فى جميع الأزمان ، بل هو مجلبة الفساد ومطية الكساد وداعية الخراب والدمار وداهية العار والشنار ، فكم شاهدنا من عائلات كبيرة كانت فى رغد من العيش وبيوت كثيرة كانت آهلة بأهلها حتى إذا دبت فيهم عقارب التنازع وسرى سمها فى قلوبهم وأخذ منهم الشيطان مأخذه تفرقوا شذر مذر : وأصبحت بيوتهم خاوية على عروشها — وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)

وبالجملة فمن نظر فى مرآة التاريخ وتصفح غير قليل من أحوال الامم وتقلبات الدهور وما حصل لها حتى آلت إلى هذه الدثور رأى ان عزها الذى كانت مغموسة فيه وفخرها الذى تلفعت بحواشيه ومجدها الذى تقنعت به وتحلت بسر باله إنما هو نتيجة ما تمسكوا به

وتعلقوا بأهدابه حتى شربوا من العمر سائغه ولبسوا من الدهر سابغه وذلك لانهم قد اتحدت أهواؤهم واجتمعت كلمتهم واتفقت وجهتهم وتواطأت أفكارهم فكان هذا أقوى عامل فى رفع شؤونهم وأشد ساعد فى إعلاء سطوتهم وأكبر نصير لنصرتهم وحصن حصين لحفظ شوكتهم لا تنال أعداؤهم منهم مراماً بل يطأطئون رؤوسهم لهيبتهم اكراماً ، ويخرون للأذقان لهم تعظيما واحتراما ويبلغون فى الحضارة والمدنية شأواً عظيماً

تلك أمة لا غيب الله لها شمساً مشرقة ولا بلغ الله عدوها أنوارها — والويل والثبور لأمة دبت بينهم عقارب الخلاف فتسرى فيهم ريح الشقاق ، حتى قضى عليهم بالتشتت والفراق

٧ — ﴿ فوائد التعاون والمساعدة ﴾

التعاون صفة تبعث الانسان إلى مساعدة أبناء جنسه وإلى الاتحاد معهم قولاً وفعلاً للحصول على المنفعة العامة

وبعبارة أخرى — هو تأثير الشعور بالوحدة الوطنية

والمنفعة العامة كامنة ضمن المنفعة الخاصة إذا نحا نحوها الأفراد وأخذ كل بيد الآخر وحافظوا على أسباب الائتلاف ، وتوطدت بينهم دعائم المحبة ، وكانوا كبنيان واحد يشد بعضه بعضاً . قال عليه الصلاة والسلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه

بعضاً » وأما إذا تفرقت قلوبهم ولعبت بهم الأهواء فلا ترى للمنفعة العامة لديهم محلا ، ولا يكونون أمة بل آحاداً ، مجتمعين أجساما مفترقين قلوبا وأهواء ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تستحكم فيها الميول فتتمكن في طباعهم العدوة والنفرة .

ان القداح إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيّدِ
عزت فلم تكسر وان هيَ بُدّدت فالوهن والتكسير للمتبدد

ويصيرون كما قيل « غنما متبددة في صحراء قد أحاطت بها أصناف السباع فبقاؤها مدة سالمة ، إما لأن السباع لم تصل إليها بعد (ولا بد أن تصل إليها يوما ما) وإما لأن السباع أدتها المزاحمة إلى القتال وغنمها شدة الجوع من المضى مع الغضب الذى ربما أذهبته شدة الجوع بالكلية أو يغلب فريق فريقا فيصير الغالب غاصبا ويصير المغلوب سارقا فتقع الغنم بين غاصب وسارق» .

ولا سبيل إلى التعاون على المنفعة العامة إلا اذا أشرب في قلوب الأفراد « حب الوطن » وصار لديهم الوطن كمنزل واحد هم أهلوه وأعضاؤه ـ وقد جعله المشرع الأول عليه الصلاة والسلام من الخصال الدينية فقال (حب الوطن من الايمان) والآثار الصادرة عن الحكماء والسياسين مؤذنة بطلبه ـ وقد قصدوا بذلك بعث الأفراد إلى محبوب واحد وهو الوطن حتى تتفق أهواؤهم فتتألف قلوبهم فيعم الصلاح

بينهم . قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) فالتعاون عليه مدار نظام الأمم وملاكها وحياتها والاحتياج إليه أمر فطرى فى الانسان إذ لا يمكنه أن يقوم بمفرده بسائر وظائف الحياة البشرية فهو مضطر إلى الاجتماع بطبيعته — ولما كان الاجتماع لا يخلو من المنازعات المفضية إلى تغالب القوى المتنازعة كانت الحاجة ماسة ولا بد إلى منع ذلك التغالب — ومن أهم الوسائط فى منعه وأعظم الوسائل فى دفعه التعاون والتناصر والتآلف والتضافر ، فبالتعاون تدفع عوادى الطبيعة وتتقى مخاطر الوحدة ويتسابق فى ميدان الحياة فيدعوه ذلك إلى المثابرة على العمل فيزرع ويستثمر ويعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران الى غير ذلك مما تدعو إليه الطبيعة البشرية — ولولا التعاون لثبطت همته وقعدت به عزيمته ، حيث يعتقد من نفسه العجز عن مطاردة العوادى ، ولا يقدر بمفرده على اتقاء مخاطر الحياة البشرية فيكتفى من العيش بنزره ، ومن الحياة بقدر ما تقتضيه الطبيعة ، وهذا مناف للحكمة الالهية التى أودع الله من أجلها فى الانسان العقل .

وبالجملة يجب التعاون على فعل الخيرات بحيث يقضى البعض للبعض ما هو محتاج اليه ولا يمكنه الحصول عليه — وكذا التعاون على ترك المنهيات يرضى الله عنهم فيمنحهم خيره ويكفيهم شره ، فمن جمع

التعاون بقسميه فقد كملت سعادته وطابت حياته وهنئت عيشته .

وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن التعاون على فعل الشر والضير فان فى التعاون على ذلك مفاسد كثيرة ومنكرات فظيعة كبيرة وراءها عذاب أليم وعقاب شديد .

١ — ﴿ العقل وفوائده ﴾

وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

غير خاف أن أشرف الخواص التى تميز بها الانسان من الحيوان (العقل) الذى هو سلطان القرائح ومصباح السوانح ومفتاح المصالح ورأس العلوم. وسبب إدراك المعلوم . ومادة الفهم وينبوع الحكمة وهو الموصل إلى صلاح الدين والدنيا لا تستقيم الحياة إلا به ولا تدور الأمور إلا عليه . وهو نور موضوع فى القلب كنور البصر فى العين ينقص ويزيد ويذهب ويعود ، وكما يفقد نور البصر من العين ولا يتغير من أشكالها شيء كذلك إذا عدم العقل من القلب لا يتغير له صفة — وكما تدرك بنور البصر شواهد الأمور . كذلك يدرك بنور العقل كثير من المحجوب والمستور . فعمى البصر كعمى القلب .

وكيف لا يكون العقل أجل موجود فى البرية. وأشرف موضوع فى هذه الخليقة الآدمية . وقد خصه الله تعالى بالانسان لشرفه

وكماله ، وعزته وجلاله (ان فى ذلك لآيات لاولى النهى) .

قال بعض الحكماء ، العقل أمير والخصال رعية ، فان قوى عليها أطاعته وان ضعف عنها خالفته . والجسم مدينة والعقل ملك يديرها وقواه وحواسه جنوده ، وأعوانه وجوارحه رعيته : والنفس الامارة بالسوء عبد ينازعه فى مملكته ويسعى فى هلاك رعيته ، له شيعة وأتباع من الشهوات ، فصار الجسد كثغر وَموضعَ جهاد ورباط فان هو ضيع ثغره وأهمل رعيته غلبته النفس وقويت عليه بجنود شهواتها فأهلكته وأهلكت جنوده وان هو جاهدها حق جهادها وأحال بينها وبين شهواتها ومرادها كان ذلك سببا لبقاء ملكه وعمارةِ حصونه هذا — والعقل ينقسم الى طبيعى معتاد ومكتسب مستفاد : فالاول ما سبق الكلام عليه . والثانى ما تحصل بكثرة التجارب ، ومرور الايام والليالى بالمواهب والنوائب . وليس المكتسب بمنفصل عن الغريزى بل هو نتيجته يزيده قوة وينميه . ويشيد أركان مبانيه .

وبالجملة فالعقل يعقل صاحبه من شهواته لانه نور فى القلب يفرق به بين الحق والباطل . ومن آيات وفور العقل فى الإنسان تدبر العواقب والاخذ بالحزم فى كل الامور وترك الامانى والتودد الى الناس ومداراتهم والحياء وحسن الخلق وصدق الفراسة ومخالفة هوى النفس والاعتبار بحوادث الزمان — وقد روى عن جبرائيل أنه

أتى آدم عليهما السلام وقال له : أتيتك بثلاث فاختر واحـدة . قال وما هى . قال — العقل والحياء والدين . قال آدم — اخترت العقل . فقال جبرائيل إلى الحياء والدين راجعا — فقد اختار العقل عليكما ، فقالا : أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان

٩ ـ ﴿فوائد العلم ومضار الجهل﴾

لايخفى أن العلم أفضل مكتسب . وأشرف منتسب . وأنفس ذخيرة تقتنى . وأطيب ثمرة تجتنى . به يتوصل إلى معرفة الحقائق ويتوسل إلى نيل رضا الخالق . وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها وأكرم فروعه وأزكاها . لايضيع أبداً صاحبه . ولا يفتقر كاسبه ولا يخيب مطالبه . ولا تنحط مراتبه . والعلم لا يوصل إلى معرفة فضله وجلالة قدره إلا بالعلم ، كما لا يجهل شرف مكانه وعلوّ شأنه إلا أهل الجهل ، لقصور أفهامهم عن عظيم منافعه وكريم مواقعه ، وهو اسم من أسماء الله عز وجل وصفة من صفاته — وهو عظيم فى نفسه وحامله عزيز فى قومه ، إن قال فكلامه مرفوع . وإن أمر فأمره مسموع فهو وسيلة لكل فضيلة وذريعة لكل شريعة . ونور زاهر لمن استضاء به ، وقوت هنىء لمن تقوّت به ، ترتاح به الأنفس إذا هو غذّاها وتفرح به الأفئدة إذا هو قواها ، والدليل على الخير ، والعون على المروءة والصاحب فى الغربة ، والمؤنس فى الخلوة والشرف فى النسب ـ قال

الله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات) وقال سبحانه وتعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) وقال عليه الصلاة والسلام (اطلب العلم من المهد إلى اللحد) وقال أيضاً « كونوا للعلم وُعاة ولا تكونوا له رُواة » وقال أيضاً (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » — بخلاف الجهل فانه رأس الفضائح ومعدن القبائح . ومضمار العثار . ومعيار الشنار . وسبب الخمول . ودليل التخلف وداعية المقت — إن نطق صاحبه تعرّض للخزى والذم وإن تصرف صاحبه فى حال سقط لليدين والفم ، وهو دليل على غلظ الطبع وجمود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكدر النفس وقد عصم الله تعالى منه أنبياءه وحذر منه أولياءه فقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال عليه الصلاة والسلام (لا فقر أشد من الجهل) وقال أيضاً « الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما » وقال ابن المعتز نعمة الجاهل كروضة على مزبلة

وبالجملة فالعلوم كثيرة ، والمعارف جمة ، وأنواعها مختلفة وبعضها أشرف من بعض والإحاطة بجميعها محال . فحينئذ يختار من العلم أرفعه ، ويستعمل منه أنفعه ، وما زال العلم من الانسان بمنزلة الروح من الجسد فكما يحيا الجسد بالروح كذلك يحيا صاحب العلم فى

الناس بعلمه

وقد أبان الله عز وجل فضل العلم عن الجهل بقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وسئل رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال (فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلاً)

وقال المسيح بن مريم عليه السلام عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما وعالجت الجاهل فأعيانى — ألم تر أن الإنسان بالعلم استخدم أنواع الموجودات وانتفع بأصناف الكائنات . وأظهر غرائب الأعمال . وأخضع شوامخ الأثقال وطار على البخار . واختصر مطولات البحار والقفار . واستخدم البرق رسول أخباره . والنور مصوّر آثاره . وجعل الكون بأجمعه تحت طوعه . ومادة فكره وصنعه . فاستنبط واستخرج واستظهر واستنتج . وأبدع وصوّر وأحكم وقدّر . وبدّل وغير . وأمسك وطير . وحلل وركب وأحضر وغيب وبخر وصعد . وجسم وشكل . واختصر وطول وصعب وسهل وأكثر وقلل

فالعلم هو الكنز الذى يقنى . والثروة التى لا تنفد ولا تفنى

أجل مايبتغى دوماً ويكتسب ويقتنى من حلى الدنيا وينتخب
علم شريف عميم النفع قد رفعت لمن يزاوله بين الملا رتب

إن عاش عاش سعيداً سائداً أبداً لا يستضام ولا يشنا فيجتنب
وإن يمت فثناء شائع حسن وبعده رحمة ترجى وترتقب

فبالعلم تستنير الأفكار وتبصر الأبصار. وتظهر الأسرار وتسمو المقاصد. وتصفو الموارد . وبه ارتقى الإنسان ونجح، وكدّ وكدح وأدلى ومتح وأخذ ومنح . وغرس وفلح، وطار وسبح . فما العلم إلا كمال الإنسان. وحلية العقول والأذهان، وسور الشرائع والأديان

١٠ — ﴿المسلم مَنْ سلم المسلمون من يده ولسانه﴾

هذا الحديث النبوى من جوامع الكلم ونوابغ الحكم أفاد أن المسلم الذى يعتدّ باسلامه (بحيث يكون سبيلاً لصلاح دينه ودنياه) هو من لا يصدر عنه أذى ولا سوء لأحد بقول ولا فعل ومن لا يصدر عنه السوء والأذى فانما يصدر عنه الخير والنفع ضرورة أن الإنسان إما نافع أو ضار فنفى أحد الوصفين عنه يستلزم ثبوت الآخر له

إذا أنت لم تنفع فضرّ فانما يرجَّى الفتى كيما يضرّ وينفع

فمن لم يكن له من اسلامه مايمنعه عن أذى إخوانه فهو جدير أن لا يسمى مسلماً فضلاً عما يلحقه من المذام — وآثر اليد واللسان بالذكر لكونهما أقوى آلات الجسم وأكثرها نفوذاً فى الأعمال ولما كانت آلات البدن خادمة للإرادة منفذة لأوامرها فأينما

وجهتها توجهت كان الإنسان عبارة عن قوتين احداهما آمرة والأخرى مأمورة ، فالآمرة معنوية لطيفة لا ترى لها عملاً وان كنا نشعر بها بخلاف المأمورة فان أعمالها مرئية محسوسة — مثلاً إذا تذكرت أن لك صديقاً تود أن تزوره فانك تجد من ذلك فى نفسك تأثراً وانفعالاً يبعث أعضاءك على السعى إلى ذلك الصديق لزيارته ، فهذا الانفعال الذى وجدته ليس شيئاً محسوساً بل الذى تحس به حركة أعضائك فى السعى اليه — ومعلوم ان الارادة النفسية هى كغيرها من اللطائف المودعة فى الانسان ساذجة فى مبدإ نشأتها قاصرة عن الجولان فى الأشياء فهى لذلك محتاجة لأن تربى حتى لا تأمر الا بما ينفع ، ولا تمضى الا فى ما ينبغى المضى فيه ، ولو تركت على سذاجتها وقصورها لم تهتد إلى ذلك إذ هى قوة روحانية والقوة الإرادية كأنها محصلة لعدة قوى كلها مثلها فى أنها خلقية فى الانسان ، أو تتولد فيه بالاختلاط والتدريب

وبالجملة كان نبينا صلى الله عليه وسلم يتفرس فى أحوال الناس ويرى من أمراض قلوبهم وآفات نفوسهم ما لا يرون هم من أنفسهم فيرشد الانسان الى ما يراه انجع فى علاجه ويصف له دواء دائه فقط مع الرفق والتلطف به

١١ — ﴿ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ﴾

خلق الحق سبحانه وتعالى الانسان وَقوَّمه فى أحسن تقويم وجعل له فضلاً على سائر المخلوقات فى نفسه وجسمه

أما فضله فى نفسه فبالقوة المفكرة التى بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأى . وأما فى جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما أوجد فى هذا العالم ، وأما بالنسبة لقواه الجسمية فهو فيها أقل من كثير من الحيوانات — وأما القوى العقلية فهو متفرد بها ، ولذا كان له السلطان العام والتصرف التام فى كل ماأوجد فى هذا العالم فلا تغادر أوامره مايطير فى جو السماء ، ولا ما يسبح فى لجج الماء ، ولا ما يدبّ على وجه البسيطة ، ولا ما استكنَّ فيها

ثم ان الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة فى جدار — ما فضله الا العقل واللسان

فمن صرف همته كلها إلى تربية الفكر بالعلم والعمل فجدير بأن يسمى إنساناً ومن دعته وحكمت عليه نفسه الشريرة بصرف همته إلى تربية القوة الشهوية التى تعود منفعتها على الجسم — فحقيق بأن يلحق

بأفق البهائم (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل)

ثم إن الحكيم العليم جلت قدرته حكم على الانسان بالسعى والعمل للحصول على ما به يقوم وجوده ويطيب عيشه ، ويدفع عنه عوادى الحوادث

ولما حكم سبحانه وتعالى على تلك المقوّمات بالخفاء تحت أستار حكمه وجب على الانسان أن يستخدم عقله وأعماله الجسمية فى كشف الغطاء عن تلك المقوّمات فينتفع بها فى قوام حياته ودوام لذاته ويحصل ما به تزجية المعاش له ولغيره لاجل بقاء بنى نوعه

ولما عرف أنه غير قادر على الوصول إلى تلك الغاية بنفسه بل لا بد من وسائط توصله إلى ما استكن تحت طىّ الفكر عمد إلى استعمال القوة العاقلة واستمال الخليقة واستعان بها فتوصل إلى ما كمن بفكرته ، وأخضع بعض العوالم لخدمته ، فنال مقصوده وحصل على مرغوبه

ومن البحث والتنقيب وأعمال الفكر وقياس المجهول على المعلوم انكشف له ما انكشف ـ لأنه كلما ارتقى فى معارج التمدين والحضارة تزداد رغبته فى استجلاء غوامض الأمور واستطلاع حقائقها وما استتر تحت حجب الحكمة فهو إلى الآن مجد فى طلبه كثير السعي والاجتهاد فى استخراج غوامض أسراره وهذا

مصداق قوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) وحيث قصد الانسان إفراغ عمل نافع يلزمه أن يتفرغ له بقلبه وقالبه ، وذلك لأجل أن لا تتوزع قواه إلى غيره فيطول زمن العمل بل ربما تسارع إلى العامل الملل والكسل ، ويدخل فى العمل الخلل ، وحينئذ يتعوّد الانسان الضجر والكسل ويميل إلى حب الراحة والهوينا فلم يؤد حقاً ولم يصبر على عمل ولم يتوصل الا إلى الفقر والفاقة كما قيل

رأيت التوانى زوّج العجز بنته وساق اليها حين زوجها مهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتّكى رويدكما لا شك أن تلدا فقرا

فمن ترك العمل ، أو وعمل لم يتقن ، عاد وبال ضرره على نفسه وعلى الهيئة الانسانية لانه عضو منها ، وكل عضو ترك ما لأجله أوجد يبطل نفعه ـ فحق الانسان أن لا يذهب عامة أوقاته الا فى اصلاح أمر دينه ودنياه وفى موصلاته إلى غاياته وذلك لا يكون الا بالعمل وإتقانه لتتم الفائدة ويعم النفع ويرضى الخالق عليه

ولما كان عمر الانسان ولو طال كزيارة ضيف. أوسحابة صيف ولا يعلم فى أى وقت يكون منتهاه . ولا مبلغ مداه . لزمه فى كل لحظة من لحظات الحياة . أن يقرن عمله بتذكار لقاء مولاه . فانه هو الذى منحه القوّة والقدرة على العمل والتمتع بنتيجة ما أتمه ونواه . فيعمل عمله

الدنيوى . مع ملاحظـة أمره الأخروى وبذلك يكون فى الزمن الواحد قد عمل عملين وفاز بمرتبتين فيـكون فى الدنيا منعما بمحاسن أعماله المأثورة وبعد موته بحسن السيرة

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا * وأقبح الـكفر والإفلاس بالرجل

وهذه مرتبة عالية ومنقبة سامية لاينالها إلا الذين صرفوا أوقاتهم فى تهذيب النفس وتربية العقل فتخلوا عما يشين من الرذائل وتحلوا بما يزين من الفضائل

١٢ — ﴿ فوائد تعميم المنافع ﴾

(لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

هى ولا مداجاة فى الحق قوام العمران . وسرّ نظام الاجتماع الانسانى وطريق تقدم المدنية لاتقوم بدونها سعادة ولا تتم مع عدمها حضارة — ترتقى الأمم بتمسك أفرادها بها ، وتنحط بإعراضهم عنها أرأيت لو أهمل الانسان جانبها وصرف عنان عنايته عنها مكتفياً بالاشتغال بمصلحته الذاتية ومنفعتـه الشخصيـة لايهمه غير نفسـه ولا يعنيه سوى أمره ان سلم فعلى الدنيا السلام أو مرض فلا برئ أحد من الأنام ، هل تبقى بين الناس صلات ، أو يقوم اتحادها على عمل مفيد ومشروع حميد ؛ هل يمكن ان يكون لأمة جند منظم يردّ عنها طوارئ الأعداء ويبـذل روحه فى مواقف الـكفاح صونا

لشرفها وحياطة لحوزتها ويفتتح لها البلدان ويقوم بكبح جماح أهل العصيان طلباً لتأييد منعتها وتقوية شوكتها وإعلاء كلمتها لولم تكن قلوبهم مُشرّبة حب المنفعة العمومية ، قال عليه الصلاة والسلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

أم هل يمكن أن يكون لها من أمرائها ووزرائها ومجالس نُوّابها سياسة يدبّرون أمرها ويرفعون قدرها يجهدون أفكارهم في تحسين مستقبلها ويكدحون في توسيع نطاقها مع أنهم يتيقنون أنهم ربما لن يتمتعوا باجتناء ثمار تدبيرهم لبُعد أجله عنهم وكان يمكنهم لوكانت المنفعة الشخصية عنايتهم أن يتفرّغوا لادارتهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وإدراك أوطارهم — ولا سيما أصحاب الثروة الواسعة منهم

أم هل يمكن إذا لم تكن للمنفعة العامة حقيقة تقصد أن تعانى العلماء مشاق الأسفار وتقتحم الأخطار فى البحث على أثر يشاهدونه أو خبر يروونه أوعلاج يجرّبونه أو مظنون يحققونه ، وقد يتوقعون على أموالهم وأنفسهم إتلافاً فى غضون أبحاثهم واختباراتهم ويقدمون بعد ذلك عليه طمعاً في حقيقة تنكشف للخالفين ومخبوء يظهر للتالين

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وبالجملة حب المنفعة العمومية رأس الفضائل وأسُّ الخلال الحميدة ولو رُبِّىَ الناشئون منا عليه وتعوّدوه من الصغر لما تعاقبت علينا

الصروف الفادحة وألمت بنا النوائب الموهنة التى منها انتشار السرقة فى البلاد والعبث بين العباد ، ومنها ظهور داء الرشوة ، ومنها التكاسل فى الأعمال الخطيرة والتهاون فى الأمور العظيمة وتفرّق قلوب الرجال وذهاب كل فى مجال وفقد عروة الارتباط وسوء الادارة كل ذلك لم ينشأ إلا من حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها

ولو أنى حُبِيتُ الُخلد فرداً　　لمَا أحببتُ بالخلد انفرادا
فلا هطلت علىّ ولا بأرضى　　سحائب ليس تنتظم البلادا

فالمرء المشغف بذاته . العامل على لذاته . أىُّ مجد له إذا لم تتعد آثاره ، وأي خير فيه إذا اقتصرت مزاياه على نفسه ولم ينتفع به بنو جنسه ، وأى فضل له فى حبس آثاره فى صحن داره

إذا ما قضيتم ليلكم بمنامكم　　وأفنيتمو أيامكم بمدام
فمن ذاالذى يغشا كمو فى ملمة　　ومن ذا الذى يلقا كمو بسلام

فاذا أوتى المرء حكمة لقمان وفصاحة داود ومال قارون وجمال يوسف وقوة عوج وعمر نوح ولم يشركه فى هذه النعم أحد ، فأى فائدة للدنيا من وجوده ، وأى ذكر له يبقى له بعد مماته

خلقوا وما خلقوا لمكرمة　　فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد　　فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فمن جعل غايته مصلحته الذاتية ثارت فيه الشرور وهاجت عنده

الشهوات، وإنما تستتر عن العيون بستار العجز، وحجاب الضعف بخلاف من اتجه وجهة المنفعة العامة فان الفضائل تمتزج بلحمه ودمه ويحلو له مصافحة الحسنات ومكافحة السيئات ولو نافرته الأيام وعانده الزمان «وكل ميسر لما خلق له»

١٣ — ﴿ لكل امرىء من دهره ما تعودا ﴾

وينشأ ناشىء الفتيان منّا على ما كان عوّده أبوه

من المعلوم أن الطفل يولد مجرداً من كل الوسائل خالياً عن معرفة الأشياء عديم البصيرة، فارغ السريرة عارياً عن الوظائف العقلية لا يرى إلا ما يقع عليه بصره ولا يشعر إلا بما يؤثر في جسمه ولا يسمع ضوضاء العالم ولا ينظر إلى أشباح الكائنات إلا بمرآة خيالية، وهو حينئذ محاط من أهله بالشفقة والحنان فيربو جسمه وتنمو قواه حتى يستقبل الحياة الانسانية وتنتشر فيه مبادىء القوّة العقلية فينظر إلى العالم فيراه مشهداً غريب الأحوال، ومرسحاً تلعب فيه الآمال، فتشمله شمول هذا الظهور وتلعب برأسه نشوة تلك الأمور فيبيت بها مشغوفاً ويصبح اليها ملهوفاً ـ فان لم توجّه قواه من مبدإ هذا الظهور الذى يكون فيه كقطعة الشمع المرنة القابلة إفراغها في أى قالب، وتشكيلها بأية صورة إلى وجهة حسنة وغاية نافعة استعملها كيفما توجهه بهيمته، فينشأ هائماً فى مفازة العمر، حائراً لا

يلبث حتى يرى نفسه قائماً فى وسط هذه الدنيا مغموراً بأمواج هذا العالم تلطمه ضرباته وتأخذه ضجاته مع تزاحم حاجاته وتوالى حسراته فيندفع بخيالاته الكاذبة إلى مطامع خاسرة خائبة ، ويصير مضغة بين أضراس الأمانى الخاطئة ومسقطاً لنوائب الزمان ، فيمكث يصارع الحال ، ويأسف على الماضى ويرتعد من المستقبل — ولو وجه أهله قواه من أول نشأته على التدريج إلى سبيل نفعه ونفعهم ونفع وطنهم لسار من مبدإ أمره فى هذه الطريق المفيدة حتى يعتاد الأعمال النافعة ، ويصير عضواً عاملاً فى أمته ، فيعيش وقد حصل على مزايا نفعه ، وعلم خاصة نفسه ، فينظر فى أفراد الكائنات نظر حكمة وتدبير . ويسعى خلف اجتناء ثمراتها ، حتى يمد عليها ظلال رايته ويخضع الصعاب تحت رياسته ، ويسعى فى طرق المكاسب فيحسن لديه المسعى ، ويطيب له المربع وما ذلك إلا لتربيته وتعويده من مبدإ نشأته سلوك طرق المنفعة والخير ـ فالمرء ابن عادته (ولكل امرىء من دهره ماتعوّدا) ومن شبّ على شىء شاب عليه ـ ألا ترى أن أولاد الفلاحين بتعويدهم مباشرة الأعمال ومعاناة الكدّ ينشؤون مولعين بفلح الأرض وزراعتها والعمل فيها كآبائهم ، وكذلك الكاتب والخياط ـ وغيرهم

وبالجملة : الطفل يشبّ ويكبر على الشكل الذى أُفرغ فى قالبه

والصورة التى منحها له أهله : والمادة التى صادفها فى طريق تربيته ـ ان خيراً فخير ـ وإن شراً فشر

والابن ينشأ على ما كان والده ان الأصول عليها ينبت الشجر

فيجب على الآباء وولاة أمور الأحداث أن يقوموا بتربيتهم وتعليمهم على الوجه الأكمل حتى يخرجوا من ربقة السؤال ويسلموا من تبعة التقصير وتوجه الإثم اليهم لو أهملوهم من ذلك وهم تحت تصرفهم وفى رعايتهم و (كل راع مسئول عن رعيته) فضلاً عن أن يكونوا لهم عوناً على المعيشة ونوال السعادة وأثراً حسناً يذكرون به ، ونعمة جليلة يغبطون عليها

نِعَم الإله على العباد كثيرة وأجلّهن نجابة الأولاد

وقال آخر

لكل امرىء فى الخير والشر عادة وكل امرىء جار على ما تعوّدا

ولو سلكت كل عائلة ذلك المنهج القويم . وقامت بحقوق التربية والتعليم . لم تلبث أن تؤلف أمة سامية القدر . جليلة الذكر . لا يشقّ غبارها . ولا يضام جوارها . ولا يقوم لها عنيت . ولا يسطو عليها إصليت . بل ينهض بها الوفاق . وينحط دونها الشقاق . وتكون أسّ حضارة . ورأس عمارة ـ ومن نظر إلى الأمم وتأمل أحوالها وعلم مبدأها ومآلها ، يرى العجب العجاب فى التقدم والانقلاب

نشأ ذلك من اعتنائهم بالتربية ، فنرى كثيراً من الأمم حلّوا أرضاً مجدبة قحلة ومفاوز يابسة محلة . بتربيتهم وعلمهم وحسن تدبيرهم وجودة تصرفهم أصبحت لهم جنة مثمرة . وروضة مزهرة . وأغدقت عليهم بصنوف النعم . وأظهرت شأنهم بين الأمم . حتى عوّضوا الكهوف بالقصور . والكلأ بالزهور . والجلود بالحرير والحصباء بالسرير . إلى غير ذلك من أنواع التقدم والرفاهية

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ... ويهديهم عند الفساد إذا فسد
يعظم فى الدنيا لفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

فيجب علينا معشر الأمة المصرية أن نباريهم ونبذل أنفس مالدينا حتى نجدّد شرفنا التالد ، ونجلب حظنا الشارد ، ويستقيم الأود وتصلح البلد

فلله الحمد ها هى المدارس قد قام سوقها وانتظم سيرها وأحكم أمرها مفتّحة أبوابها مستوفاة أسبابها تنادى طالبيها وتمنح محبيها

١٤ ـ ﴿ فوائد المدارس ﴾

المدرسة دار التربية والتأديب والتمدين والتهذيب تصلح شأن المرء بما يتلقاه فيها من المعارف وما يكتسبه فيها من العلوم المفيدة التى تجعل عنده استعداداً لأن يكون فى المستقبل رجلاً قادراً على القيام بما يوصله إلى مطلوبه من الواجبات أحسن قيام وتبُثّ فى روحه

حب الوطن وأهله وتزيد عنده قوة الإدراك وتربى له العقل وتجعل عنده من الخصال أحسنها ومن اللطائف أحمدها وترشده إلى الطريقة التي يجب اتباعها والوسائط التي ينبغى اتخاذها للحصول على الشرف والكمال ومستقبل الآمال

وبالجملة فالمدرسة مطلع شموس العلوم والمعارف ومشرق أنوار الفوز والسعادة ترضع الناشىء فوائد الأدب من صغره وتقوّم مااعوجّ من أخلاقه وعاداته حتي ينشأ كاملاً مهذباً عالماً بحقوقه عارفاً مايجب له وعليه وتعدّ له مستقبلاً يضمن له الرفاهية والسعادة وتصونه من طوارىء العلل والآفات وتحفظه من أسباب الأمراض والعاهات وتعلمه كيف يطلب الثروة من حسن مواردها وأشرف طرقها وتهديه إلى الطريق الذى يرقى به أوج الكمال

١٥ ـ ﴿ فوائد المعارض العمومية ﴾

المعرض مدرسة رجال التجارة وأرباب الصناعة فيه تخلع الناس ثياب الكسل، وتتزين بحلل الجد والعمل، فهو ميدان تتسابق فيه الصناع وتتنافس فيه الزرّاع فيشمر كل منهم عن ساعد الجدّ والعزم ويطلق عنان العناية والحزم. فيه تعرض نتائج الآراء السديدة والأفكار المفيدة ـ فمن حاز قصب السبق فى هذا الميدان يمنح وساماً دلالة بشرفه وعلامة بنشر اجتهاده وتنشيطاً له وتنافساً لغيره فكل يتسابق فى إتقان

عمله وإبراز مخترعه وإظهار ما اكتشفه من الآثار وما جناه من الثمار

تلك آثارنا تدل علينـا　　　فانظروا بعدنا إلى الآثار

فبذلك يكون الإنسان أدى ماخلق لأجله وهو العمـل وطرح التقاعد والكسل . فاذا نظرنا إلى معرض باريس وما احتوى عليه من الصنائع المتنوعة والفنون المختلفة التى تدهش الأبصار وتحتار فى كيفيتها الأفكار نستدلُّ دلالة واضحة على تمدين الأمم الأوربيّة واتساع دائرة علومها وصنائعها وزيادة ثروتها

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم　　　إن التشبه بالرجال فلاح

فالمعرض مدرسة علمية صناعية تجارية زراعية لجميع الأمم ومصباح يستضاء به فى تقدم الصنائع والفنون ومفتاح به تظهر جميع الخبايا ودقائق المعقول والمنطوق فهو ميدان تتسابق فيه الأفهام وتتجلى فيه كفاءة الرجال ، والرجال بالأعمال

وبالجملة فالمعارض مظاهر أعمال الأمم وبراهين تفاوت الهمم ومشارق أنوار الاختراع ومجمع أحاسن المصنوعات ونظام نفائس المبتكرات وتختلف باختلاف الممالك ، وتباين حاجاتهم وحاصلاتهم ، ومبلغ علومهم وقوة مداركهم وميلهم إلى جليل الأعمال وعظيم الآمال

١٥ — ﴿أى الأمرين أكثر نفعاً للمتعلم﴾
(أتعليمه بالرغبة أم تعليمه بالرهبة)

لا خلاف فى أن الطباع ليست سواء فى أفراد النوع الإنسانى فهذا حاد الذكاء، سهل الانقياد، شغوفٌ بالتحصيل، لا يطلب سوى هديه إلى طريق التحصيل والتهذيب، إلا أنه لا ينبغى إرسال لجامه كيلا ينتج قبل أوانه فتضعف قواه فيما بعد

وذاك يكون حاد الذكاء : ولكنه بطىء . وهذا لا يلزمه سوى استعمال المهماز وحثّه على صرف الجهد

وآخر يكون حاد الذكاء مشغوفاً بالتحصيل ولكنه عنيد صعب المراس فيؤخذ بتلطيف طباعه وتهذيب أخلاقه

وآخر يكون سهل الانقياد شغوفاً بالتحصيل ولكنه كاسد الفكر بطىء الفهم — وهذا يحتاج إلى رقة المعاملة والتنهيض تارة والمساعدة أخرى كيلا يضعف جأشه أو ينبعث يأسه فيقعد الدهر ملوماً محسوراً ـ وربما وصل إلى الغاية المطلوبة

وآخر يكون كاسد الفكر بطىء الفهم كسولاً عن العمل وهذا يمكن تقويمه مع الصبر وتوالى الزمن .

وآخر يكون مع كسادة فكره وبلادة فهمه خبيث الطبع شرير النفس ـ ومثل هذا لا ينبغى اليأس منه بادىء بدء بل يحسن

أخذه بالإصلاح والتقويم والتهذيب إلى أن تضيع فيه الحيل

ومرتبة الاضطرار والرهبة ـ ومرتبة الاختيار والرغبة : تختلف باختلاف استمداد القوى العقلية .

فالنفس مجبولة على شيم مهملة . وأخلاق مرسلة ، لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضىٍّ منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضداداً مقابلة يسعدها هوى مطاع ، وشهوة غالبة فان من أغفل تربيتها تفويضاً إلى العقل . أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين ، وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا ، لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة . ولكل قوم مواضعة وذلك لاينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد إلى الطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة وبالدربة والمعاطاة : ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلماً

وان أوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى فان الناشىء بجوهرة خُلق قابلا للخير والشر جميعاً : وانما أبواه يميلان به إلى حد الجانبين

قال بعض الحكماء (اقذعوا ـ ادفعوا ـ نفوس أبنائكم فانها طلعة وحادثوها بالحكمة فانها سريعة الدثور فانكم إذا لم ترعوها تنزع بهم إلى شر غاية) وهذه مرتبة الاضطرار والرهبة . بخلاف

مرتبة الاختيار والرغبة ففيها تقوى إرادة الناشىء بحكمة ما حصل عليه من التجارب والتأمل فى الأسباب والنتائج ، فيرى أن اضطراره إلى طاعة البواعث النفسية والجسمية قد صار اختياريا

وبالجملة يحسن بالمعلم أن يتعرف كل ناشىء ليعلم أطباعه وأخلاقه واستعداداته الجسمية والعقلية كي يعامله بحسبها فلا يعامل الكل باللطف ، كما لا يسوق الجميع بعصى الخشونة . فان منهم من تصلحه القساوة ، بينما الآخر يصلحه المعروف . ومن ينفعه الاحسان بينما يسوء الآخر ، ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج إلى العصا كما قيل

البعض يضرب بالعصا والبعض تكفيه الاشارة

ومنهم من يسوقه المهماز بينما الآخر يلزمه اللجام

ولكن التعلم بالرغبة المبنية على أساس متين من العظمة العالية والحكمة البالغة أولى وأفيد من التعليم بالرهبة التى لا تجلب إلا الخبل والقنوط والملل بل تورث الخوف والجبن وتعوّد الناشىء على العمل فى الجهر ، والكسل فى السرّ ـ فاذاً سياسية الرفق واللطف قد تفعل ما لا تفعله سياسة الشدّة والعنف ، ومن لم يكن له من نفسه زاجر ـ فهيهات ان تؤثر فيه الزواجر

١٧ ـ ﴿ ما هى الحاجة الماسة إلى بناء المستشفيات للفقراء ﴾

الانسان فى هذه الدنيا عرضة للامراض والعلل : غير أن الناس

منهم الغنىّ والفقير . فالغنىّ بماله من الثروة قادر على دواء نفسه متى شعر بألم فى جسمه فهو يحضر من أمهر الأطباء وأحذقهم من يرجو الشفاء على يديه : أما الفقير فان المرض إذا ألمّ به لم يجد ما ينفقه على دوائه وشفائه ، فيمكث أسير الأدواء حليف العلل : لا جهلا بالطب وفوائده ، ولكن خلت يداه وأعوزته الحاجة وقعد به الدهر عن ذلك ـ لهذا تدعو الشفقة والانسانية أن يقوم أغنياء الأمة وحكومتها بانشاء المستشفيات لهذه الطبقة يلجأ إليها مريضهم فيمدّ بالدواء ومساعدة الأطباء

ولقد اعتنت الحكومات المتمدينة بالحيوان الأعجم وعرفت الحاجة إلى إنشاء جمعيات للرفق به ـ وحينئذ الانسان أولى بهذه الشفقة وأحق بتلك المرحمة ـ ولا يخفى أن الفقراء هم السواد الاعظم من الامة فتى اعتنت بهم ولاحظتهم فى أمراضهم كثر أفرادها وصارت مهيبة قوية . على أن الاغنياء فى أشدّ الحاجة إلى هؤلاء الناس أهل البؤس والفاقة ، فهم القائمون بالاعمال العظيمة التى لا يباشرها الغنى بنفسه ـ كيف لا وإن لبناء هذه المستشفيات أكبر فائدة وهى منع انتشار العدوى بين أفراد الناس : فليخش الأغنياء من ذلك وليعلموا أن فى أموالهم حقا للفقراء والبؤساء فيجب السعى فى إزالة ما يعتريهم من الامراض والآلام التى تذهب

بحياتهم . واحترام هؤلاء الاقوياء فى جسم الهيئة الاجتماعية وجلب الصحة اليهم حتى تكتسب البلاد منهم حياة جديدة وقوة عظيمة بفضل ساعدهم وتحملهم المشاق ومثابرتهم على العمل حتى إذا أصيب أحدهم بمرض لايبيت يتقلب على فراش الشقاء بين أولاده وأهله الضعفاء بعد أن كان يواصل ليله بنهاره فى الجدّ والعمل ليصون نفسه عن ذلّ السؤال

وبالجملة فالمستشفيات من أهم ما تحتاج اليه الامم لحفظ صحة أفرادها من غوائل الامراض وطوارىء العلل المعرض اليها الانسان بطبيعة جسمه وحوادث الجوّ فهى التى حفظت النفوس فى أجسامها وردت جيوش الادواء على أعقابها كيف لا وقد ثبت (أن صحة الابدان مقدمة على صحة الأديان) وفى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (داووا مرضاكم بالصدقة) وقال أيضا (اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا) وان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا

١٨ ـ ﴿ الجبال وفوائدها ﴾

الجبال هى تلك الأجرام والأجسام الشامخة التى لها أعظم منّة وأكبر نعمة على الانسان فى كل زمان ومكان فهى التى يتخذ منها مواد البناء على اختلاف أنواعها فتشيد منها المنازل والقصور

التي تقينا قيظ الحر وزمهرير البرد ويتخذ منها بناء القلاع والحصون التي بها ندافع عن أوطاننا وأنفسنا وأولادنا وأموالنا وأعراضنا بل هي قد تكون فى الواقع الحدود الطبيعية أو الحصون المنيعة للبلاد المحاطة بها الحافظة لاستقلالها كجبال الحبشة فى إفريقيا وسويسرة فى أوروبا

وهى التي تستخرج منها المعادن الثمينة كالحديد والنحاس والقصدير ونحوها من الجواهر ذات القيم الكبيرة التي نقلت الإنسان من الأعصر الهمجية إلى نور العرفان والاستكشاف والاختراع فكلما تقدَّمت الأمم فى الحضارة والمدنية كانت الحاجة ماسة في عدم الاستغناء عن منفعة تلك الجبال التى لها أيضاً دخل عظيم فى تحسين حالة الجو وفى تنظيم انحدار المياه من قممها وفوقها بقوّة فى المجارى والانهار . فنشأ إحياء موات الأراضى وريّ الشراقى منها فأخصبت وأصلحت البلاد وأروت العباد . على أنها واقيات للارض من طغيان البحار عليها . قال تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم ـ والجبال أوتاداً) وقال تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتاً)

وبالجملة خلق الله سبحانه وتعالى الجبال لمنافع وفوائد متعدّدة لا يحيط بجميعها إلا هو . فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماء ليحيي به العباد والبلاد وجعل الجبال لتستقر فى بطونها المياه ويخرج أولا فأولاً بقدر معلوم . ومن الجبال ما ليس فى باطنها محل

للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس فيكون منه أنهاراً « صنع الله الذى أتقن كل شىء »

ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع العشب والعقاقير التي لا توجد إلا فيها ، وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن ، وما ينبت فيها من مزارع للانعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل

ومن فوائدها أن جعلت أعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات فى نواحي الأرض ، ويستدلُّ بها المسافرون فى البحار على المدن والسواحل

ومن فوائدها أن الفئة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا نطيقه تتَّخذ عليهم ما يحصنهم ويؤمّنهم ويمنع عنها من تخافه فتطمئن لذلك

١٩ — ﴿ البراكين والزلازل ﴾

ان جوف الأرض حارٌّ بطبيعته : فاذا حفر الانسان وجد الحرارة تزداد — وهكذا كلما نزل إلى أسفل حتى إذا وصل الى عمق بعيد ألفى حرارة كافية لتبخير المياه بسرعة مدهشة . فان صادف هذا البخار أرضاً سهلة تصاعد من مسامها بدون أن تحدث براكين ولا تفجر ـ وان صادف جبالاً فلا يسعه إلا أن يخترق تلك الصخور العظيمة القاسية ويتخذ معه ما يجده فى سبيله من طبقات الأرض

كالحديد والكبريت والنحاس والقصدير ونحوها ويقذفه للناس ينتفعون به : وهذا مشاهد كثيراً فى الجبال التى على شواطىء البحار والمحيطات ، أو القريبة منها كشواطىء آسيا الشرقية وأمريكا الغربية وجزر اليابان وجزيرة اسلنده وكثير من بلاد فى أوربا — ومن المعلوم أن الأرض طبقات بعضها فوق بعض وكلها تسمح للمياه بأن تتخللها فتدخل فيها فتبخرها الحرارة ، والبخار من طبعه يتصاعد ولكنما الجبال تمنعه فيتراكم تحتها ويتزايد وهو شديد وخصوصاً عند مايمتزج مع ما يقابله مما فى جوف الأرض فيحدث الانفجار في باطنها على أثر تراكم تلك الأبخرة المائية بدرجة تمدد عظيمة فينشأ عنه انكماش الطبقة السطحية : وتتدحرج الصخور التى فى باطنها بعضها على بعض فيحدث من انفصال أجزاء الجبل بعضها من بعض تمزق ورجة عظيمة واضطراب لسطح الأرض يشعر به غالب العالم لأن القارات يتصل بعضها ببعض . وكذا الجزائر بواسطة سلاسل عظيمة تخترق البحار والمحيطات

وهذا الاهتزاز هو الزلازل التى تنشأ غالباً من البراكين : وقد لاينشأ من ذلك كجهات الألب — وكما تحدث الزلازل براً تحدث بحراً ويحصل لمائه مدّ فيغرق البلدان ويدمرها وتعلو أمواجه نحو خمسين متراً فيحدث ما تقشعر له الأبدان ولا يخفّ سمعه على الآذان

وبالجملة أن سبب اشتعال البراكين نفوذ الماء الذى على سطح الأرض إلى المواد التى فى جوف الأرض فيولد مقدراً من البخار فيدفع مايكون أمامه بقوّة غريبة . وبعض هذه البراكين هائج أبداً كبركان استرمبولى الذى يبلغ ارتفاعه ٢١٧٥ قدماً . وبعضها يهيج أحيانا وأحيانا يسكن كبركان فيزوف بالقرب من نابولى وفى العالم ستمائة واثنان وسبعون جبلاً ناريًا تتولد منها البراكين وتنشأ لأجلها الزلازل التى يخوف الله بها عباده فى مشارق الأرض ومغاربها

٢٠ — ﴿أبو مسلم الخراسانى﴾

هو عبد الرحمن بن سالم الخُراسانى ، مقيم الدولة العباسية ، ومبيد الدولة الأموية ، وُلد بقرية (ماوانه من قرى خراسان سنة ١٠٠ للهجرة ، فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، ومات أبوه وهو حَدَث فتولى تربيته عيسى وإدريس ابنا مَعْقِل العِجْلى ، وأحبّهُ عيسى كولده لما عرفه من لقانته وأدبه ، فلما اعتُقِل عيسى بواسط بتهمة التشيُّع للعباسيين ، والدعوة للإمام محمد بن على العباسىّ . رأى أبو مسلم أن يكون قريبًا منه ليخدمه فى بعض شئونه فاشتغل خرّازاً بالكوفة وكان يختلف الى مُربيه فى (واسط)

ولما علم الدعاة للعباسيين صِلته بعيسى عادوا الى الإمام فوصفوا له حال أبي مسلم ، فطلبه من عيسى ، فأشخصه اليه ، ولما

رآه أعجبه سمتــه ورجا أن يــكون الفتح على يديه ، ثم مات الإمام محمد ، فاتصل بابنه ابراهيم ، وعليه تخرج فى الفقه والأدب والحديث وفصح فى العربية مجوّداً كأحسن أبنائها ، ثم أراد أن يوجه إلى خراسان زعيما الدعاة مع صغر سنه ، نخطبه فى وفد من وجوه خراسان ، خشية أن يعودوا فينفسوا على أبى مسلم منزلته فيفسد تدبيره : قال « إنى قد رأيت أن أولى الأمر هناك أبا مسلم لما جربت من عقله ، وبلوت من أمانته ، وأنا موجهه معكم فاسمعوا له وأطيعوا ، وقد رجوت أن يكون هو الذى يسوق لنا الملك فعاونوه وكاتفوه ، وانتهوا إلى رأيه »

ولما وصل إلى خراسان شمر الدعوة ، موصيا أصحابه بالتنكر والتزيّى بزى التجار ، فجاب البلاد سهلها وحزنها ، وكلما رحل من بلد أو كُورة ترك فيها نقيباً يحذو حذوه أمراً ونهياً ، وكان فى دعوته حذراً : أخوف ما يخافه أن تعلم به عيون الأمويين فيأخذوا عليه الطريق ، ولكن حزمه وكتمانه قد بلغاه ما أمل ، فاجتمع له خلق يسمعون قوله فيتبعونه ، ويرونه فيعظمونه ، حتى بلغ من حبهم إياه أن كانوا يتحالفون به فلا يحنثون ؟ ويذكرونه فلا يملون

ولما وثق بقوة أتباعه صدع بالدعوة فى مفنون (قرية قريبة من مرو) وفى ذلك الحين سمى بالامام إبراهيم ، فاعتقله مروان

آخر أمراء بنى أمية بحران ، ثم دس له السم فى السجن فقتله ، فاستشاط أبو مسلم ، وصمم على أخذ مرو وهى أكبر كور خراسان وقبل أن يهاجمها علم أن بين أميرها نصر بن سيار ، وهو من هو شجاعة وبأسا ، وبين جديع بن على المعروف بالكرمانى زعيم اليمانية فى خراسان تخاصما وتدابراً ، فرأى أن يضرب هذا بذاك ويدافع الحرب مستبقيا جيشه ، حتى إذا جازت حيلته قضى على الغالب ، أو أدخله فى أمره ، وقد تم له ما رأى ، فقتل الكرمانى واستأ من نصر حين رأى جنوداً أولى قوة وبأس شديد ، لا قبل له بها . ثم فر على غفلة من أبي مسلم في ولده وحاشيته ليلا .

ولما تم لأبى مسلم ملك خراسان وجه قواده غربا وجنوبا ليقتفوا أشياع بنى أمية ، وانتشر جنده ينتقصون ملكهم من أطرافه ، فتقابل قحطبة بن شبيب وأبو عون العكلى مع مروان على نهر الزاب فاقتتلوا وانهزم مروان إلى الشام ، ثم إلى مصر ، وتقفاه أبو عون حتي قتله بها — وبذلك أدال أبو مسلم دولة بنى أمية ، وأقام دولة بنى العباس

وكان أبو العباس السفاح وأخوه المنصور وأولاد عمهما على قد هربوا إلى الكوفة حينما قتل إبراهيم الامام ، واختفوا فى دار أبي سلمة الخلال ، فجاء أبو مسلم إليهم . بعد أن طهر خراسان من أتباع بنى أمية . ودخل عليهم معزيا مبايعا أبا العباس ، آخذا بيده

إلى مسجد الكوفة ليصلي بالناس ويخطبهم فيبايعوه بالخلافة

وتولى أبو مسلم خراسان عن السفاح ، فنظم شؤونها ، وعظمت مهابته ، حتى لم يتوجه لإخماد ثورة إلا انضم الثائرون اليه من غير أن يُصلت سيفاً أو يشرع رمحاً

مات السفاح فخرج عمه عبد الله بن عليّ على المنصور ، داعيًا لنفسه بالخلافة ، زاعما أن أبا العباس عهد اليه بها ، واستمال الناس حتى اجتمع له جند كالسيل ، فقال أبو جعفر لأبي مسلم : أيها الرجل إنما هو أنا أو أنت لهذه العظيمة ! فقال : بل أنا أيها الأمير ، وفصل في اثني عشر ألفًا من جند خراسان ، حتى إذا تراءى الجمعان انحاز إلى أبي مسلم من كان مع عم الخليفة ، وبقي وحده إلى أن استأمن أبا مسلم ، فأمنه وعفا عنه

وكلما تقدم الزمان بأبي مسلم حسنت أُحدوثته ، وطار في الآفاق صيته ، وشعر بعظمة وجلال لم يحرزهما خليفة ، من أجل ذلك توجس المنصور منه خيفة ، وقال في نفسه « إن من أقعد دولة كان أحد ملوكها ينطق بالكلمة في دمشق فيسمع صداها فيما بين الصين وجبال أطلس ، لجدير أن يسلبنا الخلافة ، ويقضي عليها في مهدها » واستشار بعض بطانته في أمره ، فأوغر صدره عليه ، وحذَّره غوائله

ولما استقدمه المنصور لمناظرته في شؤون الدولة ، أدرك أبو مسلم

نيته ، فأتمر أهل الرأى من قواده فى إجابة الخليفة . فأباها بعضهم خشية أن يُفتك به ، ورضيها آخرون على أن يحتاط ، ففصل أبو مسلم ببعض جنوده متمثلاً :

« ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام» !

ولما وصل إلى المنصور احتفى به ، وتلقاه بالأشراف وكبار القواد مترجلين ، حتى إذا ما اطمأن أبو مسلم ، وحسب الأمر لا يعدو البحث فى أمور الدولة ، بيّت له أبو جعفر ليأخذه بغتة ، وفى اليوم الثالث من قدومه أمر الخليفة حاجبه أن يجرد أبا مسلم من سيفه إذا استأذن عليه ، وأعدّ له كميناً خلف الستار .

دخل أبو مسلم بعد أن جرّد فالتقى الدهاء بالدهاء ، وتقابلت القوة بالقوة ، وظهر تنكُّر المنصور له ، فأيقن بالهلكة ، ثم تضرع واستكان ، وهو يقبل اليد والرجل ، وترجى البقاء ، مستشفعاً بسالف إحسانه ، ومشكور بلائه ، ولكن حمّ القضاء ، فصفق الخليفة ، وخرج الكمين ، فاخترطوه بسيوفهم ، وبضّعوه تبضيعاً ولفوه فى بساط ، ثم دفنوه برومية (مدائن كسرى على نهر دجلة) سنة ١٣٧ هـ

ولما بلغ منعاه جُندَه هاجُوا ، واستلوا السيوف ، واعتزموا الأخذ بثأر وليهم ، ولكن المنصور استرضاهم بالمال ، وأقنعهم بخيانة

أبى مسلم ، وفساد طويته ، فانصرفوا راضين .

وكان أبو مسلم جميلاً حسن التقاسيم ، قصيراً أسمر اللون ، نقىّ البشرة ، أحور العين ، عريض الجبهة ، كثيف الشعر ، طويل الظهر قصير الساق ، وكان شديد البطش والفتك ، يقتل بالظِّنة ، ويأخذ بالكلمة ، لايحفل بالحوادث الجسام ، تأتيه من أىّ النواحى ، أما الدهاء فقد بلغ فيه الغاية ، وحسبك منه أنه عمل للدولة العباسية وأقامها بين أسماع بنى أمية وأبصارهم ، يمر بهم فيحسبونه صديقا ووليا ، ومايمر بهم إلا ليُسَوِّىَ الطريق لأمته ، ويمهِّدها لدولته ، وهوجدير أن يفخر بما نال وأن يرفع الصوت بما قال .

«أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت عنه ملوك بنى مروان إذحشدوا»

فى أبيات مشهورة

ومن عجيب دهائه أنه لما وجدت الدعوة فى خراسان ، وظهرت المسوِّدة على بنى أمية ، حار مروان ، وطلب إلى شيخ الكتاب عبدالحميد أن يرسل إلى أبى مسلم كتابا يخلُب اللب ، علّه يتلهّى به ، فيفسدَ صنيعه ، ويحبَطَ عمله . فمضى عبد الحميد يكتب حتى سَطر وَقر بعير وأنفذه إلى أبى مسلم ، فأدرك الحيلة ، وتسلّم الكتاب فمزقه ، وكتب على جُذاذة منه

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب!

ولعل لنشأته مع الدعاة المتكتمين ، وصلته بالأئمة المستترين ، أثرا في دهائه وتكتمه ، حتى بلغ ما بلغ

وكان أبو مسلم كبير النفس أبيا طموحا إلى المعالي ، يرى السعادة في نيل السلطان ، قيل له ما السرور ؟ قال « ركوب المهالجة وقتل الجبابرة ، وإقبال الزمان ، وعزة السلطان» ، ومن أجل ذلك كان يعمل لرجع الملك إلى الفرس طامعا أن ينال مأربه بالدعوة العباسية ، ولكن مصارع الرجال تحت برق الأطماع .

٢١ — ﴿أسباب ونتائج نهضة أوربا﴾

هي الحركة العقلية العظيمة ، التي انتظمت أوربة منذ القرن الخامس عشر ، فأيقظتها من سُباتها ، وابتعثت فيها حياة أدبية فنية ، مكنتها أن تقبض على صولجان السيادة والعزة ، وأن تبسط سلطانها ، وتمد نفوذها ، وتوسع ثروتها ، وترأب ما أثأته يد الجهل في القرون الخالية

لهذه النهضة عوامل قوية أزاحت غشاوة الجهل عن أعين القوم ، بعد أن لبثوا يضربون في بيداء الجهالة ، ويرسُفون في قيود الأوهام حِقَبا طوالاً ، وكان ذلك الجهل الشامل مبدأ العلم ، والسكون السائد أول الحركة ، ولا غرو فالظلام الحالك يسبق نور الفجر

كان من أعظم العوامل في ظهور تلك النهضة « الجامعات » التي

كانت منتشرة فى أوربة منذ قامت دولة شارلمان ، وكانت وقفاً على التعليم الدينى حتى القرن الثالث عشر ثم لما لاحت تباشير الاصلاح والنهضة اتسعت دائرة التعليم فيها بما أضيف إلى علومها ، فخرجت لأوربة رجالا من أولى الرأى والعمل ، حملوا ألوية النهضة ، وعبدوا السبل لمن تلا تِلوَهم من قواد الآراء وذوى العزائم القوية

وكان لاختراع « البارود » تأثير هام فيها إذ كان نظام الفروسية يقضى بحماية الضعفاء والانتصار للمظلومين ، وفى ذلك اخضاع لهم وذهاب بالنخوة والبأس من نفوسهم ، فلما ظهر هـذا الاختراع استطاع الضعفاء أن يدافعوا عن أنفسهم ، واستغنوا عن حماية الفرسان والأمراء ، كان ذلك مبدأ استقـلال الارادة والفـكر اللذَين قامت عليهما قوة الابتداع والابتـكار فيما بعد

أضف إلى ذلك تأثير الحروب الصليبية ، التى نشبت بين أوربة والشرق من (١٠٩٦ — ١٢٧٨) فى إيقاظ العقول وتنبيه العزائم وشحذ القرائح ، بما قبسه أهل أوربة من آثار الحضارة العباسية فى المشرق ، فنظموا مدارسهم ، ونبغ من بينهم شعراء وعلماء وفلاسفة قلما تجد فى تاريخ أوربة من يدانيهم قبل تلك الحروب ، وكان لها أثر آخر أعظم شأناً ، هو جمع كلمة الأوربيين ، واستـلال سخائمهم وتناسى أحقادهم ، وتألبهم على الشرق ، لمدافعة أهله ، بل مهاجمتهم

فى ديارهم

ولما فتح الأتراك قسطنطينية هاجر كثير من علمائها وطلابها يحملون معهم أنفس الذخائر العلمية ، وأقدم الرقوق التى تحوى بحوث العصور الخالية ، مما كانت مدارسته وقفاً على الخواص فى دولة الروم الشرقية رحلوا بها إلى أقطار أوروبا الغربية فرحبت بهم وخاصة أهل إيطاليا ، وانتشرت اللغة الاغريقية ، فقرأ الناس أشعار هوميروس ، وأفكار أفلاطون وغيره من فلاسفة يونان ، بعد أن درست من أوربة ، فانطلق العقل من قيود الوهم ، ورجال الفكر فى ميادين الحقائق ، وحبب إلى الناس أن يتركوا الخرافات التي منعت عقولهم عن التفكير ، وغلت أيديهم عن العمل

نعم ، كان للحروب الصليبية ودخول الأتراك أوربة أثر قوى فى توحيد الكلمة ، وظهور الحمية القومية ، والنعرة الجنسية والدينية والعمل على تنمية القوى الحربية حتى إذ أحس الأوربيون خطر الأتراك يتهددهم ، ظهر الروح القومى ، وبرزت القوة الكامنة التى كسبوها بمجالدة المسلمين نحو قرنين ، وعملوا على إخراج العرب من أسبانيا ، وضايقوا الأتراك فى المشرق حتى فقدوا قوتهم تدريجاً ، فقام الغرب يجدد حملاته على الشرق بدعوى تعمير أراضيه المهملة ، وتعليم شعوبه الجاهلة وكان فى ذلك القضاء على استقلال الشرقيين

وامتداد نفوذ أوربة وعظمتها

وقد أتاح الله وقتئذ للعالم اختراعاً كان له من عجيب الأثر فى امتداد النهضة وشمول أثرها، مالا يعهد إلا للقوى السحرية، ذلك هو اختراع « المطبعة » التى جعلت تداول الكتب يسيراً، فأوقدت سراج الآداب فى أوربة، وأحيت موات العقول، فظهر النبوغ فى طبقات كثيرة، ومال الناس إلى البحث، وشاركوا أصحاب العقول الراجحة فى العصور المختلفة. ووقفوا على المذاهب والآراء المتباينة لم يركبوا لذلك صعباً. ولا تجشموا عناء

ثم ظهر الكشافون البحريون « دى جاما وكُلُمْبُ وماجلان » فقاموا بأعمال جليلة. فتحت لأوربة أبوابا للعمل والرزق. فانتشرت التجارة وارتقت الثروة رقيا لم تحلم به أمة ولا أمم من قبل

وكان للاصلاح الدينى الذى وضع أساسه « لوثير » فى ذلك العهد أكبر الآثار فى تحرير العقول من ربقة التقليد. وتلك الحرية هى مفخرة التاريخ الحديث. وعليها قامت المدنية الاوربية. وبها استطاعوا الافتنان فى الاعمال المدهشة. والاتيان بالاختراعات العجيبة. كما نظمت الحياة الأَدبية والاجتماعية. ونبه الناس إلى التفتيش عن صحة ما يعلمون وما يعتقدون. فقام دعاة الإصلاح وفلاسفة المربين. يغيرون نظم التربية. والتعليم. ويدعون إلى التجديد

فكثر التأليف وأنشئت المدارس ، وتقدمت الصحف . ولم يبق باب من أبواب الأدب والفن إلا سار فيه الإصلاح والتجديد سيراً حثيثاً

وإن ما يظهر اليوم فى أوربة من مظاهر الحضارة الزاهية . من نشر الآداب السامية . وحرية الفكر . والميل إلى البحث والاستقصاء فى طلب الحقائق . واتساع العقل . وتغير نظم التعليم وأساليبه . ورقى آداب الاجتماع . وبسطة السلطان . وضخامة الثروة . كل أولئك من ثمار تلك العوامل التى ساعدت على نهوض أوربة

بدأت النهضة فى إيطاليا التى أوت طلاب العلم والمهاجرين من أهل قسطنطينية ثم سرت منها إلى فرنسا وجرمانيا وهولندة وانكلترة . وكان أساس الدعوة فى إيطاليا وفرنسا إحياء العلوم والفنون والآداب أما فى جرمانيا وهولاندة وانكلترة . فقد كان أساسها الإصلاح الدينى وإن شملت الدعوة إلى طلب العلم والأدب ضمن ذلك

ولقد درجت النهضة الأوربية إلى الكمال منذ القرن الخامس عشر . غير أنها أوسعت الخطى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ولا تعلم الغاية التى يقف عندها مجهود العقل البشرى

٢٢ — ﴿ وصف سفينة تحترق ليلا ﴾

قصدنا إلى طلب العلم فى أوربة . فحزمنا أمتعتنا . ولحقنا بالسفينة

« فكتوريا » وهى سفينة كبيرة يجد المسافر فيها من أسباب الراحة والرفاهية . ما يجده في المدن العظيمة . والامصار الواسعة . فسارت بسم الله مجراها تمخر عباب البحر الأبيض . تتهادى على صفحة الماء كما تتهادى العروس . فقضينا فيها خمسة أيام بأحسن حال . وأنعم بال . كان البحر فيها هادئاً والجو دافئاً . والسفَّر يمرحون فى أمن وبُلَهنية . وكنت وصحبي نتجاذب أطراف الأحاديث فيما نكون عليه فى الغربة . مغتبطين بما هيأ الله لنا من الاستمتاع بعجائب الطبيعة . ومحاسن الكون

وبينا نحن فى اليوم السادس . وقد اجتازت السفينة مضيق جبل طارق إلى المحيط الأخضر إذ أحسسنا انقلاباً فى الجو لم نعهده قبلا . فهبت علينا ريح باردة شديدة . عكرت علينا صفونا فغادرنا سطح السفينة إلى بهوها الأعظم . نلهو و نتسامر . ولما أرخى الليل سدوله . أخذنا مضاجعنا ونمنا هزيعا من الليل . ثم استيقظ بعض السفَّر بدخان سد المعاطس وضايق الانفاس . ثم اشتد وتكاثف فرأينا البحارة فى هياط ومياط وإذا أجراس الخطر تنذرنا بالحريق

يالهول تلك الساعة . لم يكد القوم يستريحون حتى هبوا من نومهم مذعورين مروعين . لايدرون ما يأتون ولا ما يذرون . ملك قلوبهم الجزع . وطار بأحلامهم الفزع . فوقفوا مبهوتين حائرين

يصيحون وقد عز عليهم البكاء، وينادون ولا من يجيب النداء

استحوذ اليأس على المسافرين . وفقدوا الأمل وهو سراج النفوس . ولولا ما قام به البحارة . والمهندسون من المعاونة على انقاذ السفينة . فاقتحم بعضهم النيران وساعدهم بعض المتطوعين الأبطال لألقاء ما اشتعل فى اليم . فخنقهم الدخان . ونكصوا على أعقابهم خاسرين . وقد أسرع آخرون إلى المضخات فأداروها . ولكن ضاعت جهودهم بمناوأة الريح . وحبط ما صنعوا فيها

ظلت النار تمتد فى السفينة شيئا فشيئا . والملاحون عاجزون عن مغالبتها . فلم يسع الربان إلى أن استصرخ السفن القريبة منه بالبرق الأثيرى وأمر أن تلقى زوارق النجاة فى الماء ونادى الركاب أن اهرعوا إليها إن كنتم ناجين

لم يكد المسافرون يسمعون هذا النداء حتى طارت نفوسهم شعاعا . وأيقنوا أن الموت مدركهم لا محالة : بالماء أو بالنار

فى وسط تلك المناظر المحزنة ترى رجالا مستبسلين لا يهابون الموت . يجودون بحياتهم لانقاذ السفينة وركابها . أولئك هم البحارة الذين لم يدخروا وسعا فى مكافحة النيران إلا بذلوه . ثم لم ينالوا منها مأربا ولا شفوا نفسا

ووقف الضباط وسط القوم يحملونهم على النظام كرها وينزلون

الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة، قبل الشبان والكهول والقادرين خفقت القلوب، ووجِمَت النفوس، وسالت العيون، تذرف الدمع الهتون، وصاحوا جميعاً. إلى اللقاء! إن أذن الله بالبقاء

أما السفينة فقد أتت النيران على أكثرها، ولم يبق من خشبها إلا دُكاّن صغير، وقف عليه المهندسون والبحارة ينظرون إلى عروس البحار وهي تصعد زفراتها، ونادَوْا بإبعاد الزوارق عنها، حتى لاتجتذبها اليها وهي تهوى إلى مستقرها. وما هى إلا هنيهة حتى سمعنا صوتاً أصم الآذان، حسبناه رعداً قاصفاً، فاذا مراجلها قد انفجرت، وإذا الربان وبحارته آخر من يغادرونها

اشتعلت السفينة كلها، وصارت كجبل من نار، فكان لها منظر عجيب فى ذلك الليل البهيم، ولم تلبث أن هوت إلى قرار المحيط وساد الظلام والسكون.

اخذت الزوارق تخبط فى هذا الظلام الحالك حتى أودى كثير ممن بها جوعاً وبرداً، واشفاقا ووجداً، ولما استيأسنا من النجاة وأيقنا بالهلاك أنِسْنا ناراً من من بعيد، تقترب منا شيئاً فشيئاً، فعلمنا أنها سفينة آتية لإنجائنا، فأحيت ميت آمالنا، وانتشلتنا من أهوال البحر، وواسانا ركابها وهنئونا بنجاتنا، وسارت حتى ألقت مراسيها وبلغتنا مأمننا فحمدنا الله على سلامتنا

٢٣ — ﴿ وصف البرتقال ﴾

هو فاكهة من الفصيلة الليمونية ، حلوة الطعم ، عبقة الرائحة والبرتقالة فى حجم جُمْع اليد أو أكبر منه قليلاً ، كرية الشكل صفراء اللون غزيرة الماء ، ظاهرها قشرة خشنة طرية ، ثخينة أو رقيقة وباطنها فصوص متراصّة متضامّة كالأهلة ، يتألف من جملتها اللُّب ، ويختلف عدد هذه الفصوص بين سبعة واثنى عشر فصاً ، وكل منها غلاف رقيق شفاف ، يحتوى أكياساً صغاراً مستطيلة ، بها ماء أصفر حلو وفى بعض الفصوص بذور إلى خمس ، وبعضها لا بذور فيه

وموطنه الأصلى شمالى الهند وغربها وجنوب الصين ، ولا يزال ينمو فى هذه الجهات برياً . ثم نقل إلى فارس بُعيد المسيح ، ولم يذكر فى الكتب المقدسة ، ولا عرفه العرب إلا بعد فتحهم فارس ونقل من فارس إلى أوربة فى القرن التاسع الميلادى ، وإلى امريكة فى القرن السادس عشر . ويزرع الآن فى المناطق المعتدلة إلى الدرجة ٤٤ شمالا و ٣٥ جنوباً ، وأشهر جهاته ممالك بحر الروم وما فى عرضها من الأمريكتين وجزائر الهند الشرقية والغربية .

وشجرة البرتقال جميلة معتدلة الساق ، كثيرة الأغصان مورقة ، نضرة ، لامعة ، يبلغ ارتفاعها إلى أربعين قدماً وتثمر بعد سبع سنين ، وقد تُعَمَّرُ طويلا ، ففى أسبانيا أشجار مضى عليها نحو

ستة قرون ، ولا تزال تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وأزهارها صغيرة عبقة إلى البياض ماهى ، تظهر فى مارس وابريل ، ثم تكون ثمراً يجنى فى اكتوبر أو نوفبر ، ويبقى نحو ستة أشهر ، وقد يبقى أكثر من ذلك ، لوروده من بلاد يتأخر نضجه فيها . وإذا أريد إصداره إلى ممالك بعيدة جمع من أشجاره قبل أن يتم يَنْعُهُ ، حتى لا يعطب ، وقد يشاهد فى الشجرة أكمام وأزهار وثمار يانعة وغير يانعة فى وقت واحد

وأنواع البرتقال كثيرة ، وأَسماؤه مختلفة ، حسب اختلاف منابته ، وأكثرها شيوعاً فى مصر البرتقال البلدى واليوسفىُّ واليافوى ، أما الأول فيمتاز باستدارته ورقة قشرته وملاستها وكثرة مائه وشدة حلاوته ، ومنه نوع يمتاز بعصارة حمراء قانئة ، يسمى البرتقال الدموىّ . وأما اليوسفى فهو أصغر من سابقه حجماً ، وأظهر انبعاجاً ، وأرق ماء ، وأضوع شَذًى ، وقشرته خشنة ، تحتوى كثيراً من زيت عطر ، وتكاد تكون مفصولة من اللب،لولا خيوط واهنة تصل بينهما ، وأما اليافىُّ فهو أضخم حجماً من البلدى ، وأغلظ قشراً ، وأشد حلاوة ، وأقل بذراً ، وأجود أنواع البرتقال عامةً اليافىُّ والمالطىُّ[١] وما يخرج فى جزائر الهند الغربية .

(١) كان هذا قبل ظهور (أبوسرة) الأمريكى والمصرى أجود أنواع البرتقال اه مصححه عبد الوصيف محمد

والنَّارَنْج نوع من البرتقال ، أصله من أشبيلية ، ولا يختلف عنه إلا فى الطعم ، فهو شديد الحموضة والمرارة . والليمون من هذه الفصيلة أيضا ، وهو نوعان : حلو وحامض ، وهو أصغر من البرتقال

والبرتقال فاكهة تنقى الدم وتنعش الجسم ، وقد ينتبذ ، أو يضاف إلى الكعك ، ويعمل من قشره رُبٌّ (مُرَبّي) ، ويعمل النارنج مُرَبّى ويخلل ، ويعصر على بعض الأطعمة كالليمون ليكسبه طعماً مقبولاً أما زهره فيستقطر منه ماء عَطِر ، وتزدان العرائس به ويتخذ من شجره أثاث نفيس متين ، وقد تطعم به مصنوعات من خشب آخر لنفاسته .

٢٤ — ﴿ وصف يوم قائظ ﴾

أصبحنا يوم الخميس السادس عشر من شهر يوليه ، والشمس ساطعة ، والسماء صافية الأديم ، ورقة أنفاس النسيم ، تذكرنا بمحاسن أيام الربيع ، ولم نزل كذلك حتى كانت الشمس فى رائعة النهار ؛ فاذا الجو قد اكفهر وجهه ، وتغيرت خلائقه ، فعبث وبَسَرَ ثم احتدم وزَفَر ، فكان له حر ينضج الجلود ، ويذيب الجلمود .

ما كادت الشمس تستوى فى كبد السماء ، حتى أوقدت نارها وأذكَتْ أُوارها ، وأرسلت الينا أشعة حامية ، كشُواظ من نار فعادت البسيطة من وَقده الحرّ بساطاً من الجمر ، ينبعث الفيح

منها ، ومن كل ما عليها .

خمدت قوة الإنسان ، وضعفت حيلته ، وجنح إلى الدَّعَة والكسل وجفّت شفاهه ، ونضب ريقه ، وتصبب عرقه ، واحمر وجهه من وَهَج الشمس ، ووهنت مفاصله من ألم الحر ، فكان لا يطيق عملاً ولا يجد راحة ولا تهنؤه حركة ولا سكون .

« وأصابت نبت الرُّباعيْنُ شمسٍ أورثتـه مذلةً واصفرارا
كلما جال طرفها ترك النـا س سُكارى وماهُمُ بسُكارى »

ونام بعض التجار والصناع فى حوانيتهم ، وأوى بعض العمال إلى الأشجار فناموا تحتها ، وتفيئوا ظلالها ، وجالت عجلات الماء ترش الأرض ، لتكسر من شدة الحر . فلم تجد نفعاً :

وهاجرة صادق حرها تكاد الثياب بها تُلهب
كأن الحرابىَ من حرها تُلوِّح بالنار أو تصلب »

ولم تكن البيوت أحسن من الشوارع حالا . فقد أُغلقت منافذها . فصارت أشبه بالسجون : لا ضياء ولا هواء

لم يستمرىء الناس فى ذلك اليوم طعاماً ولا أطاقوا عملا . لكن حبب إليهم البارد من كل شىء ينقعون به الغلة : ويبرئون العلة . فلم يزدهم إلا كرباً وتحرقاً :

يعلو به الكرب ويشتد القلق وتنضح الأبدان فيه بالعرق

وكانت الريح تركد أحيانا فتضيق الأنفاس . وتحرج الصدور وتثور أحيانا فتلفح الوجوه : وتسفى التراب من التلال . فاغبر الجو واكفهر وجه السماء . وفسد الهواء . وقذيت العيون : وشجيت الحلوق . ولم يبق فى قوس الصبر منزع

ولما فاح الحر . واشتدت الهاجرة . أضحت الشوارع خلاء وخشعت الأصوات فلا تسمع إلا همسا . وكنت ترى الحيوان قد تتابعت زفراته : وتوالى نهيجه ، وأخرج لسانه من فمه ، وحاول قطع الرباق ، وخلع القيود ، ليأوى إلى حظائره . وعادت الطيور إلى أوكارها . وجثمت فى مقارها . واختفت الهوام فى أجحارها . وإن تعجب فعجب أن يجمع الحر بين ضدين . ويؤلف بين متعاديين فترى العصفور يستظل كرها مع الضب . والقط ينسى عداوة الكلب

أما الأشجار فقد صوحت وتساقطت ثمارها . وذبلت أوراقها والتوت أغصانها : وحالت نضرتها : وضاعت بهجتها

« فى زمان يشوى الوجوه بحر ويذيب الجسوم لو كن صخرا
لا تطير النسور فيه إذا ما وقفت شمسه وقارب ظهرا
ويود الغصن النضير به لو أنه من لحائه يتعرى

ونصلت ألوان الثياب : وقل رواؤها . وتقفعت أطرافها وأصيب خلق كثير بضربة الشمس : ومرض أطفال بالحمى من شدة

الحر ، ولم يبق حيوان ولا نبات ولا جماد إلا مسه أذاه

ولما حان الأصيل خرج الناس من بيوتهم ، وكأنما نشروا من قبورهم ، يطلبون الخلاء والمنازه وضفاف الأنهار ، وكانت الليلة راكدة الريح ، والأرض تتنفس أنفاساً حارة ثقيلة .

« فعادت كتنور الإماء سجرنه وألقين فيه الجزل حتى تضرما »

فلم يطب لهم مغدى ولا مراح ، وآبوا إلى بيوتهم حائرين ، وصعد كثير إلى سطوح المنازل ينامون عليها ، وهاجت دواب الأرض وهوامها ، وضاق الناس بها ذرعاً ، حتى بلغت الروح الحلقوم

« من عقرب تسعى كسعى اللص سلاحها فى أثره كالشص
وحية تنفث سماً قاتلا تزود الملسوع حتفاً عاجلا

وأصبح الناس يتحدثون بما لاقوا فى أمسهم من هول ، ويضرعون إلى الله تبارك وتعالى ألا يصيبهم بمثل ذلك اليوم

٢٥ — ﴿ الاحسان جند منصور بين يدى المصلح ﴾

الاحسان هو إسداء المعروف لبنى الانسان ، ويظهر فى بذل المال للمحرومين وفى الجاه يستشفع به ذوو الحاجات ، والارشاد إلى الخير ينقذ به الجاهل المغمور ، وفى القوة تبذل فى إغاثة الملهوف ، وحماية الضعيف وهو من أوضح الأدلة على شفقة الانسان وتقديره نعمة المنعم عليه

وإذا كان النـــاس متفاوتين فى طبائعهم وقدرهم ، فمنهم الخامل

والعامل، والغبي والذكي، والضعيف والقوي، حق على غنيهم أن يسعف فقيرهم، فليس من الانسانية أن يرى الرجل أخاه مجدوداً يتضور جوعاً، وتتضعضع عظامه برداً، وينظر اليه بعين جامدة وقلب كالحجر أو أشد قسوة

(وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد)

ولا من الدين أن ترى صاحب الحاجة معذباً حائرا، وفى طاقتك أن تشفع له فيما لا يضر بالدين أو المروءة، وتتركه يحرق الأرم ويبكي نفسه وأهله ولو أسعفته لوجدت منه عبداً يدين بالمعروف ورجلا نافعا أمته، عاملا فى رقيها

الاحسان بجميع مذاهبه ووجوهه مفيد للمجتمع أيما فائدة، فهو ينقى أدرانه، ويقيه العلل الاجتماعية المدمرة، فاذا تواصى الناس بالمعروف، وأغاثوا ذا الحاجة الملهوف، نجحوا مما تجره الفاقة والزمانة وفراغ الأيدى من العمل، من الأمراض الفاتكة بالارواح، والجرائم المقلقة للنفوس.

ارجع بصرك إلى أهل الغرب تجد بلادهم خالية من تلك المناظر التي تقذى بها العيون، وتحرج الصدور، فلا ترى جيوش السائلين يلبسون الظلام، ويكمنون فى الأحجار والأشجار! ولا جماعات المتكففين يتنكبون السابلة، ويأخذون علينا الطريق، ولا أهل

الزمانة والأمراض القتالة ، يخالطون الصحاح ، ويلابسونهم فى الغدو والرواح .

تأمل حكمة الزكاة فى الاسلام تجد فيها ترفيها للمحروم وتخفيفا لآلامه ، وتطهيراً للنفس من رذيلة الشح والحرص (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وتداركاً لما عساه أن يحدث فى قلب الفقير من الضغينة والحقد على أخيه الملىء ، فيتنازعان ، ويؤول أمرهما إلى قتال يهلكهما معا ، ورغبة أن يتآلفا ويتعاونا على البر والتقوى

وما خزائن الغنى تفيض بالنضار ، وبيادره تجتمع فيها الغلال والأثمار ، وسلعه تجوب الأقطار ، إلا عرق العامل ، سال فأخصب وأجدى ، وجهده بذل فأنمى وأزكى . فاذا لم يكافئه أولو النعمة ذهبت قوته وشلت يده فوقف دولاب الأعمال . وغاض معين المال .

الزكاة وقاية من المذاهب الاشتراكية الجائرة . التى تفسد على الجاد تدبيره وتأخذ على العاقل تفكيره . وتريد أن تجعل من الناس أمة واحدة . وجنة من التخاصم بين الموسرين والمعسرين وما نبتت المذاهب الاشتراكية إلا حيث تمكنت الأثرة من نفوس الاغنياء فغلوا أيديهم عن بنى قومهم . وضنوا عليهم بما يخفف عنهم نكد العيش وآلام الحياة ،

وليس الاحسان إلى كل الناس مثمراً . ولا فى كل المواضع

جائزاً فقد تنعكس آثاره فينقلب نفعه ضراً : كالإحسان إلى المتكاسلين ومن يتصنعون الأمراض حباً فى الراحة واستدراراً للمال من أسهل طريق واللئام الذين يجحدون آلاء المنعم وينكرون فضله بل يناصبونه العداء ، ويقاتلونه بما أعطاهم إن أمكنتهم الفرصة « اتق شر من أحسنت اليه » . والمحسن الحازم من يتخير لمعروفه منبتاً حسنا ، وقلبا كريما ، من ذوى الحاجات والآلام الواضحة ، ومن أذلهم الزمان بعد العزة ووضعهم بعد الرفعة .

(ان الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع)

وخير وجوه الإحسان إنشاء المدارس لنشر التعليم والتربية وإقامة الملاجىء الناهضة بأعباء العجزة والمستضعفين ، وتأسيس دور العلاج للمرضى والمعتلين ، وبناء المصانع والمعامل للمتعطلين وإعانة الجيوش الزائدة عن بيضة البلاد ، وغير ذلك من أعمال البر العامة .

وللإحسان تأثير عظيم فى النفوس فهو يبعث على ائتلاف القلوب وتضافرها للمصلحة العامة ، ويدعو إلى الوئام . ونبذ الخصام وينشر لواء الهدوء والسكينة ، وإذا ما شعر المحسن اليه أن غيره يفيض عليه من خيره امتنع عن اجتراح السيئات ، وحافظ على المحسن ودمه ، كما يحافظ على نفسه ، وأثر ذلك فيه فأعطى مما أخذ من هو أشد منه بؤساً ، وأخلى منه يداً .

« يجود علينا الخيِّرون بمالهم   ونحن بمال الخيرين نجود »

والإحسان دليل على كمال الإيمان وحسن الظن بالله ، وعدم الركون إلى الشيطان الذى يعد الناس الفقر ويأمرهم بالبخل ، وعلامة على الشجاعة إذ يقدم المحسنون بلا مبالاة ، فيؤثرون الناس على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

ولا يخلو بلد من محسنين يعشقون المعروف ، وينفقون فى سبيله التالد والطريف ، ولكن نظام الإحسان يختلف باختلاف البلاد تقدماً وتأخراً ، فسبيل الاحسان فى بلاد الغربيين والمدارس والملاجيء . ودور العلاج ، وتشجيع الباحثين والكاشفين ، وإقامة المعامل ، وبناء البيوت للعمال ، إلى غير ذلك . أما نحن فى مصر ، فلا نسلك السبيل السوى فيه ، مع سخائنا وكثرة برنا ، وإلا فما هذه الطرق الغاصة بالعجزة والمتكففين ؟ وما أولئك الصبية الذين تعافهم النفوس يجوبون الطرقات والقهوات ، ويلتقطون فضلات اللفائف وإلا تعجب فعجب أن تجد من بين المتكففين قوماً يلبسون الأسمال والمرقعات ، ويتعامون أو يتبالهون ، حتى إذا جن الليل خلعوا شباك نصبهم واحتيالهم ، وارتدوا أخرى فعاثوا فى الأرض فساداً وأهلكوا الحرث والنسل ، وهم يستمرئون ذلك المرعى الوبيل ، ويخرجون أولادهم فى مهنتهم فيقعدون عن العمل ، ويكونون

عالة ، تعم بهم البلوى ، ويزيد الفساد

لو أحسنا لأنفسنا وأمتنا ، لاصطفينا لمبراتنا أبواباً أحسن أثراً وأعم نفعاً ، واحتذينا الغربيين فنظمنا جماعات للاحسان تصرفه فى وجوهه ، واكتتبنا فى مصانع وشركات تؤوى القادرين على العمل ، فتنتفع مصر بجهودهم ، ويعيشون بمنجى عن الصغار والهوان وحق على أولى الأمر أن يضربوا على أيدى الملحفين فى السؤال وهم فى غنى لتصان كرامة الأمة ، وتزيد فيها الأيدى العاملة لرفاهيتها

٢٦

ومن سعد حظ المرء وجد ان زوجه تطيب بها هذى الحياة وتعذب

التربية هى إيصال الاحياء إلى ما يمكن من كمال ، وقد عالج الانسان فنونها منذ نشأته ، إذ عرف حاجته إلى النبات فاستنبته والى الحيوان فاستأنسه ، واتخذ منهما غذاءه وكساءه ، وكنه وعونه بضروب من الصناعات ابتدعها ، وربى ذراريه ليخلفوه فى الأرض فورثهم تجاربه فى سبيل الحصول على القوت ، ومدافعة عدوه من الحيوان

ثم لما تألفت الجماعات ، واتسع العمران ، انقسمت تربية الانسان أقساماً ثلاثة هى تقويم الجسم بالغذاء ، وتثقيف العقل بالمعارف ، وتهذيب الخلق بحب الخير والعمل به

كان الانسان يقوم بتربية أولاده فى المنزل ، فلما انتظمت

المجتمعات أمانه على التربية عوامل أخرى قللت من عنائه ، تلك هى المدرسة ، والمجتمع ، والدين والحكومة ، والمنزل أهم تلك العوامل وأوضحها أثراً فى إنماء القوى الجسمية ، وتربية الملكات العقلية والخلقية ، لأنه الأساس الذى تقوم عليه العوامل الأخرى ، إذ يتعهد الأطفال إبان المرونة واللدونة ، فتكون نفوسهم مستعدة لقبول ما يعرض عليها من صور الخير والشر ، وأقبل للتأديب والزجر لعدم رسوخ الملكات ، وتمكن العادات

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب

فاذا أخذهم المربى وقتئذ بالحسن ألفوه ودرجوا عليه ، حتى يصير لهم عادة وطبعاً

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

ويقتضى نظام الحياة أن يقوم رب الأسرة بالعمل لجلب الرزق وأن تتفرغ ربة الأسرة لأداة البيت وتربية الأبناء ، إذ التربية أهم أعمالها ، بل وظيفتها التى خلقت لها ، وسعادة الأسرة وشقاؤها متوقفتان على قيام الأم بوظيفتها ، فهى إن شاءت جعلت منزلها جنة يمرح فيها ولدانها أصحاء الأجسام ، مهذبى العقول ، يفيضون بشراً وسروراً ويأوى اليها زوجها ؛ فيجد نعيما مقيما ، وسعادة تذهب بمتاعبه وآلامه ، وإن شاءت جعلته جحيما يأوى إليه شياطين الإنس

الذين يقوضون بنيان المجتمع ، ويفسدون كيانه

وما الأمة إلا أسرة كبيرة ـــ أعضاؤها الأسر الصغيرة ، فاذا فسد عضو منها تداعى له سائر الأعضاء ، وشقيت الأمة ، فرأيت فى أبنائها عجزة لا يستطيعون عملا ، وجهالا لا يغنون فتيلا ، وأشراراً لا يعرفون إلى الخير سبيلا

قلب نظرك فى التاريخ تجد أمثلة كثيرة ، تنبىءبما للامهات من أثر فى صعود الأمم وهبوطها ، وإليك مثل من تاريخ الأمة العربية المجيدة التى كانت المرأة فيها من أكبر العوامل على ما بلغته فى جاهليتها وإسلامها . من عزة قعساء . وهمة شماء ، أحدثتا في العالم انقلاباً لم يعرف له التاريخ مثله

وقفت الخنساء بنت عمر بن الشريد يوم القادسية تشد إزر بنيها الأربعة ، ليصدقوا القتال ، وينصروا دين الله ، ولما حميت المعركة استشهدوا جميعاً ، فلم تذرف عليهم دمعة ، ولا أسالت عبرة وهى التى علمت النساء من قبل كيف يبكين الأعزاء ، ويندبن النصراء وكان لتلك التضحية الغالية وأشباهها أعظم الآثار فى ارتفاع كلمة الاسلام وخفوق أعلامه على ممالك كسرى وقيصر ، ولا غرو فالتى تهز المهد باحدى يديها تهز العالم بالأخرى

عرفت الامم أثر المرأة فى تربية أبنائها ، وفى إسعاد العالم

فأقبلوا عليها يعلون من شأنها ، ونادوا بتعليمها وتهذيبهـا ، لتؤدى وظيفتها حق أدائها ، ووضعت كل أمة خطة لتعليم المرأة ، تلائم حاجتها وعوائدها ، وخير ما يناسب المرأة عندنا تعليمها العلوم المعينة على النجاح فى ترقية الأسرة وترقية حالها .

الأم مدرسة إذا أعدَدتَها أعددت شعباً طيب الأعراق

وأول ما ينبغى أن تعلمه البنت فن تدبير الصحة ، لتحافظ على صحتها وأبنائها ، فتخرج للمجتمع رجالا أقوياء أصحاء ، يضطلعون بالأعمال المثمرة كالزراعة والصناعـة والذود عن حياض الوطن ، وما تتطلبه الحياة من جهد وقوة . وإن الأمهات الجاهلات ليقتلن بجهلهن من الأطفال كل عام ما يربو على قتلى الحروب الطاحنة . ثم لا بد من تعلم « الحساب » لتضبط الدخـل والخرج ، وتدبر ثروتها وثروة بعلها ، فتستغنى عن غيرها ، وكذلك فن « تدبير المنزل » لتقتصـد فى النفقة فتعيش آمنة على مستقبلها ، ولا ترهق الزوج بسرفها وينبغى أن تعلم من الجغرافية ما تعرف به علاقة بلادها بغيرها ، وتقف على مختلف الحاصلات ، وما بين الأمم من منافع متبادلة . وحاجـة المرأة إلى معرفة التاريخ والدين ماسة شديدة . ففي التاريخ المثـل الصالح تضربه لأبنائها ، ليشـبوا على حب الوطن . أما الدين فهو منبع الأخلاق الفاضلة التي ينبغى أن تأخذهم بها منذ نعومة أظفارهم

وهو يزعها ويحصنها من نزعات الشيطان .

وأساس ذلك كله أن تعرف القراءة والكتابة لأنهما من الأدوات التى لا غنى عنها ، فان شاءت أن تتوسع فى بعض العلوم كالتاريخ والجغرافيا واللغات ، أو حذق الفنون كالتصوير والموسيقى والشعر ، فلا ضير ، إلا إذا شغلتها عن تربيــــــة الولد ، أو أضرت بحال الزوج .

وصفوة القول أنه لا بد أن تعلم المرأة كل ما تنمو به قواها الجسمية والعقلية والخلقية ، لتسعد فى حياتها ، ويسعد بها أبناؤها وزوجها ، وتزول عوامل الحزن والهم وأسباب الخلاف والشقاق التى يجلبها رأس فارغ ، ويد متعطلة .

ولقد تنبه الرأى العام فى مصر إلى تعليم البنت ، وأخذت الحكومة تبث المدارس المختلفة فى المدن والقرى ، وإنا لنرقب هذه النهضة المباركة بعين الأمل فى صلاح المستقبل ، فان تعليم البنت وتربيتها لخير ما تعالج به أمراض الشرق وآفاته .

٢٧ — ﴿ الألعاب الرياضية وما ينجم عنها ﴾

اللعب من الغرائز القوية فى الحيوان ، يظهر فيها منذ نشأته فترى صغاره تعدو يمنة ويسرة ، تقفز وتطفر ، وتستخفى فى حظائرها وتظهر ، وتناغى أمهاتها فى عملها وراحتها وترى الطفل يركب

القصب خيلا ، ويجمع الأحجار بيتاً ، ويخط الارض حقلاً ، ولا تخمد حركته أو يجن الليل فيخاف الظلام

ويكاد اللعب يكون مميز الحياة الاولى وقوامها ، وأشدّ ضروراتها ، وهو مقدمة حياة العمل ، وصورة المستقبل ، ولا يستطيع مربّ أن يحول بين الصغار وبينه

وكلما كبرت الاطفال ترقت ألعابهم ، وتغير نظامها ، فمن حركة لا قصد لها ، وعبث بكل ما يقع تحت الحس ، إلى نظام يجمعهم فى سلك واحد ، ويحسون فيه ضرورة التآزر

والألعاب جسمية وعقلية ، فالجسمية كالسباحة ، والتجديف وركوب الخيل ، والسبق ، والرمى ، والمبارزة ، والمصارعة ، ورفع الاثقال ، والقفيزى ، والقلة ، وانزلاج الجسم ، والجرى بالقبقاب والكرة تدهده بالرأس ، أو تدفع بالأيدى والارجل والصوالجة وهى أكثرها ذيوعاً

والعقلية : كالشطرنج ، والنرد ، والورق ، وهى بنوعيها أقل الأشياء تغيرا ، فاللاعبون اليوم يتناولون ألعاب اليونان والرومان ، والهند ، والفرس ، والعرب ؛ دون أن يحدثوا فيها تغييراً يذكر

ويرى بعض الناس أن اللعب مضيعة للزمن ، مجلبة للشر عقبة فى سبيل التربية ، حائل دون العمل لكسب الرزق ولكنهم

واهمون ، لأن اللعب من ضروريات الحياة ، ومن أقوى عـوامل التربية والإصلاح

اللعب ينفس عن الجسم ، يخرج القوة الزائدة على الحاجة ، ولو بقيت لآدت الجسم وآذته ، ويقوى العضلات ويفتلها ، ويمرّن الأعضاء فتصلب وتشتدُّ ، وينقى الدم من خبث الأطعمة ، والفضلات السامة ، فتنشط دورته ، ويقوى على درء الجراثيم الفتاكة ، والأمراض المنهكة ، وفى صحة الجسم سلامة العقل ، إذ أنهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، فكلما صح الجسم ازداد العقل قوة ونشاطا .

واللعب مظهر للميول الـكامنة فى نفوس الأحداث : من طاعة أو عناد ، وهمة أو خمول ، باعث للغرائز الدافعة إلى العمل فى أطوار الحياة الأولى : كالحركة وحب الاستطلاع وما اليهما ، ولولم يقوها اللعب لخمدت جذوتها ، فخرج الطفل بليـــداً هزيلاً ، وإنا لنرى المعاقبين بين اللعب والعمل ، والجاعلين للجد ساعـة ، وللهو أخري ، يفيدون من أوقاتهم وأعمالهم أضعاف ما يفيده المنبتون « فان المنبت لا أرضًا قطع ، ولا ظهرا أبقى » ويجدون فى أجسامهم نشاطاً وقوة على درء الضعف والملل .

واللعب مقوم للأخلاق مهذب للطباع ، ولقـد عنيت الامم الحديثة به إذا كانت الحياة تحتاج إلى جهاد وكفاح مستمر — وذلك

يتطلب العقل المدبر ، والرأس المفكر ، والجسم الأيد فافسحت لها مجالا واسعاً ، وشجعت القائمين بها وكذا يعنى المصريون الآن بالألعاب لما لها من الفوائد التى لا تحصى ، ولكن ينبغي ألا تشغل الالعاب المرء عن العمل لانها وسيلة لاغاية

٢٧

﴿كل من فى الوجود يطلب صيدا غير أن الشباك مختلفات﴾

قضت ارادته جل وعلا اختلاف الأعمال والآمال بين الرجال فالملك والسوقة والعالم والجاهل والزارع والصانع والتاجر وغير أولئك لهم أمانى فى هذه الحياة ومطامع ينظرون إليها ويجاهدون ويجالدون وراءها فهذا يطلب ملكاً أو جاهاً أو صيتاً أو ربحاً أو لباساً أو انتقاماً أو سرقة إلى غير ذلك من أغراض النفوس وميولها

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل ادراك العلا غرضا

والناس شتى فى المسعى واتخاذ الوسائل فقد يتخذ بعض الناس القوة وإنفاق المال لنيل وطره ، والآخر يأخذ حرفة الذكاء والفطنة واتقان العمل وجودته مع الاخلاص لله سبحانه وتعالى ولهذا الواجب القائم به ، وغير هذين يتخذ النفاق وسوء الأخلاق وبذاءة الاقوال والمكر والمهارة فى الاحتيال وسلب الأموال . فهذا يستخرج السمك من البحار وغيره يقتنص الطيور من الهواء ويصيد المفترس من الغابات

أو يتخذ من الزرع مأكله وملبسه ومسكنه . أو يستخرج المعادن ويستخلصها بثقاب فكره ويستخدم البخار والكهرباء ويسبر غور البحار وينتزع الاسفنج واللؤلؤ والمرجان أو ينشر سطوته وسلطانه بالقوة والرجال والسياسة وبذل المال أو يطمح إلى الرقي بجده وأمانته سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

٢٩ - اتق شر من أحسنت إليه

اتخاذ الأصدقاء محمود ومحبوب والإحسان إلى الانسان مأمور به وجميل . والعاقل يحترس مهما أعطى وأجاد فيحفظ سره ولا يودعه لمن لايستحقه ولا يعقله ولا يوقفه على دخائله (فاي الرجال المهذب) وكم من صديق حميم انقلب عدواً فيكون عالما بالأسرار واقفا على الدخائل عارفًا بأماكن الضعف — وقد قيل حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة والثقة نكبة

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أعرف بالمضرة

وإذا كاشف العدو ببغضائه اتخذت له العدة اللازمة للوقاية من ضرره وأضر الأعداء من أظهر لك الصداقة ليستدر بمعروفك ويتمتع بخيراتك وانت غفل عن مكايده . واللبيب من أخذ الحيطة من الناس وعاملهم بالحسنى وقدم لهم الخير مع الاحتراس من شرورهم

ولم أر أحسن عاقبة وألذ مغبة من اتخاذ الاصدقاء وكسب محبة الناس مع اتقاء شرورهم ، وتحمل هفواتهم ، والغض عن سيئاتهم ، والعفو عن سقطاتهم ، وعدم إفشاء السر لهم ، افشاء يؤدى إلى اظهاره فى يوم ما ، ولا يبقى على حال إلا الله سبحانه وتعالى ، وما أقرب نسيان المعروف من الانسان ، فينقلب الصديق عدوا ، ويعلن الحرب العوان على أخدانه ، ويضربهم فى حصونهم الكامنة ، ويعرف الداء الخفى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أحبب حبيبك هونا مّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا)

كن بذئب صائد مستأنساً وإذا أبصرت إنساناً ففر
واجعل الناس كشخص واحد ثم كن من ذلك الشخص حذر

٣٠ — ﴿ المثابرة والصبر سرّ النجاح ﴾

قد ينال المرء ما يتمنى إذا عمل بجد وثبات وصحبه الحزم والعزم وإجادة الرأى ، وقوة العقل ، وصواب الفكر ا ومشى بحكمة وتؤدة وتأنّ وقوة عزيمة وأخلص لله فى عمله وأتقنه بقدر ما يمكن : لان اجتناء ثمار الأعمال يأتى بالثبات ولا يحصل على الفائدة العظيمة إلا بالروية والتحلى بمكارم الاخلاق ا وأكثر الناس ثباتاً ونجاحاً ورقيًّا أهل العزم والصبر

وقل من جدّ فى أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

إن الذين نالوا المراكز العالية ، وتربعوا على دست الوظائف السامية ، هم الذين تحملوا آلام الحياة ، وتكلفوا مشاقها ؟ وقابلوها بعزيمة تهدّ الجبال هدّا ، وتدك العوالى دكا ، حتي صمدوا إلى قمة السعادة ، و بلغوا ذروة المعالى وفازوا بالنعيم والمدنية وتمتعوا بالحضارة والخيرات الجمة .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للابواب أن يلجا

وأما اليأس فهلاك وتأخر وضعف ، وسوس ينخر فى عظام الرقى ، ومن استسلم اليه هوى ، وساء حاله ، ونكد عيشه ، ولا خير فى حياته ، لأنه ما أتم عملا ولا أدرك مطلبا (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فاليأس أقبح شيمة ، ومن صبر ظفر ، أو كاد (واصبر وما صبرك إلا بالله) (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) (إن الله مع الصابرين)

٣١ — * فوائد التاريخ

التاريخ عزيز المذهب ، جم الفوائد ، كثير الفرائد ، شريف الغاية ، يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء بهم ، فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا ، فهو محتاج لمآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما

إلى الحق ، وينكبان به عن المزلّات والمغالط ، وينظر إلى الأعمال الصادرة من أبطال ذوى النفوس الزاكية ، والقلوب الصافية ويرى دقائق سياستهم ، وطرق كياستهم ، وكيف ارتفعوا إلى منَصّة الرياسة والقيادة ، فلا يشق غبارهم ، ولا يدرك مجدهم ، إلا من عمل مثلهم ، وسبر غور أخلاقهم ليتحلّى بها

ليس بانسان ولا عاقل   من لم يع التاريخ فى صدره
ومن درى أحوال من قدمضى   أضاف أعماراً إلى عمره

والتاريخ رسول السلف إلى الخلف ، ومدرسة الغافل ، وموعظة العاقل ، ومعلم الملوك والرعايا ، وميدان تجارب ، ومحل عبر

نبنى كما كانت أوائلنا   تبنى و نفعل مثل ما فعلوا

وقال الإمام علىّ كرّم الله وجهه .

« أى بُنىّ . إنى وان لم أكن عمّرت عمر من كان قبلى ، فقد نظرت فى أعمالهم ، وفكّرت فى أخبارهم ، وتبصّرت فى آثارهم ، حتى عدت كأحدهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره

٣٢ — ﴿ ماهى الطرق الموصلة إلى نجاح التلميذ ﴾

إذا شاء التلميذ أن ينجح فى أعماله ويُبَرِّزَ على أقرانه ، فعليه أن يُصغى إلى ما يلقى عليه من الدروس والنصائح . وألاّ يدعها عرضة للنسيان والإهمال

وأن يؤدى أعماله فى أوقاتها المعينة لها ، ولا يتركها حتى يتراكم بعضها على بعض فتثقل عليه ، ويعجز عن القيام بها ، فتنصرف نفسه عن أدائها ويضيع وقته سدى

وأن يعتمد على نفسه في الأعمال التى لا يصح أن يكلها إلى غيره ، فان كل إنسان مشغول بعمله الخاص به ، ولا تنتظر من أحد أن يقوم بأعمالك تمام القيام

ماحك جلدك مثل ظفرك فتولَّ أنت جميع أمرك

« ولا تكل إلى غيرك مايختص بمباشرتك »

وإنما رجل الدنيا وواحدها ممن لا يعوِّل فى الدنيا على رجل

وكيف تنتظر ممن ينافسك فى ميدان المباراة أن يعطيك من النصح وإتقان أعمالك مايريد أن يسبقك فيه

وعليه أن يقسّم أوقات المذاكرة ، ويجعل لكل علم وقتاً معيناً يتعهَّد فيه ما أخذه من دروسه

فإذا خفى عليه شىء منها سأل عنه أُستاذه فى الوقت المناسب ولا ينبغى له أن يدع دروسه بلا مذاكرة إلى قُبيل الامتحان بأيام معدودة ثم يكدّ ذهنه فى مراجعتها بحال قد تؤدّى به إلى ضعف الجسم عن عن أداء الامتحان ، كما يحب لنفسه ويحب له أولياء أموره

وأن يأخذ نفسه وقت الامتحان بالرّوية وإنعام النظر فيما

يلقى عليه من الأسئلة ، ولا يبتدىء فى جواب حتى يعلم علم اليقين أنه هو المراد من السؤال، وألا يدع للوهم والجزع واليأس على نفسه سبيلا فإن جَمَعَ تلميذ كل ما سبق فبشره بعد ذلك بالنجاح والفوز المبين

٣٣ — ﴿ فوائد المطالعة ﴾

إنك لن تستطيع أن تكون أديباً أو كاتباً مجيداً طلق اللسان سلس البيان ، إلا إذا كنت واسع الاطلاع على أساليب اللغة ، متضلعاً من فنونها ، فتختار من جزل الألفاظ ورائع العبارات ما تملك به على المخاطب سمعه وعلى القارىء فؤاده ولبه ، فتستميل القلوب والنفوس بسحر لفظك ، وتسترق العاصى وتستدنى القاصى بآيات وعظك ، فتنبّه الغافل ، وتَهُزُّ الخامل ، إلى مراقى السُّؤْدَدَ والكمال

تشرف بالمطالعة على ما أودع فى بطون الكتب من ثمرات العقول والأفكار ، ونتائج العلوم والأنظار ، ووديعة السلف إلى الخلف ، وميراث الآخرين من الأَولين ، بها تستعرض أمام عينيك بدائع المخلوقات وخواص الكائنات ، وما تجشَّمتَ الأخطار ، ولا ترامت بك بك الفيافي والقفار ، فتقيس الأشباه والنظائر بعضها ببعض فيصح منك الاستنتاج ويشحذ فكرك ويكمل عقلك ويصيب حكمك

واعتبر ذلك بحال طالبين أحدهما أمعن فى الاطلاع على خبايا الكتب ، وتحلى بما فيها من علم وأدب ، والآخر حجب نفسه عن

أسرار الحكمة ـ تجد الأول ارتفع به فضله إلى أعلى عليين ، والآخر هوى به نقصه إلى أسفل سافلين ،وحرم ميزة الانسان ،وكأنه ما كان

٣٤ ـ ﴿ البحار وفوائدها ﴾

المراد بالبحار مايشمل تلك المحيطات التى تغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية بالماء وماأودع فيها من بدائع المخلوقات وأحاسن الموجودات خلقها جل شأنه وجعلها مصدر الحياة ، ومنشأ الغيث ، وقوام المعيشة ونظام العمران ، وسُبل التراسل ، وحلية الكون

فاذا سطعت عليها أشعة الشمس تصاعد من مائها بخار ينعقد فى أعالى الجو سُحُباً تحملها الرياح إلى حيث منابع الأنهار التى يزول بها الجدب ، وتنشر بها بشائر الخصب ، ويحيا بها الانسان والحيوان والنبات (وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج)

وعليها تسير الجوارى المنشآت فيها كالأعلام ، مترسلة بين الممالك والقارات ، حاملة أنواع البضائع وأصناف المصنوعات ، ونتائج العلوم وثمرات الأفكار

وفيها تسبح الاسماك المختلفة الانواع التى نتغذّى بلحومها ونتداوى بزيوتها

ويستخرج منها اللؤلؤ والمرجان المستعملان فى الحلية والزينة

ويستخرج منها أيضاً الاسفنج المستعمل فى نظافة الأعضاء والأدوات

وقديستخرج من مائها أيضاً الملح بواسطة أحواض صناعية كما فى ملاحات رشيد : ولايخفى ماله فى إصلاح الأغذية التى هى قوام الجسم وسبب بقائه ونمائه .

وإن الجهات التى حرمت من البحار لاتتوفّر لها كل تلك الفوائد ولاتكاد تصلح للإقامة فيها

واعتبر ذلك بالصحراء الكبرى وجهاتها الشاسعة : فلماأن خلت من البحار كانت مهبّ رياح السموم وخلوًا من الحيوان والنبات اللهم إلا فى قليل من جهاتها صلح بواسطة جوارى العيون فيه

وقد نبهنا جلَّت حكمته على جماع فوائدها بقوله تعالى (وهوالذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)

٣٥ — ﴿ الشوارع وتنظيمها وتجميلها ﴾

الشوارع طرق عامة يسلكها الناس مُشاة ورُكباناً ، بين مبكّر لتجارته ، وغادٍ لصناعته ، وطاوٍ مَديدَها فى بطون المركبات وسريع المخترعات ، إلي حيث جليل الأعمال ، ومعاهد التعليم والعرفان ، ومتردّد فيها ذهاباً وجيئة لحمل الأثقال ، وأنواع البضائع ونفائس الأموال ، وهكذا تظل الطرق جمع النهار ، وناشئة من الليل ، مزدحمة

بالمارّين ، وغاصة بالمتردّدين

وإن سُبلاً هـذا شأنها لجديرة بالاتساع والتمهيد ورصفها بدقاق الحصى ومتهدم الأحجـار ، فلا تضيق بأهلها ، ولا تتّسخ بانسكاب الأمطار فيها ، وأن تنظف بالرش والـكنس تخفيفا لوطأة الحرّ وإخماداً لمـا يثور على الأعـين والأفئـدة من الأتربة المحملة بجراثيم الأمراض ، وأن تُوَشَّي جوانبهـا بباسقات الأشجار ، وتزين ميادينها (ساحاتها) ببدائع الأزهار ، استجلاباً للظل وترويحاً للنفوس وتنقية لمـا فسد من الهواء بتنفُّس الانسان والحيوان ، وأن تنـار ليلاً تعميماً للانتفاع بها ، ودفعاً لمـا عساه يحصل من الأخطـار وشرور أهل العدوان ، وأن يقوم عليها من رجال الشُّرطة من يصدُّ هجمات المغيرين ، ويدفع أخطار المجرمين ، ويميز ذوى الشمال من أهل اليمين

وعلى الجملة ـ انتظام الشوارع شأن من شؤون الأمم الراقيـة فكمال تنسيقها وتمام ترتيبها تابع لـكمال ترقيتهم وتقدم حضارتهم

٣٦ ـ ﴿ كيف يختار الانسان لنفسه صديقاً ﴾

يميـل الانسـان إلى معاشرة بنى جنسه ، ويحنُّ إلى وطنـه ويشتاق إلى إخوانه ، ويـكره الوحدة ، ويسأم العزلة ، وخير صاحب يركن إليه بعـد الخبرة ، من يوافق الطبع ، ويبعث على إخائه حسن

الحلال ، فيتوسَّم فيه الطباع الـكريمة ، والصفات الطيبة ، ويتجلّى فيه كمال المروءة وحب الخير والانصاف والشهامة والصراحة فى الرأى والصدق فى القول ورجاحة العقل وقوة الرأى ، مع فـكر ثاقب وسماحة النفس وكرم العاطفة ، ولطف الذوق والاخلاص فى العمل واتقانه ، وأداء الواجب واستقامته وسيرته الطيبة

والشدائد مسبار الإخاء ، فالصديق الصدوق من ساعدفى الشدة وعاون وقت الحاجة ودافع بالنفس والمال

جزى الله الشـدائد كلّ خير   عرفت بها عدوى من صديقى

فاختر أيها العاقل أخاً كرُمت أخلاقه وطهُرت أعراقه وحسنت آدابه واستمسك بودّه وحافظ على إخائه ، وإن بدت لك منه هفوة فاسترها ، وان وقعت زلة فاغتفرها وعامله بالحسنى وشاوره وقـدّم له المحبة والاجلال وأطع أوامره واهجر أعداءه وتخلّق بأخلاقه وارض له ماترضاه لنفسك

٣٧ ـ ﴿ مقارنة بين المتعلم والـكسلان فى الهيئة الاجتماعية ﴾

المتعلم له درجة عالية ومستقبل حسن ، يسود على قومه ، ويبلغ المنزلة السامية فى نفوسهم ويشرف ، وكم متعلماً اتسع أمامه ميـدان الرزق الواسع ، وأغدق الله عليه بالخيرات والبركات ، وابتسم له الثغر وانفتحت له أبواب الخير والسعادة ، ورفرف عليـه العز ، فيربح فى

تجارته بعلوّ همته، وحسن تدبيره، وينجح فى صناعته بثاقب فكره وقوّة عقله وثبات عزمه. وأنه ممتلىء نشاطاً وغيرة وذو مكانة وتجلة واحترام، على أن المتعلمين هم عماد الحكومة وقضاتها وولاة أمورها وساستها وزعماؤها. وأما الكسلان الذى فترت همته عن طلب العلم فجهول خاب مسعاه وساء حاله وارتمى فى بحار الشقاء والمسكنة وعيشه ردىء، وحالته بؤس، ويتجرع كأس الآلام ويتفتت كبده أسفاً على حرمانه من معاهد التربية، ويسكب الدمع ندماً على ما ضيع ولات ساعة مندم

والعلم طلابه فضلاء، أمر الله به النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وقل ربى زدنى علماً)

وقال حكيم « تعلموا العلم فان كنتم سادة فُقتم أو وسطاً سُدتم

العلم يرفع بيتاً لا عماد له والجهل يهدم بيت العز والشرف

٢٨ـ ﴿ العوم والسباحة من لوازم الحياة ﴾

العوم والسباحة من أنواع الرياضة البدنية التى، تقوّى العضلات، وتنمى الجسم وتزيد الفكر قوة ونشاطاً، وقد اعتنت الأمم الراقية بالسباحة وعلّمت أبناءها فنّها ليكون لهم دراية بضروبها فيركبون البحر ويعبرون النهر بقلب مطمئن فلا يخشون غرقاً أو خطراً، وتمخر السفينة عباب الماء وركابها فى سلام وأمان، وإذا طرأ حادث الغرق

سبحوا إلى شاطىء السلامة ونجوا ـ والعوم من حيل صائدى الأسماك وحرفة الملاحين ، فيساعدهم على أداء مهنتهم ويزيدهم قوة ونجاة وكسباً حلالاً ـ فكم من غريق تقاذفت به الأمواج ونجاه الماهر فى السباحة وأزال عنه الخطر الداهم ، وكم من سفينة جاءها ريح عاصف وأدركها الغرق ، فنجا من يعرف السباحة ومات الآخرون الذين لا يعومون والسباحة تمكّن صاحبها من الفرار من حريق أو حيوان مفترس أو عدو كامن له وقد وجد عبور البحار نجاة له فيصل إلى الشاطىء الآخر بحسن سباحته ـ والماهر فى السباحة يغوص البحر لاستخراج نفائسه ودرره وانتشال ما وقع فيه من متاع وحلى ثمين ويخرجه بصدر رحب منشرح بلا تعب .

وان من واجب الحكومات أن تدرّب جنودها على العوم حتى إذا قذف بهم العدوّ « والحرب خدعة » إلى ساحل بحر أو ضفة نهر سبحوا فى هذا البحر أو النهر واطمأنّت نفوسهم ، وقويت عند الدفاع قلوبهم وتحققّت سلامتهم بمعرفة السباحة ـ وللسباحة عظيم المزايا فى الصحة ، وفى النجاة للقاطنين بجوار البحار ، والساكنين على شواطىء الأنهار .

٣٩ ـ (كيف تختار لنفسك بيتا صحيا تسكنه)

البيت الصحى هو البيت المقام على جفاف الأرض وصلابتها

بعيداً عن المستنقعات والمراحيض والمعامل والمستشفيات والاصطبلات تدخله أشعة الشمس ، ويتجدّد هواؤه الطلق النقى وفيه النوافذ الكافية ، والحديقة الغناء ، ومرافقه مستوفاة وجواره حسن ، وتنظف حجراته وأثاثه وجدره وسقفه بالمحسّات اللازمة لازالة ما علق بها وتكنس أرضه وتخرج القمامة منه ويزال ما على أبوابه ونوافذه من الأتربة ، ويكون على نهر جار أو طريق متسع أو شارع كبير ليسهل الوصول اليه .

٤٠ ـ ﴿ الغد ليس فى اليد ﴾

الغد أقدارٌ مكتوبة وغيوب يعلمها الله سبحانه وتعالى ، وأعمار موهومة أو منهوبة ، وأرزاق مقدرة أو مسلوبة ، وآجال محدودة وموعده أول النهار وقُبَيْلَ الأسحار ، فترى فيه الفجاءات والأخبار ويُقضى المحتوم ، ويظهر المكتوم ، وينفجر المختوم ، وهو مصدر الآمال ، ومظهر الأعمال ، ومصرف الأموال ، وميدان سباق الرجال ، يدأبون ويسرحون ويمرحون فى نوره الساطع وبهائه وجماله ، فالغد اليوم الثانى وفيه المخبآت ـ قال تعالى (وماتدرى نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً) وقال الشاعر

وأعلم علم اليوم والأَمس قبله ... ولكنّنى عن علم مافى غدٍ عمى

٤١ ـ ﴿ وصف طيارة ﴾

الطيارة سفينة الهواء ، وقاطرة الفضاء ، تسمو إلى العلا . وتصعد إلى العلياء ، وتسير فى الرياح كالطائر الذى يُحلّق فى الجو ، وتئزّ أزيزاً ، وهى طائرة . وتجتاز الأفق بآلة يدفعها رُبانها كما يشاء ، ولها جناحان يساعدان على الطيران ، وعدّة كالصندوق مخزن السائل الذى يولّد الحرارة ويدير آلتها ويحرك عدّتها فترفرف بجناحيها ، ولها فى المؤخر مايشبه ذيل الطائر لتركن اليه عند الهبوط وتنزل من أعلى بلاضرر ، وقد أغنت الإنسان عن السفر فى البرّ والبحر ، ووفّرت عليه المشقات التى كان يتكبدها ، والأموال الطائلة التى كان ينفقها هذا إلى سرعة الوصول وراحة البال ، والتنزّه فى الهواء النقّى ، وقد تكون نقمةً فى الحرب ومصيبة على الأعداء ، بما ترسل عليهم شواظاً من نيران قنابلها وقذائفها ، فتبيد الجيوش ، وتهدم المنازل والمدائن ، وتغرق السفن ، وتعطل القطارات ، وتوقف حركة الأعمال وتتلف الزرع ، وأول من فكر فى الطيران « عباس بن فرناس » الأندلسى : فانه صنع لنفسه جناحين وغطاهما بالريش وطار

ولكنه لم يحترس فسقط على مؤخره فتهشم ، ثم صنع « ريت وأخوه » طيارتهما وطارا بها مائتين وخمسين ميلاً سنة ألف وتسعمائة وخمس م ، وقد ارتفع « غارو » الفرنسى نحو خمسة آلاف وأربعمائة متر

٤٢ ـ ﴿ وصف سيارة ﴾

السيارة مركبة جميلة ، تسير بقوة الدفع ذلولة المركب ، حسنة المنظر ، سريعة العَدْو ، توصّل الانسان إلى غرضه بأقرب زمن، وتقرب البعيد ، وتقصى القريب ، يجلس فيها السائق وخلفه الراكب متكئاً على النمارق ، ذات بوق ينفخه السائق فيظهر صوت يُعلم المارّ فى الشارع فيخليه ، ويتجنب طريقها لتمرّ مرّ السحاب أو البرق اللامع ولها أربع عجلات لكل واحدة إطار من منفوخ المطاط على شكل المحيط لتكون سريعة السير والجولان ، ولها عدّة فى صدرها يوضع بجوارها السائل الذى يولد الحرارة فى علبة ثانية لتنشأ القوة الكامنة التى تحرك هذه العجلات ، وفائدتها سهولة المواصلات وربط بعض الجهات ببعض ، وانتهاز الفرصة لأصحاب الأعمال ، ونجدة المستغيث وعون على الأمن والنظام في البلاد

هذا ـ وقد أفادت فائدة جليلة فى البلاد التى لا يمر فيها القطار فتنقل الركاب بأجر قليل إلى الجهات النائية بلا مشقة

٤٣ ـ ﴿ وصف مصر ﴾

تقع مصر فى الشمال الشرقى من قارة افريقية ـ أرضها زراعية مخصبة ، نباتها حسن وخيراتها جمة وماؤها عذب وهواؤها جيد وسكانها هادئون كرماء لضيوفهم يحبون الغريب ويقدّمون له صنوف النعيم

والاحترام، ويحسنون وفادته، ويبذلون قصارى جهدهم في قضاء مآربه ويعطفون عليه بصدر منشرح وثغر بسّام وطيب خاطر وحسن نية ـ ولذا يؤمّها من البلاد النائية الوف من الزوّار والسياح ينظرون إلى مناظرها البديعة وآثارها الخالدة وعاديات ملوكها القدماء كالأهرام العظيمة والتماثيل وبقايا الفراعنة والصور والنقوش والمبانى والمساجد والكنائس من آثار العرب وتماثيل اليونان والرومان السابقين ـ وحاضرتها القاهرة ومن ثغورها الاسكندرية وبور سعيد وفيها أربع عشرة مديرية ويزيد عدد سكانها عن أربعة عشر ألف ألف يشتغل أغلبهم بالزراعة وللصناعة فيها نصيب وافر — ولكن لاتقوم بحاجات أهلها، وتجارتها واسعة. ونيلها حياتها، عليه أنشئت القناطر والجسور، ومنها فتحت فوّهات الترع والمصارف لسهولة ريّ الأرض وسقى الحيوان. وفيها السكك الحديدية تربط جهاتها ببعض وتقرب بعيدها، والأسلاك البرقية والمسرة والمركبات الكهربائية بالقاهرة والاسكندرية

وهى من أقدم البلاد حضارة وتقدّما دخلها كثير من الأنبياء والعلماء والحكماء كسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام وكثير من أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهى كنانة الله فى أرضه ومحط رحال العلماء وكعبة الفضلاء وفيها أكبر جامعة هى الأزهر الشريف بناه جوهر الصقلى أحد قواد المعز لدين الله الفاطمى ثالث

خلفاء الفواطم سنة ثمان وخمسين وثلثمائة من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وسُمِّيت بالقاهرة نسبة إلى القاهر « المريخ » برج الطالع السعيد الذى اختاره جوهر الصقلى لمبدأ بنائها وتخطيطها

٤٤ ـ ﴿ وصف الأهرام ﴾

بنى ملوك مصر القدماء الأهرامات العديدة وجعلوها حصناً حصيناً متيناً لتحفظ جثثهم بعد الموت من عبث العابثين ، اعتقاداً أن حفظ الجسم بعد الموت على صورته يبقى الروح متمتعاً بالحياة . وهى تدل على دقة البناء وفخامته وجمال التماثيل ، وإنه لبناء معجز ومنظر غريب ووضع عجيب ، وشكل بديع ، وآية من آيات البراعة والتقدم فى فنون الهندسة والمعمار والنقش والتصوير . بنى من أعظم الحِجارة والصخور وهو بناء بديع الإلصاق مربع القاعدة مخروط الشكل تحيط به مثلّثات أربعة أضلاعها متساوية وأطرافها محدودة تنتهى بنقطة واحدة يمكن الصعود اليها بتعب وعناء ـ بناء لا يتأثر بهبوب الرياح وهطل الأمطار وزعزعة الزلازل مع إحكام الصنعة وإتقان الهندام وحسن الوضع ـ منها الهرمان العظيمان بالجيزة ، يقال منقوش عليهما « إنى بنيتهما فمن يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما فإن الهدم أيسر من البناء » وقد فتح بعض الملوك مدخليهما بعد مشقة وكدّ ، فوجدوا ممراً طويلاً يقطعه الانسان منحنياً تعظيماً للملك بعد موته كما كان يعظّم فى حياته

وفى منتهى الممر مرقى إلى حجرتين على اليمين منهما حوض عظيم هو قبر الملك عليه كثير من النقوش والتصاوير ، وقد احتمل الملوك تماثيل من ذهب وفضة وزينوا بها المتاحف ، وبنى الملك خوفو هرم الجيزة الأكبر الذى يقرب منه صورة من صخر رأسها رأس إنسان وجسمها جسم أسد وهذا رمزٌ للعقل والقوة ، ويسمى « أبا الهول »

٤٥ - ﴿ وصف ليلة عرس ﴾

اجتمع صفوة الأحباب وخيرة الأخدان وعلية القوم وزينة الخلان والأصدقاء فى ليلة أُنس وسرور وفرح وحبور ، فأخذ حسنها بمجامع القلوب وقد سطع نورها وتم بهاؤها وطلع بدرها على أعلام منشورة ، وثريات منثورة ، ورحبة فسيحة واسعة الأرجاء حوت الجمال والرونق والصفاء فى أرض صفراء فوقها نمارق مصفوفة وزرابىُّ مبثوثة ، وعين جارية وسرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة وكراسى صفت صفاً محكماً للزائرين المشرفين ، ومنسوجات هذه المقاعد مزركشة وحللها بديعة قد نصبت عليها موائد الكرم والطعام الشهيّ ليتناوله أهل الود والوفاء ، واخوان الصفا

٤٦ - (من عَمل صالحاً فلنفسهِ)

آيةٌ كريمة تدل على أن العمل الصالح يكسب صاحبه السعادة التامة والنعمة العامة فى الدنيا ، ويحمل له النعيم الدائم فى الآخرة

والحياة الطيبة والعمل الصالح هو المتقن الذى يجلب رضا الله تعالى والناس ـ والقول الطيب والأخلاق الحميدة وحسن المعاشرة والذكر الحسن والسيرة الطيبة ـ وعمل النافع المفيد الخالد الاثر مثل إنشاء المستشفيات ومعاهد العلم واطعام الفقير وتشجيع العاملين

وكل امرئ يولى الجميلَ مُحبّبٌ　　　وكل مكان ينبت العزّ طيّبُ

أما من أنفق حياته فى اللهو واللعب وصرف ماله فى شهواته وزينته : أو جاد به تفاخراً فهو من الأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وباؤا بكره الناس لهم ، ومات وهو مذموم فى الدنيا والآخرة ـ وأما العاملون المجدون الصالحون ، فنضرب بهم الامثال فى حسن الاعمال ، والهدى والنور ، والعلم والعرفان بما تركوه مدى الدهر

مَنْ يفعل الخير لايعدم جوازيه　　　لايذهب العرف بين الله والناس

وما للمرء خيرٌ فى حياة　　　إذا ما عُدَّ من سِقْطِ المتاعِ

ولنا قدوة بخير الخلق صلى الله عليه وسلم ، فحياته كلها عملٌ صالح ،وفضل وخير، وحذا حذوه الخلفاء الراشدرن والعاملون المتقون

تدول أحاديث الرجال وتنقضى　　　ويبقى حديث الفضل والحسنات

٤٧ ـ ✽ الناس قد مالوا　　إلى مَنْ عنده مالُ

المال مجلب الفضائل ، وسبب مكارم الأخلاق ، وزينة العقلاء

ومصدر الكرم والإحسان ، يكثر الاخوان ، ويدعو إلى الأصدقاء والخلان ، وبه ينقلب العدو حبيباً والبعيد قريباً ويصير الصعب سهلاً

وإن قلّ مال المرء أقصاه أهله وأعرض عنه كل إلف وصاحب
وكذّبه الأقوام فى كل منطق وإن كان فيهم صادقاً غير كاذب

المال يقضى الحاجات ، ويجلب اليسر والرخاء ، ويكسب الثناء والحمد بمواساة الفقراء ، وتربية اليتامى ، وإعانة المساكين ، وبناء دور العلم والمستشفيات ، وبه البذخ والتّرف والإسراف ، والعجب والبخل ، وكسب الرذائل والقبائح ، وهنا تضيع منه الفائدة ، لأن الخير لا يأتى إلا بالخير كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . وصاحب المال إن أنفقه فى وجوه الخير سبّب له الخير والمدح والذكر الحسن والسيرة الطيبة وكان ذخيرة عند الله سبحانه وتعالى ينفعه فى الآخرة (ماعندكم ينفد وما عند الله باق)

أما إذا أنفقه فى الموبقات فوبال عليه لأنه يهوى به إلى الهلاك والدمار ، ويقوده إلى الضياع والمذمة ويسبّب له العذاب الأليم

فالمال نعمة كبرى لمن حافظ عليه وأنفقه فى طلب المحامد وأعمال البر ، وتشييد معاهد التربية ودور الصناعة ، وجاد به على الفقراء وتحلى بالمكارم والكرم ، وأرضى الله سبحانه وتعالى والناس أجمعين

٤٨ — خير الصنائع فى الأنام صناعة   تنبو بحاملها عن الإزلال

الصناعة فى اليد أمان وسلامة من الفقر، وباب التقدم، وعامل النجاح، وينبوع الفلاح، ومصدر الثروة، وطريق الغنى وهى عماد الأمم وحضارتها، وسبب رخائها ويسرها وسعادتها. والصناع هم الذين يوصلون أمتهم إلى الراحة وذُرا الحضارة، وهم العضو العامل فى جسم الشعب، إذ الطعام والأثاث والمصابيح والآلات البخارية وغير ذلك صنع النجار أو البناء أو الحداد أو الفلاح أو النحاس أو صانع الأدوات التى تسد حاجتنا الضرورية، وتسهل علينا سبل المعيشة والحياة الرغدة. ولقد اعتنى بالصناعة الأمم الراقية وأنشأوا لها معاهد التعليم للنبوغ والاختراع والابتداع، وأوجدوا لها مايرقيها من المعادن والوقود، وأغدقوا على العمال الأجر الوافر، والرزق الواسع، فيصنع العامل إلى بلاده مايلزم لها ويرفع مقامها إلى العلا ويبعد عنها المشقات ليكون لها الحظ الأوفر، وتصبح ذات نفوذ عظيم وسلطان وملك كبير، ولا تفتقر إلى غيرها، وبذلك يزيد مالها وتعظم ثروتها ويضحى أفرادها أغنياء قادرين على الأعمال الجسيمة وإبرازها فى أسواق العالم ليعيشوا عيشة راضية متمتعين باليسر والرخاء، والسعادة الكاملة والنعمة الشاملة.

٤٩ — ﴿ فوائد إنشاء المتنزّهات فى المدن ﴾

المدن أحوج البلاد إلى حدائق زاهرة ، ورياض نضيرة ومتنزهات أنيقة ، وجنات غناء ، ذات أشجار فيحاء ، تهدى أريجها الى الأفق فتعطر النسيم وتنقى الهواء ، وتكون مستراضاً لأصحاب الاعمال العقلية ، يهرعون اليها بعد انتهاء أشغالهم ، فينعمون النظر ويمتعون البصر ، ويستنشقون الهواء الجيد ، وعليل النسيم ، فيشفى منهم العليل ، و يبرأ السقيم ، وتزول عنه الأكدار ، وتنصرف الهموم ووساوس الأفكار ، ويشحذ ذهنه ، وتصفو قريحته ، وينعم باله ، ويحسن حاله — وذلك لأن المدينة مملوءة بالسيارات والمركبات و يمنع ارتفاع مبانيها تخلل الهواء النقى فى أرجائها — لهذا وجب مراعاة للصحة وجود هذه البساتين فى المدينة لتزيل الأضرار والهواء الفاسد فتحيا الناس حياة طيبة وتحفظ صحتهم من الجراثيم التى تؤذى أجسامهم ، وتكاد تهلك أبدانهم ، على أنها تشرح الصدر ، وتبسط النفس ، وتجلب الأفراح بحسن منظرها وجمال طبيعتها

٥٠ — فوائد الخيالة (السينما توغراف)

تظهر الخيالة صوراً متحركة تمثّل الوقائع أيّما تمثيل وترسم الأشباح مرات عديدة ، فى أوضاع مختلفة ، ليتجلّى منظرها ، ويعظم وقعها فى النفوس لتكشف عما وراءها من الأخلاق والعادات

والأفعال — وتمثل جيشاً جراراً وجنوداً زاحفةً على الأعداء لتحثّ على الشجاعة وتثير الهمم العالية لاقتحام الأخطار بلا وجل ، وهكذا ترسم كبار الأعمال ، وقواد الجنود ، والملوك والأمراء وغيرهم ليرى الشعب المنزلة العالية التى نالوها ، والدرجة السامية التي وصلوا اليها بأعمالهم ، هذا الى رسم الرذيلة وإظهارها بمظهر الدناءة والقبح وبعض مرتكبيها ، وهى تمثل الصور غالبًا بحجمها الطبعى . وإذا أريد تكبيرها وضعت بلورات مكبرة أمام المصباح فتظهر بحجم كبير يسرُّ الناظرين ، وهى تمثّل الحوادث ، والوقائع الحربية ، لتكون عظات وعبراً ، يتخلّى عنها العقلاء المفكرون ، وهي تبهر اللب وتستوقف البصر ، برسم صور على الآلة كأنها أشخاص حيّة تروح وتغدو ، وتصعد وتهبط ، وتشير وتأكل وتشرب ، وتفرح وتحزن وتكرّ وتفرّ ، وترسم صور الأبطال والمغنين ، وعظماء الرجال والفاتحين والمخترعين والمؤلفين الأفاضل

٥١ — ﴿فوائد دور التمثيل عند الأمم الراقية﴾

دور التمثيل الحق معاهد للتربية الصحيحة ، لأنها تمثل الأخلاق الفاضلة بأجلى معانيها ، وتبعث على حب الخير والميل الى الفعل الجميل إذا كان الممثلون علماء فى الأخلاق ، منزهين عن الدنايا والقبائح ، وهى درس عظة بالغة ، وذكرى حميدة ، وحِكم رشيدة ومنبع سرور معين

يشرح الصدور، و يبسط النفوس، بما يتلى فيه — و يرى من المشاهد البهيجة، والمناظر النضيرة، عظة تتلو هاعظات، وعبرة إثر عِبَر، فيتأمل الفكر، وتسمع الأذن، وترى العين حوادث الأقدمين، وشجاعة القادة العظماء، وأفعال الملوك والامراء، وحكم الشعراء، ونثر الأدباء

التمثيل مرآة العصور الغابرة، ينعكس على أشعتها التاريخ الماضي والتمثيل أستاذ ماهر يقوّم المعوج، و يرد الضال، ويرشد الخاطىء و يلقى على شباب المستقبل صحفاً من أخلاق آبائهم وأجدادهم وآرائهم ليسير بهم إلى مستوى الكمال وقمة العلا وذرا السعادة والمجد والعز والفخار إذا كان القائمون به أهل فضل وأدب وعلم وتأثير عظيم

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى و نفعل مثل مافعلوا

وبالجملة — فالتمثيل يهذّب العواطف، ويرقى الوجدان و يطهّر الأَخلاق من الادران، و يشذّب الذاكرة من الأَذى والقذى، وينقى النفوس والضمائر، وإنه لتاريخ صادق يهدى إلى الحق وإلي الصراط السّوى

٥٢ — ﴿ مَدَنيّة الشرق لها التقدم والسبق على مدنية الغرب ﴾

إذا ماخلا المرء بنفسه، وحاسب ضميره، قال إن مصر خاصة والشرق عامة، لهما اليد الطولى فى رقى الأُمم الأَجنبية، ولا تزال المدنية الشرقية ذات القدح المعلى والتأثير الفعّال فى مدنية الغربيين

من الوجهة المعنوية والأخلاقية — فالسيد المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام شرقي وشريعته شرقية ، وهو الذي أعطى مثلاً أعلى للرقي ، و إقامة العدل المؤسس على دعائم الحق مع حسن الشمائل وكمال الآداب ومكارم الأخلاق

٥٣ — ﴿ من فتح مدرسة أغلق سجنًا ﴾

المدرسة تهذّب أبناء الأمة ، وتربّيهم تربية شريفة ، بعيدة عن الإجرام ، وتطهّر أخلاقهم من جراثيم الشرور ، وأدران القبائح وتتعهد هذه الأغصان الغضّة فتنميها على نزاهة النفس ونقاوتها من اللؤم والمكر ، فتترعرع على الفضائل والكمال ، وتنمو على حسن الخلال ، وتزهو بالآداب في إبّان عمرها ؛ وفي عنفوان شبابها ، وتقوّم معوج الأخلاق ، وتنهى عن ارتكاب الخطايا وتزوّدهم بالنصائح الغالية وتعلمهم الشرائع السماوية والوضعية والصنائع المختلفة ـ فيجد الابناء حياة جديدة فيها الأخلاق الحميدة ، والمعاملة الحسنة والأمانة والصدق والوفاء وحب الخير ، وعدم الأذى ، وهكذا من الصفات المحبوبة وتضم المدرسة آلافا من الأبناء المتعلمين ، فينشئون على التربية المكتسبة ، وجمال الآداب ، بعيدين عن الرذائل والشرور ، وحينئذ تغلق السجون ، إذ لا جرائم تقع ، ولا حوادث ترتكب تخل بالأمن ، وبذلك تأمن الحكومة جانب الأشرار وتطمئن الناس

على أرواحهم وأموالهم ، فرحين مستبشرين .

٥٤ ﴿ القطن المصرى ﴾

من نعم الله جل شأنه أن جعل أرض مصر بلاداً زراعية يجود فيها كثير من الحاصلات النباتية ، وأهمها القطن الذى هو روح الحركة الاقتصادية فيها ، وعليه يتوقف غالب شئونها ، سعداً وشقاء وشدة ورخاء ، ومنه يتخذ كثيرمن أنواع الملابس والفُرُش ويستخرج من بزره زيت يستعمل فى بعض لوازم الانسان

ولهذا يجب علينا معشر المصريين على اختلاف درجاتنا أن نبذل كل ما فى طاقتنا فى تنمية محصوله وتحسين نوعه لكى تنمو ثروة القطن ـ وذلك بنشر التجارب والآراء المفيدة فى اختيار الوقت الملائم لزرعه وتعهده بالسقيا والخدمة ـ وقد دلت التجارب ان أولى الأزمان بزوعه هو شهر مارس . وان ما يلائمه من مرات السقيا سبع قبل فيضان النيل وثلاث بعدئذ ، ومن الواجب أن نتعهد أرضه بالعزق والتقليب وموالاة الخدمة إلى أن يبتدأ فى جمعه ـ أواخر شهر سبتمبر وأوائل شهر أكتوبر ـ فهو إذا راعي زراعه هذه الأمور وسلم من الافات السماوية درعلى القطر الخير والبركة ، وإن أصيب بأدهى آفاته وهى الدودة وجب على الزراع المبادرة بإبادتها وهى فى صورة بويضات لئلا تطغى وتصير ديدانا غلاظاً لا تبقى ولا تذر ، ثم تصير

فراشاً يبيض ويتضاعف . كما أنه يجب على ولاة الأمور وأولى التجارب أن يساعدوا الزراع فى استئصال هاته الآفة

وقصارى القول – ان القطن أهم مورد لثروة المصريين عامة فقد يبلغ ثمنه كل عام خمسين مليونا من الجنيهات فيكاد يكون قطب رحى الدولة المصرية ، فإذا أصيب أو تدهور ثمنه ساء حال الأمة والحكومة

٥٥ – ﴿وصف الأمم الراقية﴾

لان لها الحديد على صلابته وشدة بأسه ، فاتخذت منه سجناً حصيناً لعدوين متضادين هما الماء والنار ، فكان من كفاحهما فى ذلك السجن أن تصعدت زافرات الماء وغلت مراجل غيظه فالتمس الخلاص منه فلم يستطع لذلك سبيلا فطار بسجنه فى الفضاء ـ فاستعمل الانسان تلك القوة الفائقة (قوة البخار) فى طى المسافات السحيقة ، وتقريب الأمم المتنائية ، وكسر نخوة البحار بامتطاء ظهورها وشق أحشائها وفى تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريك خفف من أوصاب الصناع ومتاعب العمال ، وغمر أسواق التجارة بضروب المصنوعات البديعة ، فأصبح الفقير شريكا للغنى فى الاستمتاع بها بعد أن كان محروما منها ، واتخذت لها من الحديد قذافات ترد هجمات الأعداء ولا تقف أمامها شجاعة الشجعان ، ولا تغنى عنها مصاولة الفرسان فملكتها نواصى الأعزاء ، وبسطت لها السلطان فى جميع الأرجاء

لفتها قصيف الرعد ووميض البرق وغيرهما من آثار القرى الكونية التى طالما مرت على من غبروا من أجيال الأمم وهم عنها معرضون فحدست ان فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى وأنها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار — فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين أثرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها فى مكامنها ، وما زالوا يصلون الليل بالنهار في تتبعها حتى اهتدوا إلى ينابيعها ، وحاصروها فى مجار ضيقة لا قبل لها بتعديها ، ثم ألقوا مقاليدها إلى الأمة فكان من تصريفها فى مرافق الحياة ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة إمكان عقل المخلوق وعدة تحيل الماء هواء ، وتقلب الليل نهاراً ، ونبض أقرب من لمح البصر يصير تارة مناجاة كتابية مطوحين فى مطارح الغربة تستنجز بها الأسور ، وتقضى بها المآرب . وطوراً تكون مخاطبة شفهية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما بينهما من بعد الشقة

وكرَّة تدفع جاريات تطير طيراناً على سطح الأرض مقلة ما شاءت أن تقل من الناس والمتاع

٥٦ — ﴿ وصف الأمة العربية ﴾

رباها مرشدها الأكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرته السنية على حب العدل والايفاء بالعهود وانفاق الأموال فى وجوه

الخير والتآخى فى نصرة الحق ، والترفع عن سفساف الأمور ، وأوجب طلب العلم من المهد إلى اللحد على أفرادها نساء ورجالا غير مخصص علماً بعينه فنبغ فيها رجال لم تسمح الأيام بنظائرهم ، ولن تلد الوالدات أمثالهم . منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسة لم يمدها التاريخ فى غيرهم من السواس ، حرموا أنفسهم فيها ملاذ العيش . وصيروها على مصلحة الناس ، وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة . ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ، ودوخوا أكبر دول الأرض لعهدهم مع عام العدل فى معاملة المغلوبين وبذل الامن للمستأمنين ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم فى طلب الحقائق فلم يدعوا بابا من أبواب العلم إلا دخلوه على ما كانوا يلاقونه فى ذلك من صعوبة التحصيل لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم ـ يشهد لهم بذلك ما خلفوه من آثارهم التى تزدان بها دور الكتب فى معظم البلدان ، ومنهم مهرة الصناع الذين أقاموا من معالم الحضارة ما يحكم لهم بالتبريز على أقرانهم ويوجب لاخوانهم حق المفاخرة بهم

٥٧ ــ ﴿ وصف الشرف للامام المرحوم الشيخ محمد عبده ﴾

الشرف بهاء للشخص يحوم عليه بالانظار ، ويوجه إليه الخواطر والافكار ، وجمال يروق حسنه فى البصائر والانظار ــ ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن فى أمته أو بنى ملته

أو فى النوع الإنسانى عامة كانقاذ من تهلكة أو كشف لجهالة أو إنهاض من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعم أو تحذير من شر يغم، أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول أو جمع كلمة وتجديدرابطة

من أتي عملا من مثل هذه الأعمال له أثر من تلك الآثار فهو الشريف وان كان يسكن الخصاص والأكواخ ويلبس الدلوق والأسمال ويقتات بنبات البر . ويبيت على تراب القفر، هذا له حلية من عمله وزينة من فضله وبهاء من كماله وضياء من جده يهدى إليه ضالة الألباب .وتائهة الأفئدة تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره وتكتنفه ذرات القلوب المتطايرةإليه ولا تنفصلعنه، له من روحه قصور شاهقة وغرفات شائقة ومناظر رائقة وجمال باهر و نور ظاهر لايكاد يخفى حتى يظهر ولايكاد يسترحتى يبصر إليه، يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه إلى أعلى عليين، حياة طيبة فى القلوب وغرة مشرقة فى جبهة الزمان ـــ ولمثل هذا فليعمل العاملون

٥٨ ـ ﴿ ليس الرجل بماله وإنما الرجل بأعماله ﴾

الأعمال كثيرة متفاوتة فى أهميتها وكثرة فائدتها، وبحسبها تتفاوت العمال فى الفضل والمقام إذ الفرق بين رجل يجرى فى الطرق أمام العجلات ورجل يرشد الخلق ويهذبهم ويعلمهم مايفيدهم فى

دينهم ودنياهم ، كالفرق بين ذرة من الكائنات والكون كله فمشهوروا الرجال الذين قادوا الأمم إلى مافيه نجاحهم وثروتهم وراحتهم وسعادتهم لم ينتشر صوتهم فى الدنيا إلا بما يبينوه للناس من المعارف التامة والفوائد العامة حتى استنار بهم الكون . فمنهم هداة الخلق إلى خالقهم ، ورجال السياسة الذين ساسوا الناس إلى طرق الخير وضبطوا أعمالهم وأحوالهم ، ورجال العلم الذين رفعوا مناره وأظهروا عجائب المخلوقات ، وغرائب الكائنات ، فكثرت الأرزاق واتسعت أبواب المعيشة ، واستقام الناس وانتظمت أحوالهم

فهؤلاء هم رجال الأعمال الذين أفادوا البلاد، ونفعوا العباد فسعدت بهم الاوطان وافتخر بهم الزمان والمكان ، ولئن كان فى العمل التعب والمشقة ففيه اللذة والشرف

اصرف حياتك فى جد وفى عمل   تعد حيا ولا تركن إلى الكسل

والعمل هو الدليل إلى حاجات الانسان وعلى نسبته إلى الطبيعة ولولاه ما كان الانسان ولا كان العمران ـ وكل عظيم مما يملكه الانسان جاء به العمل العقلى والجسدى

فاكتشافات والاختراعات والمبتكرات والشرائع والنواميس والقوانين كلها نتيجة العمل والتعب . وأتعب الناس وأشقاهم من لا عمل له فانه لا يرجى منه نفع لنفسه ولا لغيره ـ والذين أوصلوا

العمران إلى حالته الحاضرة هم أصحاب الحرف ورجال العمل والتعب سواء أكانت أعمالهم جسدية أو عقلية — والعمل وإن كان لايقوم بلا مال بل هو الذى يدير دولاب الأعمال ويوسع نطاق العمران ولكن المال وحده لا يجعل للرجال أثراً يذكر ، ولا تاريخاً يؤثر ولا صيتاً يشهر ، فكم من ذى كنوز لا يعرف اسمه جاره ، وكم من فقير عامل له صوت فى أمته ، وكم من ذى فاقة يُشار اليه بالبنان وتلهج بذكره الألسنة فى كل زمان ومكان

هؤلاء الأنبياء والخلفاء والعلماء والملوك والأمراء هل كان تخليد أعمالهم لوفرة أموالهم . كلا . ثم كلا . فانما العمل هو الذي أوجب على التاريخ ألاّ ينكر مالهم من الفضل والعمل الصالح

وبالجملة — لم نر أديباً من الأدباء ولاحكيما من الحكماء يحث الناس على جمع المال لذاته كما أنه لم يقع نظرنا على عاقل يفتخر بماله وإنما المأثور عن الفلاسفة الحث على العمل والمثابرة عليه ، وما ذاك إلا لأن العمل هو الذى له قيمة فى الحياة وشأن عظيم فى رفع الرجال

نعم إن المال قد يرفع ولكن مركزه مركز المساعد الذى يمكن الاستغناء عنه ، ولاشك فى ذلك فان التاريخ لم يخلد ذكر الناس لوفرة مالهم — ولكن لما قاموا به من جليل أعمالهم

هؤلاء الأمم الغربية التى لها القدح المعلّى فى مضمار الحضارة

والعمران قد انبعثت منها أنوار العرفان فأفاضت على بنى الإنسان بما لم يكن فى الحسبان، ذلّلت الأرض بالبخار والكهرباء، وسيَّرَت الجوارى المنشآت على سطح الماء، وطيرت نسور المناطيد فى الهواء استجلاباً للرزق وتوفيراً للسعادة والهناء، وهى مع ذلك لاتزال تدأب وتستطلع من الأسرار المودعة فى الكون مايجلى القدرة الآلهية فى أجلى مظاهرها و يبرز العمل الإنسانى فى أكمل معانيه — وربما فى المستقبل يتعلق الإمكان بأبدع مما كان ـ ويخلق مالا تعلمون

٥٩ ﴿ أساس نجاح المرء فى حياته اعتماده على نفسه وعدم الثقة بغيره ﴾

أفضل ما يتحلى به العاقل اعتماده على نفسه فى جميع أموره وقيامه بحاجاته فى عموم شؤونه بدون أن يتكل على صاحب أو يعتمد على مساعد

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لايعوّل فى الدنيا على رجل

كيف لا — وأن طبيعة العمران وزّعت الأعمال على الناس فأصاب كلا منها على قدر طاقته — فاذا اتكل زيد على بكر فكأنه أضاف حمله إلى حمل بكر، وهذا لا يستطيع أن يحمل أكثر من حمله — وإذا كان الناس كلهم متّكلين فمن هو المتكل عليه منهم — فاذاً قاعدة الاتكال فاسدة طبعاً — على أن الإنسان له مطالب خاصة ومكلف بأداء أشياء يباشرها بنفسه، إن اعتمد على غيره فيها تعسّر قضاؤها

وباء بالحرمان والخسران . وكم من مقاصد للمرء ترك حبلها على كاهل غيره فضاعت وولّت الأدبار وقضى عليها بالهلاك والدمار . مع أنه لايتيسّر للمرء أن يجد فى كل وقت من يساعده فى أعماله ، كما أن بعض الأمور لاينبغى أن يتولى شأنها سـوى صاحبها والمطالب بها — وربّ امرىء يعتمد عليه الانسان وحينما يفتش ضميره ويرى ماأبطنه وأسره يظهر له جلياً مايسوءه ، ويعلم أن خذلانه أحب إليه من نصره

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ⠀⠀⠀ وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فيجب على العاقل ألا يعتمد فى قضاء مآربه إلا على نفسه ولا يظن أن غيره يهمه أمره فيثق به فان ذلك دليل على ضعف عقله وعلى كسله وخموله فلا يلبث أويقات ولا تمرّ عليه سُوَيعات إلا ويكون عالة على غيره واضعاً نفسه موضع المسكنة والمذلة والاحتقار

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ⠀⠀⠀ هوانًا بها كانت على الناس أهونا

وأيضًا يكون من اعتمد على غيره جاهلاً حكمة خلقه ، جهولاً بقول الشاعر العربي الحكيم

ماحكّ جلدك غير ظفرك ⠀⠀⠀ فتولّ أنت جميع أمرك

نعم ان فى الاتحاد والتعاون مزايا شريفة غير أن ذلك يكون فى الأعمال العامة العظيمة التى تحتاج الى المساعدة ، ولا يقوى الفرد

بنفسه على القيام بها ، فما أشد حاجة الأمة إلى أفراد يعتمدون على أنفسهم ويقوم كل منهم بتأدية ما كلف به فإذا دعاهم داعى التعاون والتعاضد لبوا نداءه وأجابوا دعاءه

نعم — ليس للانسان إلا ما سعى إليه بجده وبحثه معتمداً فى عمله وأداء شئونه على نفسه . فمن باشر أعماله وأشرف على أشغاله وشمر عن ساعد جده ، ودأب فى عمله واعتمد على كده وتعبه ، وعول على يده ولسانه فاز ونجح وكسب وربح ـ فلا بر إلا ما كسبته يداك ولا خير إلا ما سعت إليه. قدماك ، ولا نفع إلا ما دبره رأيك ، ولا ثمرة إلا ما غرس أصولها عقلك ، ولا نجاة من غمرات هذه الدنيا إلا بسفينة عملك التى توصلك إلى شاطىء السلامة وترفعك فوق سماء العرفان

وقصارى القول ـ أن الاعتماد على النفس ملكة فطرية فى النفوس يعتادها المرء منذ نعومة أظفاره إن وجد مقوماً قديراً ومرشداً حكيما وهى تنمو بالتعهد وحسن الرعاية ، وتقف بالترك وعدم العناية

وكما تكون فى الأفراد تكون فى العائلات ثم فى الأمم

أما فى الأفراد ــ فإن نشأوا عليها شبوا على النفس وكبر الهمة وقوة الارادة ، يبتعدون عن الدنيا ترفعاً واستنكاراً ويعملون الخير لذاته حبا واختياراً . فهى جماع خصال الخير تكسب صاحبها الشجاعة والإقدام ، وتجعله سيداً مطاعاً فى قومه وعشيرته عزيزاً

نفسه وأمته ، لايرهبه فى الحق صولة صائل ولايخشى فيه لومة لائم

ومن نظر نظرة صادقة فى سبب رقى بعض الأفراد الذين ذاع صيتهم فى أقطاب الأرض شرقاً وغرباً ، وجد أنه هو الاعتماد على النفس فى الأمور التى لايليق فيها إلا الاستقلال ـ وكلما تشبَّعت الأفكار بأن قيام المجتمع الإنسانى متوقف على عمل كل فرد أحسّ كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه وعدم الاتكال على غيره . ومال إلى استعمال ما أوتيه من الهمة والإرادة والاجتهاد

وكل نفس بما كسبت رهينة وليس للإنسان إلا ما سعى

وليس للانسان إلا ما سعى نعم وأن سعيه سوف يرى

٦٠ — قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

المال ثمرة الأشغال العقلية والأعمال الجسدية ، وهو قوام العمران والتمثال الذى تتجلَّى به الحكمة والقوّة ـ والاكتساب أصل المال والاقتصاد سوره . قال الإمام عمر رضى الله عنه (إن الله يحب القصد والتّقدير ويكره السّرَف والتبذير) وقال أيضاً (أَصلحوا أموالكم التى رزقكم الله فإن إقلالاً فى رفق ، خير من إكثار فى خُرق) وقال معاوية (حسن التقدير نصف الكسب) وهو قوام المعيشة ـ فالرجل المكتسب المقتصد هو الغنىّ القوى والأمة التى يتعوّد أبناؤها حب الاكتساب والاقتصاد والادخار هى الأمة

الغنيّة الراقية مراقي الفلاح ، ومن يكتسب ويقتصد يسعى في خير أمته ، ومن لا يكتسب أو لا يقتصد يسعى في خرابها ـ والاقتصاد ليس غريزة فطرية في الانسان بل هو خلق اكتسبه بالاختبار وتمكّن منه بالتربية والممارسة — ومعلوم أن الناس مراتب ودرجات فمنهم أغنياء يعيشون بالراحة والرخاء ، ومنهم فقراء يعيشون بالتعب والعناء ، وليس اختلافهم في الغنى والفقر ناشئاً من اختلافهم في الاجتهاد والمقدرة على الاكتساب — بل الحقيقة ونفس الواقع أن منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في حسن التقدير والاقتصاد

فكم من رجل يعيش بالراحة والرفاهية ويربي عائلة كبيرة ودخله قليل جداً . وكم من رجل يعيش بالتعب والعناء وتظهر عليه علامات الفقر المدقع ودخله وفير وكثير جداً

وطرق الاكتساب على أنواعها هي من لوازم الحياة ومن مسرّاتها

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات

فالانسان لا يحيا ما لم يصارع الطبيعة من جهة ، ويستعين بها من جهة أُخرى ، فهي تدعو إلى العمل والكدح لأجل تحصيل المعيشة ودفع الحرّ والبرد ، وهي التي تعيننا بإعطاء الحبوب والأثمار والأصواف والاقطان لأجل الغذاء والدفء ـ والناس متعاونون في الاكتساب فهذا يحرث الأرض ، وذاك ينسج الصوف ، وذلك يخيط الثياب أو

يبنى البيت أو يمهد الطرق أو يفتح الخلجان أو يعمل غير ذلك من الاعمال ولولا الاكتساب لنفد المال الذى فى أيدى البشر ، وبارت الارض وهلك الناس جوعاً ـ فالاستعداد للمستقبل هو الحكمة العملية ولكنّ كثيرين من الناس لايهتمون بالمستقبل ولا يعتبرون بالماضى بل هم أبناء يومهم . فاذا اكتسبوا الكثير أنفقوه كله ، وإذا اكتسبوا القليل اكتفوا به ، وإذا أخنى عليهم الدهر بكلكله أحنوا له ظهورهم وتوسّدوا التراب ، وإذا وافاهم الموت وأولادهم صغار تركوهم عالة على الناس ليربوا فى الفقر والشقاء ـ وهؤلاء لو أنصفوا أنفسهم وأولادهم لعاشوا بالكفاف والاقتصاد وذخروا إلى وقت الحاجة ـــ وما يصدق على آحاد الناس يصدق على عامتهم . فالأمة التى أبناؤها مجتهدون مقتصدون فى نفقاتهم هى الأمة الغنية التى لا تهمها تقلبات الأيام والأمة التى يعيش أفرادها بالكسل والإسراف تبقى فقيرة لا صولة لها ولا قوّة .

وبالجملة ـ إن الانسان مهما كثر ماله لا يضمن بقاءه إلى آخر حياته بل ربما افتقر ومدّ يده إلى السؤال أو انحط عن درجته وصار مادحه هاجياً وصديقه له معادياً فيلزم والحالة هذه كل قادر على التكسب أن يقتصد من ماله جزءاً ينفعه وقت الحاجة ، وينفقه وقت الضيق . فان آفات الدهر كثيرة

والادخار والتوفير أمر حسن مالم يصل إلى درجة الشح والبخل والتقتير فيكون مذموماً ـ كذلك انفاق المال فى سُبله يكون حميداً مالم يصل إلى درجة التبذير فيكون مرذولاً « وخير الأمور الوسط »
ولا تغلُ فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم

٦١ — ﴿ الدَّين أشد أنواع الفقر ﴾

ان تستدِنْ تعش حقيـ ـراً والمُـداين كالأمير
من ليس يكفيه القليـ ـل فليس يكفيه الكثير

الاجتماع الانسانى جسم حىٌّ نام متحرك ، وهو عرضة للقوة والضعف ، والراحة والتعب ، والصحة والمرض ، ويعترى بعض أعضائه داء عضال يذهب براحتهم ورفاهيتهم ، ويغلّ أيديهم عن العمل ويغادرهم عبيداً وهم من أهل السيادة وهو داء الدَّين الذى خربت به بيوت كثيرة وتورّطت فيه بعض الممالك فاستنزفت ثروتها وزالت قوّتها ، وهو كغيره من الأدواء الكبيرة يصيب أهل الجاه والوجاهة أكثر مما يصيب الفقراء والصعاليك

وان منشأ الدَّين وأساسه غالباً الترف الذى هو من شر ملمّات هذا الزمان وأقوى مقوّضات دعائم العمران ـ والأغنياء والفقراء متهافتون عليه ، تهافت الفراش على السراج ـ والمال إلـه معبود وعُبّاده قد حادوا عن جادّة الحق ، وساروا فى الترهات فيطلبون

الغنى بالمقامرة ، والسعة بالمخادعة ، ويتظاهرون أنهم أغنياء ولو كانوا فقراء لا يملكون شروى نقير ـ ويزعمون أن الانسان بحسن بزته وكثرة ولائمه ، وأن الاعتبار والاكرام لمن يكرم الأنام

والدّين خِدن الترف ومعاونه على فساد شؤون الناس وتبذير أموالهم وهو البلية الشديدة التى أصابت الرؤساء والمرءوسين ، والحمل الثقيل الذى يئنّ منه دول الأرض العظيمة كما يئن منه صغار الفلاحين

والناس طبقات ـ وكل طبقة تأنف من الامتزاج بالطبقة التى تحتها ، وتتوخّى الصعود إلى الطبقة التى فوقها ، وتبذل النفس والنفيس فى طلب الوجاهة التى ليست مذمومة ولا عاراً ـ ولكن العار فى استعمال الوسائط غير المحلّلة لنوالها — ومن العجيب أن الناس يحسبون الغنى فضيلة وكياسة ، وعندهم أن الفاضل الكيس هو الغنى أو المتظاهر بزىّ الأغنياء

ولقد أخطأوا فى زعمهم هذا لأن الفقر بلا دين هو الغنى التام ، فليس الفقر عاراً ولا منقصة إذا كان الفقير حراً شريف النفس بل كثيراً مايكون الفقر شرطاً للنجاح والشهرة والراحة

وتاريخ الناس أصدق شاهد على صحة ذلك فان أبسل الناس وأصدقهم عزيمة وأكملهم مروءة أكثرهم من الفقراء — ولا يعاب الفقير إلا إذا أبطل الكدح وقصد التعيش بأموال الصدقة أو التسوّل

وبالجملة : إذا تمكن الدَّين من صاحبه لم يقف فى طريقه مال قارون . ولا ينجو منه إلا بالمنون . وفى الخبر الصحيح « لاوجع كوجع العين ولاغم كغم الدَّين » وقال عليه السلام(الدَّين شين الدِّين)ولهذا يقال « صاحب الدين ذليل بالنهار ومهموم بالليل » وقال بعض السلف « الدَّين غُلُّ الله فى أرضه وإذا أراد الله أن يذلّ عبداً جعل منه طوقاً فى عنقه « وقال العُتبي الدين عقلة الشريف ، وقال ابن المعتز كثرة الدين تصيّر الصادق كاذباً والمنجز مخلفاً ـ وقال الشاعر

إذا استثقلت أو أبغضت شخصاً وسرّك بُعْدُه حتى التنّادى
فشرّده بقرض دُريهمات فان القرض مقراض الوداد

٦٢ ـ ﴿ حب الوطن من الايمان ﴾

الوطن طينة المرء التى نبت فيها أصله ، ونما فرعه ، ونشأت حياته التى تغذت بهوائه ، واستظلت بكنفه ودوائه ، ومقره الذى تتجاذبه عوامل الشفقة عليه ، والحنين إليه ، إذا شطّ به مزاره ، وبعدت عنه داره ، وكنُّه الذى يأوى إليه إذا نبت به البلاد ، ويتوسع فيه إذا ضاقت عليه الأرباض

إن حب الوطن شعور نفسانى وإحساس وجدانى ، ليس بسلعة يباع ويشرى ، فهو أشرف خلق يتحلى به الانسان ، وأحسن شيمة ينطوى عليها الجنان ، وهو من أخلاق الأنبياء الكرام عليهم

الصلاة والسلام . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة ، يحنُّ إلى وطنه (مكة) حنيناً كثيراً مع أنه خرج منها وهو غير راض عن أهلها لمعاداتهم له ، وإيصالهم الأذيّة اليه ، حتى وعده الله سبحانه وتعالى بأن يريه إياها ويردّه اليها ـ وذلك فى قوله تعالى (إنّ الذى فرض عليك القرآنَ لرادُّكَ إلى مَعَاد) ولذا قال عليه الصلاة والسلام « حُبُّ الوطن من الإيمان ولذا قال الشاعر :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة ولو أنى أعرى بها وأجوع

فمن جعل نُصب عينيه محبة وطنه العزيز والعكوف على خدمته فقد رفع عماد أُمته ، وشيد ركن دولته

وما المرء إلا حيث يقضي حياته لنفع بلاد قد تربّى بخيرها

فحب الأوطان سلطان فوق كل سلطان ، وأثره لا ينمحى عن صفحات الجنان ،فكم بيعت فى سبيله النفوس بيع السماح ، وكم رخصت دونه أرواح ، وغلت أرواح ـ بل كم يرفع لرجال ذكراً كان خاملاً ، وشيد لأعمالهم أثراً ماتوا وظلّ باقياً

ولى وطن آليت ألاّ أبيعه وألاّ أرى غيرى له الدهر مالكا

فسعادة الإنسان مرتبطة بسعادة بلاده ، والإنسان العامل فى وطنه هو الأمة ، لأن الأمة هى العمل ، ومن لم يعمل فى وطنه فعدمه خير من حياته ، ومجد الوطن وسعادته ببنيه ، وبنوه

بالتضحية والعمل حتى يبلغوا الأمل

فيا وطنى إن فاتنى بك سابق　　من الدهر فلينعم بسا كنك البال

أجَلْ - إنَّ الوطن أبٌ رحيم شفيق نتقلّب فى نعمه، فهو أعز عزيز تسفك لأجله الدماء، وتخضب السيوف، وتخاض المعامع وتشعل الحروب، وتباع النفوس، وتقاد الجحافل، وتدك الحصون وتنسف المعاقل. فأرق شعور وأجمل إحساس يثير النفوس حميَّة تحل بالقلب هزة وتنزل به خفقانا هو حب الوطن - شعور يستصرخ اللبّ، ويناجى الفؤاد، فيردّد نداءه من أعماق القلوب وأقاصى الأذهان - صوت وجدانى خافت لكنه يرد النفوس مرهفات أو أشد قطعا - والعزائم مهندات أو أكبر وقعا

كفانى فخراً أن أموت مجاهداً　　وحبّ بلادى قائدى منذ نشأتى

الوطن عائلة إذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعا، وإذا نزل بهم بلاء اقتسموه «الواحد للجماعة والجماعة للواحد، والفرد يفدى الأمة والأمة تحمى الفرد»

والوطنية أعظم سياج لاستقلال الامة التى تصبح بدونها تحت رحمة العدوّ وسلطانه - فالوطنى الحق لا يرى بلاده مهما أجدبت إلا جامعة للخير العام. ولمنابع سعادته، يشعر نحوه بكل انعطاف وحنو، إذ يرى فيه ذكرى حياته الماضية كما يتمثل فيه آمال المستقبل

بلادى هواها فى لسانى وفى دمى ... يمجدها قلبى ويدعو لها فمى
ولا خير في من لايحب بلاده ... ولا فى حليف الحب إن لم يتيم

٦٣ - ﴿ العاديات والآثار القديمة ﴾

إنما تصل الأمم إلى ذُرا الحضارة وتتّسع مداركها فى الصناعة وتبلغ شأواً بعيداً فى الارتقاء ، وتنهض من الهمجية إلى المدنية وتحصل على الرفاهية والنعيم بما تظهره من المصنوعات المختلفة ، وما تبتدعه من المخترعات المتنوعة ، وما تخلفه من الآثار المحكمة الصنع ، وما تتركه من المتاحف المتينة الوضع - وبديهى أنه كلّما كان أساس الصناعة قائما بين أيدى الصناع أمكنهم زيادة الاتقان وإحكام العمل وتسهيل الانتفاع - لهذا ترك السلف للخلف آثاراً شهدت ببراعتهم وحسن اختراعهم فكانت كمرآة ، رأى المتأخرون فيها تمدينهم ورفاهتهم ورغد عيشهم - وكان لسان حالهم فى أجدادهم يقول:

مضَوْا والدور باقية وأودوا ... وليس شخوصهم بالموديات
فما ذهبوا ولكن فى اغتراب ... وما ماتوا ولكن فى ثبات

حقاً إن الآثار غير مرشد للصانعين ، وخير معلم للمتعلمين وخير دليل المبتدعين .

تلك آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

ولهذا اعتنت الحكومة المصرية بجمع شتاتها وتجديد ما درس

من معالمها لتكون مرشدا للمسترشدين ومصباحاً للمتفنّنين ونموذجا للمخترعين ينسج على منوالها الناسجون ويحذو حذوها اللاحقون وقد أدرك هذا السر العدد الكثير من الناس ، فخرجوا من ديارهم يؤمّون دور الآثار ليستفيدوا من دقة الصنع وإحكام الوضع وحسن الاختراع وجمال المبنى ورونق المعنى مالم يستفيدوه من قبل

وبالجملة — فالمقياس الوحيد لتقدم الامة ومبلغ رقيها هو مبلغ اهتمامها بآثار من سبقها من الآباء والاجداد - كيف لا - وأن الناس الذين يبحثون في آثار آبائهم وأجدادهم هم بلا شك المتشبعون بمبادىء المدنية

٦٤ — ﴿ لا خير في علم بلا عمل ﴾

العلم مناط الحياة الاجتماعية ، وأس الحضارة والعمران ، وأول المقوّمات التى لا تقوم إلا بها حياة المجتمعات فهو طريق السعادة للدارين ، ومحور مجد الأمم ، وينبوع ثروة الشعوب ، وما أزلّ المشرق بعد العز ، وأفقر سكانه بعد الغنى ، وأقفر أوطانه بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه إلا إهمال أهله للعلوم واسترسالهم فى الشهوات فلا تستقيم أعمال الانسان إلا بالعلم اليقينى الذى هو ترقى العقل إلى درجة الإحاطة بما يكتنف الانسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذى هو حياة القوىّ بموت الضعيف ، وإنما يتيسر

أصول العقل إلى هذه الدرجة من العلم بالتعلّم والتهذيب إذا روعى فيها جانب الفضيلة على وجه يشعر منه المتعلم أنه إنما يتعلم ليعمل فينفع نفسه وبنى جنسه بالعلم

وكأى من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور بوجوب العمل ، فهذا عالم ولكنه لم يعمل بما علم ، فعلمه وجهله سيان . لأنه ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أنا عالم ولا يتبع القول بالعمل . فيعمل بما رزقه الله من العلم ، وأولى بمثل هذا العالم أن يخشى الله بكذبه على العلم فان الله تعالى يقول (كبر مقتاً عندالله أن تقولو ما لاتفعلون)

فالعلم هو الميزان الذى تتكافأ به قوى الشعوب المتنازعة فى مضمار الحياة المدنية ، مادام العمل به متبادلاً بين المتنازعين ، ومتى وقف أحدهما عن العمل واستمرّ الآخر فى عمله رجح هذا على ذاك بالضرورة ، فنازعه البقاء وغلبه عليه

فالعلم بلا عمل لا يغنى عن الحياة شيئاً ، بل لا يكون العلم علماً إلاّ إذا ظهرت آثاره فى الخارج ، وإنما تظهر آثاره بالعمل ، وإلا فأى فائدة من علم المرء أن الزراعة مثلاً من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها ـ ومن وجّه نظره إلى الآثار العملية الصادرة عن العلم التى تفيضها على أرجاء المشرق الأمم الأوربية الآن يحكم حكماً جازماً أن لا حياة لأمة ولا بقاء لشعب بإزاء تلك الأمم

المتمدينة مالم يجارها فى ميدان العمل مجاراة لا يعترى صاحبها الوهن ولا الكلال ولا يطرأ عليها الخمول والكسل

لا خير فى العلم إن لم يَرْقَ صاحبه ... على أساس من الأخلاق فى الصغر
كم من عالم فاسد ضلّت مذاهبه ... وقد غدا علمه شرًّا على البشر
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة ... والناس تلعنه فى البدو والحضر
العلم كالغيث والأخلاق مزرعة ... إن تخبث الأرض تذهب نعمة المطر
والنفس تأبى ورود الماء إن وجدت ... فى الماء رجساً ولو كانت على نهر
والجهل أفضل من علم يدنّسه ... نضح الرذيلة من أخلاق مقتدر

وبالجملة ـ إن الأعمال هى قطب دائرة الحياة الدنيا ومدارج مرقاة العلا إلى المراتب العليا وسبيل الوصول إلى السعادة الأبدية ودليل الحصول على الشرف والسيادة وبها تدرك الغايات وتملك النهايات وهى ثمرة العلوم ونتيجة المنطوق والمفهوم ، فالعلم بغير العمل فاسد والعمل بغير علم باطل ، والمجرد منهما عاطل ـ هل رأى أحد صلاح عمل بغير علم ينشر ، أوسمع بفلاح رجل من غير عمل يذكر ـ كلا ـ هذا الحاكى (الفونغراف) الجماد نطق بالقرآن والآذان والغناء والإنشاد ـــ ما ذاك إلا من ثمرات العمل بالعلوم والمعارف

٦٥ ـــ ﴿ لا تصحب من لا يحمد حاله ولا يدلك على الخير مقاله ﴾

الصحبة نسبة بين صديقين ، منشؤها ميل طبيعي أو كسبي ـــ وهى

حالة مطلوبة مستحسنة ، ودليل على كمال فطرة الإنسان وأصله من اندفاعه بالطبع إلى التعارف — وبواسطتها يكون الأنس ، وتحيا النفوس ، وتتصافى فى القلوب

فان حصلت الصحبة عن الميل الطبيعى سُمّيت صحبة اتفاقية وسببها التجانس والتشاكل قال عليه الصلاة والسلام (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) وقال الشاعر

ولا يألف الإنسان إلا نظيره   وكل امرىء يصبو الى من يشاكله

وقال آخر

وقائلٍ كيف تفارقتما   فقلت قولاً فيه إنصاف
لم يك من شكلى ففارقته   والناس أشكال وآلاف

وإن حصلت الصحبة عن القصد والإرادة سميت صحبة اكتسابية — وينبغى لمن يريدها الكمال بحيث لا يلقى بنفسه إلى المهالك بصحبة الأشرار ، أو ذميمى الأخلاق والطباع ، بل يجب الاختبار والاختيار . فالقرين يقتدى بمقارنه ، والصاحب تنسب إليه أعمال صاحبه ، فإن كانت حسنة شرف بها الصاحبان ، وإن كانت قبيحة أفهمت الناس أنهما على ضلال

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

فمن تبصر فى العواقب وانتقى لنفسه خير صاحب يعين على دفع

الشدائد ويغفر الذلة ويقبل العثرة . صديق صدوق ، فى السعة والضيق فلا مِراءَ فى أنه يعيش مع صديقه هذا عيشة راضية

ومن اتخذ صاحباً من غير تجربة واختبار واختيار حسب ما يشاء كما شاء فقد كتب على نفسه العناء والشقاء

لا تركنن إلى ذى منظر حسن فرب رائقة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينارٌ لصفرته صفر العقارب أرداها وأنكرها

وقال بعض الحكماء (اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة ، فنسى جمائله ، وبقى شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلتك يوليك عليها الإحسان الجميل ، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل)

فالوافر العقل هو الذى لا يصادق إلا من أجمع الناس على أنه من أهل الخير والاستقامة ، حسن الطباع جميل النوايا

ويبتعد عن اللئيم الذى أجمعت العامة على خبثه وعدم صلاحيته للمؤاخاة ولا يغتر بما يبديه ذلك الخائن من البشر والبشاشة

لا تغترر بالهش والبشر من فتى وحفظ ولين مثل مس الأفاعيا

وقال آخر :

لا تثق من آدمىٍّ بوداد أو صفاء كيف ترجو منه صفواً وهو من طين وماء

وبالجملة ـ إن الصحبة الكاملة تستلزم التعاون والتناصر على الخير

والصداقة وخلوص النية وكتم السر وحسن المعاشرة وإعظام القدر في الحضرة والغيبة والبر في القرب والبعد والعفو عن بعض الزلات.

إذ أنت لم تترك أخاك وزلة   إذا زلها أوشكتما أن تفرّقا

٦٦ - ﴿ ما يجب أن يكون عليه المعلم بين تلاميذه ﴾

وعلاج الأبدان أيسر خطباً   حين تعتلُّ من علاج العقول

المربى هو إنسان يحاول أن ينقل صورته ونظام أحواله إلى غيره، وهو من المسترشدين بمنزلة العود من الظل فلا يستقيم الظل والعود أعوج - فالمربى لايؤثر بأمره بل يفعله - ومثل الذى يعظ ويفعل كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها وكالمسك يطيب غيره وهو طيب - ومثل الذى يعظ ولا يفعل كالقمر يضىء ولا يدفىء، فربما سطع القمر والليلة صقعاء - أو هو مثل هذا المسنّ الذى يشحذ غيره ولا يقطع - والإبرة تكسو غيرها وهي عارية وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق

ماهيَ إلا ذبالة نصبت   تضِيء للناس وهيَ تحترق

قال سبحانه وتعالى (أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وقال أيضاً (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل طاهر الأثواب كثير الآداب حسن المذهب تأدّب بأدبه وصلح بصلاحه جميع أهله وولده . وقال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسدهم ربّ الفساد إذا فسد
فيعظم فى الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

ولذا وجب على المعلم أن يكون فعله مطابقاً لقوله : فليكن كما يحب أن تكون تلاميذه وليفعل مايلزم أن يفعلوه وليلزم ما يلزم أن يتركوه ، وليبدأ باصلاح نفسه قبل إصلاح تلاميذه فاذا عظم قويت رغبتهم فيه وانقيادهم لأوامره والعكس بالعكس ـ ولا بد أن يكون المعلم مائلا بجانبه إلى تلاميذه محبا لهم شفيقا عليهم شغوفا بتكميلهم كالوالد لولده اقتداءًا بمعلم الأنام عليه الصلاة والسلام حيث قال « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » ويتبع الميل القلبى لطف الجانب وبشاشة الوجه ولين القول ، والإحسان اليهم ـ قال بعض الحكماء (البشاشة مفتاح القلوب) ومتى فقد الميل القلبي خاب الامل وضل المسعى فإن المعلم العبوس الوجه القاسي القلب لايكسب الناشىء علما ولا أدباً بسبب نفورهم عنه وعدم ميلهم إلى جانبه ويتطرق ذلك إلى أخلاقهم فتسوء وتخبث قال الله تعالى (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقال تعالى (لاتستوى الحسنة ولاالسيئة ادفع بالتى هى أحسن)

وينبغى أن يكون المعلم ثابت الجأش حازم الرأى نافذ الحكم قوى الارادة ، لايريد هذا تارة وذاك أخرى ، فلا يأمر تلاميذه

بأمر يتساهل عن تنفيذه ، أو يقول قولاً يردّه

ألقول كاللبن المحلوب ليس له ردٌّ وكيف يردُّ الحالب اللّبنا

أو ينذرهم بعقاب لا يقيمه ، أو يأمرهم اليوم بأمر ينهاهم عنه غداً وبالعكس — لأن للناشئة شعوراً دقيقاً بإرادة المعلم ، فمتى كان ثابت الإرادة أسلموه أزمتهم وأعنتهم ، ومتى تقلبت شردوا عنه ، ونبذوا طاعته وراءهم ظهرياً : ولم يكترثوا بأمره أو نهيه

فيجب أن يكون المعلم حكيماً متبصراً يضع الأمور فى مواضعها عارفاً كيف يأخذ المتعلمين حتى يبلغ بهم إلى الضّالة المنشودة . والغاية المقصودة . عالماً بوسائط التربية والتأديب ، فلا يعاقب قبل تهديد ، ولا يُهدد قبل إنذار ، ولا ينذر قبل تذكير

قال بعضهم (العتاب قبل العقاب فليكن إيقاعك بعد وعيدك ووعيدك بعد وعدك)

ولا يعامل الكل باللطف كما لا يسوق الجميع بالعنف

فإن منهم من تصلحه القساوة بينما الآخر يصلحه المعروف ومن ينفعه الإحسان بينما يسوءه الآخر

ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج إلى العصا — كما قيل

البعض يضرب بالعصا والبعض تكفيه الإشارة

ومنهم من يسوقه المهماز ، بينما الآخر يلزمه اللجام

وقصارى القول — إن من تلقى اليـــه أعنّة الأبناء الذين هم ثمرات الأفئدة والمستحق لثناء الأمة ورضا الآباء ، هو الذى عرف واجباته فقام بأعبائها ، وترقّب نفسه ففاز بمعرفتها ، واستفاد فأفاد واستهدى فهدى ، وبلغ فأبلغ ، وتأدب فأدب ، ونال النهاية فأنال الغاية حتى يكون مصباح الظلماء ، ووارث الأنبياء

٦٧ — ﴿على من تلقى مسئولية التربية أعلى الوالدين أم على المدارس﴾

من المعلوم أن الإنسان مخلوق أدبى لا يمكن نمو قواه الأدبيـة إلا بفعل متميز عن الفعل الذى يؤثر فى بنيته ، بخلاف الحيوانات فلا تطلب سوى نموّ جسمها — ومن ثَمّ لا يكتفى الانسان فى تربيته بالأحوال الطبيعية المكملة لتربية الحيوانات بل نراه مضطراً إلى أحد من جنسه يعرفه الغاية الانسانية ، ليأخذه بتربية روحه وعقله — ولذلك ألقى الحكيم جل شأنه فى قلوب الآباء رأفة طبيعية ومحبة فطرية إلى أبنائهم ، ومن هنا يعلم أن الوالدين هما أول مربّ للإنسان — والعائلة هى أول مقامات التربية

ولما كانت الهيئة الوطنية بما لها من التعارف والاجتماع تطلب من الأفراد الطاعة لناموس الوطن ، والتعاون على الأحوال المعاشيـة حاجيتها وكماليتها حتى تمكن حفظ بقاء الأمة وسرورها بالحياة يعـــلم بالضرورة أن العائلة مدينة للهيئة الوطنية — وبحكمة أن الحكومة

هى المُهيمنة على الهيئة الوطنية والناظرة فى شأن الأفراد من جهة الخصوص ، وفى أحوال المجموع من جهة العموم ، طلبا لحفظ التناسب بينهما حتى تكون الحكومة مدينة أيضا للعائلة والأمة ، بحيث يجب عليها تمهيد سبل التربية والتعليم ، وتنبيه الأفراد إلى واجباتهم ولايحصل ذلك إلا بوجود عدد كاف من المدارس تتخرج بها الأبناء علماً وعملاً وعقلاً وأدبا

ومن ذلك ينتج أن المدرسة هى الواسطة لجمع دائرتى العائلة والحكومة، وهى مع ذلك ليست إلا مكملة لنقص التربية فى العائلات ضرورة أن للعائلة المقام الأول من مقامات التربية ، كما لها النفوذ الأعظم على الأبناء — بصلاحها تصلح الناشئة وبفسادها يفسدون وهى الجوّ الأول الذى يتنفّس فيه النّاشىء ، فتى كان الجو خالص الهواء تربى الناشىء سليم البدن والعقل والعكس بالعكس . والحكمة فى أن للعائلة التأثير الأعظم فى تربية الناشئة إن خيراً وإن شرا ـأمور

منها سلطة محبة الوالدين لأبنائهما فإنها تورث فى الأبناء المحبة إلى الوالدين ، ويتطرّق ذلك إلى محبة غيرهما ، وتلك المحبة المشتركة تعتبر أول أساس للتربية العمومية والحصول على الفضائل

ومنها سلطان التقليد حيث يُؤثر فى تربية الأبناء ضرورة أنهم يصرفون عامة أزمانهم فى العائلة ، فمن كان أبواه مشغوفين بالنظام

والترتيب محبين للوطن متكملين بالفضائل كالكرم ورقة الجانب والرأفة ونحو ذلك خرج متطبعاً بتلك الخصال والعكس بالعكس

ومنها الأحوال العائليـة التى هى المدرسة الأولية الأساسية للناشىء . فيقف بها عند حدّ محدود

ويجب أن يكون المنزل والمدرسة سائرين فى طريق واحـدهى غاية الحصول على المقصود من التربية العامة — والمدرسة لها النفوذ الأعظم بالنسبة إلى التعليم ، بينما المنزل له التسلط الأكبر بالنسبة إلى التربية ، ضرورة أن بالمدرسة وسائط للتعليم يفقـدها المنزل كما أن المنزل أقدر على التربية بحكمة تصرّف الآباء .

ولـكل من المدرسة والمنزل حقوق يجب القيام بها

فأما حقوق المدرسة على المنزل فهى أن ترسل الآباء أبناءهم إلى المدرسة فى المـكان والزمان المقرر لهم بالضبط ، وأن يمدوهم بما يلزمهم مادياً وأدبياً ، وأن يساعدوا المدرسة بالقول والفعل

وأما حقوق المنزل على المدرسـة . فهى أن يلاحظ المعلمون الأحوال العائليـة ، وما يلزم أن تقوم به أبناؤهم لهم من الفضائل ومكارم الأخلاق .

ومن حقوق الحـكومة على المدرسة . أن تثبت فى نفوس الابناء الطاعة لقانون الوطن وحبّه والتعاون وتشريف العوائد والآداب

الوطنية وحب الراعى والرعية : وغير ذلك

ولذا ينبغى أن يختار لوظيفة التعليم العلماء المؤدبون المستكملون لمكارم الاخلاق الذين يقدرون على ضبط ارادتهم وحفظ أميالهم خصوصاً الذين يميلون إلى حب الوطن وتربية أبنائه تربية وطنية .

٦٨ — ﴿ الحرية وأثرها فى الهيئة الاجتماعية ﴾

الحرية كلمة : لها معنى جليل يسحر العقول ويدهش الألباب تصبو اليها النفوس من أحقر وحشىّ إلى أرقى مدنى — يبذل كل فى سبيلها ماملكت يداه ، إذ هى تنير قلب الطفل حين ولادته كما علا فكر الكهل ، وتشغل ذهنه على وسادة موته

والحرية للبشر ركن السعادة وروح الكمال — فلا جمال فى حياة لانتمتع فيها كما نريد ونختار ، ولا خير فى جسم يريد أن يعمل فيركض ، ولاخير فى ذهن يريد أن يتفكر فيضغط ، ولا خير فى قلب يريد أن يشعر فيجرح — وما فائدة كل هذه المواهب إذا سلبناها عنوة وإكراها

ان الانسان لم يخلق لان يثقل بالسلاسل والاغلال وإنما كان كماله النوعى فى اطلاق مداركه وقواه للعمل والحركة

فالحرية — هى القدرة — هي الحركة — هى الحياة — هى العدل — هى الإخاء — هى المساواة — بل هى السبيل للوصول إلى أرقى مطالبنا ، والحرية

ليست مطلقة ، إذ لا مطلق فى هذا العالم ، بل كل ناموس له حدود ومستثنيات . فهى مقيدة بهذا المبدأ وهو « أنه لا يجوز أن تكون حرية شخص مجحفة بحرية آخر » هذا هو المبدأالذى يجب أن يكون أساسا لتعامل الناس وأصلاً للروابط فيما بينهم

والحرية حق يقابله واجب وهو المسئولية ، فاذا أساء شخص استعمال حريته بهضم حقوق الغير يكون مدانا ومطالبا بإصلاح ما أفسد كما أن الغير مسئول عما يلحق به من الضرر

ولا ينكر أحد أن منح الحرية لامة هو من الامور التى تحتاج لدقة المراقبة وإطالة النظر لانه يجب التدرج فيها والتدرب عليها شيئا فشيئا ـ ولذا يقال إن عنوان الحرية التى تمنح لامة بحيث لا تنذر بضرر أو سوء هو درجتها من التربية ونصيبها من المعارف التى تضىء سبيل الحرية وتحيي الشعور بالمسئولية — فالرجل الذى لا يقدر نتائج أعماله ولا يدرى حقيقة حاله نحكم بأنه لا يحسن استعمال الحرية

لهذا ــ كان أهم واجب على الحكومة هو أن تدرب الامة تدريجيا على الارتقاء فى الحرية عملا بقول الحكماء (ازدد نورا أزدك حرية) وقال آخر (أحسن الدرجة التى أنت بها أرفعك لغيرها)

فالحرية تشبه السلاح ـ إن مسكته يد حازم كان فيها ماضيا

وإن تناولته يد جهول كان عليها قاضياً — وأنواع الحرية كثيرة

منها حرية الفكر وهي أجل حرية فطر عليها الانسان ولا يمكن إعدامها أصلاً . فالفكر لا يقتل أبداً والمذاهب الصحيحة والآراء القوية لا تعدم حتما

ومنها حرية العمل لأن الانسان محتاج للسعى وراء الرزق طلباً لقوته وملبسه ومسكنه ، فيجب ألاّ يمنع ولا يحرم من قواه ومزاياه الشخصية ، بل يترك حراً فى عمله مادام لا يمتهن حرية الغير ، وما دام عمله ليس من الأعمال المحرمة حفظاً للأمن وحرصاً على الآداب العمومية

ومنها حرية الاجتماع فلا تتم حرية الفكر ولا تقيد حرية البدن إذا لم يمنح الانسان حق الاجتماع باخوانه على مرأى من الأمة والحكومة ، مبادلة للافكار فى الشؤون العمومية حتى يتبين صحيح الافكار من سقيمها ، أو طلباً لحاجاته حتى يتيسر لمن لا يجد فى نفسه القدرة على القيام بعمل وحده أن يجد من أخيه ومواطنه نصيراً وظهيراً فحرية الاجتماع ضرورية لأن « الانسان مدنى بالطبع »

ومنها حرية الاعتقاد وهى من أقدس الحريات إذ يتوجه الدين لأخلص شعور فى الانسان فيخاطب اللب و يناجى القلب ويستصرخ العقل ، وهو المنقّى للنفس من الشوائب والأدران وهو الذى يرفع لارقى الفضائل حيث يجد الانسان لذة واطمئناناً ـ يجد تسلية وتعزية

فى الحياة الحالية ، وأملاوهناء فى الحياة الأُخرى ـ وانما تقيد هذه الحرية بألاّ يجبر أرباب دين أهل دين آخر على اتباعهم (لا إكراه فى الدين)

ومنها حرية اللسان أوالخطابة وحرية القلم أو الصحافة : وهذان النوعان من الحرية يرتبطان ارتباطاً تاماً بحرية الفكر والاجتماع فليس للانسان فقط عقل يفكر به بل له لسانٌ يعبر عن تلك الأَفكار ويفصح عما يكنه الضمير — لهذا وجب أن يكون من حقه التكلم والمراسلة وكتابة مايعنّ له من كتب وصحف إظهاراً لآرائه ونشراً لأفكاره إذ كل هذه صور للكلام البشرى ، وليس من حد لهذا سوى احترام حقوق الغير ـ فاذا أضرّ شخص جاره بكلامه أو أحدث هياجا عاماً بخطابه فهو مسئول عن خطئه معرّض للجزاء عليه

وليس ثم أشد استبداداً وأكثر إعتسافا مما وصلت به الحكومة لمحاربة الافكار ومكافحتها والتضييق عليها بهذا الحد من الظلم وبهذه الدرجة من القساوة ، حيث لا نسوّى بين الأَفراد بل تفرق بين الجمع ـ فلهذا قامت الحكومات الجمهورية والديموقراطية وبعض مشوية تناضل عن حرية الصحافة والخطابة أمام المحاكم لما فيها من النفع متى حسن استعمالها .

ومما لاشك فيه ولا مراء أن الحرية من أجل النعم التى وهبها الخالق لنا ولا يجوز أن تقام فى وجهها الحدود إلا لباعث وضرورة

فكلما زادت الأمة عرفاناً بحقوقها وواجباتها (بالتربية الوطنية) كلما خفت قيودها وقربت من الحرية الصحيحة . فعنوان درجة الأمة من التهذيب هو ما تتمتع به من الحرية فقد قال « نومادروز » فقيد سويسره (ان من الدلائل الصادقة أن تقاس درجة الأمة فى التقدم والارتقاء أو التأخر والانحطاط بمقدار نصيبها من الحرية التى تتمتع به أبناؤها)

فالأمة التى لها الحظ الأوفر من الحرية ، ولها أبناء يحسنون استعماله هى أرقى الجميع بلا خلاف مهما صغر اتساع أراضيها وقلّ عدد سكانها ـ فان فى ذلك قوة أدبية عظيمة تسمو بها فوق الممالك الأخرى وتضمن لها حياة طيبة وسعادة مرضية بل تحميها وتذود عن استقلالها أكثر من قوة المدافع والنيران.

وبالجملة ـ ان الحرية (من حيث هى) استقلال العقل والارادة وانطلاق اللسان من قيد العبودية لأى شىء إلا الله سبحانه وتعالى فهي واجبة له تبارك وتعالى لأنه خالق الانسان وواهب له العقل وتنقسم الحرية بالتعريف الاعم إلى حرية عمومية وحرية شخصية .

فالحرية العمومية تكافؤ الأمة بالحق فى مشاركة الحكومة بالرأى وتكافلها على قيام الشرائع والقوانين حتي لا يعبث بها عابث أو تصرف على غير وجهها المقصود تبعاً لاغراض النفوس ، وغلبة

الشهوات عند الحكام ، وقد قررتها الشريعة الاسلامية ولها من الأثر العظيم فى ترقى الامم ونشر لواء العمران مايشاهد عند الحكومات الاوربية المعتدلة الآن ـ وما بلغ من المسلمين فى الصدر الأول مبلغاً من القوة والمدنية والمجد يقف دونه النظر حائرا والإنسان مقرًّا بفضل شريعة وضعت هذه القاعدة منذ ثلاثة عشر قرناً للمسلمين

ولم يتوصل اليهاغيرهم من الامم إلا فى القرون الاخيرة بعد مكافحات شابت لها نواصى الولدان وانصبغت هامة المغرب بنجيع الانسان

والحرية الشخصية أمن الإنسان على نفسه وعرضه وماله وتمتعه بسائر حقوقه الشخصية التى تخولها له طبيعة الاجتماع باعتبار كونه عضواً عاملا فيه

٩٦ — ﴿ الحرية الشرقية والحرية الغربية هل يستويان ؟؟ ﴾

أجَلْ : إن الحرية هى استقلال العقل وانطلاق اللسان من قيود الاستعباد المطلق ومتى أخذت الحرية من ذلك وسطاً بين طرفى الافراط والتفريط حملت النفوس على الغيرة ونبهت فيها حب العزة والكرامة

والنفس الكريمة تأبى الإحجام وتنشأ على الإقدام فتطلب جلائل الأعمال وتنبذ طرق الدنايا وتطرح راحة الاخلاد إلى المسكنة والذل ولا يصدر عنها أثر من آثار الحرية إلا مسبوقا بالروية مقرونا بالفضيلة دالاًّ على الثبات لما تأصل فيها من الرزانة الناشئة عن عزة

نفس ، إذ من توابع العزة الرزانة والثبات وهما حياة الأمم ومبعث مجد الإنسان ، وعكسهما الرعونة والطيش

وهذان الخلقان يلازمان طرف الإفراط فى الحرية كما يلازم طرفه الآخر وهو التفريط فى الذل والمسكنة — والوسط بينهما هو الرزانة والثبات

أنظر إلى بعض الشعوب الأوربيـة الذى تناهى عندهم الآن الإفراط فى الحرية الذى دعا إلى التفريط بالفضيلة حتى انطلقت النفوس فى ميدان الشرور وانغمست فى الرذائل تحت اسم الحرية وأيضاً مايصدر عنهم من الضوضاء والجلبة عند كل حادث سياسى وكل هـذه أمراض وبائية ليس أسرع من تفشّي ضررها فى ربوع المدنية وفتكه فتكاً ذريعاً فى الانسان — ولقد أحسّ الغربيون ببلاء الإفراط بهذه الحرية وما تأتى عنها من المضار التى أقلها انتشار الفوضى والاشتراكية فى ربوع المدنية وتهديدها لها بالخراب والتدمير

وأما المفرطون فى الحرية فمثلهم مثل الأمم الشرقيـة التى فقدت مزايا الاستقلال العقلى وسيقت بعصا القهر سوق الأنعام وناهيك به ذلاً قاتلاً للنفوس مميتاً للهمم مفقداً للإقدام نشاهده الآن بالعيان — لهذا جاء الإسلام هادماً لأركان الاستبداد ومرشداً لحرية العقل ليحمل المؤمنين على عزة النفس الداعيـة إلى الرزانة والثبات الباعثين

على العمل الممهد لسبل المجد والسؤدد ـ وقد نال المؤمنون من ذلك حظاً لم تنله أمة من الأمم ، حتى بلغوا من العزة مكاناً رفيعاً وانما انحطوا الآن إلى درك الضعة لما علم من أن العزة ملازمة للحرية وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد فاتخذوا أولياءهم أرباباً من دون الله ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر فحسابه على ربه (ولن تجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً)

وبالجملة ـ فالحرية حياة الأمم ودعامة التمدين وأساس الرقيّ العقلى فى هذا الوجود البشرى ـ وشرطها الاعتدال ، وبه جاء الاسلام وبهما عمل المسلمون زماناً قامت لهم به الدول ، وشيدوا دعائم العمران ونشروا راية العلم وأخذوا بجماع القوّة فهدموا بها بنيان الاستعباد وحطموا صروح الاستبداد فملكوا قلوب البشر واجتمع تحت رايتهم الشعوب على اختلاف عناصرهم وتباين مشاربهم قال عليه الصلاة والسلام (لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)

والعيان أعظم شاهد وبرهان على أن الحرية الشرقية والحرية الغربية لايستويان (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) وحرية الغربيين الآن يفرق فيها بين الشرقى والغربى والمسلم والنصرانى بل والبروستانتى والكاثوليكى ـ والحق فيها للقوة يسحق القويّ بقوته الضعيف ، ويستهين بحقوق من عداه فمثل هذه

الحرية تقابل بالسخرية والنبذ والاستهجان لأنها استعباد تأباه الانسانية والانسان ولا ينطبق على قانون الحرية فى كل عصر وزمان

٧٠ ﴿ المساواة وأثرها في الحضارة ﴾

إذا كانت الحرية عزيزة على الانسان فالمساواة لا تقلُّ عنها معزّة ولكن وجوه مساواة كاملة تامة مطلقة فى هذا العالم مستحيل إذ أن قوانين الفطرة ونواميس الكون أشد وأقوى من أن تذعن لسلطان إرادتنا ورغباتنا ـ فليس فى قدرتنا ما يجعل أفراد البشر فى مرتبة واحدة ، وليس فينا ما يمنع وجود أناس أشد بأساً من غيرهم وأعظم قوّة وأحد ذكاء ، إذ الناس رجلان ـ رجل عرف كيف يسلك أحسن سبيل فى الحياة ويتقن عمله فيه بحرصه على النظام ومحافظته على الاقتصاد ـ ورجل ضعيف صعب عليه جهاد الحياة والمزاحمة فيها فضلّ عن السعادة « وما كان من المهتدين »

وهذه الاختلافات التى لامحيص عنها الواقعة بين الرجال واقعة بعينها بين الأمم ، فلا تتمتع جميعها بالنعم الوافرة والخيرات العميمة: إذ منها من تسكن الأقاليم المعتدلة فتنهض للعمل والسعى وراء الرزق فتنال أعظم نصيب من خيرات تتدفق ونعم تتوالى

ومنها من تقطن الأقاليم المثلجة فلا تنعم لها حياة ولا يرغد لها عيش إذ قد تكون أكثر نصباً وتعباً وأكبر بلاء وعناء وأنقص

كسباً ررزقا وأقل جزاء وأجرآ

ومنها من تعيش فى البلاد الحارة وليس عليها إلا أن تتمتع وتعيش ـ فالحاجات مقضية والارزاق قريبة واسعة

وهكذا فى الاقليم الواحد كلما تباينت الأوضاع اتسع نطاق الخلاف ـ فالأمم الجبلية وأمم الصحارى أكثر قناعة وأعظم بأسًا وبطشا من أهل البلاد المستوية أهل السهول والوديان ـ وكلها اختلافات اقتضتها إرادته تعالى ليس للانسان أن يعارضها ولاأن يقف أمامها ـ فمادام القطبان ما دام خط الاستواء ما دامت الشمس والظل والحرارة والبرودة مادامت أرض خصبة وأخرى قحلة

فان الاختلافات تبقى بين الرجال والامم كالاختلافات الواقعة بين الحيوان والنبات

وحينئذ فالمساواة الحقة هى التى يتيسر للانسان الحصول عليها هى الكافلة لحاجات الجميع جهد المستطاع ـ هى المساواة فى الحقوق وتتنوع إلى أنواع :

منها المساواة أمام القانون « لافرق بين فقير وغنى » بحيث يكون القانون واحداً للجميع . والمتأمل يجد أن الشريعة الاسلامية وضعت المساواة أساسًا فى العبادات والمعاملات

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى

الأشعرى يقول له (سوِّ بين الناس ، فى وجهك ، وعدلك ،ومجاسك حتى لا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف فى حيفك) ولـكن من ألقى نظره للعهد القريب لايجد أثراً لها فى بلادنا

فقد عرف عندنا المماليك مرة : والشراكسة أُخرى كان الحاكم منهم أُمة بتمامها . وكانت الأبناء منهم تتولى أُمور الناس وراثة عن الآباء ، فلم يحتاجوا لأن يبرهنوا على كفاءتهم وسعة معارفهم حيث ميزهم القانون ورفعهم فلا تمسهم نوائب الحدثان ولا طوارئ الأزمان

ولاشك أن كل هذه المؤلمات المبكيات مما يناقض العدالة وينافى المساواة — ولذا وجب على كل ذى شعور حيٍّ أن يعمل لازالة هذه الفروق والامتيازات ومحوها ته الدرجات

ومنها المساواة فى التعليم فبعد أن تمنح الأُمة أبناءها المساواة فى الحقوق يجب عليها أن تبعث «١» روحاً تعدد لديهم المطالب وتزيد آمالهم إتساعا «٢» روحاً تمكنهم من الوصول إلى مساواة أرقى «٣» روحاً تمحو كل امتياز اجتماعى غير عدل وتلك الروح هى (التربية) فالفقير يحسن مستقبله بها كما يسوء حال الغنى إذ عدل عنها

ولـكن المساواة المطلقة فى التربية متعذرة حيث تتفاوت المدة التي يخصها كل فريق للتعليم ـ إنما تـكون المساواة فى العـلوم والمعارف الضرورية التى يلزم كل وطنى الإلمام بها

ومنها المساواة فى العمل وهى جعل كافة الوظائف مفتوحة للعموم — فلا احتكار ولا التزام ، فالغنى والفقير سواء فى حرية العمل اللهم إلا حدوداً مفروضة حرصاً على الآداب أو الأمن العام وأما وظائف الحكومة فلا تعطى إلا لكل ذى أهلية واستحقاق

ومنها المساواة السياسية وهى تخويل الحق لكل فرد أن يعطى رأيه فى تدبير الحكومة ويرفع صوته فى حل المسائل العامة

فالصوت العام وإن كان له عيوب وأوجه نقص إنما هو أفضل نموذج وأحسن أسلوب تهتدى به الحكومات لسلوك أحسن سبيل فى السعادة . فالمستقبل فى الحكومات له وحده

ومنها المساواة فى الواجبات ـ فكل وطنى عليه واجبات نحو عائلته ووطنه ، عليه لذويه الغذاء والنفقة والتربية والتعليم ولا يمكن إعفاء أحد من هذه التكاليف التى تكلفنا بها الطبيعة وتدفعنا اليها الغريزة ـ وعلى الانسان لوطنه تكاليف

ومنها خدمة العسكرية ودفع الضرائب فكلٌّ مطالب بهذا الواجب حسب قوته وثروته

ويجب أن يكون القانون عادلاً فى هذه المسائل نافذاً على كافة الأهالى ، إنما يختلف باختلاف أحوال الرعية فمن كان أوسع إيراداً دفع مبلغاً من الضرائب ، ومن كان ضعيفاً أعفى من الخدمة

العسكرية — ولكن متى اتحدت أحوال الناس وظروف معاشهم تساوى الجميع أمام القانون

٧١ — ﴿ الإخاء ضرورى للبشر ﴾

إن الناس إخوة تتقاسم الأحزان ، فتتعاون عند كل ملمة ويغرس فى القلوب ، من حسن الشعور ، وشريف العواطف ما يوجه الأفئدة لمساواة الإخوان ومحاسنتهم ، ويبيّن أن الدقة فى المعاملة وعدم التساهل والضبط فى الحقوق وعدم التسامح يؤديان إلى حبّ الذات مع أن كمال الانسان فى كرم النفس وطهارة الروح

هذه المؤاخاة دعت الغنى لبذل المال تخفيفاً لآلام الفقير وبعثت القوى لمساعدة الضعيف ، والسليم لعيادة المريض وتقوية آماله ولهذا رأينا الأفراد تتعاون على إقامة دور البرّ وأماكن الخير (ملاجىء للفقراء ومستشفيات المرضى ، وبيوت لتربية الأطفال ومآوى للمجانين وغيرها — واستمرّت هذه الأعمال الخيرية عدّة قرون — ولا نصير لها غير أيدى المحسنين

ولم تتنبه الحكومات لهذه المسائل إلا فى العهد الأخير (ماعدا الحكومات الإسلامية فكان بيت مال المسلمين فيها منشأ لهذا الغرض) فقد اعترفت « بأن عليها واجبات للفرد وله عندها حقوق » فعلى الحكومة التى ترعى حقوق بنيها وتسعى وراء سعادتهم أن

تقبل من يعثر منهم ، وتواسيه ، وتشارك المصاب وتؤازره ، وتأخذ بيد الضعيف ، وتخفف عنهم ويلات الزمان ونوائب الحدثان بجميل الشفقة والرحمة بطريق الاعتدال

والذى يستحق المعونة — إما صغير تحفظ ثروته ، أو كبير متلف لما له ، أو فقير أو عجوز أو مريض أو عامل ضعيف

فالصغير — للحكومة الحق فى معاقبة أبيه إذا أساء إليه بحرمانه من الحقوق العائلية ، ولها أن تنصب القوام والأوصياء لحفظ أموال الصغير القاصر أو الكبير المبذر السفيه أو المعتوه

ومساعدة الفقير بأن تفى الحكومة بنفقته ، متى تحقق لديها عجزه عن أى عمل يؤديه ، وإلا إذا أعانت كل فقير تكاسل الناس وانصرفوا عن أعمالهم إلى « تكاياها » حتى تنفق عليهم وأولادهم — وهذا مما يثبط همم العاملين المقتصدين ، ويخمد عزائمهم ، حيث تثقل الحكومة عليهم الضرائب ليتيسر لها الانفاق على هؤلاء الفقراء وبهذا يحرم العاملون من ثمرة تعبهم فينال العقاب من استحق الثواب

وعلى الحكومة مساعدة الطفل الذى نبذه أبواه فى الطرق بغير ذنب اقترفه — وعليها أيضاً أن تقيم المستشفيات العامة للمرضى والملاجىء للأطفال والمآوى للعجائز الذين أقعدهم الكبر وعائلات الجنود الذين استشهدوا فى ميادين الحروب ، وأن تعتنى

بإيواء المجانين ومراقبتهم وحمايتهم

والعامل الضعيف نصرته محتمة على الحكومة التى هى وصية الضعفاء بحيث تتخذ الاحتياطات اللازمة والتدبيرات الضرورية لمنع وقوع الحوادث فى المناجم والمعامل وغيرها كالانفجار والحرائق والتهدم — فتلزم « المدير » بما يتلف صحة العملة أو يفقد أحدهم الحياة وتحديد ساعات العمل وتعيينها رفقاً بهم ورحمة .

وبالجملة أن التسامح والاعتدال يحسمان كثيراً من المنازعات ويفضّان أبواباً من المشاكل فى الأمة وهما يستلزمان الشعور باحترام حقوق الغير وآرائهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية ، وان من أنفس المبادىء الأدبية التى تحثّ عليها الأديان وترفع صوتها من أجلها الحكماء هى « حبّ لأخيك ما تحب لنفسك » و « عامله بما تحب أن يعاملك به »

٧٢ — الإجتماع ضرورى لنوع الإنسان فما يلزم اصلاح هذا الاجتماع

إن الإنسان لا قدرة له على استيفاء حاجياته الضرورية بمفرده ولا استطاعة له على تكميل لوازمه الذاتية بنفسه بل لا بد له من معاونة ومساعدة قوم كثيرى العدد يتمّم بهم ما ينقصه ، ويكمل ما يحتاج إليه فى حياته .

فالمعاشرة لازمة بحكم الضرورة فما خلق الإنسان ليعيش وحيداً

لأنه بطبعه لايمل إذا لم يجد بجانبه أنيساً يحادثه — ولذلك سُمى (إنساناً) أو جليساً يبث اليه شكواه أو صديقاً يواسيه ويسليه.

فلا صديق اليه مشتكى حَزَنى ولا أنيس اليه منتهى جزلى

وقد قال بعض حكماء الافرنج (ماذا تعمل النفس الوحيدة حتى فى الجنة) وذلك مصداق لقول شاعرنا العربى أبى العلاء المعرى

ولو أنى حُبيت الخلد فرداً لما أحببت فى الُخلد انفرادا

فالإنسان للإنسان كاليد تتوسل باليد، والعين تستعين بالعين بل هو ساعده، وعضده (وان الذليل الذى ليست له عضد)

قال ابن مسكويه إذا كان الانسان محتاجًا إلى غيره بالطبع فكيف يؤثر الانسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلى ولا يتعاطى ما يرى من الفضيلة فى غيره، وقد أخطأ الذين رأوا أن الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس بملازمة المغارات فى الجبال وبناء الصوامع فى المفاوز فقال إنه لاتظهر فيه العفة ولاالنجدة ولاالسخاء إذ القُوى تصير باطلة فلا تتوجّه لا إلى خير ولا إلى شر وإذن يصيرون بمنزلة الجمادات والموتى من الناس ولذلك هم يظنون أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء وأنهم عدول وليسوا بعدول فانما الفضائل أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومبادلتهم صنوف المعاملات وضروب الاجتماعات

وبديهى ان فى الانفراد إخلالاً للنظام وتحليلاً للمجتمع

وتقويضاً لدعائمه ، فانما المجتمع كجسم إنسان ، كل فرد منه بمنزلة عضو من أعضاء البدن ، وقوام البدن بتمام أعضائه

فاذاً الاجتماع ضرورى وعن الاجتماع تنشأ المعاملات ويضطر الناس للأخذ والعطاء وتبادل المنافع ـ ولذلك كان للتكافل اركان هى الألفة بين الناس ـ والعدالة فيما بينهم .

أما الألفة فوجه لوازمها أنها إذا تمت نشأ عنها التعاضد والتوازر والتضافر والتظافر والتناصر والتألّب والائتلاف والاتحاد وصار التعامل بينهم على أحسن نهج وأقوم منوال فانه لا تعامل إلا بين متآلفين ، واذا تآلفوا وتحابوا اتفقت مشاربهم واتحدت أغراضهم وابتعد عنهم النفاق وانعدم الخلاف الذى هو أصل كل بلاء وأس كل شقاء ، وإذ ذاك تنشأ الثقة بينهم ويحصل الأمن فى تبادل المنافع فيقوُون على نيل الخيرات وينهضون لاستخراج الغوامض وابراز المخترعات ، وتستسلم لهم الصعاب وتدين لهم المطالب على اختلاف أنواعها طوعًا أو كرهًا فان ما هو عزيز المنال صعب المرام بالتعاون والمساعدة والتناصر يصبح ميسوراً ـ قال سقراط الحكيم اليونانى (انى لأكثر التعجب ممن يعلّم أولاده أخبار الملوك ووقائع بعضهم ببعض وذكر الحروب والضغائن ومن انتقم أو وثب على صاحبه ولا يخطر بيالهم أمر المودة والألفة وما يحصل من الخيرات العامة

لجميع الناس بالمحبة والأمن وأنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة وإن مالت اليه الدنيا بجميع رغائبها فان ظن أحد أن أمر المودّة صغير فالصغير من ظن ذلك — وإن قدّر أنه موجود ويسير الخطب يدرك بالهوينا فما أصعبه وما أعسر وجود صداقة يوثق بها عند البلوى) .

وأما العدالة فلأنها حياة المجتمع وروح العمران فاذا انعدمت من من أمة أسرع اليها الفناء وحلّ بها الدمار حتماً ، فتتقهقر وتتلاشى شيئًا فشيئًا حتى أصبح أثراً بعد عين — ألا ترى أنه إذا ساد العدل استتبّ الأمن العام وتوطّدت أركانه ، وإذا ما استتب الأمن العام اطمأنت النفوس وهدأت القلوب وارتاحت الخواطر فأمن كل فرد على نفسه وماله وعرضه ـ ألا ترى أنه إذا انتشر العدل أمن الضعيف جور القويّ والصغير حيف الكبير وعاشوا إخوانًا ، وحينئذ تحيي الآمال وتقوى العزائم وتنهض الأفكار وتنشر الهمم ويكثر العمران .

وينقسم التكافل إلي تكافل عائلي ـ وتكافل اجتماعى

فالتكافل العائلى هو مشاركة ذوى القرابة فى الخيرات ومعاونتهم فى السراء والضراء وتضافرهم فى تدبير أمورهم المعيشية ولوازم حياتهم فيقوم الرجل بتحصيل الغذاء وتقوم المرأة بتدبير المنزل ، ثم يتعاونان الاثنان على تربية أولادهما وتثقيف عقولهم ـ وأيضًا يجب على كل

من كان قادراً على الكسب أن يساعد غير القادر عليه من ذوى لحمته — فعلى الابن مساعدة أبيه الذى أوهنه الكبر والشيب أهرمه أو الذى منعته عاهة وأقعده داء عضال كالمزمن والمقعد والمفلوج وغيره كما أنه يجب على كل فرد مساعدة أقربائه البائسين منهم والفقراء والمعوزين قال تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) وقال عليه الصلاة والسلام (تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم)

والتكافل الاجتماعي أعم من الأول وهو قيام كل شخص بوظيفة وتأدية كل عمل من الأعمال الدنيوية — يستوى فى ذلك الكبير والصغير والأمير والحقير والغنى والفقير ، فالملك يسوس البلاد بعدله والوزير يدبر شؤون المملكة بحزمه والمتشرع يسن القوانين واللوائح . والمهندس ينظم . والطبيب يعالج العلل . والفلاح يفلح الأرض . وهكذا من أحقر عامل لأكبر مخلوق تكون بينهما الحركة دائمة متواصلة والعمل مستمراً ، ولا يخطر ببال أحد أن هناك عملاً حقيراً وآخر عظيماً ، فكل ما يؤدى إلى المجتمع فهو نافع لأعضائه ، والكبير يترتب على الصغير — إذ المجتمع كجسم إنسان لايقوم إلا إذا قام كل عضو بوظيفة خاصة به فالعامل البسيط قد يرشد أمته إلى طريقة جديدة لإتقان أى عمل حقير صغير لا يقل فى السعادة والمنفعة عن أعظم رجل أتى بما جعل شهرته تطبق

الآفاق لأن كليهما قد أفاد بني نوعه — فسعداً لمن كانوا مفيدين لبنى نوعهم، فقد أدوا وظيفتهم فى الوجود، فماتوا مرتاحى الضمير، مطمئنى الخاطر، مكتسبين ثناء الجميع وعرفانهم بفضلهم — وسحقاً للمتقاعد الذى يعيش عالة على غيره، وما أكفره بالنعم لا يقاسم أبناء جلدته الأتعاب ولا يشاركهم فى الأعمال، بل يكون كما قال الإمام على (كالبهيمة المربوطة همها علفها أوالمرسلة شغلها تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد منها)

وبالجملة — إذا أراد الله بأمة خيراً، ووفقهم إلى أعمالهم، وتم فيهم التكافل تمت لهم بذلك السعادة وارتقوا إلى أسمى ذُرا الكمال وبلغوا شأواً لم يبلغه غيرهم فى كل آن، أما إذا اتكل كلٌّ على غيره وانتظر كل شيء من غيره ولم يعمل لغيره ما استطاع، انحطت مكانتهم وذهبت ريحهم ورموا بأنفسهم إلى الهلاك — فاذاً الأُمة تتبع فى رقيها وانحطاطها مقدار ماعهدها اليه نفوس أفرادها المكونين لها

٧٣ - ﴿الاستقلال — وأثره فى نفوس الأمم والشعوب﴾

الاستقلال كلمة غالية، ولفظة عالية، تهتز لها القلوب فرحاً وسروراً، وتميل اليها الأعضاء شفقة وانعطافاً، وتُطأطىء لها الرؤوس خضوعاً وخشوعاً، وتتقبّلها الأفواه لثماً وتقبيلاً

فسعادة الأمة متعلقة بعيشها فى بلادها على الوجه الذى تريد

وتختار ، فلا تقهر على الخضوع لقوانين أجنبية أو على التخلق بعوائد غير وطنية .

والأمة المستقلة هى صاحبة السيادة التامة فى بلادها ، وهى التى تتصرف بحرية فى تدبير شؤونها وسن قوانينها بل هى بيدها حظوظها وبيدها مستقبلها ـ فلا يسوغ لأجنبي التـــــــداخل فى شؤون الأمة المستقلة بحال من الأحوال مهما قل عـدد السكان فيها أو صغرت مساحة أراضيها ـ فالأصل إذاً فى الأمور أن كل أمة تستقل فى شؤونها استقلالاً داخلياً ـ يشعر العامى فى نفسه بذلك فيقول (كل واحد أمير فى محله) ولـكن من المحزن المؤلم أن نرى كثيراً من الأمم غير مستقل بأموره ، تلك أُمم مرت بها ظروف وألمت بها حوادث وأسباب أوقعتها فى يد الأجنبى وتحت نِيره وحملها سوء استبداده

ومعلوم أن الأمم التى لا نراها اليوم فى هذا العالم لم تكن على الدوام بالحالة التى هى عليها الآن ، فمنها ما اتسع نطاقها ، ومنها ما ضاقت أملاكها ، ومنها ما تلاشى وانتهي أمره فانقطع شأنه فى التاريخ وبتتبُّع تلك التغيرات ترى الأمة تعمر وتتقدم ما دامت وطيـدة الدعائم ، مادام فيها الشعور متحداً والمبدأ واحداً ـ وأن الأمة التى تنقرض وتتلاشى هى المتفرقة أفرادها الفاسدة آدابها ـ وأن تـكوّن

الأمم الحالية لم يكن على نسق واحد وعلى وتيرة واحدة ، حيث إن بعضها حسن خلقه فكتبت له السعادة ، وبعضها بُنى على غير أساس متين فكتبت عليه الشقاوة والتعاسة . وإن أشد هذه الأمم عصبية وأطولهم دولة وأعزهم سلطاناً هى التى لا يقتصر فى توطيد دعائمها على مصالح الأفراد العامة بل على المشاعر والخواطر الواحدة فإن الروابط القلبية العقلية أمتن وأبعد انفصامًا من الروابط المادية إذ يتجه بها حظ الأمة نحو السعادة نحو البأس والمنفعة والشوكة .

وقصارى القول أن العالم فى تغيّر وتحوُّل متواصل ، فى تقلّب وتبدل مستمرّ ، فإن للأمة تبدو صغيرة وتنشط عزائمها للعمل وتتحد مطالبها فيزداد بأسها وتعظم شوكتها وتصبح أمة عظيمة معززة الجانب ، ثم لا تلبث أن يدخلها الغرور ويملأها العجب فتهمل شؤونها ويطأ قدمها باب التنعم والرفاهية فتحيط بها ظلمات تكون بلاء وعناء ، لا تسلم من مرضه بل ربما قضى عليها ، تلك سُنّة الله فى الأرض يسميها الحكماء « قانون التاريخ » فما يحصل من التغيرات فى قرن واحد ليس بالقليل ـ فليتيقظ من يقول (كما مرّ اليوم يمرْ الغد ـ غدِى كأمسِى) وايتعظ بأن هناك تغيراً يقوم بالامة فى يوم كشروق الشمس وغروبها وأنه قد تكون الدقيقة الواحدة سببا لسعادة الحياة أو علة لشقائها .

وبالجملة — إنه لا يسوغ لأمة أن تتصرّف فى أمة أخرى بما يخالف اختيارها وإرادتها ، فالسيادة الداخليـة للأمة محترمة لا يجوز التعدى عليها — اللهم إلاّ إذا سارت الأمة فى طريق ممقوتة طريق تجعلها أبداً مهددة لراحة الأمم واطمئنانها ، فحينئذ يسوغ التداخل فى شؤونها فيجوز اخضاع قبيلة وحشية تعيث فساداً فى أرض جيرانها من قتل وحرب وسَبى ونهب ـ وكذا إذا اعتادت أمة السلب فى البحار فللجميع الحق فى ردعها لأنها تهدّد البحر طريقهم العام ـ إلى غير ذلك مما يخلّ بالآداب واستتباب الأمن العام

٧٤ — ﴿ ومعظم النار من مستصغر الشرر ﴾

يلزم العناية بصغير الأشياء قبل عظيمها وقبل أن يتّسع الخرق على الراقع ويتسرّب الإهمال فيصبح الشىء الصغير كبيراً يحتاج إلى عناية ومجهود لإخماده وإزالة ضرره . ورب حادثة صغيرة أثارت حرباً عوانا حمى وطيسها ، واشتـــد خطبها ، وزاد لهبهـا ، وطالت أيامها ، واستحصدت فيها الرؤوس ، وقصّرت الآجال ، وأهلكت الحرث والنسل وكان يمكن تدارك إطفائها وإخماد نارها بكلمة طيبة أو إجابة سؤال بالتى هى أحسن

والأمة إذا أهملت صغار أمورها ، تولّدَ من ذلك كبارها واضمحلت وسار الفساد فى بنيها ، واختلفت كلمتها ، وانحطت شوكتها

وطمع فيها أعداؤها . فالزارع إذا أهمل فى سقيا أرضه ، أعوزته الحاجة وحصد محصولاً قليلاً جزاء تقصيره . والموظف إذا ترك عملاً ضئيلاً ولم ينجزه فى وقته ، تمر عليه الأيام فتترا كم أعماله ويقع تحت مسئولية التأخير وربما عجز عن تأديتها لكثرتها . وكذا المريض إذا أهمل فى إبّان سقمه ولم يعالج زاد ألمه وربما استعصى علاجه وبَعُد برؤه لأن الدواء يكون نفعه قريباً قبل استفحال الداء

٧٥ ـ ﴿ الرياء وآثار ضرره فى النفوس الكريمة ﴾

الرياء خصلة ذميمة تدعوا إلى النفاق وسوء الأخلاق ورداءة التمويه والخداع . والمرائى الذى يخادع الناس ويداهنهم هو حقير عندهم رذل سىء المعاملة كثير الخطأ كاذب القول لا يوثق به قبيح الفعل

ثوب الرياء يشفّ عما تحته ... فاذا التحفتَ به فانك عارى

وكثير التملق وعابد الوثن مثلان فى القبح والضلال وإساءة الأعمال ، فاذا كان عابد الوثن يشرك بالله ويعبد من دونه عز وجل مالا ينفعه ولا يضره كذلك الملاق المنافق يتّخذ من الناس إلهاً يظهر له المحبة والنفاق مهما كلفه ذلك من إضاعة الأدب وفساد الأخلاق وسوء التربية والوشاية والغيبة والنمية والأذى

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفي على الناس تعلم

قال الأحنف (لأن أبتلى بألف جموح لجوج أحب إلىّ من

أبتلى بمتلوّن واحد) ذلك لأنه على باطل ، ومنطو على الأذى ، والحق أبلج (يتردد دون أن ينفذ) فينكشف عن ود كاذب ، وباطن فاسد وضمير سوء ، فهو صديق عين وعدو غيب

والنفوس العالية التى تربت تربية حسنة تتنزه عن الرياء وتترفع عن الملق والمداجاة قال صلى الله عليه وسلم (إن شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) وقال تعالى فى ذم صاحب الرياء (همّاز مشّاء بنميم منّاع للخير معتد أثيم)

٧٥ — ﴿ أثر المحاباة والرّشوة فى المجتمع الإنسانى ﴾

المحاباة خصلة ذميمة وسوس ينخر فى عظام العمل واتمامه على الوجه الاكمل . والمحاباة ربما تقدم الجاهل على العالم والعاجز على القادر والكفء المستحق . والمحابي ضار لبلاده خائن لوطنه لأنه يفضل قريبه أو صاحبه ، أو من يقدم له رشوة على الاكفاء العاملين ويزف اليهم المناصب العالية والرتب السامية ولا يخشى رقيباً أو عقاباً حباً فى الذهب والفضة وميلاً إلى اكتساب مودة الأقربين وإن اختل النظام واعتل العمل وتأخر الوطن . والمحاباة تجلب البغضاء والشقاق فى نفوس أبناء الأمة وتبعث على الجبن والكسل إذ يجد العامل المتقن والمجتهد المتفنن محاباة تؤخره وتضعه وتقدم من دونه فى العمل والذكاء والمحاباة تجلب سوء العاقبة وتفسد النظام والقوانين . وهى من

أخلاق السفلة الذين لايخافون الله ورسله ولا يتقونه فى أبناء الأئمة المجدين الذين يعملون عملاً صالحاً متقناً بمهارتهم وثاقب فكرهم وعلو مداركهم وهى تجر إلى الظلم وتدعو إلى الخيانة والمذمة وخاف الوعد والذل والإستكانة وتبعد الرئيس عن مرؤوسيه وتخلق الشقاق والنفاق وسوء الاخلاق

٧٧ — ﴿الوقت نقد﴾

حكمة جليلة ترشدنا إلى أن الوقت ثمين وغال يجب أن نحافظ عليه فلا يضيع فى اللهو واللعب بل فى الجد والعمل وطلب العلا ودرك المراد ونيل المطالب فالعاقل اللبيب من ينفق عمره فى الصالحات الطيبات والعمل الخالد الذى يكسبه الذكر الحسن والصيت الشريف وإذا أسند اليه عمل قام به خير قيام وأتقنه وأدّى واجبه ولم يهمل فيه ولا يؤخر لتحبّه رؤساؤه وتحترمه أصدقاؤه

دقّات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

لعمرى أن الوقت نفيس ، وأنفس منه أن توجد فيه أعمال الخير وتكتسب العلوم والمعارف وتحصل الإفادة والإستفادة وتنتشر التجارة لتربح ربحاً وافراً وترقى الصناعة وتؤلف المؤلفات وتخترع المخترعات وتنجز الأعمال ويتسابق العاملون فى ميدان الفخر والعز والمجد — والمحافظة على الوقت من صفات الصداقة والأمانة والوفاء

بالوعد وقوة الإرادة والعزيمة والحزم ، لأن المهمل ضعيف النكاية وقليل العزم يضر نفسه وغيره باهماله وكسله ، ويذهب وقته بلا فائدة وتنحط منزلته عند رؤسائه وتكرهه أتباعه وتمده الناس مخاتلاً جبانا خبيث النفس كسلان ، وعيشه نكد لا رغد ، فتراه دائماً فى شقاء وبؤس — أما من يحافظ على وقته فنشيط وسعيد وفرح وعيشته راضية

٧٨ — ﴿ مقارنة بين أيام السلم والحرب ﴾

أيام السلم رخاء وسعادة ، ويمن ويسر ، وعمل وكدّ ، واختراع وجد، وتجارة وصناعة وزراعة ، ويذهب العامل إلى مقر وظيفته ومعهده وحانوته قرير العين منشرح الصدر ساعياً على معاشه وتحسين حاله وجلب قوته وأداء واجبه . وأما أيام الحرب فشقاء وبؤس وعناء ودماء مسفوكة وأموال ضائعة وأعمال معطلة وثمرات قليلة وتجارة كاسدة ، وصناعة واقفة وفاسدة ، وتدمير وتخريب ، وضنك وفقر ونيران تتأجج، ومدافع تدك الحصون ، وطيارات ترمى شظايا النار ورصاصات تخترق الصدور ، وسوائل محرقة وقذائف مخربة وغواصات ونسافات وطرادات وحراقات وبارجات . فالحرب توقع العالم فى عسر وضيق وتسبب التعذيب والتنكيل والأسر — لم يسلم من ضررها أحد وتجلب غلاء الحاجيات ، وتزيد سعرها أضعافاً مضاعفة وتصرف الناس عن أعمالهم الخيرية إلى قتال بعضهم وتدمير بيوتهم وحرق

مصانعهم إلى غير ذلك من المصائب ـ وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاتتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية » .

٧٩ – ﴿ من لم ينظر فى العواقب فليس الدهر له بصاحب ﴾

الحازم من نظر فى العواقب وتأنى فى عمله وفعل بروية وتؤدة وفكر فى خواتيم أعماله وعرف المورد والمصدر وعجم عيدان العمل قبل الاقدام عليه والدخول فيه ليأمن المكروه ويضمن النجاة ويقرب من الرشاد وينطق بالحكمة والحق .

وأحزم الناس من لومات من ظمإ   لايقرب الورد حتى يعرف الصدرا

ويقولون « من تأنى نال ما تمنى » لان الأناة من صفات الكمال وضرب من ضروب رجاحة العقل وحسن التدبير وعلو الآداب وسمو التربية . والقائد الحازم المدبر من يفكر فى أمره قبل اقتحامه ويعرف عواقبه قبل اجتيازه ويلتمس طريق النجاة قبل النزال ومقارعة الأبطال ، والأمم الراقية دأبها التأنى فى أعمالها ليعز شأنها ويعظم سلطانها وتقوى حكومتها وتعيش آمنة سالمة من أذى جيرانها سديدة الرأى ـــ والامة الطائشة يغلط لسانها ويزل جنانها فلا تحكم الرأى فتنتابها الحوادث ويطمع فيها العدو ، والقائد العجل يقتحم غمار الحروب بلا تفكير وتؤدة ، ولا يفكر فى عواقب إقدامه ولا يعلم مكامن عدوه وعدته وحصونه فيهزمه عدوه ويصبح

أحمق مخذولاً مدحوراً مهما كانت قوته

٨٠ — ﴿ النظام والترتيب يتوقف عليهما العمران ﴾

من أراد أن يكون عمله متقناً فليكن النظام رائده، لأنه يدل على كمال العقل، وترتيب الفكر، وحسن الرأى، وجودة العمل، ووراءه الخير واليمن والسعادة، وبه تنجز الأعمال، وهو يكون فى العمل والمأكل والمشرب والملابس والمنازل والمصانع والمعاهد، فمن ينظم ملابسه يحترمه رؤساءه وترضى عنه أصدقاؤه، ويكون موسوماً بحسن الخلال وكرم الفعال ومن نظم أكله سلم من جميع الأمراض، وبعد عن العلل، ألا ترى أن النفس ترتاح للبيت المنظم أثاثه، وتتقدم المعاهد التى يرفرف عليها شارات النظام وحسن الترتيب. وتروج التجارة وتنشر الصناعة فى الحانوت المنظم وكل موظف يرتب أعماله ويحسن أفعاله ويجيد ما أسند إليه ويقوم به خير قيام ساد وارتقى وأحبه الناس وبلغ منزلة عالية. فللنظام دلائل حسية على بلوغ الكمال لمن تحلى به، ومن سار بغير نظام هوى كوكبه وأفل نجم عمله وانحط قدره وضاع زمنه بلا ثمرة تجنى وظل عرضة للهزء والسخرية وباء بالخيبة، وتحوطه المخاوف وتساوره الهموم، لأن فكره معتل وفعله مختل

فالنظام جميل وأجمل منه أن ترى آثاره بادية تتجلى للناظرين بترتيب أنيق رشيق يبسط النفس ويجلب الأنس

٨١ — ﴿ وصف الكتاب ﴾

الكتاب نعم الأنيس في الوحدة ، والرفيق في الخلوة ، يمتعك بجميل مواعظه ، ويهديك بجليل فوائده ، ويرشدك إلى طريق الخير ومسالك البر ، ويبين لك الضار من النافع . ويشرح لك أحاديث السالفين ، وقصص الأولين ، تستعيد به العصور الماضية ، والأيام الخالية ، وتبعث به رفات الماضين ، وأجساد الغابرين ، فتجعل منهم رجالاً يخطبون ويعظون ، ومرشدين ينطقون بلآلىء الحكم ، وبديع الكلم وكأنما أنت بجانبهم تسمع وترى

ما تطعّمتُ لذة العيش حتى   سرت في وحدتي لكُتبي جليسا

أدخل مكتبك تر أصدقاء قد تباينت أعمارهم ، وتقادم عهدهم وتبلبلت ألسنتهم ، العربيّ منهم إلى جانب العجمي ، والرومي بجوار الهندي ، إن دعوتهم أجابوك ، وإن أقصيتهم لم يعادوك ، تخاطب من تشاء فلا يأبى عليك حديثك ، ولا تأخذه العزة في مخاطبتك لا يُخفي عنك آراءه الثاقبة ، وأفكاره السامية ، ثم أنت لا تتكلف لهؤلاء الأصدقاء إلا حجرة يأوون إليها ، أو قمطراً يستترون به ، فهم في ضيافتك إلى ما تشاء ، ترجع إليهم فيما ينوبك ، وتسترشد بهم في خطوبك

اجعل أنيسك دفتراً في نشره   للمَيْت من حِكَم العلوم نشورا

فكتاب علم للأديب مؤانسٌ ومؤدّب ومبشّرٌ ونذير
ومعيد آداب ومؤنس وحشة وإذا انفردت فصاحب وسمير

وصفوة القول أن الكتاب معلم ماهر، وطبيب بارع، وصديق ناصح، لا يريد منك جزاء، ولا يكلفك شكراً، مع غزير مادته وبالغ حكمته، وناجع نصيحته

أشرّ مكان فى الدنيا سرج سابح وخير جليس فى الزمان كتاب

فتخيَّر الكتاب كما تتخير الصديق، فهو قوام أدبك، وعماد فضلك، وملاك أمرك

فى طيه غرر الآداب قد نقشت وفى صحائفه للكون أسرار
أوفى من الناس عهداً فى صحابته نعم الرفيق على الأيام والجار
ولى جُلساء ما أملّ حديثهم ألبَّاء مأمونون غيباً ومشهَدَا
إذا ما اجتمعنا كان حسن حديثهم معيناً على دفع الهموم مؤيدا
يفيدوننى من علمهم علم ما مضى وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا
فلا رِقبة أخشى ولا سوء عشرة ولا أتّقى منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت أحياءٌ فلست بكاذب وإن قلت أمواتٌ فلست مفندا

٨٣ — ﴿ ماهى الصفات التى تُحبّ أن يتصفَ بها صديقك ﴾

الإنسان فى حاجة إلى أصدقاء يعينونه فى شدته، ويشاطرونه السرور فى رخائه . وكلما ازداد عدد أصدقائه أحس بسعادة فى الحياة

وراحة فى النفس

عاشر أخا ثقة تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح عاصفة مما تمرّ به نتنا من النتن وطيبا نا من الطيب

فالأصدقاء هم الأعوان فى النائبات والعُدّة فى الملمّات ، وأولى الناس بالغِبطَة من عمَرَ رَبعَهُ بإخوان الصفا ، وخلان الوفاء

وليس كل الناس ممن توفرت فيهم الفضائل ، وتمكنت فى نفوسهم المروءة . فلابد لمن يتخير منهم الأصدقاء ، أن ينقُدَهم نقد الدراهم ، ويبْلُوَهم فى الشدائد ، فانها مِسبار الرجال ، وأن يميز بين وضيعهم وشريفهم ، فمن عُرف بين الناس بالمروءة والوفاء . والشرف وصدق العهد . وكرم الجار . فهو الجدير بأن يتخذ صديقاً ويصطفى خليلاً

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

أما من يعرف صاحبه فى الرخاء . وينكره فى الشدائد . فذاك الذي يخدع الناس بظاهر خلّاب . ولسان عذب . ولكنه يخفى وراء ظاهره باطناً مظلما . وضميراً خرباً . لا تستقر فى جوانبه مودة . ولا تطمئن إلى البقاء فيه صداقة . ولقد أحسن القائل :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

إن الصديق الحق . والأخ الوفى : هو من يواسى فى

الشدة و ينفع فى الملمات ، و يُسرُّ اسرور صديقه ، ويحزن لحزنه ، وهو كما قال الشاعر

ان أخاكَ الحق من كان معكْ   ومن يضر نفسَـه لينفعكْ
ومن إذا ريبُ الزمان صَدعك   شَتَّتَ شملَ نفسـه ليجمعك

٨٣ — ﴿ سِرُّكَ أسيركَ ﴾

السر هو الخبر الذى تستودعه عند صاحبك ، وتدخره عند صديقك ، فأخرِ به أن يحلّه من نفسه مكاناً حصيناً ، وأن يحتفظ به ، فلا تحدثه نفسه يوماً مّا بإذاعته ، ليكون حفيظاً أمينًا .

إن إفشاء السر خيانة كبرى ، وجريمـة لا تغتفر ، فإنه قد يكون سببًا فى وقوع مُودِعه فى المخاطر ، ومهاوى الشقاء ، وتكون أنت الذى جنيت عليه بخيانتك ، وإذاعتـك لسره ، بعـد أن لجأ إليك ، وجعل سره بين يديك ، ووكل أمره الى اخلاصك المعهود .

أتحب أن تُنلجى غيرك بما فى نفسك ، وتطلعه على نواياك وتستودعه خباياك ، فلا يلبث أن يبدد أسرارك ، ويذيع أخبـارك و ينشر أفكارك ، فلا تجد مَحيصاً من الوقوع فى المهالك والشقـاء وركوب الصعاب

كلا . ثم كلا . فـكيف بك تكون منزلتك منزلة اللص بل أسوأ حالاً منه فانه يختلس المال ، وأنت تختلس أسرارَ الرجال

فكن لإخوانك كما قال الشاعر العربي

يظلون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعُها

٨٤ – ﴿ الفقير الصابر والغنى الشاكر ﴾

الفقر سجن النفوس الكريمة ، ومُثبِّط الهمم العالية . وهو مجلبة الذل ، وقرين الهم ، وموت الحي ، وأدوأ الأدواء ، يترك العزيز ذليلاً ، والصحيح سقيماً ، ويجعل الحياة الدنيا سلسلة شقاء ، وقرارة أكدار . ولقد كاد الفقر أن يكون كفراً .

الفقر أثقل أحمال الحياة ، وأمر أوصابها ، وأشق خطوبها قد ابتُلي به قوم فوهَنَت بحمله عزائمهم ، وضَعُفت عن الصبر عليه نفوسهم ، فراحوا إلى الشكوي ، ولبثوا ثياب الذلة والمسكنة وأراقوا ماء وجوههم في الاستجداء والسؤال ، وتعرضوا لذوى المعروف يبسطون أيديهم في ضعة ، ويطلقون ألسنتهم في مسكنة . وهؤلاء قد جمعوا إلي ذل الفقر مهانة الاستجداء

وابتلى به آخرون ، فاعتصموا بالصبر ؛ وتمسكوا بعروة العفاف الذى هو زينة الفقر ، ولبسوا ثوب التجمّل ، وعلموا أن الحياة و إن طالت الي نفاد ، فبسطوا الى الله وحده يد الضراعة ، وكفوا أيديهم عما في أيدى الناس ، فلم يدعوا في عنقهم قلادة مِنّة لمخلوق فهم أعزة على الناس بغنى نفوسهم ، وقناعة قلوبهم ، ورضاهم بما قسم

الله لهم . يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، قد زانتهم العفة وهى زينة الفقراء ، وأغنتهم القناعة وهى كنز المقلين

ومن الناس من هم أسعد من أولئك حظًا ، وأوفر فى الحياة غنمًا ، قد بسط لهم الله الرزق ، وآتاهم من نعمه وفضله مالاً وافراً وأمدهم بالخير ، فهم من النعمة فى ثوب سابغ ، وعز ظاهر . ثم جعل من هؤلاء الشاكر على ما آتاه من فضله ، المحدث بنعمة ربه ، الباسط يده للخير ، المتوّج غناه بتاج الشكر ، المجملةُ بجمال البذل ، وحلية السخاء . يرى أن خير المال ما أكسب حمداً . وأورث ذكراً ، وأعلى قدراً ، ويسّرَ عُسْراً — ثم كان منهم من جمع مالهوعَدَّدَه ، وردَّ نفسَه عبدَ الدينار والدرهم . فما يزيده الغنى إلا فقراً ، ولا يكسبه اليسر إلا عسراً فهو على وفرة ماله في فقر دائم ، وذل مقيم . لم يصل بالعفة إلى منازل الفقراء الصابرين ، ولا بالثروة لى مراتب الأغنياء المحسنين

٨٥

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقرُ

من الناس من وَهنَت عزائمهم ، وصغُرت نفوسهم ، وحُبّبت إليهم الحياة فى أى صورة من صورها . لايبالون بما يمس كرامتهم أو يثلم شرفهم . همهم أن يبيتوا فى مساكنهم ملءَ عيونهم ، وإن بَعُدَت الكرامة عن مضاجعهم ، وقرت المذلة بين جنوبهم ، وسامهم الناس

الخسف وسوء العذاب . تراهم لا يذودون عن حوضهم ، ولا يدفعون في صدور أعدائهم ، مهما مسّهم من هوان ، ولحقهم من صغار

أولئك قوم منعهم الخوف ، وغشّى على أبصارهم الجبن ، فلم تدفعهم نخوة إلى حوط كرامتهم ، وصون عزّتهم ، ممن نالها بسوء خشية أن ينالهم في سبيل دفاعهم ذل جديد ، أو عناء طارىء . فيرضون بالمهانة حتى لا تتلوها مهانة ، وبالذلة حتى لا تلحقها أخرى ، عندئذ تنتهك الناس حرماتهم ، و يستضعفونهم ويستلينون عودهم ، ويعرفون أنهم من الخوف والذل في رهبة دائمة ، واستكانة لا تبرح فتتواتر عليهم المهانة ، وتذهب ريح شرفهم ، ولا يجدون من أنفسهم لأنفسهم نصيراً . ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وهانوا فما ترى فيهم نخوة ولا تحس لهم ركزاً

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجُرح بميّتٍ إيلام

ولو أنهم غضبوا لحرمتهم ، وتمسكوا بكرامتهم ، وعلموا أن الحياة في ذل خير منها الموت في شرف وكرامة ، وعرف لهم الناس هذه النفس العالية ، والعزة الأبيَّة ، لما وردوا حوضهم ، واعتدوا على كرامتهم وإذاً لعاشوا في عز دائم ، ونعيم مقيم ، ولقد أحسن زُهير إذ يقول

ومن لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحه   يهدَّم ومن لم يَظلم الناسَ يُظلم

ومن الناس من أسبغ الله عليه نعمه ، وأولاه من فضله ، فغل

يده إلى عنقه ، وامسك نعم الله ، ولم يمتع بها نفسه وآله ، ولم يبتغ فيها سعادة عاجلة ، ومثوبة آجلة ، إذا دعى إلى مكرمة أعرض ونأى بجانبه ، و إذا رأى موضع عُرف أعمى عنه بصره ، وصرف عن الرغبة فيه نفسه ، يضن بالخير على نفسه خشية الإملاق . فهو عبد الدينار والدرهم . كل همه أن يمتع بهما نظره ، وقد يحرمه من ذلك ، ضناً بما أكنَّه من دينار ، وصانه من درهم . أن تقع عليه الأبصار ، وترمقه الأنظار ، تكاد نفسه تذوب أذى وحسرة لدرهم يُنفَدُ ودينار يُنْقَد ، فما أشقاه بما له ، وما أفقره بغناه

فأعجب به من غنى فقير ، وسَرِىّ حقير ، يتمنّى له الموت من يجمُلُ به أن يطلب له الحياة ، من ولد محروم ، وأخ مُعْدِم ، وهو من نعمة الله فيما لو شاء لجعل حياته وحياة آله عيشاً رغيداً ، ونعيماً مقيماً ولكن نفسه الفقيرة الضنينة ، تركته يتقلب فى فراش الفقر ، ومهاد الذل . فما أشقى الرجال بعبادة الأموال

٨٦ — ﴿ كفاءة الإنسان تقاس بما ينجزه من جلائل الأعمال ﴾

لا زينة المرء تعليه ولا المال ... ولا يشرّفه عمٌّ ولا خال
وإنما يتسامى للعلى رجل ... ماضى العزيمة لا تثنيه أهوال

جدير بالانسان وقد سخر الله له مافي هذا العالم ، ومكّنَ له فى الأرض ، وجعله سيد مخلوقاته ، وفطره على أفضل صورة ، وأحسن

تقويم ، ومنحه عقلاً مرشداً ، ونفساً تواقة ، أن يفسح لنفسه مجال الأمل ويوسِّعَ سبيل العمل ، وأن يعلوَ بهمته إلى حيث يراجح النجوم ، ويطاول الغيوم ، فإن الهمة أبعد منها مرتقى ، وأرفع أفقًا أجل — حقيق به أن يطلب المجد وأن يجرى مع همته إلى أبعد مدى وأسمى غاية ، وألا تثنيه عقبة تعترضه ، أو مشقة تلحقه ، عن درك أمنيته ، ونيل بغيته

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

إن العظيم لا تَزيده المشقات إلا مُضيًا فى سبيله ، وإقدامًا فى طريقه ، يتخطاها بعزيمة صادقة ، وهمة فائقة ، لا يركن إلى الراحة ولا يأنس بالدَّعَة

ذلك طريق المجد ومجال العظمة لمن شاء أن يكون عظيماً . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا تصغُرَنّ همتك فإنى لم أرَ أقعدَ بالرجل من سقوط همته) وقال الشاعر :

حاوِلْ جسيماتِ الأمورِ ولا تقل إنّ المحامد والعلا أرزاق
وارغب بنفسك أن تكون مقصراً عن غاية فيها الطّلاّبُ سِباق

فمن أراد أن ينال مراتب الكمال ، ويبلغ ما بلغه أولئك العظماء ذوو النفوس العالية من العلماء الأجلاء ، والصناعُ الحاذقين وذوى الثَّراء الوافر ، والاقدار السامية ، فليَدْفع بنفسه إلى مواطن الجد

ومسالك العمل ، وليصبر على ما يمسه من عناء ، أو يناله من نصب فما أدرك نعيم إلا ببؤس ، ولا نيل عظيم إلا بجسيم ، والمكارم موصولة بالمكاره

فقل لمُرَجِّى معالى الأمور بغير اجتهاد رجوتَ المحالاَ

قال يزيد بن المهلّب (مايسرنى أنى كفيت أمرَ الدنيا ، لئلا أتعوَّد العجز) . وقال الأحنف بن قيس (إياك والكسل والضجر فإنك إن كسِلْتَ لم تؤد حقاً ، و إن ضجرت لم تصبر على حق)

لاتضجرن ولا تدخلك مَعْجَزَة * فالنجح يهلك بين العجز والضجر

وإذا نحن نظرنا إلى العظماء الذين سجل التاريخ أسماءهم ، وأبقى ذكرهم مخلداً ، وجدنا أنهم أضنوا أجسامهم ، وأفنوا أعمارهم فى طلب المجد ، واقتحموا الأخطار ، وجابوا الأقطار ، ورافق حظُّهم جِدّهم وأضاءت لهم هممهم مناهجهم ، فبلغوا الغاية ، وأدركوا المنى . فمن اقتفى أثرهم أوشك أن يلحقهم ، وكل من سار على الدَّرْب وصل

وأما من خاف المتاعب وتَهَيَّبها ، وزينت له نفسه الرضا بما هو فيه ، فليس خليقاً بالمجد ، ولا جديراً بالشرف ، يعيش خامل الذكر ، ساقط المنزلة

إذا لم يكن للفتى همةٌ تُبَوِّئه فى العلا مقعدا
ونفس بعودها المكرمات والمرء يلزم ما عُودا

ولم تعد همتُـه نفسَهُ فليس ينال بها السُّؤدُدَا

٨٧ – ﴿ أكثِرْ من الإِخوان فانك على العدو قادر ﴾

الانسان فى أشد حاجة إلى أصدقاء يشُدُّون أزْرَه ، حتى يطيب له فى هذه الحياة الدنيا مُقامه ، ويعيش عيشة راضية ، لاتؤلمه الوَحْدَة ولاتكدر صَفوه العزلة

وهو لذلك فى حاجة إلى جانب لين ، ورأى جزْلٍ ، وبصيرة نافذة بأخلاق الناس ، ليتعرّف مايسرهم فيتقرب به اليهم ، ويسعى فى بذر صالح الكلم وحميد الفعل فى قلوبهم ، ويتعهده بالمودة والبشاشة ، حتى تعظمُ منزلته فى نفوسهم ، ويكون فيهم كالأَخ الشفيق محبة وعطفاً . وقد قيل « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم يبسط الوجه وحسن الخلق »

فمن عجز عن ذلك ، كان عجزه دليلاً على ضعف إرادته ، وعدم خبرته ، وتقصيره عن مَدَى كثير ممن أصابوا كنوز الصداقة بجدهم ووفائهم وصائب رأيهم ومخالطتهم لبنى جنسهم

وأعجز من هذا من فرّط فى جنب صديقه ، فلم يَرْعَ وُدّه ، ولم يحفظ صحبته ، بل أعرض عنه ونأى بجانبه ، فغرَب نجم صحبته ، وأفلَ كوكب سعادته

وإنما مثل هذا كمثل رجل أصاب كنزاً نفيساً ، فلم يلبث أن

بَدّدَه ، فلما أضناه الفقر أخذ يقلّب كفيه على تفريطه ، ويندم حين لا ينفع الندم

ألا سامح أخاك إذا تعدّى وألق إليه فى الحرب السلاحا
فمن يعتب على الإخوان يتعب ومن لزم المسامحة استراحا

فعلى العاقل أن يسعى فى اكتساب الأصدقاء والإخوان ، وأن لا يفرط فيمن ظفر به منهم ليحلو له مرّ العيش ويهنأهُ طعم الحياة

فما بكثير ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير

٨٨ — *(المروءة راية الهمم العالية)*

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فطلبها كهلا عليه شديد

المروءة كلمة تجمع خصال الخير ، وتدل على الفضل والشرف وهى مطلب النفوس الكريمة . وراية الهمم العالية . لا تنال عفواً ولا تُدرك من كُثْب . فهى غاية محفوفة بالمكاره . وأمنية وعثة الطريق . لا بد لطالبها من عزمة صادقة . ونفس طموحة . وهمة مواتية

ولا شىء يعين على نيلها كالشباب إذا اقترن به الحزم . وكالفتوة إذا صحبها صدق العزم فالشاب بفطرته طموح إلى العلا . واسع المنى عظيم الأمل فى حياة سعيدة . وعيش رغيد . تحفزه همته إلى المجد . وتسوقه إلى المنى ، فيجد من قوة الشباب دافعاً ، ومن صدق العزيمة مساعدا ، كلما أمسك من المكارم بطرف تجدد

نشاطه، وعظم أمله، فلا يزال يجمع أطراف المكارم، ويجدد عظيم المغانم، لاتفترُ همته، ولا تـكل عزيمته، حتى يدرك الغاية وينال المُنْيَة، وهو فى كل ذلك يستعذب مرارة الألم، غير هيَّاب ولا وجل، حتى تنسيه حلاوة الظفر، مرارة الطلب

فأما من أدركه الكِبرَ فوَهن عظمه، وتضاءلت قوته وركَنَت إلى الخمول، فقلما يدرك من المروءة غاية، أو ينال من المعالى سبباً، وأين له قدرة الشباب، وعزيمة الفتيان. وفى جسمه وهَنْ. وفى عزمه خَوَر

إنه لبعيد أن يستطيع سبيلاً إلى بلوغ المجد ودَرْك المروءة بعد أن نَضَبَ مَعين شبابه. وَذَوَت زهرة صباه

٨٩ — ﴿ومن لم يذق ذلّ التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول حياته﴾

العلم غاية يسعى إليها العقلاء، ويبذلون فى سبيل تحصيلها نفائسَ الأموال. وزهرة الشباب. ويسهرون الليالى الطوال. مُنْكَبين على الدرس. لاهمّ لهم إلا الأخذ منه بنصيب وافر. يحسبون السعادة كلها فى تكميل نفوسهم. وترقية مداركهم. وإنبات عقولهم نباتا حسنا. وكثيرا مايلاقون الأخطار. ويتحملون تعب الأسفار. فى سبيل طلبه. والاستزادة منه. ويخضعون لمن تولى تعليمهم خضوع الابن البار لوالده الرحيم. فلا تأخذهم العزة إذا أمروا. ولا الحَمِيّة

إن أهينوا ، فكل ذلك هين مادامت الغاية شريفة ، والنتيجة سارة

العلم كامة تزين صاحبها وتجمل المتصف بها ، فهى حلية الإنسان التى يتصف بها بين الناس ، وكنزه الذى يربو على الإنفاق، ومكانته التى يسامى بها النظراء . ويفاخر الأقران . ويسمو بها إلى منازل الأشراف . ومراتب الملوك والأمراء . فطالما رفع العلم وضيعاً فى نسبه . وأغناه أدبه عن حسبه . فلا عجب إذا أكبرت العيون صاحبه إجلالاً . وعظمته القلوب رفعة وكمالاً . فقليل ما يبذل فى سبيله وما يحتمل فى تحصيله . فذل طلبه عز . وعناء نيله راحة

والمرء ينزع منه كل ولاية إلا ولاية علمه لاتنزع

وقد تنحط همة الطالب وتتلاشى عزيمته عن تحمل تلك الصعاب والصبر على ذل الدرس . حتى إذا شب جاهلا اقتحمته الأنظار واستخفت به القلوب . وأنكره عظماء النفوس . وتجرع مرارة الجهل وذل الضعة مادام حياً . وتمنى إن كان صغيرا فبدأ حياته بالعلم . ويصطبر على مضض الدرس . ويندم على مافرط فى صباه وشبابه . يوم لاينفع الندم ولاتغنيه عما هو فيه من الحسرة

«وبعد» فان العز كله فى ذل الدرس. والراحة كل الراحة في تعب العلم . والحياة الحقة إنما هى حياة ذوى الألباب ! فالعاقل من سلك سبيل الجد . ووطن نفسه على احتمال المشقات . فى سبيل إدراك

الغايات، فانه

لا يدرك المجد من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

٩٠ — ﴿ القدوة الحسنة والمثل الأعلى ﴾

إذا أعجبتك خصال امرىء ... فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات ... إذا جئتها حاجب يحجبك

من الناس من ظهرت فضائلهم، وكملت خصالهم، وتجلت فيهم شيم حميدة، وأخلاق طاهرة. فاذا رأيتهم أعجبك فيهم أدب ظاهر. وصدق وافر. ومروءة بالغة. ومنزلة سامية. تغبطهم عليها وتود أن تجد في نفسك مثل أخلاقهم. وتحلى صدرك بزينة كمالهم

وليس بعزيز عليك إذا صدق عزمك. وصحت إرادتك أن تبلغ ما بلغوا وتدرك ما أدركوا. وتعلو كما علوا. منزلة وقدراً، وسماحة وفضلاً، فادأب في تقليدهم، والزم نفسك مناهجهم وتخلق بصفاتهم الحميدة، تعجبك أخلاقك، وتحسن في رأيك ورأى غيرك نفسك

ولا تحسبن المكارم مقصورة على أفراد من الناس لا تتجاوزهم إلى غيرهم، فان الله تعالى قد جعلها سهماً شائعاً، وغرضاً منصوباً لكل طالب، فمن أمها وسلك سبيلها، فهو لا ريب مدرك أمله، ونائل

غرضه ، فما اتخذت الفضائل حجاباً ، ولا منعت طلاباً والسعيد من جعل المجد غايته ، والشرف حِليته ، فنعم زينة الرجال ، كرائم الخِلال

﴿ ٩١ — نعم المُؤَدِّب الدهر ﴾

من الأبناء من يَشِبُّ بين أبوين تحملها الشفقة عليه ، والمبالغة فى تمهيد أسباب الراحة له على غفران ذنوبه ، وتهوين سيئاته ، والتسامح فى زلاته يظنان ذلك رأفة وعطفاً ، ومحبة وكرماً ، فيشب الابن وقد ألفت نفسه عاداتٍ ممقوتة ، وأخلاقاً مذمومة ، تتأصل فى نفسه وتخالط لحمه ودمه ، فتكون طبعاً لا يغلب ، وفطرة لا تقاوم .

ولا يزال مغموراً فى عطف أبويه ، يدفع بهما المكروه ، ويرد عَوَادِى الدهر ، حتى إذا ما فقدهما أو فارقهما بدأت يد الدهر تعبثُ به ، وحوادث الأيام تعدُو عليه ، ولا نصير له من فضيلة خالصة أو عزيمة صادقة ، أو إرادة متمكنة ، فيصير ألعوبة فى كف الحوادث وريشة فى مهب الأخطار ، وفريسة للأقدار . لا ملجأ ولا وزر يستدفع به الخطوب ، ويرد نُوَبَ الكروب ، كذلك يغالب الأيام وتغالبه ، ويجالد الحوادث وتجالده .

ومن غالب الأيام لان مَرِيرُه وأسلمه طول المِرَاس إلى الوَهن

ثم لا يزال الدهر يردعه بزواجر الخطوب ، ومؤلم الحادثات حتى يردَّه مكرهاً إلى رشده ، ويدفعه إلى هداه ، ويبعدُه عن غوايته

ويَصُدُّه عن هواه . والدهر أعظم مرب ، وأوْعَظُ مرشد ، من عصاه أوقع به ، ومن خالفه مَسَّهُ بسوئه ، لا يلين قلبه ، ولا يشفق لبه ، فهو أبو العِبَر ، وحامل راية القضاء والقدر ، ومن لم يؤدبه والده أدبه الليل والنهار

٩٢ — ومن لم يصانع فى أمور كثيرة * يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بمَنْسِمِ

فُطر الناس على حب أنفسهم والذَّوْدِ عن مصالحهم ، والدفاع عن آرائهم ، فهم لذلك يمقُتُون من خالفهم ، ويجاهرون بالعُدْوان من نالَ منهم فى رأى أو منفعة . فطرة الله التى فطر الناس عليها ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فجدير بمن شاء أن يكسبِ مودتهم ويستميل قلوبهم إليه ، ويدفع أذاهم عنه ، أن يحتال فى معاملتهم ، ويسلك سبل مودتهم ، فلا يجاهرهم بخلاف ، ولا يباينهم بعزلة ، بل يعاملهم بالتى هى أحسن ، ويدفع السيئة بالحسنة ، ويغفر الذلة ، ويتجاوز عن الهفوة ، فعندئذ ترى القلوب له وامقة والعيون إليه طامحة ، والنفوس فى صداقته راغبة ، فيسلم من الأذى ويعيش عيشاً رغداً .

فأما ذلك الذى يأبى إلا جِمَاحًا ، ولا يبالى أساء أم أحسن ، فإنه لَخليق بصريح المداوة ، جدير بالاحتقار والامتهان . إن زل زلة لم تغفر وإن كبا كَبْوَةً لم ينجح من عِثاره ، ولم يسلم من أذى أعدائه وأنصاره تسْلِقهُ ألسنة حداد ، وتحتقره نفوس العباد : لا يجد خلاً يدانيه ، ولا

رفيقًا ينتشِلهُ مما وقع فيه .

وقصارى القول — أن مداراة الناس ومُصانعتَهم وسيلةٌ للراحة لا تطلب بدونهما ، ولا تدنو بغيرهما ، وقد قيل :

من سالم الناس يسلم من غوائلهم   وعاش وهو قرير العين جذلاَن

٩٣ — ﴿ ومَنْ يُؤتَ الحكمةَ فقدْ أوتىَ خيراً كثيراً ﴾

يشعر المرء أحيانًا بسعادة نفسه ، وصفاء قلبه ، كما يشعر بصحة بدنه ، وتمام قوته ، ويُحسُّ آونةً بضعف يعترِى نفسه ، وملَل يتردَّد فى جوانب قلبه . وقد يكون مع ذلك فى صحة من جسمه ، وقوة من بدنه ، ولو أنه أحسّ فى جسمه الضعفَ ، وأدرك فى قوته الوَهْنَ لوجد من الدواء شافيًا ، ومن الطبيب آسيًا ، ولكن الأطباء يُصلِحون الأبدان ، ويَشفُون بدوائهم مستعصِىَ أمراضِ الأجسام . ولم نجد للأرواح مداويًا نَصَبَ نفسه لشفائها ، وأعمل طِبّه فى استئصال أدوائها ، فإن الأرواح أعزُّ وأسمى من أن تنزل عن أوج عظمتها إلى متناول الأدوية والعقاقير ، أو تترك لنُطُسِ الأطباء تدبيرها والنظر فى إصلاح أمرها .

إن الأرواح وهى من العالم السماوى ، وهى سلطان الأجسام ومدبرة العقول ، وهى الصلة بين الإنسان وخالقه ، والنعمة الإلهية التى دونها كل نعمة ، لأرفع قدراً ، وأعظم خطراً ، من أن تدين

لهذا العالم الأرضى ، فتنزل على رأى أطبائه ، وتدبير دوائه . إن لها لِطباً خليقاً بها ، لا يعتوره خلط ولا مزج ، ولا تؤثر فيه حرارة ولا برودة . إن لها لدواء لا يخطىء موقع دائها ، ولا يعجز عن شفائها ذلك « الحكمة البالغة » والموعظة الحسنة ، تُذهب عن الروح أسقامها وتتقى آلامها ، وتأسو جراحها ، وتعود إليها نضرتُها وسرورها .

كم من روح سقيمة ، ونفس مهمومة ، وجدت فى ثنايا الحكمة شفاء لسقامها ، ودواء لآلامها ، وكم من نفس كادت تذهب حسرة وتفيض أسى وحزناً ، سكنت لموعظة واعظ ، وإرشاد مؤدب . وكم من نفس كادت تجمح بصاحبها ، فتورده موارد الهلكة . قد استحكم اليأس فى جوفها ، وتمكّن الزيْغ من أركانها ، عادت بالحكمة إلى مُستقرّ الرضا ، وبالنصح إلى روضة الصواب فسعدت بعد شقاء ونعِمتْ بعد عناء .

وكم من روح صَدِئت بالهموم ، فأذهب الوعظ همها ، وجلا صدأها وأعادها نقية لامعة ، تسرُّ للألم ، كما تسرُّ بالنعيم ، وترى فى كل كريهة واعظاً ، وفى كل نعمة مسعداً ، تحمد الله فى الضراء وتشكره فى السراء . وتلك هى النفس الكريمة الراضية ، ربيبة الوعظ وصنيعة الحكمة ومستقرُّ السعادة الأبدية والنعيم المقيم .

إن فى الحكمة البليغة للرو ح غذاء كالطّبِّ للأجساد

٩٤ ــ ﴿ جمعية الاسعاف وأثرها فى تخفيف الآلام ﴾

تأسست بمصر هذه الجمعيـة النافعة ، من جماعة عرفوا معنى الشفقة ، وأدركوا واجب المروءة والإنسانية ، وآمنوا بحق الانسان على أخيه الانسان .

أسسوا هذه الجمعية بعد أن رأوا تعدُّدَ الحوادث ، وتنوُّعَ المخاوف التى تعرَّضَ لها الناس من جراء المدينة الحديثـة ، ذات السيارات المنتشرة ، والمراكب الكهرُبائية ، والعقاقير السامة وغير ذلك ممـا ترك الناسَ عرضةً لحوادث شتى ، لم يكونوا معرَّضين لها من قبل

وها نحن أولاء نرى أو نسمع كلّ يوم خطوباً مختلفة ، وحادثات مؤلمة ، تصيب بعض الآمنـين فى غُدوّهم وَرَوَاحهم ، فهذا سقط من مَرْكَبَ ، وهذا مرت عليه سيارة ، وآخر أدركه الاغماء ، وذلك عامل سقط خلال عمـله ، أو صانع أصيب بعُدَدِ صناعته ، فلا يلبث ذلك المصاب إلا قليـلا ، حتى ترى رجال الاسعاف فى مراكبهم قد أقبلوا مسرعين لنَجْدَته . وتخفيف آلامه ، يحملونه بأيد قرَّتْ فى راحاتِها الرَّاحةُ وتنزّلت فى أناملها الرحمـة ، فلا يكاد المصاب يُحِسُّ بتلك الأيدى الرحيمة تلمسه ، وبتلك العيون الشفيقة تفحصه حتى يترك نفسه بين أيدى أولئك الرحماء آمناً مطمئناً ، فاذا هو بعد آونة يعجل له الإسعاف بأيد نُطسٍ كرام بررَةٍ ، ثم يُحْمَلُ إلى المستشفيات

إذا كان فى حاجة إلى مُداوَمةِ العلاج ، فيبقى بها حتى يتم شفاؤه .

يقوم رجال الاسعاف بعملهم هذا ابتغاءَ مَثُوبةِ الله ، وتحقيقاً لمعنى الأخوة ، لا يبتغون من ذلك جزاء ، ولا يسألون عليه شكراً لا مورد لهم فى تحقيق غرضهم الشريف ، إلا ماتجود به أيدى المحسنين وتفيض أكفُّ ذوى النَّخْوَةِ والمُروءة ، فجزاهم الله عن عملهم المبرور وسعيهم المشكور ، أوفى الجزاء ، وأجمل الثناء .

٩٥ — ﴿ البرق (التلغراف) وآثار منافعه لجميع العالم ﴾

كثيراً ما يسمعُ الإنسانُ فى محطات السكك الحديدية ، ويرى فى بعض حجرها ، آلةَ ذاتَ دقّاتٍ متتابعةٍ ، يختلفُ إيقاعُها اختلافاً طفيفاً ، لا يُدْرِكُ مغْزَاهُ إلا عمال مختصُّون بأمرها ، تراهم يَطْرُقون بأصابعهم على بعض أجزاء هذه الآلة ، فإذا هم بما يسمعون ويطرقون ، يتلقَّوْن إشاراتٍ ويُرْسِلون أخرى ، وإذا كتبٌ مسطورة تنتقل من أيديهم إلى من أُرِيدَ بها من الناس ، دلت على كلماتها تلك الدقاتُ المنسقةُ ، فكانت مقاطعها فى أطراف البيانِ لا فى جوانب الفم واللسان ، هذه الآلة البديعة الصنع المؤسَسَةُ على دعائم العلم والفكر هى ما يعرف بالبرق .

وله فوائدجليلة ، ومنافع جمة ، فهو الذى نظَّمَ سيرَ القُطر الحديدية ، وقلل مضارَّ تصادُمِها ، فلا يقوم القطار من محطة حتى

تُؤْذَنَ بقيامهِ المحطة التالية . ولا تـكاد تخلو بَلْدَة كبيرة من برق يستعملُ فى نقل الإشارات بينها وبين غيرها من البـلاد ، فى أمورِ التجارة ، وشؤون الزراعة والصناعة وسواها ، مما يستدعى سرعة التخاطب . وكثيراً ما وفر البرقُ على النـاس راحتهم من مشاقّ الأسفار ، وجَمّ النفقات ، وقضى مصالح لولاه لتعسر قضاؤها ، وضاعت من طلابها فوائدُها .

ويستعمل البرق وحده فى التى لم تمتد اليها أسلاكُ المِسرّات العامة . وتُعنى الحـكومة بإرسال الإشارات البرقية إلى أصحابها مع سُعَاة مخصوصين بذلك ، لا يتقاضونَ من المُرْسَلِ اليهم أجراً .

وهذا النوع من الرسائل البرقيـة يَدْفَعُ المرْسِلُ أجرَهُ بقدر عدد كلماته ، وهو فى الجمـلة زهيد ، لايكلف الانسان فى رسالة عدَدُ كلمـاتها ستٌ اكثر من عشرين مليما ، فاذا زادت الـكلماتُ زاد الأجرُ نصف قرش لـكل كلمة زائدة .

وقصارى القول . ان البرق نعمةٌ من نعم العـلم ، وأثر من آثار النشاط العقلى فى عالم الاختراع .

تجرى بأطراف البنان حروفُهُ فتمرُّ مَرَّ البرق فى أسلاكه
قد أنطقته الـكهرُباء فلم تدَعْ لغةً قد التبست على إدراكه

٩٦ — ﴿ المسرة (التليفون) وتعميم فوائده ﴾

من أفضل ما تَنتجُه عقول المفكرين ، وجادت به قرائح المخترعين المِسَرة وهى آلةٌ صغيرة الحجم ، تعلّقُ أحياناً على الجدران ، أو توضع على المناضِدِ وتتصل بأسلاك متفرعة عن مرْكزٍ عام ، يقوم عمّالهُ بإعداد أسباب الاتصال بين المتخاطبين .

وللمسرّة فوائدُ جليلة ، إذ يستطيع الانسان بواسطتها مخاطبة من يشاء فى بلدَته أو غيرها من البلاد الداخلية أو الخارجية فى أسرع وقت وبأجر زهيد . وبذلك يمكنه قضاء مصالحه المعجّلة ، التى لم يكن يستطيع قضاءها من قبل إلا فى زمن مديد فالتاجر يستطيع مخاطبة محال التجارة فى إرسال ما يشاء من أنواع البضاعة والمشترى يستطيع أن يخاطب التاجر — وهو جالس فى بيته — ليرسل إليه مطالبه فيجاب طلبه ، وتصل إليه حاجته . والمريض يستدعى الطبيب فى أى وقت شاء من ليل أو نهار إلى منزله ، أو يصف له مرضه ، فيصف له الدواء ، وكلاهما فى مكانه لم يبرحه . والمسافر يستطيع أن يخاطب أهل بيته ، والقائمين بمصالحه ، ويتعرف منهم ما يريد معرفته . حتى كأنه بينهم يدير شؤونه بنفسه . فهو المغيث وقت الشدائد

وهذه دور الحكومة ومصالحها المختلفة . لا تخلو من المسرات التى يُستعانُ بها على نشر الأمن بين الأهلين ؛ وضبط المجرمين الفارين

وعلى تنظيم الأعمال الضرورية التي تدعو الحالُ إلى سرعة إنجازها

وقد انتشرت المسرَّات في أنحاء القطر المصرى ، فلا تـكاد تجدُ محل تجارة أو صناعة ، ولا مشرب قهوة أو فندقاً ، ولا حانوتاً أَو منزلَ ثرى يخلو منها ، لزَهَادَة أجرها السنوى ، وعِظم أثرها فى كل مصالح الحياة

وبالجملة — فالمسرة سرٌّ من أسرار الـكهرباء وآية من آيات العلم العظيمة النَّفْع يقصُرُ البيان عن عدِّ فوائدها ، وإدراك مزاياها فجزى الله مبدعها عن الإنسانية الجزاء الأوفى

٩٧ — ﴿ التصوير الشمسى وفوائده ﴾

من أعجب ما ابتدَعَتهُ أفـكار المخترعين ، وأبرزته قرائح العلماء آلات التصوير الشمسى وهى آلاتٌ ذاتُ عدسة بلوزيةٍ محـدبة توضع فى جوفها زجاجات خاصة ، ترْتسم عليها صور المرئيات كما ترتسم على حدقة العين ثم تنقل على ورق التصوير

وللتصوير بهذه الآلة فوائد غزيرة ، ومَنافع كثيرة ، فبه يحفظ رسم الإنسان وصور النبات والحيوان ومناظر الحدائق الناضرة والبلاد العامرة ، والبحار الزاخرة ، فيراها الإنسان أمامه على صفحات أوراق التصوير ، كأنما شاهدها بعينى رأسه

وقد ساعد التصوير الشمسى على نشر المعارف ، وترقية أنواع

الفنون والعلوم ، فلا تكاد تجد كتاباً نفيساً من كتب المطالعة والتاريخ وماشا كلها خلواً من صور شمسية ، تقرب للمطالع حقائق الأشياء ، وتساعده على اجتلاء ما غمض ، وإدراك ما بعد ، وهذه الجرائد المصورة ، ومناظر الخيالة (السينما) . قد ساعدت على نشر الفوائد العلمية ، وحببت إلى النشء تتبع أخبار الرقي العلمي في أنحاء العالم بما يبدو فيها من صور العلماء والمخترعين ، وما كشفوه من آثار نفيسة ، أو ابتدعوه من مصنوعات جليلة .

وبعد أن كان التصوير قديماً فناً مقصوراً على اليد ، لا يحسنه إلا قليل من النوابغ الذين قضوا زهرة الصبا وريعان الشباب في درسه ، والانكباب على تعلمه ، ثم لا تجد لهؤلاء إلا صوراً قليلة ، تقترب من المصورات بقدر مافي يد صانعها من مهارة ، وفي عقله من حذق ، وقلما تمثل حقيقتها تمثيلا تاماً — بعد ذلك صار عملا لا يحتاج في اجادته إلا إلى تمرين لا يستغرق من الراغب فيه إلا قليلا من أوقات فراغه ، ولا وجه إلى مهارة أو إلى درس طويل ، فتراه يرسم بعدة التصوير عشرات من الصور . فلا يكلفه ذلك إلا ثمن زجاج التصوير وورقه . وأخيراً قد صار في قدرة الانسان أن تجعل منزله معرضا يجمع فيه إلى صورته وصور أفراد أسرته وأصدقائه ما ترغب فيه نفسه من صور العظماء والأدباء . ممن تزدان

بصورهم المجالس . وتطيب بذكرهم الأنفاس .

وبالجملة ـ كان الناس فى الأزمان الغابرة يلاقون صعوبات جمةمن التصوير بالأدهنة ويضيعون زمناً وفيراً فى إخراج صورة قد لا تشبه الأصل المنقولة عنه من كل وجه . ولما ظهرت الآلة الشمسية سهل رسم ما كان النقاش يقضى فى رسمه الأيام الطوال . وعم التفاهم . وساد التعارف وانجلى الغامض ، ووضحت الحقيقة ، واهتدى القضاء به إلى تتبع آثار الجناة والقبض عليهم ، وحماية الناس من شرهم ؛ وساعد علم الفلك فى تصوير أجرام النجوم والكواكب وبين حركاتها مثل دورانها ، وأفاد علم الطب فى تصوير الصور المكبرة لتصغير الأجسام وتدقيقها . هذا — إلى أنها خير معين على توضيح معضلات العلوم وعويصات المسائل وغيرها بتجسيم حوادث القصص فى الطروس والكتب ، والنشاط إلى متابعة المطالعة وكثرة الاطلاع ، وتتميم القراءة بخاصة النشء السريع الملل . والتصوير سفر كبير لتاريخ الأبطال المخلد ذكر عظماء الرجال . والصورة خير ماينوب عن وجوه الأقارب والأصدقاء عند غيابهم ، وتحفظ الصلات بينهم والمودة والمحبة ، وتهون آلام الفراق عليهم ، وأحسن تذكار يبقى إلى الأبد

وناهيك بالخيالة التى هى صور شمسية تؤخذ عن الشىء بصور متعددة ممثلة إياه فى حركاته وسكناته ، ثم تعرض أمام الاعين

٩٨ – ﴿ السيارات وأثرها فى المواصلات العامة ﴾

السيارات مراكب تسير بقوة البخار الذى يتولد من سائل خاص يعرف (بالبنزين) فيحرك عدداً تتصل بعجلاتها ، فتديرها بسرعة

ولها أنواع كثيرة ، تختلف فى جودتها وسرعتها باختلاف أصنافها ، وتتنوع فى سعتها وضيقها ومحال الركوب فيها ، بتنوع الأغراض التى تقصد بها . فمنها ما يكون لركوب أناس مخصوصين ومنها ما يكون لركوب من يشاء بأجر خاص ، وما هو لنقل البريد أو عروض التجارة وأدوات العمارة ، وبعضها أعد لأطفاء الحريق ونقل المرضى ، ولأسعاف المصابين بحوادث فجائية .

وقد أصبحت السيارة فى هذا العصر من أهم أسباب المدنية ونهوضها إلى درجة سامية ، تجرى مسرعة بذوى الأعمال العاجلة وتروح وتغدو بأصحاب الحاجات ، من تجار وصناع ، وطلاب وموظفين ، فتصل بهم إلى محال أعمالهم ، فى أقصر وقت وبأجر زهيد

وقد وصلت بين أجزاء المدن وضواحيها ، فصار فى قدرة الانسان أن يتخذ مسكنه كما يشاء ، فى الأماكن الخلوية ، حيث الهواء طلق والشمس مشرقة ، والسماء صافية ، أو فى جوف المدن أو جوانبها فيبرحهُ إلى عمله ، ثم يعود إليه ، تقله السيارات فى غدوه ورواحه وقد لا تبعد به عن منزله إلا بضع خطوات .

وقد صارت البـلاد والقرى ، وبخاصة التى لا تَمُرُّ بها القُطُر الحديدية ، ولا تجرى بإزائها الأنهارُ متصـلةً بالمدن ، تُنْقَل اليها خيراتها ، وتأخذ منها حاجاتها ، بأجر يقل عن السكك الحديدية وفى أوقات يتخـير منها المسافر ما يشاء ، لا ما تفرِضُه جَداوِلُ القطر الحديدية .

إلى جانب ذلك ترى السيارات الضخمة تسير فى المدن وضواحيها تحمل أدواتِ العمارةِ من الأماكن القاصية ، فإذا أنت بعد أشهر معدودة ، ترى الأرض البراح تحمل على ظهرها القصور الشامخة ، والأبنية الباذخة آهـلة بقُطَّانها مشرقة بأنوارها ذلك بعض فوائد السيارات وأثرِها العظيم فى سهولة المواصلات .

٩٩ — ﴿ مكافأة العمال سر النجاح وداعى التقدم ﴾

لا ريب أن العامل هو الدعامة التى ترتـكز عليها بناء ثروة مصر الزراعية والصناعية ، وهو اليد التى تدير دولاب العمل فى هذا القطر فتجعل أهله فى يسر وسعادة ، وينشر فى جوانبه النعيم والرخاء .

وليس من ينـكر صبر العامل المصرى واحتماله الشدائد والأهوال فى إنجاز كثير من الأعمال الضرورية لرخاء هذا البلد : لافرق فى التمتع بثمرات عمله بين وطنى وأجنبى ، ورَبمـا كان حظ الأجانب من عمله أسعد وأوفر .

العامل المصرى هو ذلك الفلاح الذى توقظه صيحة الديك وتحركه نسمات الأسحار إلى مزاولة عمله ، فى مزرعته أو فى مزارع الملاك الآخرين ، فلا يزال قرين الشمس من مشرقها إلى مغربها تدور فى السماء دورتها ، ويدور فى الأرض دورته ، فلا يؤوب إلى منزله حتى تودعه الشمس ، ويُجنَّهُ الظلام .

وهو ذلك الصانع الذى يلزم حانوته واقفاً على قدميه ، ممسكا بأدوات صناعته ، فلا تزال يده تتحرك ، وجسمه ينقبض وينبسط وعينه تبحث وتفتش ، حتى يغيب بياض النهار ، وضوء الغزالة فيستبدل الضوء الشمسى بمصباح يستضىء بشعاعه الضئيل ، حتى يرى حاجته إلى النوم شديدة ، فذهب إلى فراشه لاحباً فى النوم ولكن طلباً لتجديد القوة ، حتى يعود إلى مزاولة عمله من جديد

العامل المصرى هو ذلك الرجل الذى يشق الأنهار ، ويُعبِّدُ الطرق ، ويقيم القصور المشيدة . هو ذلك الرجل الذى يحنى ظهره ويطوى قامته ، منكباً على أعماله المتنوعة فى المصانع والمعامل والمزارع ، صابراً مطمئناً ، قانعاً راضياً ، بأجره الزهيد الذى لا يكفى لشراء علف حيوان فى وجبة من الطعام . فما أصبرك أيها العامل المصرى ، وما اقنعك برزقك حين يغلب الطمع والشره على نفس غيرك من العمال ، فلا يرضون باضعاف مضاعفة لأجرك الزهيد الضئيل

أفليس جديراً بمن يجنون ثمار عملك ، وتطمئن نفوسهم بعناء نفسك ، وتطول راحتهم بدوام تعبك ، وتلين مضاجعهم بخشونة مضجعك ، أن ينظروا فى أمرك بعين الشفقة ، ويمدوا إليك يد المعونة والحنان . بلى . إنهم لو فعلوا — وذلك واجب لك فى أعناقهم لعدته منهم منة تضاعف لهم بها شكرك ، وتفنى من أجلها فى خدمتهم عمرك . إنك أيها العامل لجدير بأجل عناية ، وخليق بأفضل رعاية ، فأنت وحدك مدار الخيرات ، ومنبع الرخاء واليسار . إنك لتعصر جبينك عرقاً ويعصره غيرك نُضاراً وَوَرِقاً . إنك أيها العامل جدير بالعناية فى طعامك وشرابك فى مسكنك ولباسك ، فى شبابك وهرمك ، فى صحتك وسقمك ، فعلى الحكومة ورجال الأمة واجب لم ينهضوا به ، وحق لم يقوموا بأدائه . يجب لك عليهم .

أولا — أن يجعلوا مساكنك على وفق قواعد الصحة ، فسيحة مضيئة ، وأن يتخيروا البقاع الفسيحة الأرجاء ، الجيدة المواقع لإقامة هذه المساكن ، حتى إذا عز عليك ثمن الدواء ، وأجر الطبيب وجدت من نقى الهواء ، وواضح الضياء ونور ذكاء ، أطباء لا يسألونك أجراً ، ولا يكلفونك شكراً ، ولا يحرمونك من مزاولة عملك يوماً ولا عشراً .

ثانياً — أن ينشئوا المستشفيات المتنقلة لمداواة المرضى ، والعناية

بأطفال العمال (ولا أطلب تقديم اللبن والزبد بالمجان كما تفعل الأمم المتحضرة) صيانة لأبنائها ورجالها فى سعادة أوطانها ، فإن مصر وإن عُرفت بإكرام الضيف ، وحسن قِرَى الغريب ، لم تعرف لأبنائها الأقربين هذا الحق الثابت .

ثالثاً — نشر التعليم بين أبناء هؤلاء الفقراء ، فإنه لا خير فى أمة لا تعلّم فيها أبناء الفقراء . إن فى نشر العلم بين أبناء العمال فوائد جليلة ، فإن قدرة المتعلم على العمل أوفر ، وعنايته بصحته وهى رأس ماله أتم . وعامل متعلم خير من عشرة جهلاء . وإذا تم تكوين العمال من طبقات متعلمة وصلت مصر بفضلهم إلى منازل الأمم الراقية ، التى نهض بها عمالها المتعلمون إلى أوج السعادة والكمال .

ذلك بعض ما يجب على المصلحين أن يعاهدوا العمال على الوفاء به ، ليحفظوا أنفسهم بحفظهم ، ويسعدوا أمتهم بدوام نشاطهم وجدهم وما ذلك على همة المصلحين الصادقين بعزيز .

١٠٠ — ﴿ حكمة فرض الله على الأغنياء زكاة أموالهم للفقراء ﴾

علم الله أنه يبْسُط الرزق لِمَنْ يشاء ويقْدِر ، وأن الناس تتفاوت درجاتهم في الغنى والفقر ، فلم يحرم الفقير من عطف الغنى ، ولا المقل من شفقة المكثر ، فجعل في أموال الأغنياء حقاً معلومًا للسائل والمحروم ، وفرض عليهم قدراً مخصوصًا ، من مالهم يصلحون به

أحوال هؤلاء البائسين .

لاريب أن ذلك وسيلة إلى سعادة الناس ، وصلاح أمرهم ، ولم شعثهم ، فلو ترك الفقير وشأنه لساء حاله ، واضمحل جسمه وقضى شهيد فقره ، وضحية عوزه

ليس الغنى فى استطاعة كل مخلوق ، فقد يكبو بالمجدحظه وينهض بالمحظوظ جَده

لو كان بالحيل الغنى لوجدتنى بنجوم أفلاك السماء تعلقى

فليس من المروءة أن تترك هؤلاء العجزة الذين لا يستطيعون إلى العمل سبيلاً ، يبيتون على الطوى ، ويمتهدون الصخور ، ويتروحون إلى القبور ، على مرأى ومسمع منا .

من العار أن تتمتع بنعم الله ، ونعمه لاتحصى ، وتحرم عبيده من ثمرات هذه النعم . ألا إن شكر النعمة أن نصرفها فيما خلقت له من سبل البر ، ومناهج التقوى . إن الصدقة تطفىء غضب الرب وتقرب من الجنة ونعيمها . فالعاقل من راقب ذوى الحاجة ، فسد عوزهم ، وأغنى فقرهم ، وأصلح شأنهم ، وواساهم بنفسه وماله ، حتى لا يكون منهم أولئك المتشردون الذين أزعجوا العالم بالشرور والآثام من السرقة والقتل ، والسلب والنهب ، طمعاً فى سد حاجتهم وانقاذ أرواحهم من مخالب الجوع ، ومهاوى الضنك ، أو أولئك

القانعون ، الذين يستندون الأكف حتى صار ذلك عادة ألفوها ومهنة أتقنوها أو أولئك الاشتراكيون الذين يدعون الناس إلى إيقاد نار الفتن ، وإيقاظ العداوة فى القلوب ، فأصبحوا خطراً يهدد السلام ، ويعكر صفو الأنام

فالزكاة دعامة من دعائم الدين ، من أداها حق أدائها ، فقد خدم نفسه ، وخدم أمته ووطنه ، وخفف عن أولئك الفقراء المعدمين أعباء الحياة . وأحيا فى نفوسهم ميت الآمال

١٠١ — ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾

إن الله تعالى قد أودع قلوب الآباء . خالص الشفقة والعطف على الأبناء . فتراهم ينفقون أموالهم وأنفسهم في سبيل تربيتهم ويسهرون لسهرهم . ويألمون لألمهم . وأسعد أوقاتهم أن يروا أبناءهم فرحين مستبشرين . ذلك دأبهم . . يوم يولد الطفل حتى إذا شب وترعرع لم يدخر وسعا فى تربيته . والنظر له فى مستقبل أمره . وتقويم ما يعوج من خلقه . ولا تلهيهم عن شئونه شواغل الحياة . ومتاعب العيش

لذلك كان الواجب على كل ولد أن يكون باراً بأبويه . وأن يؤدى لهما واجب الطاعة ، ونهاية الاحترام ، ويلزم فى معاملتهما جانب الأدب فإذا بلغا الكبر . وصارا عاجزين عن العمل ، كان

لهما عونا ، وحاطهما بعنايته ، وأنفق فى حاجتهما ما يستطيع انفاقه جزاء اسالف برهما ، وعظيم فضلهما .

إن الولد البار لأبويه ، المخلص لهما فى الطاعة ، يستقبلُ من ذريته أبر الأبناء ، وأوفاهم له ، وأعطفهم عليه ، جزاء وِفاقاً لطاعته السالفة . وبِرّهِ السابق ، وكما يدينُ الفتي يُدان ، والجزاء من جنس العمل

ومهما بالغ الابن فى اكرام أبويه ، فلن يستوفى واجب البر قال صلى الله عليه وسلم « بَرُّوا آباءكم تبرَّكم أبناؤكم » وقال تعالى (وقضى ربُّكَ ألا تعبدوا إلاَّ إياهُ وبالوالدين احسانا إمَّا يَبْلُغنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذُّلّ من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

١٢٠ — ﴿ الإحصاء العام وآثاره فى مدنية الأمم ﴾

عنيت حكومات الأمم الراقية باحصاء عدد سكانها ، ومعرفة مهنهم ، والوقوف على مقدار ثروتهم ، والاطلاع على حالتهم العلمية والصحية ، مع مقارنة حالهم الحاضرة ، بما سبقها من الحالات الغابرة يحملها على ذلك الرغبة فى الإصلاح ، والسعي فى طريق الرقى ، والأخذ بأسباب الحضارة والعمران .

تعرف الحكومة من طريق الإحصاء ، عدد سكان البلاد ،

وما بلغه أهلها فى العلم والتربية ، وما هم عليه من صحة وضعف ، وما برعوا فيه من صناعة وتجارة ، وما يزالون محتاجين اليه من أسباب الرقي والتقدم ، ومجاراة الأمم الناهضة ، فإذا تم لها ذلك ، بدأت تعمل فى مداواة الأمراض ، ونشر العلوم والفنون ، وتثقيف العقول وفتح أبواب الرزق للعاطلين . وتشجيع المجدين العاملين ، فتنشر المدارس والمصانع ، حيث تكثر الحاجة اليها ، وتنشىء المستشفيات حيث تفشى الأمراض ، وترقى وسائل الزراعة ، حيث يطيب الزرع وتكثر الغلات . ثم تنظر فى عمارة الأرض ، واصلاح ما فسد منها فتزيد فى ثروة البلاد ، وتمهد الطريق لدفع غائلة الحاجة ، ولا تدع الأمة عرضة للمصائب ، وهدفاً للنوائب ، ثم تعمل على تكثير سواد الأمة ، ونمو عددها ، وحفظ نسلها ، حتى تجد من أبنائها عوناً لها فى الشدائد ، وحصناً فى الملمات .

وبعد — فان فى الاحصاء العام تحليلا لحالة الأمة ، وتبيُّناً لأمراضها الاجتماعية ، وبذلك تهيء الحكومة لكل داء دواء ، فتنهض بالأمة إلى مراتب الرقي والكمال ، وتزيدها حضارة وعمراناً ، فهو حسنة من حسنات المدنية ، وخدمة جليلة لبنى الإنسان .

٣٠١ — ﴿ الدرهم الأبيض ينفع فى اليوم الأسود ﴾

لا يأمنَ الانسانُ ما يأتى به غدُهُ ، ولا ماينتهى اليه أمرُهُ

فى مقتبل أيامه ، ومنتظر أعوامه ، فقد يكون اليومَ غنيا ، وغداً فقيراً أو صحيحا فيُمسى سقيما ، ثم هو الآن شاب يقوم بحاجة نفسه ، ولا يفكر فى غيره ، فاذا تتالت الأعوام صار رب أسرة وكاسب صبية ، هذه سنة اللهِ ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فاذا تبين الانسانُ حقيقةَ أمره ، وحقق النظر فى مستقبله وقاس مالم يره فى أموره ، بما يراه من أمر غيره ، رأى أن من أول واجباته أن يتخذ الاقتصاد عادة له ، وأن يُلْزِمَ نفسه سلوكَ سبيل الحكمة فى الانفاق ، فلا يُبَدّدُ ما يصل إلى يده ، مما قل أو كثر ، بل يجعلُ مما يَكسبهُ نصيباً لعاجل نفقته ، ويدّخرُ منه جزءاً لحاجته فى مستقبله ، حتى إذا أدركه المرض ، أو تعطل من العمل ، وجد مما ادخره كنزاً ينفق منه حاجته ، ويَسُدُّ به مطالبه ثم إذا صار رب أسرة ، أمكنه أن يقوم بتهذيب أبنائه ، و تثقيف عقولهم ، ودفع ما يحتاجون اليه من أجور المدرسة وأثمان الكتب وغير ذلك مما يتجدد بتجدد الأعوام وتتابع الأيام .

وكأيِّن رأينا من غنى تركه الإسراف فقيراً ، وفقير جعله القصد غنياً .

ولقد أحسن القائل :

من كان فيما أفاد مقتصداً لم يفتقر بعدها إلى أحد

فعلى العاقل أن يلتزم القصد والادخار فى نفقاته ، فإنه لايعُولُ من اقتصد ، ولا يفتقر إلى أحد ، وفى الكتاب الكريم (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسُطْها كلّ البسط فتقعد ملوما محسوراً) وقال الشاعر :

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثيرُ مع الفساد

١٠٤ — ﴿ لاتؤخر عمل يومك إلى غدك ، فلكل يوم عمله ﴾

لا بد لكل انسان من مزاولة أعمال كثيرة ، تتجدد بتجدد الأيام وتدوم حاجته اليها ما دامت الحياة .

فعلى العاقل أن يلزم نفسه تأدية كل عمل فى وقته المناسب له ، فانه إذا فعل ذلك ، أحس من نفسه الراحة ، واستشعر السرور كلما فرغ من عمله ، وجنى ثمرة تعبه ، ووجد من وقته نصيبا للدعة والراحة

فأما إذا تراخت همته وفترت عزيمته ، فان الأعمال تتراكم عليه ، فيضعف عن القيام بها جملة واحدة ، ولا يستطيع إجادة صنعها وإحكام وضعها .

ومن ضيع الأوقات ضاعت حياته وعاش فقيراً جاهلاً ليس يشكر
فدع غائباً من فائت ومؤمل فوقتك سيف قاطع ليس يعذر

إن من عود نفسه القيام بكل عمل فى زمانه ، يعتاد النشاط والجد وتنشرح نفسه للعمل ، وتزيد رغبتها فيه ، كلما جنت ثماره

وأما من أهمل وقصَّرَ ، فإنه يعتاد البَطالة والكسل ، ويكون كَلاًّ على الناس ، لا يجد للعيش لذة ، ولا للحياة سروراً .

وعاجز الرأى مضياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القَدَرَا
ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل   إلى غد إن يوم العاجزين غدُ

١٠٥ — ﴿ ليس الرجل بثيابه وماله وإنما الرجل بآدابه وكماله ﴾

ليس من الحكمة أن يحكم الإنسان على أقدار الناس ، وتفاوتهم فى المنزلة ، بما يشاهد على أجسادهم من الثياب . فربّ كريم ِ النفس طاهر العرض ، قد ارتدى أسمالا بالية ، ولكن له نفساً بين جنبيه كبيرة لم ترتكب إثمًا ، ولم تهُمَّ بفاحشة أو منكر ، بينما نجد آخر فاخر الحلة ، حسن البزَّة ، وعرضه قد تناولته سهام الطاعنين ، وألسنة القادحين ، فلم تدفع عنه ثيابه لوم اللائمين ، ولا إهانة المهينين .

لا زينة المرء تعليه ولا المال   ولا يشرّفه عمٌّ ولا خال
وإنما يتسامى للعلى رجل   ماضى العزيمة لا تثنيه أهوال

فإنما الجمال والشرف ، في طهارة العرض ، وصون النفس من الدنس ، وترفّعها عن الدنايا ، ولقد أحسن من قال :

لئن كان ثوبى دون قيمته الفلس   فلى فيه نفس دون قيمتها الإنسُ
فثوبك بدر تحت أذياله الدجى   وثوبىَ ليلٌ تحت أطماره الشمس
ليس الجمال بأثواب تزيننا   إن الجمال جمال العلم والأدب

١٠٦

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلى من قدَّم الحذرا

إن للمجد طلابًا ؟ وللمكارم خُطّابًا ، يبذلون ما يملكون من نفيس ، ويضحون بكل ما يُضَنُّ به من راحة ومسرة ، فى سبيل الغاية التى ينشدونها ، والعاقبة التى يؤملونها . وأى غاية أسمى من المجد وغرض أكرم من العلا والشرف ، تراهم يضعون هذا الغرض الأسمى نُصْبَ عيونهم ، فلا يَنُون وإن مسهم نصب ، أو عراهم ألم عن الجد فى سبيله والسعى إلى نيله ، يذللون كل عقبة ، ويتخطّون كل عائق بهمة لا تبالى بالمصاعب ، وعَزْمَةٍ تستهين بالنوائب .

وكم يحلو لهم ركوب متن الأخطار ، وتجشُّم مشاق الأسفار وامتطاء صهوات البحار ، ليدركوا أملهم من المجد ، وغايتهم من الكمال — ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

ألا ترى الرجل الشجاع يجود بنفسه فى موطن الحرب ويتقدم غير هيَّاب ولا وَجِلٍ . وترى الجواد ، ينفقُ الطارفَ والتِّلادَ ، طمعًا فى الحمد ، ورغبة فى الثناء . وكذلك يكون عظماء النفوس ، وطلَّاب المجد .

ومن تكن العلياء هِمّة نفسه فكل الذى يلقاه فيها مُحَبَّبُ

١٠٧ — ﴿ التمثيل الهزلى وأثر مضاره فى أخلاق العامة ﴾

مصرُ بلدُ العجائب ، تلد كل عام ما تئنُّ له نفوس العقلاء ، وتحتارُ فى كُنهه أحلام المفكرين ، فقد أُنشئت بين ظهرانيْنا « دور » سمّوها دور التمثيل ، وهى أولى بأن تعرف بدور السخرية والهزل .

هذه الدور أمست محطَّ رحال الغوغاء ، وصغار الأحلام ، من الشبان الطائشين الذين دنسوا الفضائل ، وتمادوا فى الغى ، بما يسمعون من الأناشيد المخجلة ، ويرون من صنوف الرذائل ، حتى إذا فارقوا تلك الدور ، نفثوا ذلك السم الزعاف من أفواههم بأصوات منكرة لا يلبث الأطفال حتى يردّدوها فى الشوارع والمنازل ، وفى ذلك مفسدة للأخلاق ، تذهب بالأمم إلى مهاوى الشقاء ، ودرَك الفناء .

ولقد ترك أيضاً هذا النوع من التمثيل أثراً سيئاً فى اللغة ، فأخذت الألسن تلوك ألفاظاً لا هى عامية مألوفة ، ولا عربية صحيحة ، كادت تغلب اللسان على أمره ، بما تعود نطقها ، وألف ترديدها ، حتى كادت تهدم بناء اللغة العربية ، وتقوّض دعائمها ، وتأتى على ثمارها الطيبة ورياضها العامرة ، فتجعلها قاعاً صفصفاً وصعيداً جُرُزاً .

كذلك ترك أثراً سيئاً فى الأخلاق ، بما يراه الشبان والشابات فى تلك الدور ، من فحشٍ فى القول ، وحطة فى الفعل ، وبذاءة فى اللسان واستهتار بالكمال ، وتبرُّج فى الزينة ، وخروج عن قواعد

الشرف ، ومجُون مُزْرٍ بالمروءة ، وخلاعة تمحقُ الكرامة ، والنفسُ أمارةٌ بالسوء إذا عرفته ، داعية إلى الفساد إذا ألفتْهُ ، فإذا جَمَحتْ بصاحبها أوردته موارد الهَلَكَةِ ، وقلماَ تنزع عن عاداتها ، وتروغُ عن شهواتها ، وترتدع عن غيها .

ذلك أثر التمثيل الهزلى ، الذى يتنافى مع الفضيلة ، ويتنافر مع الشرف ، وقلما تجد منه ما يرمى إلى غاية نبيلة ، وغرض شريف .

فجدير بالحكومة أن تراقب هذه الدور ، وأن تُعْمِلَ يد الشدة فى إقفاء القائمين بأمرها حتى تكبَّهم لوجوههم ، ولا تدعهم فى غيِّهم يعمهون ، وفى أودية ضلالهم يهيمون .

١٠٨ — ﴿ مضار التبغ « الدخان » ﴾

من العادات المضرة الكثيرة الانتشار بمصر وغيرها من الأقطار تناول (التبْغ) فترى الشاب تنزع به نفسه ، ويميل به هواه إلى محاكاة غيره فى تعاطيه ، يعدُّه تظرُّفاً ، ويحسبه مدنية وترفاً ، فإذا قدم له أحد أترابه أول لفافة أوقدها ، وبدأ يستنشق دخانها السام ، ولا يلبث إلا قليلا ، حتى يأخذ فى الإكثار من تناوله ، فيصبح عادة له لا يستطيع إلى تركها سبيلا .

وإذ طال الزمن واستحكمت فى نفسه هذه العادة السيئة بدأت صحته تضعف ، وقوته تتضاءل ، ورغبته فى الطعام تقلُّ ؛ وإذا ذلك

الوجه الناضر ، والجسم الممتلىء ، والشباب الغض ، قد عراه الذبول وتمكن منه النحول ، فأصبح بعد الغضارة والنضارة جسداً ذابلاً وجسماً ناحلاً ، يأخذه سعال مؤلم ، ويحس بخفقان فى قلبه ، وفتور فى قوته ، ويتمنى لو يقاسمه الطبيب ماله ، ويحجبه عن عادته . ويندم ولات ساعة مندم . ثم هو مع ذلك يفقد بشاشته . ويحرم صفاء نفسه وقوة فكره . فتتغير أخلاقه . وتتبدل صفاته . وتراه إذا أعوزه التبغ أحيانا ذاهل النفس ناكس الرأس . كأنما هو فى هم ناصب . وعناء ممض . وقد تتغير سجاياه . فإذا ذلك الحليم الهادىء غضوب جموح وذلك الوادع الساكن هائج ثائر . يلجأ إلى تناول التبغ لتسكين غيظه . وتهدئة ثائرة نفسه

فعلى الآباء ورجال التربية . أن يتعهدوا أبناءهم وتلاميذهم بالنصح والإرشاد . وأن يرقبوهم فى أوقات الفراغ . فلا يدعوا لهم طريقًا إلى اتباع هذه العادة الذميمة . ليحفظوا لهم صحتهم وراحتهم ويدفعوا عنهم شر الأمراض . ويصونوا أموالهم من الضياع حتى إذا شب هؤلاء الأبناء عرفوا لهم ذلك الفضل وحمدوا تلك العناية . وماذلك على همة الآباء والمربين بعزيز

١٠٩ — * ولستَ بمُستبقٍ أخًا لا تلُمُّه على شعَث أىُّ الرجال المهذب

إن حاجة الإنسان إلى الصديق ماسة . فانه عون فى الشدة

وأنيس فى الرخاء . ومرجع فى السراء والضراء فعلى الإنسان أن يصطفى كثيراً من الإخوان . ليشد بهم أزره . وبشرح بقربهم صدره . وإذا بدرت من أحدهم بادرة فلا يقطع لذلك حبل مودتهم ويفصم عرا صحبتهم فان لكل سيف نبوة . ولكل جواد كبوة

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وعلى الانسان أن يتجنب محاسبتهم على تلك الهفوات . وتقريعهم على صغائر الزلات . فطالما كان العتاب سبباً فى القطيعة ، وطريقا إلى التفريق . وإن عاتب فليكن بلطف ورقة . فان القلوب كالزجاج صدعها لا يجبر وليتخذ العفو ديدناً . ويدفع السيئة بالحسنة فذلك أدعى إلى دوام الألفة . وبقاء المودة . وطيب العيش . واستدامة الصحبة . وقد أحسن الشاعر إذ يقول :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه مفارف ذنب مرة ومجانبه
ألا سامح أخاك إذا تعدى وألق إليه فى الحرب السلاحا
فمن يعتب على الإخوان يتعب ومن لزم المسامحة استراحا

١١٠ – ﴿ غنى المرء فى الغربة وطن . وفقره فى الوطن غربة ﴾

الانسان فى الغربة بعيد عن أهله وأخلائه . الذين هم ساعده فى الشدة . وموضع سروره فى الرخاء . فاذا كان مثريا أخذ يرتاد

الأصدقاء، ويطلب الإخوان، بفضل ماله، وسابغ بره، والإنسان عبدُ الإحسان، فلا يلبث أن يملك النفوسَ، ويسترقّ القلوب ويَستَهْوِيَ إليه الأفئدة، وعما قليل تكثر حاشيته، وتتزايد أتباعه فيكونون منه مكان الأهل، يؤازرونه فى الضراء ويَستَرْوِحُون إليه فى السراء، ويكونون له سلوَةً على ألم الغربة، ونَصَب الفُرقة.

فأما إذا كان فقيراً مُعْدِماً، لا يجد من المال ما يَمُتُّ به إلى تلك القلوب، أو يملك به عِنان الأفئدة، فإنه لا يجد حراً يواسيه ولا صديقاً يدانيه، فيجمع إلى ألم الغربة ومضض الفقر، عناء الوَحْدَة والانفراد.

وكذلك يجعل الفقر صاحبه ذليلاً فى اقترابه، وحيداً فى اغترابه، فما أشقى الفقراء، وأسعد الأثرياء الأغنياء.

١١١ — ﴿ ربّ أخٍ لك لم تلده أمك ﴾

الصداقة بلا ريب لُحْمَةٌ كلحمة النسب، تصل بين الصاحبين فتَمْزِجُ قلبيهما، وتسرى فى نفسيْهما سَرَيان الروح فى الجسد، والماء فى العود الخَضِر، فتتشابه بها النفوس؛ وتتشاكل الأَميالُ، وتتحد الأغراض، فينشأ عن ذلك كله الأُلفةُ والمودة، ويتولد العطف والحنان، فترى الصديق يشاطرُ صديقَهُ سرورهُ، ويخفف عنه آلامه وأحزانه. فإذا أصابه الدهر بحِدْثانه، وألَمّتْ به مُلِمَّاتُهُ، أخذ

يخفف عنه هول مصابه ، ويُمنّيه بالسعادة المستقبلة ، والراحة المنتظرَة ، وهو مع ذلك كله يودُّ لو يحمل عنه ما أنقضَ ظهره ، وأثقل عاتقه ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا :

إنّ أخاك الحق من كان معك ومن يضُرُّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريبُ الزمان صدَعك شتت شمل نفسه ليجمعك

فسَقْياً لك أيتها الصداقة ، ورعْيًا لما تلدينه من الإخوان ، فإنهم عُدَّةٌ لنوائب الزمان ، ودروع سابغات فى النائبات ، ونجومٌ لامعة فى الليالى المدلهمّات .

أما أنت أيها الصديق الذى ارتضع مع صديقه ثدى المودة وتغذيا بلبان الصحبة ، فإنك أجدر الناس بالمحبة ، وما أنت دون الأَخ الشقيق فضلا ، ولا ببعيد عنه أصلا ، فخير الأَخوين النافع وما نفعك إن عزَّ نفع الشقيق ببعيد .

ما ضاع من كان له صاحب يقدر أن يرفع من شأنه
فإنما الدنيا بسكّانها وإنما المرء بإخوانه

١١٢ ـ أعط القليل ولا تمنعك قِلّته فكل ما سد فقراً فهو محمود

قد يرى الإنسان السائل المسكين ، والفقير المعدم ، تكاد تفيض روحه ألماً ، وتذهب نفسه حسرات ، لا يجد ما يحفظ به الرمق ويدفع به ألم الحاجة ، فيود رائيه لو أن له مالاً كثيراً فيواسيه

ومعيناً من الثروة فيغنيه ، ويستحى أن يمد إليه يده بدرهم ، يراه لا يروى غُلّةً ، ولا يرفع كربة ، ولا حق له فى هذا الحياء ، فإن الأيدى إذا كفت عن معونته بالقليل — وقل أن ينال الكثير — تضوّر جوعاً ، وذهب عنه صبره ، ووهى جلَدُه ، واستسلم لليأس ، والجزع وربما طوّح بنفسه إلى اللحد .

إن القليل فى الخير كثير ، لا يعدم الإنسان جزاءه ، ولا يحرم ثوابه . (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ألا وإن الإيثار على النفس فضيلة المحسن ، وشِرعة الكريم وقد أثنى الله تعالى فى كتابه الكريم ، على من يؤثر ببره ، ويمنحه ميسور جوده ، فقال تعالى (ويُؤْثِرُون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال الشاعر :

ليس العطاء من الفُضول سماحة حتى تجود وما لديك قليـــل

١١٣ — ﴿ التقليد فى الفضيلة سبيل النجاح ﴾

حقاً إن الإنسان بفطرته ميال إلى العلا ، محب للمجد ، يتمنى أن تتاح له الفرص التى يبلغ بها غرضه ، ويدرك بها طلبته ، يحفز همته ويستحث عزيمته ، ما يتردد على ألسنة الناس من حمد كريم ، وذكر عظيم ، وإجلال نابه ، فيود أن تكون له فى نفوس قومه وعشيرته تلك الذكرى الطيبة والشهرة العالية .

وقد يظن أحياناً أنه ليس فى مقدوره إدراكُ منازل العظماء والترقى فى مراتب الشرفاء ، ولكنه لو علم أن العزيمة الصادقة ، والهمة العالية ، تبوِّئ صاحبها عرش المجد ، وتجلسه على أريكة العز ، لقلد أولئك الأشراف فى صفاتهم ، وحاكاهم فى أعمالهم ، فإنه إن فعل ذلك أدرك غايته ، ونال طلبته ، لأن القدوة الصالحة تكوّن عظماء الرجال . فما اختص قوم بالمجد ، ولا استأثروا بالشرف ، وما عليهما حاجب يحجب طالباً ، ولا مانعٌ يمنع راغباً .

إذا أعجبتك خصال امرىء　　فكُنْهُ يكن منك ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات　　إذا جئتها حاجب يحجبك

فذلّلْ بهمتك ما يعترض طريقك من المصاعب ، واركب متن الأخطار ، ووطّن نفسك على الصبر ، واقفُ آثار من سبقك إلى العلا غير هيّاب ولا وانٍ ، فإنك لا محالة مُوفٍ على غايتك ، وواصل إلى أمنيتك

وقلَّ من جدَّ فى أمرٍ يحاوله　　واستعملَ الصبرَ إلا فاز بالظفَرِ

١١٤ — ﴿ الأدب وسيلة إلى كل فضيلة ﴾

الأدب هو التحلي بأحسن صفات الكمال ، والتخلى عن الرذائل والبعد عن النقائص : بحيث يكون الإنسان في جميع أحواله ومعاملاته في المجتمع الإنسانى ، على مقتضى العقل الكامل والذوق السليم ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا يقع منه ما يخل بشرفه ، أو يحط

من قدره ، فالأدب عنوان الكمال ، يرفع الوضيع إلى درجة الرفيع ويعلو بالسوقة إلى مرتبة الملوك ، ولهذا كان حقاً على كل امرىء أن يتخلق به طبقاً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال عليه الصلاة والسلام (أمرني ربي بتسع ، الإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى . وأن أعفوَ عمن ظلمني . وأصلَ من قطعني . وأعطي من حرمني . وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً . ونظري عبرة) وقال عليه الصلاة والسلام (ليس منا من لم يُوَقّر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا . ويعرف لعالمنا حقه) .

وقال عليٌّ كرم الله وجهه — إن الله تعالى جعل مكارمَ الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم ، فحَسْبُ الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها . وقال — غاية الأدب أن يستحيي الإنسان من نفسه .

وقال خالد بن صفوان لابنه : يا بني ، الأدب بهاء الملوك ، ورياش السوقة ، والناس بين هاتين فتعلمه تجد نفسك حيث تحب .

وقال ابن المقفع : ما نحن إلى ما نتقوّى به على حواسنا من المطعم

والمشرب ، بأحوج منا إلى الأدب الذى هو لقاح عقولنا .

وقال بزرجمهر : ليت شعرى — أى شيء أدرك من فاته الأدب وأى شيء فات من أدرك الأدب . وقال الكسرى وعنده أولاده . أى أولادك أحب إليك . قال أرغبهم فى الأدب . وأجزعهم من العار وأنظرهم إلى الطبقة التى فوقهم .

وحكي الأصمعى رحمه الله تعالى : أن أعرابياً قال لابنه : يا بنيّ الأدب دعامةٌ أيّدَ الله بها الألباب ، وحليةٌ زين الله بها عواطل الأحساب ، فالعاقل لا يستغنى وإن صحت غريزته عن الأدب المخرج زهرته ، كما لا تستغنى الأرض وإن عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها .

وقال بعض الحكماء : الأدب صورة العقل . فصور عقلك كيف شئت . وقال آخر : إذا كان الرجل طاهر الأثواب ، كثير الآداب حسن المذهب ، تأدب بأدبه ، وصلح بصلاحه جميع أهله وولده وقال غيره : من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان قبل وضيعاً ، وبَعُدَ صيته ، وإن كان خاملاً ، وساد وإن كان غريباً ، وكثرت الحاجة إليه وإن كان مقتراً وقال غيره : عليكم بالأدب فانه صاحب في السفر ومؤنس في الوحدة ، وجمال فى المحفل ، وسبب إلى قضاء الحاجة .

وقال بعض الأدباء : زكِّ قلبك بالأدب كما تزكى النار بالحطب

واتخذ الأدب غنُما والحرص عليه حظاً ، يرتجيك راغب ، ويخاف صولَتَكَ راهب ، ويؤمل نفعُك ، ويرجى عدلك ، وقال آخر : شبه العالم الشريف العديم الأدب بالبنيان الخراب ، الذى كلما علا سمكه كان أشد وحشة : وبالنهر اليابس الذى كلما كان أعرض وأعمق كان أشد وعورة : وبالأَرض الجيدة المعطلة التى كلما طال خرابها . ازداد نباتها غير المنتفع به التفافاً ، وصار للهوام مسكناً .

وقال بعض العلماء : العقل بلا أدب . كالشجر العاقر . ومع الأدب كالشجر المثمر . وقال آخر : الأَدب وسيلة إلى كل فضيلة وذريعة إلى كل مكرمة .

وقال بعض الفصحاء . الفضل بالعقل والأدب . لا بالأَصل والحسب . وقال غيره . من ساء أدبه ضاع حسبه . ومن قل عقله ضل أصله . وقال غيره : الأَدب يستر قبيح النسب :

وقال الشاعر :

لكل شيء زينةٌ فى الورى	وزينة المرء تمام الأَدب
قد يشرف المــــرء بآدابه	فينا وإن كان وضيع النسب

وقال آخر :

فمـــا خلق الله مثل العقول	ولا اكتسب الناس مثل الأدب
وما كرم المرء إلا التُّقى	ولا حسب المرء إلا النسب

وقال غيره :

ما وهب الله لامرىء هبة　　أشرف من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فإن عُدما　　فإن فقد الحياة أجمل به

وقال غيره :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً　　يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا　　ليس الفتى من يقول كان أبى

١١٥ — ﴿ الحلم سيد الأخلاق ﴾

الحلَم هو ضبط النفس عند ثورة الغضب ، حال وجود ما يدعو إليه . وتملك عنانها حذر الاسترسال فى هياجها . فيحدث مالا تحمد عقباه . فكم جرَّ الغضب من الأضرار على أناس ، مالو ملكوا أنفسهم وكبحوا جماحها لسلموا منه . وكانوا إلى السيادة التى حرصوا عليها بما فعلوا أقرب . وإن مما يدعو إلى طول الأسف ما نراه عند شباننا من الغضب فى أدنى الأمور ، وأوهى الأسباب ، ولو علموا أن الحلم سيد الأخلاق ، وأنه يكمل صاحبه بجميل الخصال . ويحببه إلى الله تعالى ويرفع قدره عند الناس لما عرفوا للغضب سبيلا ولا سلكوا له طريقاً .

قال الله تعالى (ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور) وقال عز وجل (خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ) .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله يحب الحليمَ الحيِّ

ويُبغض الفاحش البَذِى) وقال عليه الصلاة والسلام (ليس الشديد بالصُّرْعة . إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب) وقال عليه السلام (ألا أخبركم بمن يحرّم على النار أو بمن تحرَّم عليه النار : تحرَّم على كل قريب هين لين سهل) وقال (ابتغوا الرفعة عند الله تحلم عمن جهل عليك . وتعطى من حرمك) وقال (كاد الحليم أن يكون نبياً) وروى أن رجلا أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أوصنى (قال لا تغضب — فردَّد مراراً قال لا تغضب) .

وقال على كرم الله وجهه . أول ما يعوَّض الحليم عن حلمه ، أن الناس أنصاره .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه — لرجل أسمعه كلاماً . يا هذا لا تُغْرق فى سبّنا ودع للصلح موضعاً . فإنى أبيت مشاتمة الرجال صغيراً . فلن أجيئها كبيراً . وإني لا أكافئ من عصى الله فىّ بأكثر من أن أطيع الله عز وجل فيه . وشتم رجل الشعبي فقال — إن كنتُ كما قلتَ فغفر الله لى : وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك : واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ، ثم رجعت إلى نفسها فقالت : لله درُّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء .

وقال الأحنف بن قيس : ما عادانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال : إن كان أعلى منى عرفت له قدَره

وإن كان دونى رفعت قدرى عنه ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه .

وقال بعض الحكماء . احتمال السفيه خير من التحلى بصورته والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته . وقال آخر : إذا سكتَّ عن الجاهل فقد أوسعته جواباً . وأوجعته عقاباً . وقال غيره : فى إغضائك راحة أعضائك .

وقال بعض الأدباء . من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم وقال آخر ما أفحش حليم . ولا أوحش كريم .

وقال بعض البلغاء ما ذبَّ عن الأعراض كالصفح والإعراض وقال آخر . ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن — لا يعرف الجواد إلا فى العسرة . والشجاع إلا فى الحرب . والحليم إلا فى الغضب .

وكان الأحنف مشهوراً بين الناس بالحلم ، وبذلك ساد عشيرته فقيل له ممن تعلمت الحلم : فقال من قيس بن عاصم . كنا نختلف إليه فى الحلم كما يختلف إلى الفقهاء فى الفقه . ولقد حضرت عنده يوماً وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاءوا به مكتوفا . فقال ذعرتم أخى أطلقوه ، واحملوا إلى أم ولدى دِيَتَهُ فإنها ليست من قومنا . ثم أنشد

أقول للنفس تصبيراً وتعزية ... إحدى يدىّ أصابتنى ولم تُرِدِ
كلاهما خلفٌ من فقد صاحبه ... هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقال الجعدى :

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

وقال صلاح الدين الصفدى

واستشعر الحلم فى كل الأمور ولا تسرع ببادرة يوماً إلى رجل
وإن بليت بشخص لا خلاق له فكن كأنك لم تسمع ولم يقل

وقال الشاعر

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سبابِ الناس حلماً وشرُّ الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

١١٦ — ﴿ الصدق يرفع أهله والكذب مرتعه وخيم ﴾

الصدق هو القول بما يطابق الحقيقة والواقع، من غير تبديل ولا زيادة أو نقصان، وهو من ضروريات الحياة. ولولاه لا نتزعت ثقة الناس بعضهم من بعض، ولما وصل اليهم شيء من الحقائق فى العلوم والأديان، وليس فى الأخلاق خلق أحسن بالاصلاح والنظام من الصدق، ولا أفسد لهما من الكذب، فهو رأس الفضائل ورأس المروءة، من تحلى به كملت صفاته، وسمت أخلاقه، وتحققت معه آماله

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال تعالى واذكُرْ فى الكتاب إدريسَ إنه كان صديقا نبيًّا) وقال

عز وجل (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) وقال جل شأنه « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهارُ » وقال تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عليكم بالصدق فإنه مع البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور والفجور يهدى إلى النار) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (عمل الجنة الصدق ، وإذا صدق العبد برَّ ، وإذا بر آمن ، وإذا آمن دخل الجنة . وعمل النار الكذب ، وإذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر دخل النار) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (عليكم بالصدق فإنه باب من أبواب الجنة)، وإياكم والكذب فانه باب من أبواب النار) وقال — رحم الله امرأ أصلح من لسانه ، وأقصر من عنانه وألزم طريق مقوله ، ولم يعود الخطل مفصله) وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم (أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم ، قيل أفيكون بخيلا ؟ قال نعم . قيل أفيكون كذابا ؟ قال لا) .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لأن يضعنى الصدق وقلما يفعل ، أحب إلى من أن يرفعنى الكذب وقلما يفعل .

وقال على كرم الله وجهه : قد يبلغ الصادق بصدقه ما لا يبلغه الكاذب باحتياله .

قال ابن المقفع : لا تتهاون بإرسال الكذبة من الهزل فانها تسرع إلى إبطال الحق .

وقال على بن عبيدة : الكذب شعار الخيانة ، والصدق ربيع القلب ، وزكاة الخلقة ، وثمرة المروءة ، وشعاع الضمير .

وقال أعرابى لابنه وسمعه يكذب : يا بنىّ ان الكذاب يتعرض للعقاب من ربه ، ان قال حقاً لم يصدق ، وان أراد خيراً لم يوفق فهو الجانى على نفسه بفعاله ، والدال على فضيحته بمقاله ، فما صح من صدقه نسب الى غيره ، وما صح من كذب غيره نسب اليه .

كذبتَ ومن يكذب فان جزاءه اذا ما أتى بالصدق ألا يصدّقا

وقال أحد الفلاسفة : اياك وحكاية ما يستبعد ، فيجد عدوك سبيلا الى تكذيبك ، فان من صفات العاقل أن يحدث بما لا يستطاع تكذيبه .

وقال بعض الحكماء : الخرس خير من الكذب ، وصدق اللسان أسّ السعادة ، وقال آخر : الكذاب لص ، لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك ، وقال غيره : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله ، وقال غيره : نزه سمعك عن سماع الكذب كما تنزه لسانك عن التفوّه به

وقال بعض الأدباء . الكذب جماع كل شر ، وأصل كل ذم ، لسوء

عواقبه، وخبث نتائجه، لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة.

وقال آخر — الكذب متهم وإن صدقت لهجته ووضحت حجته.

وقال غيره : لا سيف كالحق، ولا عون كالصدق.

وقال بعض البلغاء. الصادق مصون جليل، والكاذب مهان ذليل. وقال آخر : ليكن مرجعك إلى الحق، ومنزعك إلى الصدق فالحق أقوى معين، والصدق أفضل قرين. وقال غيره : إذا اتسم المرء بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة، وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة، حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه، فيجمع بين معرة الكذب عنه ومضرة الكذب عليه.

وقال بعض الفضلاء. الصدق منجيك وإن خفته، والكذب مرديك وإن أمنته.

وقال بعض العلماء : من صدق فى مقاله، زاد فى جماله، وقال آخر تحرّوا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة، فإن فيه النجاة، وتجنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فان فيه الهلكة.

وقال الشاعر

عود لسانك قول الصدق تحظ به   إن اللسان لما عودت معتاد

موكَلٌ بتقاضى ما سننتَ له في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

وقال آخر

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضا المولى فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال غيره

عليك بالصدق فى كل الأمور ولا تكذب فأقبح ما يزرى بك الكذب

وقال غيره

ما أحسن الصدق فى الدنيا لقائله وأقبح الكذب عند الله والناس
لا يكذب المرء إلا من مهانته أو عادة السّوء أو خلوه من الأدب
وما شىء إذا فكَّرْتَ فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذى لاخير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

١١٧ — ﴿ الحياء دليل الخير كله ﴾

حياة الوجه بحيائه ، كما أن حياة الغرس بمائه

الحياء هو الكف عن كل ما يستقبحه العقل ، ويمجّه الذوق واستنكار كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق ، خلق شريف يمنع المرء عن فعل المحرمات والمنكرات ، ويصونه عن الوقوع فى الأوزار والآثام فمن فقدَ الحياء فقد ذهبت آدابه أدراج الرياح ، وأضحى منبوذاً محروماً من كل خير وفضل .

قال الله تعالى (ومن تزَكّى فإنما يَتزَكّى لنفسهِ وإلى اللهِ المصير)
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار) وقال عليه الصلاة والسلام (استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيي من الله حق الحياء فليحفظ الرأسَ وما وَعى ، وليحفظ البطنَ وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيي من الله حق الحياء) وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إنّ الحياء والايمان قُرنا جميعاً ، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر .

وقال عليه الصلاة والصلام (الايمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الايمان) وقال (الحياء لا يأتى إلا بخير) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت)

وقال كعب : استحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس فى علانيتكم .

وقال حُذَيفة بن اليمان : لا خير فيمن لا يستحيي من الناس .

وقال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه

وقال آخر : الحياء فى الصبىّ ، خير من الخوف ، لأن الحياء يدل على

العقل ، والخوف يدل على الجبن .

وقال أحد الأدباء : ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك ، وقال آخر من عمل فى السر عملا يستحيي منه فى العلانية ، فليس لنفسه عنده قدرٌ .

وقال اخر : أحي حياءك بمجالسة من يُستحَى منه — وقال غيره اجعلَ الحياء حَكَماً على أفعالك .

وقال أحد الفصحاء : سِمةُ الخير الدّعة والحياء . وسِمة الشر القِحةُ والبذاء ، وكفى بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء أن يكونا إلى الشر سبيلا .

وقال اخر : القناعة دليل الأمانة والأمانة دليل الشكر . والشكر دليل الزيادة ، والزيادة دليل بقاء النعمة ، والحياء دليل الخير كله .

وقال أحد العقلاء : عليك بالحياء والأنفة ، فإنك إن استحييت من الفضاحة اجتنبت الخساسة ، وإن أَنِفتَ من الغَلَبة لم يتقدمك أحد في مرتبة ، وقيل لا وفاء لمن ليس له حياء .

وقال الشاعر

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إدا قل ماؤه

حياءك فاحفظهُ عليك وإنما يد على فعل الكريم حياؤه

وقال آخر :

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستحى فاصنع ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير من الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى الحياء

وقال غيره

وحاجة دون أخرى قد سنحت بها جعلتها للتى أخفيت عنوانا
وإنى لأرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا

وقال غيره

ورب قبيحة ما حال بينى وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياء فلا دواء

وقال غيره

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع

١٢٨ — ﴿ التواضع دليل العلم والكبر دليل الجهل ﴾

التواضع هو تجمل النفس بالخضوع ، ومنعها عن الترفع على الناس والاستخفاف بهم ، وحملها على احترامهم مهما اختلفت درجاتهم وتباينت مشاربهم ، وعدم الكبر على أحد سواءٌ فى ذلك الوضيع والرفيع والصغير والكبير ، ليحافظ على منزلته فى النفوس ، ويأخذ مكانته فى القلوب، وهى خصلة محمودة تدعو إلى التوادد والتعاون، وتدل على طهارة النفس، وسلامة الذوق ، فكم رفع التواضع أقواماً ، فكانوا

هم الألى فازوا برضا ربهم والفضل العظيم، وكم خفض الكبر آخرين فحل عليهم غضب الرحمن، وباءوا بالخسران المبين .

قال الله تعالى (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إن اللهَ لا يُحِبُّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) وقال عز وجل (وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأرضِ هوْناً . وإذا خاطبَهُمُ الجاهلونَ قالوا سلاما) وقال جل شأنه (تلكَ الدَّارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يُريدونَ علوًّا فى الأرضِ ولا فساداً ، والعاقبةُ للمتقينَ)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله أوحى إلى أن تواضعوا ولا يبغ بعضكم على بعض) وروى قيس بن حازم أن رجلا أتىَ به الي النبي صلى الله عليه وسلم فأصابتهُ رعدةٌ ، فقال له صلى الله عليه وسلم هوّن عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد) وقال عليه الصلاة والسلام (ما تواضع أحد لله إلا رفعه) وقال عليه الصلاة والسلام (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر) وقال (اجتنبوا الكبر فإن العبد لا يزال يتكبر حتى يقـــول الله تعالى لملائكته اكتبوا عبدى هذا فى الجبارين) وقال لعمه العباس (أنهاك عن الشرك والكبر فإن الله يحتجب منهما) .

وقال سعد بن أبى وقاص لابنه : يا بنى إياك والكبر وليكن

ما تستعين به على تركه علمك بالذى منه كنت والذى اليه تصير .

وقال سفيان : السَفلة إذا تعلموا تكبروا ، وإذا تولوا استطالوا والكرام إذا تعلموا تواضعوا ، وإذا افتقروا استطالوا .

وقال ابن السماك : تواضعك فى شرفك ، أشرف لك من شرَفِكَ

وقال بعض الحكماءِ : من أظهر عيب نفسه فقد زكاها ، فإذا قطع أسباب الكبر وحسَمَ مواد العجب اعتاض بالكبْرِياء تواضعا وبالعجْب تودداً ، وذلك من أوكَدِ أسباب الكرامة ، وأقوى موارد النعم ، وأبلغ الشفعاء إلى القلوب ، يعطفها إلى المحبة ، ويثنيها عَنِ البغض — وقال آخر : من نال منزلة فأبطرته دل على رداءة أصله وعُنصره — وقال غيره : من تكبر على الناس ذلّ — وقال غيره . عُجبُ المرء بنفسه أحد حساد عقله ، وليس إلى ما يُكسبه الكبر من المقت حدٌّ ، ولا الى ما ينتهى اليه العجب غاية ، حتى إنه ليطفىء من المحاسن ما اشتهرَ ، وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة ، وبعذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ، ويكسبه من حقد — وقال غيره : من برىء من ثلاث ، نال ثلاثا من برىء من السرف ، نال العز ، ومن برىء من البخل نال الشرَف . ومن برىء من الكبر نال الكرامة .

وقال أحد الأدباء . من وُلد فى الفقر أبطَره الغنى ، ومن ولد فى الغنى لم يزده الا تواضعاً .

وقال أحد العلماء : أجهل الناس من قل صوابه ، وكثر إعجابه وأبغض الناس ذو عسر يخطر فى رداء كبر . وقيل التواضع من أخلاق الكرام ، والكبر من أخلاق اللئام ، وقيل تاج المرء التواضع

وقال الشاعر

وأقبح شىء أن يرى المرء نفسه رفيعاً وعند العالمين وضيع
تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه على طبقات الجو وهو وضيع

١١٩ — ﴿ لن تنالوا ما تحبون إلا بالصبر عما تكرهون ﴾

وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأفضل أخلاق الرجال التجمل

الصبر هو تحمل النفس مكاره الحياة ، وعدم الجزع لنوائب الدهر ونكباته ، وهو الدواء الشافى لمن ملك الحزن عليه نفسه والباسم المعافى لمن قبض الجزع على زمام عواطفه ، بل هو عين الراحة وينبوع الفرح ، مبيد الهموم ، ومزيل الغموم ، ولا سبيل إلى تشتيت ما علق بالمرء من الأحزان إلا التمسك به والتعلق بأهدابه ، فهو ركن حصين فى محاربتها ، وعماد قويم على دفعها ، وناهيك بعظم ثواب الصابرين ، وسوء عاقبة الجازعين .

قال الله تعالى (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) وقال تعالى (ولنجزين الذين صبروا

أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وقال عز وجل (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال تعالى (واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) وقال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل الإيمان الصبر والسماحة) وقال عليه الصلاة والسلام (الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب) وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (قال الله تعالى إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو فى ولده أو فى ماله فاستقبلها بصبر جميل استحييت يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا) وعنه أنه قال (النصر مع الصبر والفرج مع الكرب. وإن مع العسر يسرا) وقال عليه السلام (من أصيب بمصيبة فى ماله أو جسده وكتمها ولم يشكها إلى الناس كان حقا على الله أن يغفر له) وقال (من أعطى فشكر. ومنع فصبر، وظُلم فغفر. وظَلم فاستغفر. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)

وقال على كرم الله وجهه للأشعث بن قيس: إن صبرتَ جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور. وقال الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أفضل العدة الصبر على الشدة

وقال ابن مبارك ، المصيبة واحدة ، فإذا جزع صاحبهافهما اثنتان لأن إحداهما المصيبة بعينها ، والثانيـة ذهاب أجره . وهو أعظم من المصيبة .

وعن أكثم ابن صيفى . من صَبَرَ ظفرَ

وحكى كعب الأحبار — أنه مكتوب فى التوراة : من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكو ربه

وحكى أن أعرابية دخلت من البادية ، فسمعت صراخاً فى دار فقالت ما هذا ، فقيل لها مات لهم إنسان . فقالت ، ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون ، و بقضائه يتبرمون ، وعن ثوابه يرغبون

وقال بعض الحكماء : من أحب البقاء فليعدللمصائب قلباً صبورا

وقال آخر . بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ

وقال أحد الصلحاء : اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ولا مفزعاً إلا إليه

وقال عثمان بن عفان

خليلىّ لا والله مامن ملمة　　تدوم على حىّ وإن هى جلَّتِ
فإن نزلت يوماً فلا تخضعنْ لها　　ولا تكثر الشكوى إذاالنعل زلت

فكم من كريم قد بلى بنوائب ... فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة ... تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وقال إبراهيم بن العباس

وَلَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرجت وكان يظنه لا تفرج

وقال محمد بن بشير الخارجى

إن الأمور إذا سدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبها ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومد من القرع للأبواب أن يلجا

١٢٠

الاقتصاد فى الأمور مملكة ... والسرف لا يعقب إلا الهلكة.

الاقتصاد هو التوسط بين التقتير والتبذير، فلا يجارى المرء من هو أغنى منه فى إسرافه وبذخه فيقع فى أسر الاستدانة، ويصبح فقيراً معدماً، فينبذه كل من رآه، ويبغضه كل من علم أمره، ولا يبخل فى الإنفاق على نفسه وأهله، يشح بالإحسان على البائسين والمحتاجين فيكون عرضة إلى ضرر أطماعهم، وهدفاً إلى سوء عاقبة حرمانهم

فيعيش ولا راحة عنده ولا اطمئنان ، وكفى المقتصد فخراً أن يعيش عزيز النفس غنياً محبوباً عند الله ، مبجلاً عند الناس

قال الله تعالى (ولا تجعلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عنقِكَ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً مَحْسوراً) وقال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال جل شأنه (ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطينِ وكانَ الشيطانُ لربهِ كفوراً).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة) وقال عليه الصلاة والسلام (الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة).

وقال أبو بكر رضى الله عنه . ما عال مقتصد ولا يعيل — وقال إنى لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام فى يوم واحد

وقال على كرم الله وجهه . دع الاسراف مقتصداً . واذكر فى اليوم غداً

وقال معاوية . ما رأيت تبذيراً إلا وإلى جنبه حق مضيع .

وقال سعيد بن جبير . بن التبذير هو أن تنفق الطيب فى الخبيث

وقال سفيان الثورى . من كان فى يده مال فليصلحه فإنه فى زمان إن احتاج اليه فأول ما يبذل فيه دينه

وقال سقراط . لتكن عنايتك بحفظ ما اكتسبته كعنايتك باكتسابه .

وقيل لأفلاطون لمَ تدخر المال وأنت شيخ ؟ فقال — لأن يموت الانسان ويخلف مالا لعدوه ، خير من أن يحتاج إلى أصدقائه في حياته .

وقيل لابن زياد . لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا — فقال هي وان أدنتني منها فقد أغنتني عنها .

وأتى قوم قيس بن عبادة يسألونه حَمالةً ، فصادفوه في حائط له يتبع ما يسقط من الأثمار ، فيعزل جيده ورديئه ، فقاموا حتى فرغ فكلموه في ذلك ، فبذل لهم ما أرادوا ، فقال بعضهم صنيعك هذا مناف لترقيح عيشك ، فقال بما رأيتم من فعلي أمكنني أن أقضي حاجتكم .

وقيل لحكيم . لم حفظت الفلاسفة ما في أيديهم ؟ فقال لئلا يقيموا أنفسهم المقام الذي لايستحقونه ، فقد علموا ألا اتكال على ما في أيدي الناس

وقال بعض والحكماء . التبذير إنفاق المال في غير وجه حق وبذله على وجه لاتقتضيه الحكمة

وقال أحد الأدباء . من ربى ابنه على الاقتصاد أفاده أكثر

مما يخلف له ثروة وافرة .

وقال أحد العقلاء : ماوقع تبذير فى كثير إلا هدمه ، ولا دخل تدبير فى قليل إلا ثمره ، وقال آخر إذا أعطيت مالك فى غير الحق يوشك أن يجيء الحق وليس عندك ما تعطى منه .

وقال المتلمس .

وحبسُ المال أيسر من فناه ... وضربٍ فى البلاد بغير زاد
وإصلاح القليل يزيد فيه ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال الشاعر .

أنفق بقدر ما استفدتَ ولا ... تسرف وعش فيه عيش مقتصد
من كان فيما استفاد مقتصداً ... لم يفتقر بعدها إلى أحد

١٢١ — ﴿ العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ونصبه للحق ﴾

العدل . التزام طريق الحق فى كل أمر من أمور الحياة ، وعدم الحيدة عنه قَيدَ شعرة ، والبعد عن الظلم أو الميل عن جادّة الإنصاف بقصد قضاء بغية أو منفعة تعود عليه ، والحقيقة التى لا مراء فيها أنه لا منفعة وراء الظلم ، ولا فائدة تُرْجى منه ، بل هو طريق وعر المسلك قلما ينجو منه صاحبه ، وإن ما يلقاه من مقاطعة الناس له ، وغضب المولى عليه ، لأكبر دليل على جسامة ذنب الظالمين ، وسوء عاقبة الباغين

قال الله تعالى (إنّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذى

القُرْبى وَيَنهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ والبغْى) وقال تعالى (وإذا حكمتمْ بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدلِ) وقال تعالى (وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينَهُم بالحقِّ) وقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامينَ بالقسطِ) وقال تعالى (ألاَ لعنةُ اللهِ على الظالمينَ) وقال عز وجل (وما للظالمينَ مِنْ وَلِيٍّ ولاَ نَصِيرٍ) وقال تعالى (فتلك بيوتُهمْ خاويةً بما ظلموا) وقال تعالى (ولا تحسَبَنَّ اللهَ غافلاً عما يعملُ الظالمونَ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم لا يَظلمه ولا يُسْلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كُرْبةً فرَّج الله عنه كربة من كُرُبات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام (الظلم ظلمات يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام (أهل الجور وأعوانهم فى النار) وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله يُمْلِى للظالم فإذا أخذه لم يُفْلتْه) ثم قرأ (وكذلك أخْذُ ربكَ إذا أخذَ القُرى وهىَ ظالمةٌ إنَّ أخذهُ أليمٌ شديدٌ)

وقال عليه الصلاة والسلام (اتقوا دعوةَ المظلوم فإنها تُحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (ما من أحد يكون على شىء من

أمور هذه الأمة فلا يعدل بينهم إلا كبَّهُ الله فى النار)

وقال أبو بكر رضى الله عنه لبعض عماله : عليكم بالعدل وتباعدوا عن الجور ، ولا تغدروا إن عاهدتم ، ولا تنقضوا إن صالحتم

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل له : إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك

وقال الأحنف : ما عَرضت النَّصَفَةَ على أحد فقبلها إلا تداخلنى منه هيبة ، ولا ردها أحد إلا طمعت فيه

وقال أنو شروان : الملك إذا كثر ماله مما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلعه من قواعد بنيانه — وقال غيره : المملكة تخصب بالسخاء ، وتعمر بالعدل ، وتثبت بالعقل ، وتُحرس بالشجاعة

وقال بعض الحكماء بالعدل والإنصاف تكون مدة الائتلاف

وقال آخر : ليس شيء أقرب إلى تغيير نعمة ، وتعجيل نقمة ، من الإقامة على الظلم — وقال غيره : شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم

وقال بعض الفضلاء : يوم العدل على الظالم ، أشد من يوم الجور على المظلوم — وقال آخر : إن العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ، ونصبه للحق ، فلا تخالفه فى ميزانه ، ولا تعارضه فى سلطانه — وقال غيره دعوتان أرجو إحداهما وأخاف الأخرى ، دعوة مظلوم أعنتهُ وضعيف ظلمتُه

وقال بعض الصلحاء : إذا ظلمت من دونك ، عاتبك من فوقك
وقال آخر : من كثر ظلمه واعتداؤه ، قرب هلاكه وفناؤه ، ومن طال تعديه ، كثرت أعاديه — وقال غيره . لا ينبغى للإمام أن يكون جائراً ، ومن عنده يُلتمس العدل ، ولا للعالم أن يكون سفيها ، ومن عنده يُلتمس العلم والحلم

وقال بعض البلغاء : في معاقبة الظالم أعظم تعزية للمظلوم ، وأبلغ تحذير للظالم ، من إنزال العقوبة ، وإن تنفست مدته — وقال آخر : الظالم مهلك ثم هالك ، كالنار إذا وقعت فى يابس الشجر ، لا تُبقى معها مع تمكنها شيئاً ، حتى إذا أفنت ما وجدت ، اضمحلت وخمدت

وقال أحد العلماء : إياك والبغى فإنه يصرع الرجال ، ويقطع الآمال — وقال آخر : العدل يوجب اجتماع القلوب ، والجور يوجب الفرقة

وفى الأمثال : من سلّ سيف العدوان أغمد فى رأسه — وقيل الظلم مرتعه وخيم ، وأعجل الأشياء عقوبة البغى

وقال العتابى :

بغيتَ فلم تقع إلا صريعاً كذاك البغى يصرع كل باغ

وقال الشاعر

ما زال يظلمنى وأرحمه حتى رثيت له من الظلم

العدل يكفل للشعوب بقاءها ... والعلم ينمى وفرها وثراءها
وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

وقال غيره .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال غيره .

العدل روح به تحيا البلاد كما ... دَمارُها أبداً بالجور ينحتِمُ
الجور شين به التعمير ممتنعٌ ... والعدل زين به التمهيد ينتظم

وقال غيره .

ظهور العدل يمحو كل ظلم ... إذا جاء الصباح مضى الظلام

١٢٢ — ﴿ العفو من مكارم الأخلاق ﴾

العفو هو الصفح عند القدرة عمن هفا ، وعدم الأخذ بالثأر ممن ارتكب جُرماً وهو من شيم الكرام ، يحبب المرء لمعاصريه ويحفظ قدره بين معارفه ، ويزيل ما القلوب من عداوة وبغضاء ويدعو إلى الارتباط والائتلاف ، لا يعدم صاحبه ناصراً فى الدنيا ولا يضيع له أجر فى الآخرة

قال الله تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقال تعالى (فاعف عنهم واصفح) وقال جل شأنه (وليعفوا وليصفحوا ألا

تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقال عز وجل (عفا الله عما سَلَفَ) وقال تعالى (وأن تعفُوا أقرب للتقوى) وقال تعالى فاصْفَحْ الصفحَ الجميلَ)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ياأبا هريرة عليك بحسن الخلقِ . قال أبو هريرة وما حسنُ الخلق يارسول الله ؟ قال تَصلُ من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الله عفوٌ يحب العفو) وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (قال موسى بن عمران يارب من أعزُّ عبادك عندك ، قال من إذا قدر غفر) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (من عفا عند القدرة عفا الله عنه يوم العسرة) وعنه عليه السلام أنه قال (ينادى مناد يوم القيامة من كان له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس) وقال (الخير ثلاث خصال ، فمن كُنَّ فيه فقد استكمل الإيمان . من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، وإذا قدر عفا) وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات ، قالوا نعم يارسول الله ، قال تحلم على من جهل عليك ، وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك) وقال (من كظم غيظاً وهو

يقدر على إنقاذه ، ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً)

وقال على كرم الله وجهه : إذا قدرت على عـدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه

وقال الأحنف : إياكم ورأىَ الأوغاد . قالوا وما رأى الأوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عاراً

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العزيز كلاماً ، فقال عمر أردتَ أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان . فأنال منك اليوم ما تناله منى غداً انصرف رحمك اللهُ

وكتب إبرويز إلى ابنه شيرويه : إن كلمة منك تسفك دماً وأخرى منك تحقُنُ دماً ، وإن نفاذَ أمرك مع كلامك ، فاحترس فى غضبك من قولك أن تخطىء ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يجف ، فإن الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلما

وقال المأمون لا براهيم بن المهدى ، إنى شاورت فى أمرك فأشاروا علىَّ بقتلك ، إلا أنى وجدت قدرك فوق ذنبك ، فكرهت القتل للازم حرمتك ، فقال يا أمير المؤمنين ، إن المشير أشار بما جرت به العادة فى السياسة إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عُوِدْتَهُ من العفو ، فإن عاقبتَ فلك نظير ، وإن عفوت فلا نظير لك

وقال بعض الحكماء : أفضل الناس من تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة : وأنصف عن قوة ، وقال آخر . أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وقال غيره ، ليس الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا عن السطوة

وقال بعض البلغاء : أحسن المكارم عفو المقتدر ، وجود المفتقر ، وقال آخر : ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام

وقال أبو الطيب

وما قتل الأحرار كالعفو عنهمو ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا
فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا مُضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقال الشاعر :

إذا ما لذنب وافى باعتذار فقابله بعفو وابتسام
ولا تحقد وإن مُلِئت غيظاً فان العفو من شيم الكرام

وقال آخر

وصل الكرام وإن رموك بجفوة فالصفح عنهم والتجاوز اصوبه

قال غيره

وإن أولى الملا بالعفو أقدرهم على العفو إن يظفر بذى زَلَل

وقال غيره :

فإن كنت ترجو فى العقوبة راحة ... فلا تزهدن عند التجاوز فى الأجر

وقال غيره :

خذ العفو واصفح عن أمور كثيرة ... ودع كدَرَ الأخلاق واعمد لما صفا

وقال غيره :

إذا اعتذر المسيء إليك يوماً ... من التقصير عذر فتى مقرٍّ

فصنه عن عقابك واعف عنه ... فإن الصفح شيمةُ كل حرٍّ

١٢٣ — ﴿ المروءة رمز الإنسانية الكاملة ﴾

المروءة صفة للنفس تحملها على فعل كل خير ، ودفع كل ضرٍ ، كلما وجدت لذلك سبيلا ، فهى عنوان علو الهمة ، وشرف النفس ، ودليل الكرم ومن دواعى الألفة ودوام المحبة ، يرنو صاحبها دائماً إلى الكمال ، ويرغب فى التمسك بأجمل الخصال ، فمن تجرد من المروءة فقد سفلت نفسه ، وانحطت أخلاقه ، وقلت إخوانه ، فلا يجد من يعطف عليه إذا أصيب بمكروه ، أو يتودد إليه إذا نزلت به نازلة ، وما لذة العيش إلا بالتعارف والتعاون ، فيقضى أيامه مبغوضاً ويضيع حياته وهو بعين الاحتقار مرموق .

قال الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك همُ المفلحون) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَن عامل الناسَ فلم

يظلمهم ، وحدّثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يُخْلفهم فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوّته) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الله يحب إغاثة اللهفان) وقال عليه الصلاة والسلام (إن حقاً على المؤمنين أن يتوجع بعضهم لبعض كما يألم الجسد إذا تألم عضو منه) وقال (إن الله يحب معالى الأمور ويكره دنيّها وسفاسفَها) وقال (علو الهمة من الإيمان) .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه) لا تصغُرَنَّ هممكم فإنى لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم .

وقال ابن عائشة القرشى : لولا أن المروءة صعب محملها لما ترك أصحاب اللؤم منها شيئاً .

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال : صدق اللسان ومؤاساة الإخوان ، وذكر الله تعالى فى كل مكان .

وقال بعض الحكماء : من المروءة أن يبذل الإنسان لك ماله عند الحاجة ، ونفسه عند النكبة ، ويحفظك عند المغيب ، وقال آخر : من أجار جاره أعانه الله وأجاره ، وقال غيره : الهمة راية الجد .

وسئل بعضهم عن الفرق بين العقل والمروءة ، فقال العقل يأمرك بالأنفع ، والمروءة تأمرك بالأجمل .

وقال بعض الأدباء ، ليس من المروءة أن تكون أوانيك من

الفضة ، وجارك طاوٍ ، وغريمك عار .

وقال بعض البلغاء : من شرائط المروءة أن يتعفف المرء عن الحرام ، ويتصلف عن الآثام ، وينصف فى الحكم ، ويكف عن الظلم ، ولا يطمع فيما لا يستحق ، ولا يستطيل على مايسترق ، ولا يعين قويًا على ضعيف ، ولا يؤثر دنيا على شريف ، ولا يسر ما يعقبه الوزر والإثم ، ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم ، وقال آخر : علو الهمم بذر النعم

وقال بعض العلماء : إذا طلب رجلان أمراً ظفر به أعظمهما مروءة ، وقيل المروءة إنك لا تعمل عملا فى السر تستحي منه فى العلانية

وقال الشاعر .

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ونهته عن سُبل العلا فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خَلة يبنى الكريمُ بها المكارمَ باعها

مررت على المروءة وهى تبكى فقلت على مَ تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى جميعاً دون خلق الله ماتوا

١٢٤ - ﴿ القناعة كنز لا يفنى ﴾

القناعة هى الرضا بما قسم للمرء من متاع الحياة الدنيا ، وعدم النظر إلى ما للغير ، فليس للحياة بدون قناعة لذة ، ولا من غير رضا قيمة ، وما ضاقت الدنيا إلا فى وجه من اتخذ الجشع طبعاً ، والحرص ديدناً ، ولا عاش

سعيداً إلا من كان الرضا حليفه ، والزهد قرينه

قال الله تعالى (ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (القناعة مالٌ لا ينفد وكنز لا يفنى) وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (انتظار الفرج من الله عبادة . ومن رضى بالقليل من الرزق . رضى الله تعالى عنه بالقليل من العمل) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (أدِّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس ، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أورع الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس) وعنه أنه قال (طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع)

وقال على رضى الله عنه . من رضى بما قسم الله له استراح قلبه وبدنه

وقال أكثم بن صيفى : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة

وقال سعد بن أبي وقاص : يا بنى إذا طلبت الغنى فاطلبه فى القناعة فانها مال لا ينفد ، إياك والطمع فانه فقر حاضر

وقال بعض الحكماء . إن من قنع كان غنيا وإن كان مقتراً ومن لم يقنع كان فقيراً . وإن كان مكثراً . وقال آخر . القناعة عز

المعسر ، والصدقة حرز الموسر . وقال غيره : الغنى من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس . وقال غيره : من أيقن أن الرزق الذى قسم له لا يفوته تعجل الراحة . ومن علم ان الذى قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع . ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه وجمع شمله وقال غيره : اشتر ماء وجهك بالقناعة . وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام

وقال بعض الصلحاء . يابن آدم لا تخش من ضيق الرزق مادامت خزائن الله ملآنة . وخزائنه لا تنفد أبداً . ولا تأنس بغير الله فإن أنست بغيره تعالى فاتك الخير كله . وارض بما قسم الله لك فتريح قلبك وبدنك ، ولا تطالبه برزق غد . كما لا يطالبك بعمل غد . فانه لا ينسى من عصاه ، فكيف ينسى من أطاعه وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط . وقال آخر : سرور الدنيا أن تقنع بما رزقت وغمها أن تغتنم لما لم ترزق

وقال بعض العقلاء : قليل يكفى ، خير من كثير يطغي — وقال آخر : اجمل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل مالم يخطر ببالك فلم تقله

وقال غيره : من رضى بما قسم الله له بارك له فيه

وقيل : القناعة رأس الغني — وقال على كرم الله وجهه

أفادتنى القناعـة كل عز وأىُّ غِنًى أعز من القناعة

فصيرها لنفسك رأس مال   وصير بعدها التقوى بضاعة

وقال أبو العتاهية :

غنى النفس ما يكفيك من سد فاقة   فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً

وقال أبو فراس الحمدانى

إنَّ الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه   ولو أنه عارى المناكب حاف

ما كل مافوق البسيطة كافياً   وإذا قنعت فبعض شىء كاف

وقال الشاعر

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل   حزيناً على الدنيا رهين غيوبها

وإذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن   على حالة إلا رضيت بدونها

وقال آخر

اقنع بأيسر رزق أنت نائلهُ   واحذر ولا تتعرض للارادات

فما صفا البحرُ إلا وهو منتقصٌ   ولا تعكّر إلا فى الزيادات

وقال غيره

ورأيت أسباب القناعة أكدت   بعرى الغنى فجعلتها لى معقلا

فإذا نبا بى منزلى جاوزته   وجعلت منه غيره لى منزلاً

وإذا غلا شىء علىَّ تركته   فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال غيره

كفى من العيش ماقد سد من عوز   ففيه للحر قنيان وغنيان

وذو القناعة راض من معيشته وصاحب الحرص إن أثرى فغضبان

وقال غيره .

فاقنع ففى بعض القناعة راحةٌ ولقد كسى ثوب المذلة أشعب

وقال غيره .

العيش لا عيش إلا ما قنعت به قد يكثر المال والإنسان مفتقر

وقال غيره .

واقنع فما كنز القناعة نافداً وكفى بها عزاً لغير مماري

١٢٥ — ﴿ العفاف حلية الأشراف ﴾

العفة هى اجتناب ما لا يحل ولا يجمل ، وصدُّ النفس عن تتبع شهواتها الدنيئة ، أو السير وراء أطماعها الرديئة ، فما أسعد من ملك عنان نفسه ، وقبض على زمامها ، فإنه يأمن من الوقوع فى مهاوى الردى ، ومواطن الهلاك ، وما أشقى من ترك لنفسه الحبل على غاربها ، فغرقت فى لذّاتها وشهواتها ، فبشره بسوء وسيعلم بعد الصدمة الأخرى عاقبةَ غيّهِ ، ويندم ولات حين مندم .

قال الله تعالى (وَمَنْ كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأ كل بالمعروف) وقال جل شأنه (يحسبهمُ الجاهلُ أغنياءَ من التعففِ) وقال عز وجل (وليستعففِ الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهمُ اللهُ من فضله) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (أربعٌ من كُنَّ فيه حرّمه الله تعالى على النار وعصمه من الشيطان، من ملك نفسه حين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهى وحين يغضب) وقال عليه الصلاة السلام (عِفّوا عن النساء تعف نساؤكم) وقال (ما زاد الله عبداً بعفة إلا عزاً). وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (ما زان الله العبد بزينة أفضل من زهادةٍ في الدنيا وعفاف في بطنه وفرجه) وعنه أنه قال (إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه) وقال (جلساء الله غداً أهلُ الورع والزهد في الدنيا) وقال (اجعلوا بينكم وبين الحرام ستراً من الحلال، ومن لم يفعل ذلك كان كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه).

وقال على كرم الله وجهه : الزهد ثروة، والورع جنة نعم القرين الرضا.

وقال أنو شروان لابنه هرمز. الكامل المروءة من حسن دينه، ووصل رحمه، وأكرم إخوانه.

وقال ابن المقفع : الهوى آفة العفاف

وسئل عمرو بن العاص عن المروءة. فقال هى العفة عما حرم

الله تعالى ، والمحبة فيما أحل الله تعالى .

وقال بعض الحكماء : من أحب المكارم اجتنب المحارم وقال آخر : عار الفضيحة يكدر لذتها ، وقال غيره : الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف .

وقيل لسفيان : ما الزهد في الدنيا ، قال الزهد في الناس .

وقال بشار بن برد

ولقد أصرف الفؤاد عن الشي ء حياء وحبه في السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسي ذاكراً في غد حديث الأعادى

وقال الشاعر

إن القناعة والعفاف ليغنيان عن الغنى
فإذا صبرت على المنى فاشكر فقد نلت المنى

وقال آخر

عفوا تعف نساؤكم في المحرم وتجنبوا مالا يليق بمسلم

وقال غيره

ما الْحَظ إلا امتلاكُ الْمَرْءِ عفّتَهُ وَماَ السعادةُ إِلّاحُسْنُ أَخْلاَقِ

١٢٦ — ﴿ المشورة سبيل النجاح ﴾

المشورة استطلاع المرء آراء من عركوا الدهر ، وعركهم من ذوى الأفكار الصائبة ، والعقول الراجحة ، في مسائل الحياة ـ قبل الشروع

فيها ، حتى لا يصيبه منها ضرر ، ولا يمسه فيها زلل ، فما ضل من استشار
ولقد كان الألى مع ما كانوا عليه من العقول الراجحة والأفكار السامية لا يشرعون فى عمل إلا إذا عقدوا الجماعات ، وطرحوا الأمر بينهم شورى ، يتباحثون فيه حتى يتبينوا الطريق الأوضح فيسلكوه ويعرفوا السبيل الوعر فيجتنبوه ، وبهذا قضوا حياتهم سعداء آمنين مطمئنين ، وقد أمر الله تعالى به نبيه فقال جل شأنه (وشاورهم فى الأمر) وقال تعالى (وأمرهم شورى بينهم)

وقال رسول صلى الله عليه وسلم (لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشاورة) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (الحزم أن تشاور ذا رأى ثم تطيعه) وعنه أنه قال (ماخاب من استخار ولا ندم من استشار) وقال عليه الصلاة والسلام (استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا) وقال (من أراد أمراً فشاور فيه أمرأً مسلماً وفقه الله لأرشد أموره) وقال (رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس ، وما استغنى مستبد برأيه ، وما هلك أحد عن مشورة ، فإذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الرجال ثلاثة ، رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه ، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأى ، ورجل حائر بأمره لا يأتمر رشداً ولا يطيع مرشداً

وقال عليٌّ كرم الله وجهه : نعم المؤازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد . وقال أيضاً : الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغني برأيه

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه : إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ، ومفتاحا بركة ، لا يضل معهما رأى ، ولا يفقد حزم

وقال لقمان الحكيم لابنه : شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء ، وأنت تأخذه مجاناً

وقال عبد الله بن مروان : لأن أخطىء ، وقد استشرتُ أحبَّ إليَّ من أن أصيب وقد استبددت برأيى من غير مشورة

وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ، كما تحذر مشورة العاقل إن كان عدواً ، فإنه يوشكُ أن يورطك بمشورته ، فيسبق إليك مكر العاقل ، وتوريط الجاهل

وقال الجاحظ : المشورة لقاح العقول ، ورائد الصواب ، والمستشير على طرف النجاح ، واستنارة المرء برأى أخيه ، من عزم الأمور وحزم التدبير

وقال سيف بن ذى يزن : من أعجب برأيه لم يشاور ، ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيداً

وقال عبد الحميد الكاتب : المشار فى رأيه ناظر من ورائه

وقال بعض الحكماء : من طلب الرخص من الإخوان عند المشاورة ، ومن الأطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبه ، فقد قتل نفسه ، وقال آخر : من استعان بذوى العقول ، فاز بدرك المأمول وقال غيره : إذا شاورت العاقل كان عقله لك ، وقال غيره : من شاور أهل النصيحة ، سلم من الفضيحة وقال غيره : لا يهلك امرؤ عن مشورة ، وسئل بعضهم : أى الأمور أشد تأييداً للعقل وأيها أشد إضراراً به ، فقال أشدها تأييداً له ثلاثة — مشاورة العلماء وتجربة الأمور ، وحسن التثبُّت

وأشدها إضراراً به ثلاثة ، الإستبداد ، والتهاون ، والعجلة

وقال بعض الأدباء : من استغنى برأيه ضل ، ومن اكتفى بعقله زل

وقال بعض البلغاء . الخطأ مع الإسترشاد أحمدُ من الصواب مع الاستبداد ، وقال آخر : من الحزم لكل ذي لب ألا يبرم أمراً ولا يمضي عزماً إلا بمشورة ذي الرأي الناصح ، ومطالعة ذي العقل الراجح . وقال غيره : من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه رأى العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكماء ، فالرأى الفذّ ربما زل ، والعقل الفرد ربما ضل . وقال غيره : إذا أشكلت عليك الأمور ، وتغير لك الجمهور فارجع إلى رأى العقلاء ، وافزع إلى استشارة العلماء ، ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد ، فلأَن تسأل وتسلم

خير لك من أن تستبدّ وتندم . وقيل فى منثور الحكم : من أكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً ، وعند الخطإ عاذراً . وقيل أيضاً : من أعجبته آراؤه ، غلبته أعـــداؤه . وقيل : من كمال عقلك استظهارك على عقلك برأى غيرك

وقال بشّار بن بُرد

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم

وقال صفى الدين الحلى

من دبر العيش بالآراء دام له ... صفواً وجاء إليه الخطب معتذراً

يهون بالرأي ما يجرى القضاء به ... من أخطأ الرأى لا يستذنب القدرا

وقال الشاعر

إن اللبيب إذا تفرق أمره ... فتق الأمور مناظراً ومشاوراً

وأخو الجهالة يستبدّ برأيه ... فتراه يعتسف الأمـور مخاطراً

وقال آخر

الرأى كالليل مسودّ جوانبه ... والليل لا ينجلى إلا بإصباح

فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال غيره

تأن وشاور فان الأمور ... منها جـلِىٌّ ومُستغمضُ

فرأيان أفضل من واحدٍ ورأى الثلاثة لا ينقضُ

وقال غيره

عقل الفتى ليس يغنى عن مشاورة كَحدَّة السيف لا تغني عن البطل
إن المشاوِرَ إمَّا صائبٌ غرضاً أو مخطئٌ غير منسوب إلى الخطل

وقال غيره

شاور سواك إذا نابتك نائبةٌ يوماً وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآة

وقال غيره

خليليّ ليس الرأى فى صدر واحدٍ أشيروا علىّ اليوم ما تَرَيانِ

١٢٧ — ﴿ من جعل مطيته الروية والتؤدة كان خليقاً بالنجاح ولو أحاطت به الأخطار ﴾

الرويّة والتُّؤدة هما الشروع فى الأعمال بعد التفكير فيها والوقوف على عواقبها ثم السَير فيها مع التأني ليكون الإنسان بعيداً عن الخطل مصوناً من الزلل ، فان الطيش والخفة كثيراً ما كانا سبباً فى الأضرار وفساد الأعمال ، وعدم الوصول إلى الغرض منها — وإن نجاح الأمل لمعقود دائماً لمن سلك سبيل التأمل ، وعبر طريق التأنى

والسلامة حليفة من ضرب في الأمور بفكر حاضر وجنان ثابت قال الله تعالى تحذيراً من العجلة (خُلِقَ الإِنسانَ من عَجَلٍ

سأريكم فلاَ تستعجلون)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا أردتَ أن تفعل أمراً فتدبَّر عاقبته ، فإن كان خيراً فامْضِ ، وإن كان شرّاً فانته وروى عنه عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدد حتى يريك الله منه المخرج (وقال عليه الصلاة والسلام (التؤدة فى كل خيرٌ إلا فى عمل الآخرة) وعنه أنه قال (التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان)

وقال على كرم الله وجهه : من استطاع أن يمنع نفسه من أربع خصال فهو خليق ألا ينزل به مكروه . اللّجاج والعجلة والتوانى والعجب . فثمر اللجاج الحيرة ، وثمرة العجلة الندامة ، وثمرة التوانى الذّلة ، وثمرة العجب البغضة ، وقال أيضاً لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون فى كم يوم فرغ ، وإنما ينظرون إلى اتقانه وجودته

وقال المهلب : أناة فى عواقبها دَرك ، خير من عجلة فى عواقبها فوت

وقال بعض الحكماء : مع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة

وقال آخر : من تأنى نال ما تمنى ، وقال غيره : العجز مع الوانى والفوت مع التوانى . وقال غيره : طلب ما لا يُدْرك عجز ، ورُبَّ عجلة تعقب ريثاً

وقال بعض الأدباء : لا يجد العجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملول صديقاً ، وقال آخر : يد العجلة تغرس شجرة الندامة

وقال غيره : من أسرع فى الجواب حاد عن الصواب

وقال أحد العلماء : من ركب العجل أدركه الزلل . وقال آخر التأنى حصن السلامة والعجله مفتاح الندامة

وقال بعض العقلاء : العجول مخطىء وإن ملك ، والمتأني مصيب وإن هلك : وقال آخر : إياك والعجلة فانها تُكنى أمّ الندامة ، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويحمد قبل أن يجرب ، وقيل : لا تقل بغير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير . وقيل أيضاً : من فكر أبصر

وقال الثعلبي

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ويد يكون مع المستعجل الزلل
وقد تفوت على قوم حوائجهم هو التراخي وكان الرأى لو عجلوا

وقال المتنبى

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس حرةٍ بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

وقال أبو الفتح البستى

فللتدابير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
وللأمور مواقيتٌ مقدرة وكل أمر له حد وميزان
فلا تكن عجلا فى الأمر تطلبه فليس يحمد من ذى الضجر بحران

وقال الشاعر

ذو الحزم لا يبتدى أمراً يهم به حتى يطالع ما تبدو عواقبه

وقال آخر

واستأن تظفر فى أمورك كلها وإذا عزمت على الهدى فتوكل

وقال غيره

ومن لم يتئد فى كل أمر تخطاه التدارك والمنال

وقال غيره

تأن متئداً فيما تروم ولا تعجل وإن خلق الإنسان من عجل

وقال غيره

تأن ولا تضق للأمر ذرعاً فكم بالنصح يظفر من تأنى

وقال غيره

خليلى لا تستعجلا وانظرا غداً عسا أن يكون الرفق فى الأمر أرشد

١٢٨ — « الأمانة سر النجاح ودواعى التقدم »

الأمانة هى رعاية حقوق الله تعالى بتأدية ما على المرء من الفرائض والواجبات ، فلا يخون له عهداً ، ولا يجحد له فضلا ، وكذلك

حفظ حقوق عباده، فلا يطمع فى وديعة أؤتمن عليها، أو ينكر مالاً وكل إليه أمر حراسته، فليس من الدين ولا من العقل والكرامة أن يستحل الانسان لنفسه مالا ليس له فيه حق بعد أن اعتقد به ذووه خيراً وظنوا فيه حسناً، وكيف يرضى أن يبوء بغضب الله تعالى عليه وبغض الناس له، لا أظن أن صاحب الشيم الكريمة والأصول العريقة يرضى لنفسه أن يوصم بمثل ذلك، وإخاله يترفع عن أن ينسب إليه غدر أو خيانة

قال الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقال (والذينَ هم لأمَانَاتِهِمْ وَعهدِهِمْ رَاعونَ) وقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) وقال عز وجل (إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (تقبلوا لى ستا أتقبل لكم بالجنة، إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا أؤتمن فلا يخن) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (إذا

ضُيّعت الأمانةُ فانتظر الساعة ، قال وكيف إضاعتها يا رسول الله قال إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) وقال عليه الصلاة والسلام (لا تزال امتى بخير مالم ترَ الأمانةَ مغنماً والصدقةَ مغرماً وقال : (الأمانة تجلب الرزق ، والخيانة تجلب الفقر) وعن عمرو بن الحمق رضى الله عنه قال سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول (أيّما رجلٍ أمّن رجلاً على دمه ثم قتله فأنا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافراً) وقال صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه (عليك بصدق الحديث ، ووفاء العهد ، وحفظ الأمانة فإنها وصية الأنبياء)

وقال خالد الربعى : قرأت فى بعض الكتب السالفة إن مما تعجل عقوبته ولا تؤخر ، الأمانة تخان والاحسان يُكفر ، والرحم تقطع ، والبغى على الناس

وقال بعض الحكماء . لو علم مضيع الأمانة ما فى النكث والخيانة لقصّرَ عنهما عنانه . وقال آخر . من خان مان ، ومن مان هان وتبرأ من الإحسان . وقيل فى منثور الحكم من يخن يُهَنْ ، ومن الكرم الوفاء بالذمم . وقيل أيضاً : من ضيّعَ الأمانة ورضى الخيانة فقد برىء من الديانة

وقال الشاعر

وأعمل بمفروض الأمانة والتقى وانه عن النكر القطيع وفعله

وقال آخر

وإذ اؤتمنت على الأمانة فارعها إن الكريم على الأمانة راعى

١٢٩ — ﴿ العدل أساس الملك ﴾

لله هذه الكلمة ، ما أكبر أمرها ، وأعظم سرها ، فلقد وضحت بها السبل ، وأشرقت الأرجاء ، وبسطت الأرض ، ورفعت السماء ووضع الميزان ، وبثت روح الراحة فى العمران ، كلة هى عنوان صالح الأعمال فى الحال والمآل . وهى الأصل الأصيل ، والظل الظليل والشسرة التى تجنى منها ثمار العوارف ، ويتفيأ على جميع الكائنات ظلها الوارف ، كلة كلما ذكرت محت الكروب ، وأخذت بمجامع القلوب ، وملأتها سروراً وأفاضت عليها نوراً ، تتعطر الأكوان بأنفاسها الزكية ، وتنتعش الأرواح برياضها البهية ، تلك كلمة العدل الذى هو روح الوجود ، وقوام كل موجود ، له أذعنت الأبطال وانقادت شُمّ الجبال ، وبه صار الموات خصباً ، واليابس رطباً ، والضيق فسيحا ، والعليل صحيحا ، فهو شفاء الأبدان ، وأصل كل إحسان أمر به رب العالمين ، وأقامه سيد المرسلين ، ذلك هو نبراس الهدى به تنجلى ظلمات الغى والردى ، والقطب الذى دارت عليه أرجاء الشرائع ، والأس الذى شيدت عليه شريعتنا الغراء ، وملتنا السمحاء

فالمستمسك به مستمسك بالشرع القويم ، ومهتد إلى الصراط المستقيم ، والحائد عن طريقه واقع فى شرك الضلال ، ورام بنفسه فى مهاوى الوبال .

فالعز فى اقتفاء آثاره ، والإهتداء بأنواره ، والذل فى عـدم الوقوف عند حده ، حتى فى نفس ضده

فالعدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ، ونصبه للحق ، به تلتئم الشعوب ، وتأتلف القلوب ، وتتصل أسباب النجاح ، وتنشر أعلام الفلاح ، وتخصب البلاد ، وتستعد العباد ، قال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وفى الحديث (بالعدل قامت السماء والأرض)

وقال الشاعر

عن العدل لا تعدل وكن متيقظاً　　وحكمك بين الناس فليكُ بالقسط
وبالرفق عاملهم وأحسن إليهم　　ولا تبْدلن وجه الرضا منك بالسخط
وحَل بدُرٍّ الحق جيد نظامهم　　وراقب إله الخلق فى الحل والربط

فالعدل هو التوازن بين الأشياء ووضعها فى مواضعها والإنصاف إستيفاء الحقوق ماديا وأدبيا — والرحمة فوق العدل

١٣٠ — ﴿ العدل بين الأجرام وسائر الأجسام ﴾

اقتضت حكمة الحكيم العليم فى خلقه ، أن جعل بين جميع أجزائه من الأكبر إلى الأصغر ميلا طبيعيا وجذبا عاما يكاد يقضى

عليها بالاتحاد ، لولا ما ألقي فيها من قوة الثقل التي بها قاومت تلك القوة فحفظت أحيازها وتوازنت — وهذا التوازن هو الذى نسميه بالعدل فيما بين الأجرام وسائر الأجسام — وإليه الإشارة بقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) فعلى دعائم العدل قامت الأرض والسموات ،وتزينتا بأنواع المبرات فالشمس والقمر وسائر الكواكب والأفلاك والأرض من ظاهر وباطن جميعها لا قوام له إلا على تلك الدعامة — فلو فارق شيء منها خطة العدل فنى لا محالة

فالعدل هو الذى يحفظ لها قانون التساوى والبقاء على هذا النظام البديع الإحكام — ولولاه لبغى بعضها على بعض وتصادمت وتلاطمت واختل نظامها ومحى رسمها وذهبت أدراج الرياح هباء منثوراً

١٣١ — ﴿ عدل الانسان مع نفسه ﴾

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانًا بها كانت على الناس أهونا

فكيف تظلمها حقها ومن لم يعدل بنفسه ، فأولى أن يحل فى رمسه ، وكيف لا وقد جافى جنبه بذلك عن مضاجع الخير والاحسان وألقى بنفسه فى مهاوى الذل والخسران ، وأهمل في جانبها العدل والوفاء ، فحياته والممات سواء

حياتنا كالموت إن لم تكن نهجًا إلى تخليد ذكر يدوم

وهل يرجى ممن أساء إلى نفسه أن يحسن إلى من عداه ، فعدل

الانسان مع نفسه حملها على المصالح، وصدها عن القبائح وبختيار لها ما هو الأنفع والأصلح دنيا وأخرى، ويهذبها ويعودها التطبع بمكارم الأخلاق

والنفس كالطفل ان تهمله شب على   حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

ومن ذا الذى يحب لنفسه العطب، وسوء المنقلب، ويرضى بالقعود، عن طلاب السعود، ويرمى بها فى بحبوحة الهوان ولا يرعى لها من شئون، أليس ذلك بحيوان أعجم أو حجر أصم — لا بل هو أسوأ حالا وأكسف بالا. وماذا يصنع (إذا اقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا: يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار)

١٣٢ — ﴿عدل الراعى مع رعيته﴾

مما لا يحتاج إلى برهان ولا يختلف فيه إثنان أن الراعى العادل خير من المطر الوابل — باسمه تساجلت الأطيار فى رياض السعود ومن أفقه أشرقت الأقمار على كل الوجود

ذلك هو الأمر الذى سارت بحديثه الركبان، فى كل مكان ونادى به المنادى فى كل ناد فى حتى أصبح أفواه الرجال، مثلا من الأمثال، ولا أعنى بالراعى خصوص الأمير بل مايعم الكبير والصغير، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم

مسئول عن رعيته) فالسلطان في ملكه راع ومسئول عن رعيته والرجل في أهل بيته ، والمرأة في بيت زوجها ، والناظر في مدرسته وهلم جرآ

فبالعدل تخصب الأرض ، وتثمر الأموال ، وتنتظم الأحوال وتدر الأرزاق ، ويزول الشقاق ، وبه يستقيم الدين ، ويقوى حبله المتين

فالدين بالملك يقوى والملك بالدين يبقى

فاذا قاد الأمة راعيها بأزمته ، ونهج على شرعته ، اتصلت الأسباب وتفتحت الأبواب ، وسهل كل عسير ، في الزمن اليسير ، وراجت الأمور ، وذهبت الشرور ، ووافى السرور ، والتأمت القلوب ، وانجلت الخطوب ، وغرست في الأفئدة محبته ، وحمدت على مر الأيام سيرته وبقي ولو بعد عزله أميراً ، وإماماً كبيراً ، وهكذا بعد الممات ، تخلد ذكره الحسنات

فيُرى على مر الدهور لدى الورى حياً بما أولاه من إحسان

فمدار العمار على العدل والإنصاف بين جميع الرعية

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

١٣٣ — ﴿ عدل الرعية مع راعيها ﴾

يكون بإطاعته في صالح الأمور ، في الغيبة والحضور ، والتودد

اليه ، والمحافظة عليه ، وشد أزره ، وتقوية أمره ، وشكره على جميل مسعاه ، وحمده على ما أولاه ، قالت الحكماء : (السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد ، لأقوام لاحدهما إلا بصاحبه) قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)

١٣٤ ـــ ﴿ العدل مع الأكفاء ﴾

هو عبارة عن كون التعامل فيما بينهم جارياً على سنن الحق ومناهج الصدق ، فى جميع الافعال ، وسائر الاقوال ، كما قال تعالى (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا) وأن يتعاونوا على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان ، ويؤدوا الواجب ، ويلينوا الجانب وأن يتخلقوا بمكارم الأخلاق ، وحميد الخصال ، فيرتقون ذروة الكمال

وقد كانت الامم السالفة ، والقرون الماضية ، من أجناس المتمذهبين ، وأصناف المتفلسفين ، مع افتراق مذاهبهم ، واختلاف عقائدهم ، مجتمعين على إنكار الظلم ، مجمعين على أضراره ، إذ هو أصل النقم ، ومسلبة النعم ، وهو يبدل العمارة بالبوار ، والإحسان بالأحزان أسرع من الطير إلى الاوكار ، ومن الماء إلى الانحدار ، وبه تكثر الشكوى ، وتعم البلوى ، وتفتر الهمم ، وتزل القدم ، ويكثر الضرب والسلب ، والقتل والنهب ، والهرج والمرج ، ولا دخل ولا خرج بجف البحار ، وتذبل الاشجار ، وتنقطع الاسباب ، ويتصل الخراب

قال تعالى (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها — والظالمين أعدَّ لهم عذاباً أليماً) وقال عليه الصلاة والسلام (الظلم ظلمات يوم القيامة)

وحقِّ الله إن الظلم شؤْم　　وإن الظلم مرتعه وخيم

وقال آخر

ألم تعلم بأن الظلم عار　　جزاء الظلم عند الله نار

١٣٥ — ﴿ من ضيَّعَ الأمانة ورضى الخيانة فقد برىء من الديانة ﴾

الأمانة واسطة لبلوغ الإنسان مراتب السعد ، وسفينة تنتشل الوضيع من لجج الضعة وتقذفه على سواحل السؤدد والمجـــد ، وهى الأساس الذى لا بد منه فى إقامة الحضارة وتشييد المدنية فكما لا يقوم البناء على غير أساس كذلك لا يتأتى إيجاد العمران بغير هدوء واطمئنان فإن الإنسان إن لم يأمن على نفسه وأولاده وماله فلا يمكنه أن يقوم بأى عمل — فيقف لذلك دولابُ التجارة ، فتبور الصنائع ، وتقل المكاسب ، فيحتال الناس على أسباب المعيشة ، ويتهالكون على تحصيل القوت من غير طرقه المشروعة ، فتفسد أخلاق الأمة ، وتنحط لقلة العمل مداركها ، وينتهى ذلك بضعف قوتها وتفريق مجتمعها

فالأمانة أول صفة تحمد فى المرء — ولذلك نرى الناس يفرون من الخائن ، بينما هم يفدون إلى الأمين ، ويزفون اليه جميل الثناء ، ويعينونه

على الدهر، ويعدونه بالأموال . قال الله تعالى (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا مادمت عليه قائماً) وقال تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقال تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وقال تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن عنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) وقال عليه الصلاة والسلام (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)

والخيانة صفة ذميمة ، وخلق سيء ، ونقض للذمة ، وكفر بالنعمة ، وخبث فى الطوية ، وسوء فى النية ، قال الله تعالى (إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيما) . وقال الشاعر

إن الأمانة ـ لوعلمت ـ كرامة تولى ذويها رتبة الإسعاد
فابعد ـ هديت ـ عن الخيانة كم لها فى أهلها من ذلة وكساد

وقال آخر

أدِّ الأمانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطب لك مكسب

وبالجملة — فالأمانة سيف الدين وعماد الدنيا ، وهى أن تؤدى حقوق الخالق سبحانه وتعالى ، وأن لا تفشى سر من أودع اليك سره وألا تغش أحداً فى معاملاتك ، وأن تحافظ على من جعل تحت رعايتك

وألا تنقض عهد من عاهدته ، وألا تختلس ما ليس لك فيه حق

١٣٦ — ﴿ الاخلاق الفاضلة وآثارها فى رُقىّ الامم الحية ﴾

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الخلق عبارة عن حالة للنفس راسخة بها ، تصدر عنها الأفعال مع السهولة بدون حاجة إلى التفكير والروية ، فإن صدرت عنها الأفعال المحمودة ، سميت خلقاً حسناً ، وإن انبعثت عنها الأعمال السيئة القبيحة سميت خلقاً سيئاً قبيحاً ، والخلق فى النفس كالخلق فى الجسم ، ويستعملان معاً ، أى إن حسن الصورة الظاهرية مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الانف والفم والخد ، بل بالجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك لا يتم حسن الصورة الباطنية إلا إذا استكملت وحسنت بها الأخلاق جميعها

وأمهات محاسن الأخلاق ، أربع فضائل : الامانة — والعدل والاعتدال — والشجاعة

ويدخل تحت ضد الامانة الذي هو الخيانة ، المكر والخداع والتبله والدهاء والعناد والكفر والشك والإشراك والتطير والغيرة

ويدخل تحت الظلم الذي هو ضد العدل ، حب النفس والاستئثار والطمع والبخل وحب الرياسة والتسلط والافتخار وكفران النعم والغضب وحب الانتقام والحسد — وما أشبه ذلك

ويندرج تحت ضد الاعتدال ، حب التمتع والامتلاء بالأكل والشرب والشره والحرص والتبذير والتقتير وخلافها

ويندرج تحت ضد الشجاعة ، الجبن والتكبر والتهور والعجب والذل والجزع والخساسة والوقاحة والرياء والملق وغير ذلك : وإن الفضائل أواسط بين طرفى الإفراط والتفريط ، كالسخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير قال الله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتُرُوا وكان بين ذلك قواماً)

وأما العفة فهى وسط بين الشره والجمود . قال الله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا)

والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وكذلك سائر الأَخلاق فكلاَ طرفيها ذميم وما توسطهما فضيلة

عليك بأوساط الأُمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وقال آخر

ولا تغل فى شىء من الامر واقتصد كلا طرفى قصـــد الامور ذميم

فهذه الاخلاق الفاضلة إذا تمكنت من أمة وتمسكت بها فى غدوها ورواحها ، وفى سرها وجهرها ، فلابد وأن تكون أمة حية راقية ، أمة مستقلة قوية تهابها الأمم . قال الشاعر

ليس دنيا إلا بدين وليس الد دين إلا مكارم الاخلاق

انظر إلى الامم المتمدينة، تر حسن عادتها، ومكارم أخلاقها وائتلاف أفرادها، سبب ارتقائها وتقدمها، وواسطة حياتها وشوكتها ونصير قوتها وصولتها

وانظر إلى الامم التي انحطت أو تلاشت تجد أسباب ذلك طرحهم للاخلاق الفاضلة والصفات الكاملة

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وبالجملة: إن الإنسان يستمد القوة فى حياته من ثلاثة أشياء (الشعور والعلم والاخلاق) فيجب أن يأخذ من كل منها نصيبه حتى يقدر على أداء الواجب عليه نحو نفسه وأمته، وهذه الأشياء الثلاثة هى العوامل التى يسعى أبناء الامم الحية فى استكمال نصيبهم منها، فتجعل منهم رجالا يتفاوتون فى الرقى تبعاً لدرجة ما حصلوه من كل منها

١٣٧ — ﴿أساس نجاح الأمم الراقية تربية أبنائهم تربية روحية﴾

قوام كل أمة برجالها، ولا رجال إلا بالتربية، لانها هى التى تعين الطبيعة على إنماء بدن الناشىء فى صحة، وارهاف ذهنه فى سداد وتقويم سيرته فى رشاد، وتكسبه من صفات الرجولية ما يؤهله لان يكون رجلا حقاً فى الغد — والمراد بالرجل هنا ذاك الذى عناه أحد الفلاسفة حينما رؤى فى رائعة النهار وبيده مصباح وهو يتطوف

فى شوارع مدينة غاصة بالناس تطوف من يطلب شيئاً لا يكاد يرى فسئل عما يطلب فقال: أطلب « رجلا » هذا هو المعنى المراد بالرجال هنا – وقليل ما هم

وكل من تصفح كتب التاريخ القديم والحديث يجد أنه ما انحطت أمة عن منزلتها إلا لأنها عدمت رجالها وأنها ما عدمت رجالها إلا لأنها لم تعن حق العناية بتربيتهم صغاراً فلم يكن لها منهم كباراً سوى أشخاص لا شيء لهم من الرجولية سوى الاسم

وإنما تتم التربية بثلاث طرق متوازية تفضى كلها إلى تلك الغاية أولاها تربية البدن بحسب قوانين الصحة — والثانية ارهاف ذهنه حتى ينفذه نور المعرفة، وتنزاح عنه ظلمة الغباوة — والثانية تقويم سيرته وهداية خطواته إلى السبل المستقيمة، والتنكيب بها عن سبل الغى

فكل أمة حية لها فى شأن حياتها أدوار عمرانية تصعد بها فى سلم الترقي والحضارة إلى أن تصل إلى غايتها المتمناة — وأول خطوة من خطا التقدم التربية على الوجه المطلوب الملائم لأحوال الأمة والشامل لما به سعادتها — ولا ينال الإنسان هذه السعادة والحياة الطيبة إلا إذا توفر حظه من الصفات الفاضلة والاخلاق الكاملة لا يحصل له شيء من هذه الصفات إلا بالتربية كما يشهد به العيان وكفى به من برهان — فكما أن الأرض لا تجود تربتها ولا تصلح

للاستنبات ولا تؤدى خيرها وبركتها إلا إذا تعهدت بالحراثة والسماد الجيد والبذر والسقى — وكذلك الإنسان لايتوقع منه خير ولا نفع ولا انتفاع إلا إذا تعهد بالتربية والتعليم — وقد قامت الدلائل على أن الإنسان ولو بلغ النهاية فى كرم النجار وطهارة العنصر وكمال السجايا مفتقر إلى التأديب والتربية الروحانية كما أنه مفتقر إلى التربية الجسمية حتى يصلح للنهوض بأعباء مصالحه الدينية والدنيوية قال عليه الصلاة والسلام (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

ولما كانت التربية الجسمية ليست خاصة بالانسان بل يشاركه فيها الحيوان لم يبق له ما يميزه إلا التربية (الروحانية) وهي الخاصة التى بها يسمى إنسانا

أقبل على الروح فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

ومعلوم أن الارادة النفسية هى كغيرها من اللطائف المودعة فى الانسان ساذجة فى مبدإ نشأتها قاصرة عن الجولان فى الأشياء قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)

فيجب تربية الانسان من صغره وتعليمه ما ينفعه فى دينه ودنياه ثم الزامه صنعة يشترك بها مع غيره فى تبادل المنافع حتى يتسنى له أن يقوم بخدمة متى بلغ رشده وقوى عليها ، ويكونه

بذلك قد عمل لغيره كما عمل الغير له — ولا يترك اختياره لنفسه أو يتكل على ثروة أهله وشرف بيته فيخلد إلى الدعة والبطالة حتى إذا شب لم يجد بيده صناعة ولا وسيلة يستعين بها على الكسب لو أحوجته الضرورة اليه — فإن كرم الآباء وثروتهم لا يعتمد عليهما إلا ساقط الهمة . قال الشاعر :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

على أن المدار فى كمال الإنسان على مايدركه بأدبه لا بحسبه ونسبه — فالفخر بالهمم العالية لا بالرمم البالية — ومكارم الأخلاق أصدق نبأ من الاعراق — والعنوان على شرف الانسان وكرم أصله هو ما يفعله لا ما يدعيه

من لم يكن عنصره طيباً لم يخرج الطيب من فيه
أصل الفتى خاف ولكنه من فعله يظهر خافيه

فاذا أهمل الناشىء مع ما علم من سذاجته وركود ريح إنسانيته حتى شب : فكيف يكون — ليت شعرى — لا بد والله أن يرعى مع الهمل ، أو يفترس مع السباع الضارية ، فان النفوس من ميلها وشوقها أسرع إجابة لداعى الشر منها لداعى الخير — فالنفس لولا التربية مجبولة على ذميم الاخلاق ، ميالة إلى ما لا تحمد مغبته ، كالهلع والجزع

والطمع والشح والطغيان والظلم وحب العلو والافتيات وغير ذلك

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـة فلعلة لا يظلم

وقال تعالى (إن الانسان لربه لكنود) وقال تعالى (إنه كان ظلوماً جهولاً) وقال تعالى (ان الانسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين) — الآية

وقال تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر)

وبالجملة فالتربية سر النجاح، ومعراج الارتقاء، وعليها نتائج السعادة الدنيوية والأخروية، فهى بصفتها الكمالية أساس الابتداع وغراس الاختراع، وسر فضيلة الانسان على بقية الحيوان، ولولاها لما نشأت روح فاضلة فى أفراد الأمة والهيئة الاجتماعية

١٣٨ — ﴿الأعمال قيم الرجال﴾

ليس الحياة بأنفاس نرددها إن الحياة حياة العلم والعمل

خلق الله سبحانه وتعالى الانسان ومزاياه، وما أودعه فيه من الحواس المرشدة، والنفس المفكرة، والعقل المدبر، والبيان المصور واللسان المعبر، والقوى المنفذة، والأعضاء العاملة، التى بجميعها تصرف فى أنواع العالم، وبسط يده على كل الكائنات وكان له السلطان الأعظم على ما فى الأرض — ولم تركب فيه تلك القوى إلا ليجعلها عوامل تحت سلطة التميز والتدبير يصرفانها بمعيار الحكمة

فى مجارى ثمرات ما أحاطه به من الكائنات ، وجعله حوله من كنوز الخيرات ، التى نوعها القادر وفق تنوع حوائج الإنسان ، وجعلها صنوفاً متفاوتة النفع مختلفة الفائدة ، وأودعها خيرات كثيرة ، وبركات غزيرة ولم يجعله على ما هو عليه من هذا الشكل وتلك الصورة إلا ليعمل عمله الخاص به حسب رزقه المقسوم له ، وقد أمره بالسعى لنواله حيث قال تعالى (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه)

فالسعى مقرون بالعمل ، والعمل يطلب الحركة ، والحركة تستدعى صرف القوة ، فمن يريد تحصيل الرزق وكسب العيش ، يلزمه أن يجد ويتعب ويصرف مقداراً من قوته فى العمل — وما نراه من أن بعضاً من الناس يصرف مقداراً عظيما من قوته فى أعمال شتى ولا يحصل إلا على قليل من الفائدة ، وبعضاً آخر لا يصرف إلا النذر اليسير من ذلك ويستحوذ على كثير من الفائدة ، ربما يتوهم منه أحد أن الرزق ليس مناسباً للقدر المنصرف من القوة ، وإنما هو قسمة أزلية ليست مرتبطة بالعمل والسعى ، ولم ينظر فى الأمر نظر حكمة ولم يعرفه معرفة حاذق بصير — بل نظر إلى ظاهر الأمر ، وحقيقته خافية عليه ، بعيدة عن مداركه ، فالله أمر بالسعى والعمل . والجسم هو القائم بذلك ظاهراً ومأمور من قبل العقل — فما أعمال الجسم مقومة ومعتبرة إلا حسب القوة الباطنة — وكلما كانت هذه القوة كاملة

كانت قيم أعمال الجوارح تابعة لها ، ولعكس بالعكس

قال عليه الصلاة والسلام (الناس يعملون الخيرات وإنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم

ولا سبيل إلى الاتيان بأعمال تامة الحسن ، عالية القيمة ، وافرة الحظ ، إلا بالعقل الكامل ، والعمل المحكم ، فبقدر وجود هذا وتفاوته تفاوت أفراد الانسان ، وكلما كان العقل أصح ، والروية أغزر والاختيار أصدق ، كان الكمال أتم ، والعمل أقوم ، (إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه) — وقال الشاعر

اذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أفعاله ومآربه

فاذا تم هذا للمرء أتى بأعماله تامة الحسن رائعة الصنع رائعة الابداع ، لا يوازنها ولا توازيها منن — ألا ترى ما أبدعه الانسان من الأعمال الغريبة ، أبدنه الذى أمكنه من ذلك وجعل له السلطان المتصرف فى هذا العالم — كلا — ما الانسان من هذه الجهة إلا شبح وتمثال لا يتميز به غيره ولا يفضل سواه — وإنما فضله ومزيته بقوته الروحية التى تستخدم جسمه وتوجه قواه الحسية ، وإلا فليست قوى جسمه أكمل منها فى غيره من الحيوانات التى يقهرها ويستخدمها فى أعماله . مثلا نرى الفلاحين يزرعون وكل منهم يجنى مقادير مختلفة ، والصناع تشتغل ومقادير الأرباح مختلفة — وهكذا —

وأسباب ذلك كله التفاوت فى المعلومات ، فمن يرغب فى زيادة ربحه وكثرة فائدته فعليه بالسعى والاجتهاد فى اجتناء الخيرات من أكمام هذه الكائنات قال تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما ينفى عنى حجة الجهل قال العلم : قال ما ينفي عنى حجة العلم قال العمل وقال عليه الصلاة والسلام (تعلموا ما شئتم أن تعملوا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا) وقال فى التوراة (حرك يدك أفتح لك باب الرزق) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة) وقال بعض الحكماء : الحركة بركة والبطالة هلكة والكسل شؤم وكلب طائر خير من أسد رابض)

يا نفس ذوقى لذة العمل ... وواظبى لذة العدل والاحسان فى مهل
فكل ذى عمل بالخير مغتبط ... وفى بلاء وشؤم كل ذى كسل

وقال آخر

دعى نفسى التكاسل والتوانى ... وإلا فالبسى ثوب الهوان
فلم أر للكسالى الحظَّ يجنى ... ثماراً غير حرمان الأمانى

وقال آخر

وكم حياء وكم عجز وكم ندم ... جم تولد للانسان من كسل

١٣٩ ﴿ فوائد المزاحمة والمسابقة وأثرها فى الارتقاء البشرى ﴾

لولا التزاحم فى الأمور لأصبحت عمد النظام على ذراها سجدا

من بديع حكمة الحكيم العليم أن جعل التزاحم بين الأنام منشأ لتشييد النظام ، فبالمزاحمة استيقظ الناس من سنة الغفلة ونشطوا من عقال الخمول وأجهدوا مطايا سعيهم وراء ما به يرغمون أنف تلك العوادى التى حطت بهم رحالها ، وضربت عليهم خيامها حتى أثقلت كواهلهم وألجأتهم الى شدة البحث عما به يتخلصون من ربقة أخطارها وهول مضارها ، وكم خبايا من الحقائق أبرزتها لهم معاول البحث فأصبحوا آمنين مخاوف دهرهم يخوضون أبحر صعوبتها دون أن يمسهم سوء ويركبون متونها خاضعة ذليلة ، على حين أنها تروم انتياشهم كل ذلك بما ألجأتهم اليه دواعى المزاحمة والمنافسة ، وقد علم الله فيهم ذلك فنوعهم فى الخلقة الى ما ترى وأودع كل نوع من القوى وركب فيه من الآلات ما به يقوى على تلك الصعوبات ويهزم كتائبها الجرارة

ومن هنا تقلب الإنسان وتنقل فى أطوار شتى وتأنق فى الملابس وتفنن فى المآكل والمشارب وزهى فى تمتماته بعد أن كان هو وغيره من الحيوانات سواء ، يتغذى بعضه بالبعض ، ويهيم فى الفلوات والآجام كما يهيم غيره يبتغى إصابة ما به يسد رمق الجوع ويتقى ألم البرد من نحو الريش وأوراق الشجر وجلود الحيوانات وغير ذلك — مما به

كفاية حاجة حياته الضرورية ، ويتخذ الكهوف والمغارات مساكنه يأوى اليها ، كل ذلك بما أودعه الله فى جسمه من المنبهات

والانسان بما ركب فيه من أصل الخلقة وما أودع فيه من المنبهات مزاحم لغيره مندفع إلى نزع آثار الخشونة الأولى والتقلب على سرر النعيم — ولولا تلك المنبهات التى تحثه على طلب حاجاته لاستولت عليه الغفلة عن تحصيلها وانتهى الى فنائه دون شعوره — ولهذا صار الانسان كما ترى مندفعاً الى تحصيل أغذية يعوض بها ما فنى وملابس ومساكن يتقى بها الحر والبرد ، وكل ذلك يدفعه إلى حب الاثرة والاختصاص بالنافع ومزاحمة من يتخيل أنه يقف فى طريقه — تلك حال كل انسان فهو ميال بطبعه الى الخروج عن حيز وضعه بما غرس فيه من الأمل الذى وضعه الله فيه رحمة ، ولولاه ما غرس غارس غرساً ولا بنى بان بنياناً

مثلا يرى الانسان أخاه لابساً ثوباً أجود من ثوبه مادة وأحسن منه شكلا فيدفعه حب التمتع الى طلب مثله والاخذ فى أسباب الحصول عليه وربما صادفه فى طريقه ثوب أرقى وأجمل منظراً فاذا رآه غيره أخذ يجهد نفسه كذلك فى الحصول على مثل هذا الثوب الأرقى — وهكذا حتى ينتهى الامر إلى ضرب من الثياب يدهش الناظر مرآه ويروق الخاطر معناه

ومع ذلك لا يقفون عند هذا الحد ، ولنعم ما كانوا يعملون وعلى هذا المنوال يرى الانسان جاره فى عيشة راضية توفرت حاجاتها وتكاملت مسراتها وصفت أوقاتها فلا يهدأ له خاطر ولا يستريح له فؤاد حتى يرى نفسه فى رغد من العيش يساوى جاره على الأقل ، فيبعث به ذلك الى أن يخلع ثوب بؤسه ويكشف عن ساق الجد فى سيره لنوال بغيته

ان لله فى الخلائق سراً من سنا برقه تحار العقول
لا ترى ذرة من الكون الا ولها فى الكون شرح يطول
هذه دارنا بها زاحمتنا عاديات من كل أوب تصوب
تلك والله حكمة من حكيم لنظام الحياة أصل أصيل

وغرض الكل واحد هم عليه متزاحمون يدفع بعضهم البعض وينازعه مافي يده رغبة في الاختصاص به

كل له غرض يسعى ليدركه ولو تحمل فى تحصيله المضضا

١٤٠ ﴿ لم لم تؤثر الخطباء والكتاب فى نفوس المصريين ﴾

لاشك أن بين ظهرانينا أناساً أصبحوا عقبة بين الأدب وذويه ، ولا ديدن لهم الا التفنيد واللوم على الخطباء والكتاب وتثبيط همم المشتغلين بحرفة الأدب ، بحيث لو سمعوا خطيباً يخطب أو رأوا كاتباً يكتب ، لعب بهم الغيظ ودب فى قلوبهم الحسد فترى منهم ألسنة حداداً فبدل أن يقولوا هذا الخطيب مصقع ، ذرب اللسان

ثابت الجنان رابط الجأش واسع المجال رحيب الباع ، له اقتدار على التكلم فى أى موضوع من مواضع الكلام بعبارة تسيل رقةوسلاسة وتستميل القلوب النافرة وترد جماح الضالين وتصلح ما فسد من أخلاق المولدين وتؤثر على فهم كل سامع — تراهم يشددون النكير ويبالغون فى التنديد ويقولون إن هذا الخطيب كليل اللسان جامد القريحة مضطرب الجنان قد استولى عليه العى والحصر ، وعنطقت به الفهاهة وأخذته اللكنة — وبدل أن يقولوا إن هذا الكاتب

فى خطه من كل قلب شهوة   حتى كأن مداده الأهواء

أصبحوا يقولون إن جناب الكاتب له عبارات لا تخلو عن ركاكة التركيب وجفاء الأسلوب عن الفصيح المألوف فى الكتابة والتأليف — الى غير ذلك .

ولا يعزب عن الأفكار اندفاع أغلب المصريين إلى التقليد الأعمى من غير روية فى الأمر وتبصر فى عواقبه ، فتراهم حينما يسمعون هذا الكلام يعضدونه وينصرونه ويميلون عن الخطيب أو الكاتب

إنما تنجح المقالة فى المر   ء اذا صادفت هوى فى الفؤاد

أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب.

وكان للخطابة فى الصدر الأول من الاسلام شأو جليل ومقام كبير ومكانة خطيرة — فلقد اخص الخلفاء والأمراء والعلماء أنفسهم

بالوعظ والزجر عن الشهوات والمحرمات والمنكرات والمنهيات ولعمرى أنهم قاموا بها حق القيام وتأثرت بخطاباتهم الجموع وفعلت فيهم ما لم يفعل السيف حتى رجعوا إلى طريق الهدى والرشاد ، وقام بها من بعدهم الخلف الصالح وشغلوا أنفسهم بهذا الموقف العظيم فحافظوا على الأخلاق الشرعية والعوائد المستحسنة — ويا حبـذا لو دام ذلك — فقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات وتهـــاونوا فى أمر هذا الموقف الخطير ولم يكترثوا به فاسترسل الناس نحو شهواتهم غير منقادين لواعظ ولا كاتب فبدلت نعمة العظمة والظهور بنقمة التأخر والجمود — وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاء ما فرطوا فى جانب الخطابة والوعظ ، جزاء استنكافهم من القيام بهذا الأمر النافع واشتغالهم عنه بمصلحة أنفسهم والتفرغ لاغتنام لذاتهم (إن اللهَ لا يغيرُ ما بقوم حتى يغيّروُا ما بأنفسهم) فصار الناس كالأنعام ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يسمعون النصائح النافعة ولا يبصرون الغى من الرشد — ففقدوا الاحساس الوطنى وتفرّقت قلوبهم وانحلت عزائمهم وخمدت نار حميتهم : إرادة الله التى أرادها لا محيص عنها ولا مناص منها ولا راد لها.

إذا ما أراد الله ذل قبيلة رماها بتشتيت الهوى والتواكل

أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب ؟!

وكثيراً ما رأينا بعض المصريين يتوجه للمحال التى أعدت للخطابة ولكن بعد ما يسمع الخطيب ينهى عن خلق قبيح كما إذا نهى عن شرب الخمر مثلا تراه يتمثل بقول من قال :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله — ويفارق محل الخطابة وهو نادم على ما فرط من ضياع الزمن فى غير طائل ولا ثمرة عادت اليه ويسرع إلى محلات اللهو والطرب .

وبالجملة ـ لا عجب فى عدم تأثير الخطباء والكتاب ، فان الامة إذا استولى عليها الضعف ودخلت فى الهرم بسبب نبذها القانون السماوى وعدم محافظتها على العوائد الشرعية صمت آذان أفرادها وعميت قلوبهم وتشتت جامعتهم وانحلت رابطتهم .

تحسبهم أيقاظاً وهم رقود، لا يتنبهون بمنبه ولا يردهم عن استرسالهم وراء الشهوات لوم لائم ولا زجر زاجر — سنة الله التى قد خلت فى عباده

وإنا نأمل فى هذه الأيام ، أن يحصل احساس لدى إخواننا المصريين وتثبت فيهم روح الغيرة فيعملون على إرجاع ما كان لهم من الفخر واحراز ما كان لآبائهم من الفضل ـ وما ذلك على الله بعزيز .

٤١١ — ﴿ الصحف السيارة وأثرها لدى الامم ﴾

معلوم أن الجرائد أساتذة قائمة بتهذيب الامم ، وبث ما لم يعلم

من أخبارها ونشر ما خفى من فنونها وآثارها ، وعليها آثار الاعمال السياسية وتقدم الاحوال المعاشية فهى حياة الامة العلمية ، ومادتها الادبية ، تبشر وتذكر ، وتنذر وتحذر ، وتحدث عن الحوادث الواقعة ، وتقدم لك موائد الفوائد النافعة ، فتهديك إلى منافع كنت بها حفيا ، وتبدى لك ما كان عنك خفيا ، وتهدى طرائف الاخبار وظرائف الاسمار ، وتكفيك مؤونة الاستخبار ، وكلفة السؤال والاستفسار ، وكأنها مجاميع متفرقة ، وينابيع متدفقة ، أو سفن مشحونة بشحون الاقوال ، أو قوافل محملة أخباراً عن الاحوال ، فهى ألسنة الامم وترجمان الملوك وجهينة الاخبار ، وخزينة ذخائر الافكار وصيقل الأذهان ، ومرآة حوادث الزمان ، والسائح الذى يطوف البلاد ويأتيك بأخبار العباد ، وأنت لا تبرح من مكانك ، فهى للرئيس موقظة ، وللمرءوس موعظة ، وللتجار سوق بضائع ، وللصناع معرض صنائع ، وللشارى دلال ، وللمدعى استدلال ، ولارباب الاقلام إعلان وأعلام ، وللمؤرخين مجمع وقائع وأخبار ، وللجغرافيين استكشاف خطط وآثار .

وبالجملة يكون الإنسان بها مطلعاً على وقائع مصره ، عارفا بما تجدد بين بنى عصره ، من حوادث الزمان ، وعجائب عالم الامكان وما هو صائر فى الممالك المتمدينة ، ودائر بين الملوك المتمكنة ، وما هو

جار بين الدول المتفقة ، والملل المتفرقة ، من عهود تجدّد وشروط تؤكد ، وآثار تغـــيرّ ، وصعاب تيسر ، وما بينهم من نزاع ومقاتلة وخداع ومخاتلة ، وسكون وهدنة ، وحركة وفتنة ، وما حدث فى أحوال التجارة ، وأمور السياسة والادارة ، وما أبدته فحول العقلاء فى مجامعها ، وما أسدته عقول النبلاء من بدائعها ، وما ظهر من رائع الصنائع وعوارف المعارف ، وطرائف اللطائف ، ويعرف العوائد مذمومها وممدوحها ، ويميز الآراء راجحها ومرجوحها ، فيجتنى ثمار الافكار ، ويقتنى محاسن الآثار ، ويكون كأنما طاف مشارق الأرض ومغاربها ، وجرب جميع الامور ودرى عواقبها ، فلا تكاد تنزل بساحته حادثة إلا وقد أحاط علمه بنظيرها ، وعرف غاية مصيرها

١٤٢ – ﴿ التدبير نصف المعيشة ﴾

معلوم أن حاجة الامم إلى المال كحاجة الجسم إلى الغذاء ، فكما أن الغذاء حياة الجسم وقوامه ، فكذلك المال حياة الامم ولا قيام لها إلا به ، وكما أن الغذاء إذا كثر فى الجسم عن الحاجة واستعمل منه فوق القدر اللازم كان مضراً بالجسم وسببا فى ضعفه واضمحلاله وسقوطه فى مهاوى الذل والاحتقار وليس ذلك قاصراً على الامم فقط — بل الامم والشعوب والقبائل والعائلات والافراد فى ذلك سواء — وفى المشاهدة أكبر دليل ، ولا ينبئك مثل خبير ، فكم من مسرف رأيناه

قلّ بعد الكثرة وذلّ بعد العزة ، وافتقر بعد الغنى، وأهين بعد التعظيم وقلّ اعتباره وكثر احتقاره ، وذهبت هيبته ، وانحطت قيمته ، وكما أن الاسراف والتبذير موجب للخراب والدمار — كذلك البخل والتقتير موجب للذم واللوم والعار — فالواجب إذاً استعمال الحد الوسط والتباعد عن طرفى الإفراط والتفريط فى التصرف فى الأموال قال الله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) وقال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى (ولا تبذر تبذيراً إنه المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً) وقال تعالى (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)

وبالجملة — سوء التصرف فى الثروة يجلب الخراب بخلاف الاقتصاد فانه يجلب الرفاهية والسعادة وكم خرب التبذير بيوتاً عامرة وبدّد ثروة وافرة وكم أزل أميراً وصغر كبيراً وكم أغنى التدبير فقيراً وأعز حقيراً وجعل العبد أميراً)

قال الأصمعى سمعت بعض العرب يقول (من اقتصد فى الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر) وقال عبد الله بن جعفر (كمال المرء فى خلال ثلاث — معاشرة أهل الرأي والفطنة ، ومداراة الناس

بالمعاشرة الجميلة ، والاقتصاد من بخل واسراف)

أنفق بمقدار ما استطعت ولا ... تسرف وعش عيش مقتصد
من كان فيما استفاد مقتصداً ... لم يفتقر بعدها إلى أحد

وقال آخر :

توسط بين تبذير وبخل ... ولا تسرف بما تلقاه نزرا
فان النذر يمسي بعد حين ... إذا لم يعن بالإسراف وفرا
وان الوفر فى الدنيا ببخل ... وتقتير يريك اليسر عسرا
وكن فى حالة تزداد فيها ... لدى الأقوام مرتبة وقدرا
وخير الناس مقتصد ابيب ... تفرّد فى الملا بحثا وخبرا
وكن في كل أمر ذا اعتدال ... فرب حلاوة تؤذيك ضرا
فما من باخل أحياه مال ... وما من مسرف يعتز دهرا

١٤٢ ـ ﴿ إذا رُزقتم أموالا عظيمة ففيم تصرفونها ﴾

لا ريب أن المال روح تحيا به أجسام الممالك ، وسراج يضيء به ظلام الخطوب الحالك ، وسلطان قويّ الشوكة والبطش ، شديد العزمة والبأس ، تذلل به الصعوبات ، وتحل به عقد المشكلات وتتصرف صروف الزمان ، وتقام معالم الأفراح والأحزان ، وعليه قوام الصنائع ، وإبراز مكنونات العلوم ، وهو كشاف للمخبآت وفك طلاسم الفنون ، ونجاح الاختراعات والمشروعات ، وعليه قضاء

الحاجات ، فى جميع المهمات ، فأى شخص رزق مالاً لحظته السعادة وامتدت عليه غصون السيادة ، والتفت الناس حوله ، وأصبح الكل أهله ، وتشرف الكل بالانتساب اليه ، والسعى فى التقرّب اليه .

إن قلّ مالىُ فلا خل يصاحبنى إن زاد مالى فكل الناس خلانى
فكم عدوٌّ لأجل المال صاحبنى وكم صديق لفقد المال عاداني

هكذا يكون المال مجد الحياة وعز الممات .

فلا مجد فى الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

ولكن ذلك كله إذا كان مصروفا فيما يعلى عرش المجد ويرفع صرح العزة ، فاذا أنفق فى الأعمال المبرورة والمشروعات النافعة كان زينة لصاحبه فى حياته ، وذكراً جليلا له بعد مماته ، ولكن اذا كان الشخص عنده خزائن قارون وخضع له المال ولم ينفقه فى إقامة معالم المدنية الصحيحة كانشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات وكل ما يقيم أود الراحة ويرفع بناء العمران فانه يكون عليه شراً من الفقر ومجلبة لخزيه وعاره ووسيلة لذلته وشقائه ، لأن الناس إنما يتوجهون إلى ذى مال طمعاً فى نيله وحباً فى الحصول عليه وينال شهرة عظمى ويقترن اسمه بالعلاء . قال الله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) وقال الله تعالى

﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم﴾

وبالجملة – فالمال زينة الحياة الدنيا والنفقة إلى الدار الآخرة.

فيلزم صرفه فيما يكسب الانسان المجد حياً وحسن الذكر ميتاً ولا تنفع الأموال ولا العقارات ولا التجارات ولا غيرها بغير علم وأدب يهذب الأخلاق، ودين يقرب إلى الرب الخلاق:

وعلى وجه العموم يصرف فى كل ما يعرض لك عمله ولا يكون خارجا عن حد الشرع والكمال والاعتدال.

١٤٤ – ﴿البيت مملكة تديرها المرأة﴾

قسمت العناية الإلهية جميع الأعمال المثمرة على أفراد الجنس البشرى حسبما أوجدته فى كل من الصفات والأمزجة وذلك مراعاة لما تقتضيه سنة التقدم وضمان مصالح العباد من الوقوع فى الفوضى والاختلال الناتجين من قيام أحدهم بأمر ليس فى استطاعته عمله.

وعلى هذا القياس قد وزعت الأعمال على الفريقين الكبيرين المكونين للجنس البشرى وهما (الذكر والانثى) فاختص كل فريق بالعمل الذى يلائم مزاجه وقوته ومقدرته إلى غير ذلك من الصفات التى أوجدها الخالق سبحانه وتعالى فيه – وكان نصيب الرجال من من هذه القسمة جميع الاعمال التى للمجهودات البدنية فيها المكان الاول من حرث الارض وزرعها إلى الدفاع عن حومة المجتمع الذى يعيشون

فيه وهو الوطن ـ واختصت المرأة لضعفها فى القوة الجسمانية ولما أوجد الله فيها من صفات الصبر والاخلاص ورقة القلب ودعة الاخلاق بأمور لهذه الصفات فى إتمامها حظ وافر، وهذه الاعمال كثيرة جدا ـ منها ما هو واجب عليها نحو زوجها إذ يلزمها أن تسهر على مصالحه وتكون رسول السرور اليه وتشاركه فى جميع مشاغله وتطرد عنه الهموم والأحزان، وتريح خاطره من النظر إلى الامور والمتاعب العائلية ليكون عنده الوقت الذى يتفرغ فيه هو أيضا للقيام بواجبه خارج المنزل. أما أهم واجباتها فى نظر الامة فهو ما يخص أولادها لانها مكلفة برعايتهم والقيام بشئونهم فى مبدإ حياتهم ـ أى فى الوقت الذى يحتاجون فيه إلى عناية كبرى لضعف أجسامهم وعقولهم فهى التى تنظر فى أمورهم الصحية فتحافظ عليهم وتراقبهم خوفا عليهم من الاخطار التى هم معرضون لها من صغر سنهم، وهى المكلفة أيضا بتلقينهم المبادىء الاولية التى تبنى عليها حياتهم الادبية فى المستقبل فتعودهم على محبة الفضيلة واحترام الحق وعلى كره الرذيلة ومقت الباطل وتلقن فى عقولهم الصغيرة التى تحفظ أول ما تسمعه أو تراه الصفات والاخلاق التى تؤهلهم متى كبروا للقيام بواجباتهم بصفتهم أفراداً من أبناء الامة ـ فواجب المرأة عظيم ومسئوليتها كبرى لا تقل عن مسئولية الرجل خطارة وأهمية إن لم تزد عليه

لأن على عملها تتوقف حياة الأمة أو مماتها — ولان ذلك الرجل الذى ينكر عليها هذه المسئولية لم يصل إلى ما وصل إليه من قوة الجسم والعقل إلا بسعيها المتواصل ، وعنايتها التى تبذلها فى تربيته وتعليمه وهو صغير — ولو أنصف الرجل الحقيقة وأنصف المرأة معها ، وقدر عملها فى الهيئة الاجتماعية حق قدره ، وطرد من مخيلته المزاعم الباطلة التى علقت بها من كلام السلف واستبداده وغروره لطأطأ رأسه احتراماً لذلك المخلوق العجيب

المرأة — وما أدراك ما المرأة ، هى ملك السعادة الذى يهبط على الزوج الحزين البائس فيفرج عنه كربه ويطرد جيوش الحزن والهم والتعاسة التى تنتابه لما عندها من حسن الأسلوب ، ولمقدرتها على تصريف الاقدار والهموم فتجعل من البؤس سعادة ، ومن الحزن سروراً — هى التى تقول للرجل أبعد عنك ما أنت فيه من الغم والحيرة واخرج لعملك سعياً وراء رزقك ، ودعنى أناأقوم بهذه الامور فيخرج هذا ساعيا مجداً مجتهداً فتكسب الامة من ثمرة سعيه

المرأة — هى إحدى العاملين فى زيادة الجنس البشرى وتقويته ووظيفتها فى هذه الجهة كوظيفة الرجل ، بل أكبر وأشد صعوبة لانها تتحمل الآلام والأمراض فرحة مسرورة فى أيام الحمل ، ووقت الرضاعة — ولا يشاركها الرجل فى شىء من ذلك

المرأة — هى التى تقوم بتربية هذه الأطفال وبمراعاة صحتهم وهى التى تدربهم وتمرنهم على المشى والحركة وتغير ملكتهم البهيمية التى ولدوا عليها فتجعل منهم أناساً أصحاء أقوياء عقلاء قادرين على العمل والسعى — ولوشاءت لحرمت الأمة منهم باهمالها شؤونهم وتركهم هم وشأنهم بلا رقيب.

المرأة - هى الساعد الأول ، والمرجع الأكبر لهؤلاء الأطفال متى شبوا - فهى التى تسرى عنهم أحزانهم وتجلى كروبهم وتشجعهم على تحمل المصاعب. وتحفظ أسرارهم وتنعشهم بالأمل الذى تبثه فيهم

المرأة - هى طبيب أولادها وممرضة زوجها إذا اختل ميزان صحتهم فتعودهم وتسهر بجانبهم تقضي لهم حوائجهم - وهى التى تعنى باصلاح الفاسد وترميم العاطل من أمورهم فيكون لهم من عملها رأس مال كبير :

المرأة - هى ذلك المخلوق الذى ملىء حباً وحناناً ، تعرف المعروف وتكافىء فاعله عليه أضعافاً ، وتغضى عن السيئات التي توجه اليها يتغيب الزوج عنها ، وهى صابرة على بعده قاضية جميع ما يطلبه منها حافظة له حق العشرة ، يخوفها كل يوم ويدوس على حرمتها وهى تمر على عمله من الكرام مع ما تتحمله فى ذلك من المعاناة والشقاء

المرأة — هى المصباح الذى يضيء الحياة بنوره

هذه هى وظيفة المرأة فى الحياة وذلك هـو العمل الذى يجب أن تقوم به فى المجتمع الإنسانى — ولعمرى انها وظيفة عسرة الخطة وعمل صعب المزاولة يحتاج إلى صبر لايطيقه الرجال ، ولاأظن أن هناك من ينكر أهمية تلك المهمة التى يجب أن تقوم بها لأنها هى الأساس الذى يبنى عليه حاضر الامة ، والمعيار الذى يقاس به مقدار التقدم والرقى والحضارة التى يمكن أن تصل اليها فى المستقبل — فلو فرضنا أن النساء تعمدن التقصير فى واجبهن وتوانين فى أداء مهمتهن فسد نظام العائلة ، وصارت حياة الافراد المكونين لها نقمة عليهم لا نعمة لهم لما يقاسون من إختلال هذا النظام ، ولايطول الزمن حتى تنعكس مضار هـذا الإختلال على الامة فيصيبها منه داء الفوضى الذى لا تقوم لها قائمة من بعده ، ولو أهملت الامهات تربية أولادهن ولم تعتن بصحتهم شبوا ضعافاً مرضين للأمراض والأوبئة ، فلايصلحون لعمل من الأعمال ولا تستفيد منهم الامة لان العقل الحكيم فى الجسم السليم ، ولان المرض يشغل الانسان عن كل عمل آخر — لو تغافلت الأم عن تأديب أولادها وتنبيههم إلى الضار والنافع فى صغرهم صاروا متى كبروا سيئى الأخلاق فاسدى التربية قبيحى السيرة منهمكين فى اللذات البهيمية لا يعرفون من معنى الحياة أكثر مما تعرفه الحيوانات ، فيذهبون بالامة مذهبهم ولا يطول الزمن حتى تتلاشي

من الوجود — ولكن رب معترض يقول بان إنشاء المدارس وتشييد دور العلم يغني عن وظيفة المرأة ، إذ أن المدارس كفيلة بتهذيب أخلاق الطلاب ومراعاة صحتهم ، وهذا الاعتراض مردود من نفسه لأن التربية شيء والعلم الذى تلقنه الأساتذة فى المدارس شيء آخر ، ولا تمكن لدور العلم أن تقوم بعد اعوجاج أخلاق أحد الطلاب إذا كانت فاسدة من الأصل وإن هى أرادت أن تسعى فى عمل من هذا القبيل كان مثلها مثل الرجل الذى يريد أن يقوم جذع شجرة بعد أن كبر فيستعصى عليه تقويمه وينكسر الجذع . والسبب فى أن المدارس عاجزة عن بلوغ هذه الغاية أن الطالب لا يمكن أن يدب اليها إلا بعد أن ترتسم فى عقله صورة أخلاق أمه وما عودته عليه مدة إقامته معها فلا يمكن أن يمحو هذه الصورة من مخيلته وتبقى معه ما شاء الله أن تبقى حياته معه — وقد يعترض علينا آخر بأننا نبالغ فى أهمية عمل المرأة ونزيد فى تقدير كفاءتها ، والحقيقة أننا المقصرون وإنما نشأ هذا الظن لأننا لا نتصور تأثير الأم العاقلة على أولادها من جهة وعلى زوجها من جهة أخرى — ولأننا لا نحلم يوماً بأن امرأة تترك أولادها الذين في سن الرضاعة ليقوم الرجل بتربيتهم وبالعناية بهم ولا يمكن أن يقدر هذا العمل إلا رجل متوسط الثروة أو ضعيفها توفيت زوجته وخلفت طفلا لبيناً وإذ ذاك يجب أن نتساءل و نبحث

فيما إذا كان عنده الوقت الكافى والصفات اللازمة لتأدية تلك المهمة الشاقة

ولقد ظهر جليا مما سلف أن عمل المرأة هو الأساس الذى يبنى عليه مستقبل الأمة الذى يرتكز عليه حاضرها . بقى علينا بعد هذا البيان المجمل أن نبحث فيما إذا كانت المرأة المصرية تقوم بالواجب عليها أم هي مقصرة أو جاهلة هذا الغرض ؟ وليس الجواب على ذلك صعباً لأن مشاغل النساء المصريات معروفة وأعمالهن لا تخفي على أحد منَّا فالمرأة عندنا إحدى اثنتين : فلاحة قروية ، ومتمدينة حضرية فأما الأولى فإنها لا تعرف من الحياة ولا تفقه من فوائد المعيشة شيئاً وجل ما تعتقده أنها إنما خلقت لتكون وسيلة للذة الرجل وشهواته خادمة له وعبداً عنده ، بل إن مرتبتها لا تزيد عن مرتبة الحيوان الذى يحرث به الأرض وهى مرتدية بلباس من الجهل ، أسود من الثوب الذى تلتف به عادة — واعتقادها فى القضاء والقدر عظيم — وعليه فان عمل الإنسان وسعيه فى نظرها لا يمكن أن يجلب نفعا أو يدفع ضرراً ، فاذا رزقها الله بمولود تركته وشأنه بدون عناية ومراعاة واهتمامها به قاصر على إعطائه ثديها كلما بكي فاذا شبع فانها تدعه يحبي على التراب عارى الجسم يتقلب فى الطين والأوحال التى كثيراً ما يوصلها إلى فمه متى جاع وغفلت الأم عن صريخه — وبعد أن يأ كل

هنيئاً مريئاً يحسّ بحرارة الشمس التى تؤثر فى دماغه ، فيفرك عينيه بيديه الملوثتين بالتراب والطين ثم يقع فى سبات عميق وسط الطريق يقوم بعده مريض العينين ، لا يرى إلا هزيل الجسم ضعيفه ، ومتى قدر على المشى انضم إلى الأولاد الآخرين فيكتسب منهم كل قبيحة ويزيد فى تربيته الأدبية مايراه ويسمعه كل يوم بين والده ووالدته من الضرب والشتم والرفص واللكم الذى يبدأ الزوج بزفه إلى زوجته صبيحة ليلة العرس

وأما الثانية ـ فإنها لا تزيد فى التربية والمعارف عن الأولى إلا أنها قد تكون أسوأ من تلك خلقا وأكثر إهمالًا لو لاحظنا أن الأولى تقوم مقام زوجها فى كثير من الأعمال الخارجية عن المنزل وأما هذه فليس عليها واجب آخر . ومن الأسف أنها لا تصرف وقتها فى عمل مفيد بل إنها تترك أولادها مع المرضعة التى لا تعرف إن كانت حسنة الصحة أو رديئتها ثم تسلمهم إلى الخدم فيشبون منحطى الأخلاق ناقصى التربية الاستقلالية مرضى أو معرضين للمرض

هذا هو حال المرأة المصرية وتلك هى أعمالها ــ وبديهى أنها حال لا ترضى أحداً لانها تهدم نظام العائلة وقد كان من نتيجتها انحطاط المصريين وتأخرهم فى معترك الحياة ، ففقدنا الاستقلال السياسى والأدبى والاقتصادى ، لأن صفات الثبات والشجاعة والإقدام ورباط

الجأش والمؤازرة والمؤاخاة تلك الصفات التي يكتسبها الطفل مما تعوّده عليه أمه لا أثرَ لها في نفوسنا ، فصار المصريون وهم يزيدون عن عشرين مليونا آلة تعمل لفئة قليلة من الأوربيين وغيرهم لا تبلغ اثنى عشر الفا وهى نسبة مؤلمة

وقد نتج من جهل المرأة أيضاً انحطاط الآداب انحطاطاً مرعباً بين الشبان والشيوخ فلا نشغل أوقاتنا إلا بالتافه المضر من الأمور ، فانتشر الحسد بيننا وصار كل منا ينصب أحبولة لجاره يوقعه في شباكها ، ونخاصم الأشقاء وننافر الأحباء وانتشر الكسل بيننا انتشاراً أقعدنا عن السعى وكسب المال من موارده الشريفة ، وتمكنت من عقولنا الخرافات والبدع فصرنا أضحوكة فى أفواه الغربيين وتركنا العمل بديننا وبالآداب التي يأمرنا بها غير مكترثين بغضب الله وسخطه ، فوقعنا في تلك الحال السيئة التي نحن عليها اليوم

أما آن الوقت الذي يقوم فيه عقلاؤنا والمتنورون منا بالاصلاح الواجب ، أما آن لنا بعد كل ذلك الزمن الطويل الذي نخر فيه الجهل عظامنا أن نقوم قومة واحدة فنعالج مانستطيع من أمرنا أما آن لنا أن نقرّ ونعترف بمركز المرأة وبالعمل الذي يمكن أن تقوم به فلا ننظر اليها نظرنا إلى العبيد والخدم ، ألم يحن الوقت لنقوم بتربيتها وتأهيلها لكى تكون زوجة صالحة عاقلة ، فنكون

قد أنصفناها وأنصفنا أنفسنا — لعمرى أن الحق واحد لايتغير ولكنا نغالط أنفسنا فيه — نقرر اليوم أمراً ثم ننقضه غداً وتتعامى عن النظر الى الحقائق فلا نريد أن نثبت ما للمرأة من الحق فى التعليم ونحرمها منه ثم نطالبها بعد ذلك بتربية الأولاد والعناية بهم وبإيجاد السرور والحياة فى المنزل وهى مهمة لايقوم بها إلا من نال حظاً وافراً من العلم والتربية

وليس أغرب من قول الذين أعماهم الغرور والاستبداد فادّعوا أن مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق هادم لنظام الحياة مفسد لآداب المرأة ، وهو زعم باطل لاسبب له إلا الوهم والجهل الذى نشأ عليهما الرجال ، وإلا فكيف يمكن الجمع بين التربية وفساد الأخلاق وهما ضدان إذا وجد أحدهما بطل الآخر طبعاً ، ولعل الذين يزعمون ذلك يستدلون على صحة دعواهم بما يشاهدونه من تهتك الفتيات اللائى نلن قليلاً من التعليم فى إحدى مدارس القاهرة أو الأقاليم وهنا يجب أن يحوّل نظر هؤلاء مرة ثانية إلى أن التربية والتعليم شيئان مختلفان وأن القليل الذى نلنه من العلم هو قشور — ولو أن هؤلاء البنات تربين فى أحضان أمهاتهن تربية صحيحة مبنية على الآداب التى يأمر بها الدين الحنيف لتمكنت من قلوبهن أسباب الفضيلة ولما كنا نرى لهذا التهتك الذى يعيبونهن به أثراً — بل لرأينا منهن

مثالا حياً على صدق ما نقول ، أما الغربيات اللاتى يهمس القوم فى المجتمعات على آدابهن فانهن من الطبقة السفلى فى بلادهن وأكثرهن لا يعرفن لهن أباً ولا أماً وقد نزحن إلى مصر طلباً للثروة فنلنها بطرق خسيسة أو شريفة — ثم اشترين بها زوجاً ليس له هم فى الدنيا الا حب المال ، وما أكثر الذين يعبدونه بين الناس وأرى بعد ذلك أن دعوى المدعين بأن تربية البنات تفسد آدابهن دعوى باطلة ولا أجد مانعاً أبداً بعد ما عرفنا مهمتها وعملها فى تقدم الأمم من مساواتها بالرجل فى حقوق العلم والتربية عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فرض على كل مسلم ومسلمة) .

١٤٥ — ﴿أذكر طرق المعيشة واختر لنفسك منها طريقاً﴾

يوجد بين كل الناس طرق للكسب — منها التجارة وقد تكون جارية مجرى الاعتدال ، يقصد منها إنماء المالى ليصرف الربح أو بعضه فى لوازم المعيشة أو يزاد الباقى على الأصل حتى يكثر وتتسع الدائرة ، فيدخل إلى الانتفاع منها أقوام آخرون عمالا لصاحب المال فتعمهم ثروته ويكونون كعائلة للمالك يعنيهم شأنه ويهمه أمورهم فى الحال والاستقبال ، وقد تكون التجارة آخذة سبيل الاعتساف لا يقصد منها إلا المال وجمعه من أى طريق وجد ، على أى وجه أخذ ، ويدخل في هذا القسم المرابون والغاشون فى صنف البضائع

ونوعها وجنسها وقيمتها ، وكثير ما هو فى كل بلاد وكل زمان – وكما أن هذا العمل يتأتى أن يكون من عمل واحد فكذلك يمكن أن يكون من جماعة أو شركة أو طائفة – وكلما كبرت كبر ضررها فى الوسط أو الجيل الذى هى فيه .

ومنها الزراعة – ولا نخالها يتأتى فيها من حيث ذاتها ذلك التقسيم الذى أمكن فى التجارة ، لأن الزراعة لا يقصد منها إلا استثمار الأرض واخراج ما فى بطنها من الخيرات بالأعمال ، وانما الممكن تقسيمها إلى ما يراعى فيه ذلك المقصد بالجد والبحث عن النافع من الأعمال للوصول إلى ذلك المقصد ، واختيار الأصلح من المزروعات مع ملاحظة مناسبته للأرض والتقليل منه أو الاكثار على حسب حالة الفصول والرواج – والى ما يراعى فيه مجرد القوت لأصحاب الأرض بقطع النظر عن تلك الملاحظات ، وقد يوجد هذا القسم الأخير فى كل البلاد ، وإن تفاوت فى القلة والكثرة باختلاف الأمكنة فترى المزارعين فى بعض البلاد يلحون على الأض الحجرية حتى تنبت نبتا حسنا وينوعونه كل سنة ويتعمقون فى الأرض أو يحملون سطحيا على ما يهديهم اليه وتدلهم فيه التجارب .

وبعض الناس قد رزقوا أرضا من الخصوبة بمكان تصلح لزرع كل شىء ، ولا نراهم إلا مكتفين على زرع صنف واحد أو أصناف

ممدودة — ملازمين فيه طريقة واحدة كأنهم استغنوا بجودة التربة عن الأعمال

ومنها التوظف والخدمة ـ وهذه تنقسم باعتبار أوّل إلى التوظف فى الحكومات وإلا الخدمة الخارجة عنها ـ وباعتبار آخر إلى ما يراعى فيه تأدية الوظيفة والخدمة بما لها من الحقوق وما عليها من الواجبات غير ملحوظ فيه إلاّ نفس الوظيفة والخدمة بقطع النظر عمن تؤدى له وما توصل إليه — وإلى مالا يراعى فيه إلا مجرّد المعيشة والمحافظة على الراتب بصرف النظر عن اللوازم التى لا تقوم الوظيفة والخدمة إلا بها — ويوجد من القسم الأخير كثيرون فى الممالك ، إلا أن عددهم يختلف بتفاوت التربيـة وتعميمها — وبتفاوت قيام الرؤساء بملاحظة المرءوسين حق القيـام — وبتفاوت العمل على ما أوجبـه القانون بلا تفرقة بين الأعاظم والصغار

ومنها الصناعة — وقد تكون كالتجارة موجهة إلى إجادة العمل وتحسين المصنوع مراعى فيه الربح والنماء وتوسيع دائرة الصنعة من حيث هى ، ويدخل فى باب الانتفاع بها الكثير من العمال — وقد تكون سائرة إلى الإكثار من المال بصرف النظر عن وجهته ومآخذه ويدخل فى هذ القسم الغشاشون فى المصنوع من جهة المادة أو التمويه وهم كثيرون وإن اختلفوا فى الامم باختلاف التربية العمومية وبتفاوت

مراقبة الحكام وأحكام النظام وربما اختلف ذلك فى المملكة الواحدة باختلاف الزمان

وقد يمكن إدخال بقية الطرق المستعملة بجلب الرزق التى فيها وجه الصدق والغش فى تلك الطرق الأربعة فلم يبق بعدها سوى الطرق الممحضة للغش والتدليس وهى أكثر من أن تدخل تحت عد أو يحصيها كتاب لأن الناس كلما رأوا منها قديما جددوا فيه بدعا واستنبطوا منه فروعا ــ والحوادث لا تنقطع ولا تنحصر فلا بد من وجود تلك الطرق بدوام الزمان

وانسرد منها بعض الشىء مما اتخذه أهله طرقا للعيش
والموت أحسن من السلوك فيها للمتقين الصالحين

فمن ذلك طريق التكفف للقادر على الكسب بالعمل ، وطريق السرقة والاغتصاب وطريق الخدعة والاحتيال ، وقد يدخل فى الطريق الاخير الدّجالون والرمالون وكذبة الدعاة إلى طرق يسمونها خيرية وليست منها فى شىء لأنها مناقضة للشرائع الحقة ومنافية للمعقول وقد أمرنا على لسان دعاة الهدى بأن لا نصدق إلا بما جاءوا به من النور المطابق للمعقول ، أولئك أقوام نصبوا الحبائل للبشر ، والشباك للصيد ، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشّباك مختلفات

١٤٦ — ﴿ الناس من خوف الفقر فى الفقر ﴾

يوجد بين كل أمة أفراد حُببَ اليهم من دنياهم الجمْع ، وكرهوا أن تكون لهم يد فى البذل ، أو أن يكون منهم على الناس طول ، بل إن منهم من بالغ فجعل نفسه ومن تلزمه مؤونتهم عداد الناس ، فلم يعطها حقها من الإنفاق ، وضيّق على ذوى قرباه من الصبية والنساء فلم ينالوا من سعته غير الحرمان ، وفقدوا بوجوده كل شىء من الراحة والنعيم ، وكان بقاؤه فيهم على كره منهم وهولاه عنهم مشغول الفكر بالكنز والتحرز من الضياع منهوك الجسم بما أخذ على نفسه من طريق الكف عن المشتهيات بل الحاجيات والضروريات — فما كان أجوده من فقير صابر ، يتحمل مضض الفاقة ، ولا يألم لبعده من النعمة ولا يجد من ذاته باعثاً إلى اللذة فيعيش فى شظف العيش ، وقشف الاضطرار ، قرير العين ناعم البال — ولئن ذكر بأن حالته لا تلائم ثروته سخر بالناصح ، وانتظم مكان الواعظ — وأخذ يبيّن فوائد التقتير ومضار السّرف ، وعدّ كل من حاد عن جدته مجداً فى سبيل الفقر ، مسرعاً إلى العوز والإقلال — وضرب لذلك الأمثال بمن أنفق فأملق ، وبمن مال إلى التبذير فآل إلى التدمير ، واحتجّ بالتخوّف من مصيرهم ، والوقوع فى عاقبة أمرهم

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

قال الزمخشري (لا سرف في الخير كما لا خير في السرف) وهذه أيضاً حكمة نستبين بها أن الطرف الثاني للتقتير وهو السرف مضر ضرر الطرف الأول بعينه لأن المسرف وهو من يعطى من ماله مالا يستحق لمن لا يستحق همه أن يبعثر ماجمع الأولون لغير فائدة ولا في طريق مصلحة وهو لا يتنعم منه بشيء في نفسه ولا يستفيد منه من وُكل إليه أمرهم من القرابة الشرعيين، فهو معهم فقراء في أنفسهم و إن عدهم الفقراء من المثرين ولا يمضى عليه وعليهم زمان حتى يصلوا مصير البائس ، ومن ضاقت به ذات اليد عن لوازم الحياة بهذه الحالة يتلاقى مع الطرف الأول في نقطة الإعدام وخسارة المال — وقد جعل الله عاقبة الأمرين (التقتير والسرف) واحدة حيث يقول (ولا تجعل يدكَ مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً)

فرتب الملامة والحسرة على ارتكاب مانهى عنه في الجانبين جانب غلّ اليد الى العنق ، وجانب بسطها كل البسط ، دلالة على أنهما يشتركان في شر العاقبة — ولا شبهة في أن اللوم كما يتجه على من غلّ يده إلى عنقه كذلك يتجه على من بسطها كل البسط — لأنه لا منفعة في المال المكنوز كما لافائدة في المال الذى يصرف في غير وجهته وما خلق لأجله من المنافع للناس — وكذلك يعدّ كل منهما محروماً

من ماله ، ولا بد يوما من مراجعة الواحد منهما عقله فيرى أن لا نفع له فى ماله فتلحقه الحسرة على حرمانه من ماله وضياع حياته سدى فى الجمع أو التفريق والتبديد بدون عائدة تعود عليه فى مآل دينه أو دنياه ، ويالها من حسرة يخشاها العاقل ويتحاشاها البصير ، فعاقبة الطرفين واحدة بلا نكران .

حدد الله الوسط بين هذين الطرفين وعينه كل التعيين بآية (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فالسرف والتقتير طرفان ، والقصد بينهما قوام — وقد حسب البعض أن السرف لا يكون إلا بالاتفاق فى المعصية ، أما فى الوسعة الشخصية والمنزلية فلا اسراف — وقد ذهب آخرون إلى أنه فى الأخيرة سرف كما هو فى المحرمات وهما رأيان لابد بينهما من وسط كما هو بين السرف والاقتار — والعدل ذلك أن كل نفقة فى خير على شريطة بقاء المادة الأصلية للثروة بالغة ما بلغت لا تعد من الاسراف فى شيء — أما الخير فقد بينته الشريعة المطهرة ودلت عليه أعمال السلف الصالحين ، وأن الإقتار المذموم هو الامساك عن الإنفاق فى هذا الخير — ومن باب أولى أن يعد الإمساك عن الإنفاق فى اللوازم المعاشية تقتيراً شائنا .

أنوع الخير الذى أبانته الشريعة المطهرة كثيرة فقد رغبت فى بذل كل ما يعود منه على المنفق أجرا — ولم تقتصر على لواجبات

كالزكاة فى النقود والزرع والماشية والعروض وزكاة الرقبة بالسلاح رمضان وكخمس الغنائم وسلب القتيل، بل بينت كل ما فيه كرامة خلق وتطبع بفضيلة كالصدقة الجارية والوقف على نوع مخصوص والتبرع بالاحسان واعانة المحتاج ومواساة الفقير بالعطاء وتعهد الأغنياء للمساكين كلما دعت حاجتهم إلى الانفاق.

وليس من حاجة اسرد النصوص القرآنية والحديثية والأثرية فانها بين يدى كل من اطلع عليها من الناس ولا خفاء فى فهمها ولا التباس فانها كلها من الصراحة بمكان يدركها معه حتى الأميون.

ويعد كريما ولا يحسب مسرفا شرعا كل من خصص من ماله بعد اداء الواجب من الزكاة المفروضة جزءاً لا يضيق عليه معيشته للصدقات، وله أن يجعل بذله لطائفة مخصوصة من الناس يعين صفاتهم ويجريه عليهم ماشاء من الزمن أو طول الحياة.

ويكون مقتراً إذا ارتكب ما نهى الله عنه إن كانت عنده تلك السعة وخصصها لنفسه ولم ينتفع منها أحد سواه فانه ربما جر ذلك إلى التقتير على نفسه ومن هم عالة عليه فوقع من خوف الفقر فى الفقر وإن خاف من نسبته الى بالاسراف فى الخير.

ويعتبر مقترا ملوماً كل من منع المستحق ما يستحق من المال كأن علم بأن فى جيرانه أو أهل محلته أو بلدته بائساً كبرت عليه نفسه

فتعفف عن ذل المسألة الحافاً فبات فقيراً ثم لم يواسه بما يقدر عليه من طعام أو مال يسد خلته ، ويدفع حاجته ، أو كان علم بأن فى أولئك من كان غنيا فدهمه القضاء بما لم يكن فى الحسبان ، فأمسى وهو فى مصاف الفقراء ، ثم لم يبادر إلى نجدته بماله والسعى بجاهه فى إعلام الاغنياء بحاله ، حتى يجتمع له منهم مايجعله رأس مال لحياته فى مستقبل الزمان

أو كان رأى من أولئك من قضى على عائلهم بالموت ، أو ليس لهم بعده من ساع على رزقهم وهم لا يقتدرون عليه كأن كانوا صبية أو مرضى أو كهولا ، ثم لم يتعهد أمرهم بماله وبسعيه فى استنهاض أهل الخير لهم ودعوتهم إلى إغاثة أولئك المضطرين . أو كان شاهد منهم نسمات من اليتامى تدور فى الأزقة بلا عمل ولا كسب لقلة ما يجدون ممن يأويهم ويربيهم ، ثم لم يسعفهم بالمال وبذل الجاه فى استجماع ما يصلح شأنهم من أغنياء أمتهم ومواطنيهم فى البلاد — كل هؤلاء وأمثالهم يعدون مقترين ومما يخافون الفقر وهم واقعون فيه

النوال والسخاء فى هذا السبيل وأمثاله خير وفضل ، أما قصره على المباحثات فنقص وجهل — ولأن يبنى الرجل لنفسه بيتاً من المكانة والمنزلة فى قلوب مواطنيه لخير من أن يبنى بين منازلهم قصراً مشيداً يفسح فيه المدى ويكثر فيه الزينة ويستجلب إليه الابهار ، فإن البيت فى القلوب قوى الدعائم متين الأساس ، كلما تقادم عليه العهد زاد

رفعة وانفساحا ، وذلك القصر وإن بناه بالاحكام حتى كان كالاهرام يبلوه الزمان وما لذته لصاحبه وهو قذى فى عين الفقير كلما رآه تضجر لحالة نفسه . أما ذلك البيت بيت المواساة والإحسان فهو قرة عين الفقير ، ومتنزه البائس والمسكين ، ومحط رحال المجد والفخار وإن زخرفة ليدوم بدوام الناس فى الوجود

ومن الناس من تجده يسهل عليه الانفاق فى الاستطالة بالبناء الزائد عن حاجته بكثير ، ولا يهاب المصرف فى مثل الافراح و المآتم وغيرها ، فينفق ماله وراء الناس ويجنح إلى الخيلاء في الملبس والمطعم وهو لا يحتاج من ذلك إلا إلى جزء من عشرات — ينفق هذا وهو مرتاح القلب غير متألم مما يرميه به العقلاء من الخروج عن القصد فى هذا السبيل — ثم إن دعي إلى مبرة شرعية تقاعس ، وكلما أجهد الناصح نفسه وجد فى الطلب ازداد تقاعداً وتباعداً ، وكان هذا حاله في كل دعوة إلى مكرمة يطالب بها مكارم الاخلاق — فما لمثل هذا من دواء ينفعه في تصرفاته إلا الالجاء إلى الخير فإنه لا ينفع معه الدليل ولا يفيده البرهان إذا ارتكز فى دماغه أن عمله هو اللازم ، وأن غيره من طلاب المآثر الباقية عابث مضيع للمال فى غير طريقه المعتاد فإن لم يكن القسر لازمه ناصح وما هو من حيث الوجود بقليل ودأب على تذكيره بالشريعة ومثل له بآياتها وأعمال أهلها فعدل عن طبعه

ومال إلى الخير فعمله ، وتعود بالعمل عليه فتتجه وجهته اليه ، وإن وجد فى الأمة كثير من أولئك وعز على الناصحين تهذيبهم فلا بأس من تركهم ، والركون إلى التربية فى الصغر ، فانها أقرب للمنفعة وأدنى إلى الانتفاع

يعد مسرفًا شرعا كل من صرف ماله أو شيئاً منه فى محظور لضرورة ، أو مال فى تصرفه الى الخيلاء والرياء ، أو أكثر من لوازم الحياة وحاجياتها وزخارفها مقتصراً عليها وتأدى به ذلك الى ضياع المال كله أو معظمه والاحتياج إلى الغير بعد زمان وإن خرج به تجاوز الحد الى الاستدانة لستر الحالة كما يفعله الكثير كان من السفهاء المغرورين — وربما كان من اللازب أن يقوم عليه قيم يدير له شئون المال ويتصرف بما فيه المصلحة لئلا يتكاثر الدين وهو فى غفلته فلا يصحو إلا وقد نفد الرزق أجمعه ، وأصبح من المقلين وتلاقى مع طرف التقتير ، ونادى عليه حاله والناس « لا خير فى السرف بحال من الأحوال »

١٤٧ — ﴿ فوائد صناديق التوفير ﴾

ان من أهم ما يجب أن تصرف اليه العناية هو غرس مبادىء الاقتصاد والتوفير في نفس الأولاد من الصغر ، حتى ترتاح اليه نفوسهم عند الكبر

ولا شك أن صناديق التوفير عظيمة الفائدة فى كل بلاد أنشئت فيها — وعلى الخصوص فى البلاد التى تكون فيها أبواب التبذير واسعة فعلى كل عاقل يسعي في وضع كل مايتوفر لديه فى إحدى صناديق التوفير المنتشرة فى انحاء القطر ولا يخجل من قلتها فان القليل مع القليل كثير

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقي الكثير مع الفساد

ولا بد من يوم يجد فيه مبلغا يقوم بحاجاته ، بل بمعيشته ، بل الخجل الأعظم هو عدم وجود مال متوفر لديه مع شدة حاجته اليه قال الإمام أبو بكر (انى لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الايام فى اليوم الواحد) وقال بعض الملوك (أفضل أن أرى رعاياى يضحكون على بخلى من أراهم يبكون من إسرافى) ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل ، ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر وطاب نفسا بالذل

وأسباب الاقتصاد عديدة ومزاياه مفيدة وفوائده جمة وعوائده عامة — فان الاموال المقتصدة تنفع صاحبها عند وقوعه فى الحاجة (الدرهم الأبيض ينفع فى اليوم الأسود)

وقال الشاعر

إن الدراهم فى المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا

فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتالا

فأنعم بمشروع صناديق التوفير الذى وسّع ما ضاق ، وكبّر ما صغر ووفر ما زاد ويسر ما تعسر وشرح صدوراً كانت منقبضة وساعد أناساً هم فى حاجة إلى المساعدة بدون مقابل ولا أجر — ولله در من شرع ومن تمم ذلك العمل العظيم القدر . الكبير النفع . الجليل الوضع .

وبالجملة — الناس طوائف ، فمنهم الأغنياء الواسعو الثروة الذين إذا لم يعيشوا بالترف الزائد لم يمكنهم أن ينفقوا دخلهم كله وهؤلاء يكفيهم أن يعتدلوا فى نفقاتهم حتى لا تزيد على دخلهم وإلا فإن أسرفوا كثيراً لم يسلموا من الفقر — وإن اقتصدوا كثيراً جمعوا مال الدنيا وأوقفوا حركة الأعمال وغلوا أيدى أهل الصناعة والتجارة وكلا الأمرين مذموم — ومنهم الفقراء والأواسط الذين إذا عاشوا بالحكمة والتدبير لم يزد دخلهم على نفقاتهم إلا قليلا ، وهم الفريق الأكبر من البشر ، فهؤلاء يجب عليهم الاستعداد للعطلة والمرض والشيخوخة بذخر النقود عند مسيس الحاجة إليها — وذخر النقود فى البيت قلّما يفى بالغاية المطلوبة ، وربما تنفق على غير حاجة شديدة وذخرها فى البنوك الكبيرة متعذر لأن هذه البنوك لا تستلم إلا المبالغ الكبيرة وتحبس فيها نصف سنة على الأقل — فإذا مست الحاجة واقتضت الحالة وضع صناديق التوفير لذخر ثلاثة أو خمسة قروش أميرية للفقراء من العمال وغيرهم جاءت بفائدة عظيمة وأصبحت

من أفعل الوسائط لتهذيب الناس وردعهم عن الشرور وجعلهم من الذين يحسنون صنعاً .

١٤٨ — ﴿ هل الفوائد الناتجة عن تأليف الشركات فى بلادنا من الأجانب مشتركة بيننا وبينهم ـ أو عائدة عليهم فقط ؟ ﴾

من أنعم النظر فى أحوال الأمم الأوربيـة وتأمل في أمور الجمهوريات الأمريكية والمستعمرات الأوسترالية ، وسبر غور هذه الأمم بمنظار الانتقاد ، وبحث فى أحوالها وأطوارها بتأمل وافتقاد تجلت له فى أحسن جلباب وظهرت له حقائقها بغير حجاب ، واتضح له جلياً أنها نالت قصب الرهان فى مضمار التمدين والعمران وفازت بأمانيها من اتساع نطاق الحضارة وتقدم الصناعة والزراعة والتجارة فنشأ عن ذلك اشتراك المنافع بين الأمم واشتباك فروع التجارة بين جميع الحكومات والملل بتأسيس الشركات

انظر إلى الشركات الدولية كشركات السفن البخارية والسكك الحديدية والأسـلاك البرقية وما أفادته من تسهيل المواصلات وتقريب المسافات فقطعت الفيافى والفلوات واخترقت الجبال والآكام والصحراوات وكثر انتقال الافراد إلى كافة الممالك والبلاد على أحسن أسلوب وأتم نظام مما هومشاهد بالعيان فى كل زمان ومكان

وانظر إلى الشركات التجارية وما فعلته يد المنافسة فى البلاد

الغربية يندهش لبك ويتحير فكرك .

وانظر إلى الشركات الصناعية وما وصلت إليه يد الصناع من المصنوعات التى عمرت جميع البقاع .

وانظر إلى الشركات الزراعية وما وصلت إليه فى تلك الأقطار مما يدهش الابصار ويبهج الانظار فما غادرت شبر أرض فى تلك البلاد إلا وأخصبته حتى منحدر الجبال أصبح رياضاً وبساتين يسر الناظرين ـ ولا يبعد أن تستخدم قممها وذراها من غرسها وبنائها فتقدمت الأراضى تقدماً باهراً وصار الفدان الواحد يساوى مبلغاً وافراً ، ضعف ما كان يساويه قبلا مرتين أو أكثر ـ وهكذا بقية الشركات التى غيرت نظام الهيئة الاجتماعية ، وأوجدت المنافسة فى كافة المشروعات التجارية والصناعية ، وجعلت جميع الافراد مشمولة بالمنافع العمومية ، ونشرت بينهم روح الحضارة والمدنية وصار الكل يشتغلون ويربحون ويكسبون ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

١٤٩ ـ ﴿ لا سرف فى الخير كما لا خير فى السرف ﴾

لا بد للعاقل من التبصر فى عواقب الامور ، والنظر فى مستقبلها فلا تغره ما تفيض يده به من الدينار والدرهم ، فيزعم أن الايام لا تتنكر له ، وأن الفقر لن يلج بابه ، فيبذر ، يسرف ، ويبدد ويتلف : لا يحسب للعواقب حساباً ، ولا يخشى من الايام انتقاضاً

فكم رأينا من عزيز أصبح بعد الرفهِ والنعمة ، وبعد الحياة اللينة ، يمتهد الثرى ، ويستندى الأكف ، يطرق الأبواب فلا يجاب . قد صد عنه صديقه ، وفر من لقائه من كان فى نعمته مغموراً ، وبغناه فرحاً مسروراً ، وضربت عليه الذلة والمسكنة ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فهو من ليله فى سُهد وأرق ، لا يذوق النوم إلا غراراً ، ومن نهاره فى هم وقلق ، لا يرى للراحة مناراً . لا يجد حراً يواسيه ، ولا رفيقاً ينسيه ما هو فيه . تجرى دموعه على خد أذبلته الأيام بعد النضرة ، أسفاً على ذلك النعيم الزائل والمجد الحائل ، حتى إذا قرص الجوع أحشاءه ، وأنهك قواه ، دار يتفرس الوجوه ، عله يجد كريماً يسد خلّته ، ويرق لمصابه ، وأين الكريم فهو من نهاره فى نصب وعناء ، ومن ليله فى شقاء وبلاء .

غالبت كل بليـــة فغلبتها والفقر غالبنى فأصبح غالبى

نعم إن الفاقة هى الموت أو شر منه .

فالموت خير من حياة يرى بهـا على الحر بالإقلال وسمُ هوان

الفقر يخرس الفطن عن حجته ، ويجعله غريباً فى بلدته ، لا يجد بُدًّا من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهبت مروءته ، ومن ذهبت مروءته فلا خير له فى الحياة .

ولو أن ذلك المسرف المبذر أعد للدهر وتقلباته عدة من القصد

فى موارده ، فادّخر ما يدرأ به عادية الزمان ، واتبع قول الله الكريم (وَالذين إذا أنفقوا لم يسرِفُوا ولم يَقْترُوا وكان بين ذلك قَواماً) لما لقى من دهره ما ليس له بحمله يدان . فان حسن التقدير مع الكفاف ، أبقى من الكثير مع الإسراف . وإن فى إصلاح المال سلامة الدين ، وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض .

قليل المال نصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

فأما أولئك الذين يغرهم أن يقال جواد ، فينفقون أموالهم بين الملاعب والملاهى ، ولا يدعون منكراً إلا ارتكبوه ، ولا إثما إلا اقترفوه فلا دواء لهؤلاء إلا الفقر الذي يضرب على أيديهم ، ويقع موقع الأغلال من أعناقهم — وذلك جزاء المفسدين .

الجود فضيلة ، ولكنه إن جاوز الحد أو أخطأ الغرض انقلب رذيلة لا تغفر ، وزلة لا تستباح ، وكيف يجود المرء بماله تكرماً وحاجته اليه ماسة ، ونفسه بما يجود به أجدر ، ولأن يمسك ما فى يده أحب وأفضل من أن يعدها إلى الناس .

يارُب جود جر فقر امرىء فقام فى الناس مقام الذليل
فاشدد عرا مالك واستبقه فالموت خير من سؤال البخيل

وبالجملة — إن الإنسان لا يدرى ما خبأه له الزمن فى كنانته من مُدْلهم الخطوب ، وبالغ الحادثات . فبينما ترى الرجل غنياً مكثراً

إذا هو قد قلب له الدهر ظهر المجن ، فأنضب معين ثروته ، وأفاض مجرى سعادته .

وبينا تراه معافى فى جسمه ، موفورا فى صحته ، إذا بالأسقام انتابته ، وبالخطوب تهادته ، وبسهام الآلام رمته ، فأذوت نضير غُصنه ، وأذبلت زهرة شبابه .

وبينا تراه وحيـــداً إذا بك تراه رب أسرة ، وكاسب صبية تلك سنة الله فى خلقه ، ودوام حال محال .

ألا وإن الصديق تدخره للشدة ، والصاحب تستمده فى الحاجة هو المال فهو وحده يكفكف الدمع ، ويلم الشعث ، ويصلح ما أوهته يد الخطوب . فلا جرم إذا كان الاقتصاد فضيلة ، والاسراف رذيلة فبالاقتصاد يخفف الانسان وطأة الفقر ، ويدفع شِرّة الألم ، ويستعيد رونق الشباب ، وغضارة الفُتوة ، وبثماره الشهية يسدّ رمق ذوى الحاجة ، ويربى الأبناء ، ويوطىء لهم سبيل الرقى والفلاح .

فأما من أسرف وبذر ، وفرق ما ادخر ، وبدّد ما جمع ، وأمن عوادى الزمن ، فقدنصب نفسه هدفاً لسهامه ، وغرضاً لخطوبه وآلامه يوم تنوبه النائبة ، وتصيبه الصائبة ، فلا ملجأ له ولا وزر ، ولا مال قد ادخر ، وأنى له بحر يواسيه ، أو كريم يؤاخيه ، ويوم تكون ذكرى ماضيه غصة على غصة ، يعضّ بنان النادم المتحسر على ما فرط فيه

يقول ياليتني قدمت لحياتى ، وماذا ينفع الندم وقد أحاط به جيش الألم

فالعاقل من اغتنم من غناه لفقره ، ومن شبابه لهرمه ، ومن صحته لمرضه ، ولبس لكل حالة لبوسها ، حتى لا ييأس لخطب ، أو يذوب أسى لكرب .

(١٥٠)

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

حلية الإنسان بين أقرانه ، نفس شريفة ، وعِرض طاهر نقي وخلُقٌ جميل ، فاذا استكمل ذلك ، فقد استكمل الُحسن ، واستحق الإجلال والإكبار .

ولا يضره أن يكون فقيراً معدماً يرتدى أسمالا بالية ، فان الثياب تبلى جِدَّتها وتذهبُ الايام بنضرتها ، وجمال الأخلاق يزيد على الايام حسنا ، ويجعل للمتحلّى به بين الناس شأنا رفيعا .

ومن الناس من لا يبالى بحفظ عرضه وصون نفسه من الدنس ثم يستر هذه النفس الدنيئة ، وذلك العرض الخسيس ، بأجمل الثياب وأنفس الحلل ، فيكون مثله كمثل الذى تناول جيفة قذرة ولفها فى لفائف الحرير ، لا يمنعها ذلك أن تكون خبيثة الريح قبيحة المنظر

ليس الجمال بأثواب تزيننا   إن الجمالَ جمالُ العلم والأدب

فالعاقل من كمل نفسه ، وصان عرضه ، فالمرء بآدابه لا بثيابه

٢٥١ — ﴿ الفلاح رُوح العُمران ﴾

إذا ما اخترت فى الدنيا حبيباً   فخير أحبتى فلاح مصرا
كريماً يملأ البلدان خيرا   ولا يلقى سوى الإجحاف أجرا
بمحراث يشقّ الأرض شقاً   فيخرج من ثراها الخصب تبرا
فلو عرف الطريق الحق قومى   لما احتقروا له عملاً وقدرا

الفلاح يدرّ على البلاد الخير واليمن والرخاء ، ويزرع الحبوب والخضرَ التى تنتجها الأرض ، ويغدو ويروح إلى حقل مترامى الأطراف ، كالزبرجدة الخضراء أو البساط السندسى ويتحمل حرارة القيظ وزمهرير الشتاء مجداً فى عمله ينفع وطنه بالثمرات الناتجة من زرعه ، وَيصلح الأرض البور ، ويربى الماشية التى نأخذ لبنها، ونأكل لحمها ، ويساعد على تشييد المنازل ويغرس الأشجار ويتعهدها بالسقى لنجنى ثمارها ، ونقطف أزهارها ، ونشم شذاها . ويعمل الأعمال بأجر قليل وعن بخس ، وبه حياة العمران وعمام الرفاهية والسعادة بزيادة دخل الحكومة من ثمن قطن وحبوب ، ودفع خراج أرضه .

(١٥٢)

إذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع
وكيف تريد أن تدعى حكيماً   وأنت لكل ما تهوى تبوعُ

جهلٌ وألف جهل من المرء أن يتشبث بغير الممكن، ويجرى وراء

المستحيلات فإن ذلك تضييع للحزم، وتوجيهٌ للعزم إلى غير وجهه فينبغي للعاقل الذى يحرص على أن يذكر بالرجاحة ويعرَف بالحزم أن يحكم أمرَ نفسه، فيردَّها عن الاسترسال فى أمانيها الباطلة، ومطامعها الزائدة، فان مصارع الرجال تحت بروق الطمع.

(١٥٣)

إذا صاحبتَ فى أيام بؤس فلا تنسَ المودة فى الرَّخاء
ومن يُعْدَم أَخُوه على غناه فما أدَّى الحقيقة فى الإخاء

أجلْ إن صديقك الذى عرفته فى أيام شقائك ومِحْنَتك، وفقرك وحاجتك، فدفع عنك بعض آلامك، وهوَّن من مصائبك، جدير منك أن تحرص عليه إذا صِرْت إلى اليسر والسعادة، حتى تؤدى له بعض ما يجب عليك، وحتى تُشاركه فى نعيمك كما شاركك فى بؤسك، والا فانك قد خُنْت الصداقة وَعقَقْتَ المروءة إذا شقي وأنت فى نعيم وصفاء، وافتقر وأنت فى غناء وهناء.

(١٥٤)

إذا كان رُعبِي يورِث الأمن فهْوَلى ألذُّ من الأمن الذى يوجب الرعبا

أهلاً بتلك الحوادث التى تخوفنى فأحذَر، وتنذِرنى فأتقى وتذكِّرني فأتّعظ، وتفيدنى التجربة والحزمَ فأسر بعد حزن وأضحك بعد بكاء، ولا أهلا بالنعيم الذى لا ظِل له، واللذة التي

تُعقِب الحسْرَة ، وتخاف الندم .

(١٥٥)

إذا فعل الفتى ما عنهُ يَنهي فمن جهتين لا جهةٍ أساء

حقا إن الواعظ يجب أن يكون أول العاملين بموعظتـه ، وإلا فقـد أساء إلى نفسه إساءتين أولاهما أنه عرف شراً فلم يتجنبـه وأخراهما أنه رضي لنفسه ما لم يرضه للناس وذلك أهون لنفسه عليه .

(١٥٦)

وما الحسَبُ الموْرُوثُ لادَرَّ دَرُّهُ بمحتَسَبٍ إلا باخر مُكتَسَبْ

إذا العود لم يثمر وإن كان شُعبة من المثمرات اعتدّه الناس فى الحطب

فليس يسود المرء إلا بنفسه وإن عدّ آباء كراما ذوى حسَبْ

لا تعتمد على شرف آبائك ، فانما حازوه بأعمالهم ، واستحقوه بجهودهم ، وليس بمعدود فى مفاخرك ، حتى يكون إلى جانبه شرف ترتقى اليه بهمتك ، وتعمل فيه بيدك ، ألست ترى العود من الشجرة المثمرة وإن قصر عن طبيعة أصله ، وفقد مزية أرومته ، لم يكن لغير النار طعاما ، فعلى نفسك فعوّل — وليس للإنسان إلا ما سعى .

(١٥٧)

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يُرَى له أحدٌ يزري عليه وينكر

ليس شرا على المرء من ذلك اليوم الذى يركب فيه هواه فلا يجد

له رادا عن ضلاله ، ولا منهنها من غُلوائه ، فانه جدير إذ ذلك أن يتردى فى مهاوي ضلالته ، ويذهب فريسة جهالته .

(١٥٨)

وإذا عجزتَ عن العَدُوِّ فداره وامزَح لهُ إن المِزَاحَ وفاقُ
فالنار بالماء الذى هو ضدها تُعْطى النضَاج وطبعها الإحراق

إذا أعياك عدوك وظهر عليك بقوته فتغلب عليه بالمعروف يسهل لك صعبه وتلنْ قسوته ويذهب غضبه ، فإن المعروف علاج الإباء ونازع العداوة ، ألست ترى الماء والنار وهما ضدان ، قد أمكن أن نستفيد منهما بوضع الاناء بينهما فنحصل على انضاج الطعام .

(١٥٩)

إذا الأمر أعيا اليوم فانظر بهغدا لعل عسيراً فى غدٍ يتيسر
ولا تبد قولا من لسانك لم يرُض مواقعه من قبل ذاك التفكر
ولا تصرمن حبل امرىء فى رضا امرىء فيتصلا يوماً وحبلك أبتر

إذا حاولت أمرا نخاب فيه سعيك فلاتستسلم إلى اليأس فيعقل لسانك ويذهب بصوابك ، ويفتُّ فى عَضدِكَ ، فإنما عظائم الأمور صيد حبالته الصبر وشركه الأناة ، فأوسع لنفسك مجال الأمل ، يضيء لك صبح المشكلات ، وليكن منك على نفسك رقيب يناقشها الحساب فلا تنطق بالقول حتى تمر به على ذهنك ، فتقدر موقعه وتقرأ عاقبته

فإنك إن لم تفعل دللت الناس على عيوبك ، فسجلوا عليك الحمق ، وعدوا لك الهفوات ، وربما راش لك لسانك سهما فأرداك ، أو حفر لك قبرا فواراك .

إن للصداقة حقا يجب أن ترعاه ، فلا تجعلها سلعة تساوم فيها الأصدقاء ، تبذل منها بقدر ما تدر لك من النفع ، وتضن بها حين لا تؤمل منها ربحا . فتخذل الضعيف لتمالىء القوى ، وتهجر الفقير لترتع فى بحبوحة الغنى . فإن تلك خلة لو عرفها الناس لزهدوا فى صداقتك ، فتأهل ربوع إخائهم ، وقد أفردت فى دار وحشة ، ويجتمع شملهم ، وقد رثت حبالك منهم .

(١٦٠)

يلومونى فى الدَّين قومى وإنما ديونىَ فى أشياء تكسبهم حمدا
أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وإن الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لمختلف جدا
فإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

عجبت ومالى لا أعجب من قوم ضيعوا الحزم فى عتبي ، وجنحوا به عن محجة الصواب ، بل فاتهم أني أجدّ ليجدوا ، وأبنى ليتفيئوا وأحترق ليستنيروا ، وأتحمل ثقل الدين دونهم لأقيم لهم فخرا يجنون شرفه ويبقى لهم اسمه . أؤدى ما عجز عنه كسولهم ، وأبغى ما رغبت

فيه نفوسهم ، فقصر عنه سعيهم . لقد يقضى اللبيب عجبا من الفرق بينى وبين هؤلاء ، إذ لا يلتقى هواى بهواهم ، ولا يوافق شكلهم شكلى . فإذا خانوا غيبتى ونهشوا عرضى كنت على غيبهم أمينا وعن أعراضهم ذائدا . وإن كفروا شكرت — أو عابوا أثنيت .

١٦١ — ﴿ الرحمة فوق العدل ﴾

ولا تخش غير الله وارحم عباده   فرحمته ذخر لمن هو راحم

جميل والف جميل الاتصاف بالشفقة والرحمة مع جميع المخلوقات لا فرق بين إنسان وحيوان ، والعطف على البؤساء والضعفاء ، ومعاملة جميع الناس بالرأفة ، ولين الجانب ، والابتعاد عن القسوة والغلظة فالرفق من دواعى الألفة والتواصل ، وسبب إلى السلام والوئام وعماد السعادة وأس النظام ، فكثيرا ما قطع الخرق تواصلا ، وفك ترابطاً ، وكم أفسد العنف نظاما ، وسبب هلاكا ، وكم أخل أعمالا وضيع آمالا ، ولقد وصف الله تعالى نفسه بالرحمة فقال جل شأنه (كتب ربكم على نفسه الرحمة أنهُ من عملَ منكم سُوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلحَ فانهُ غفورٌ رحيمٌ) وقال عز وجل (فبما رحمة من الله لِنتَ لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلبِ لانفضوا من حولك) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله يحب الرفق فى

الأمر كله) وقال عليه الصلاة والسلام (من أوتى حظه من الرفق فقد أوتى حظه من الدنيا والآخرة) ورُوى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (مادخل الرفق فى شىء إلا زانه ولا نزع من شىء إلا شانه) وقال عليه الصلاة والسلام (ارحمو تُرحموا أو اغفروا يُغفرْ لكم) وقال (لاتنزع الرحمة إلا من قلب شقي) وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف ومالا يعطى على سواه) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء)

وقال معاوية : عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه عليه بالحجة ، ولمن يطلبه بخرق وهو يقدر عليه برفق

وقال أشجع السلمى لجعفر بن يحيي : ما كاد يُدْرك بالرجال ولا بالمال ما أدركت بالرفق

وقال بعض الحكماء : يُدرك بالرفق مالا يُدرك بالعنف، ألا ترى أن الماء على رقته ، يقطع الحجر على شدته

وقال بعض العقلاء : إذا لم يُدرك الظفر بالرفق والتأنى فبماذا يُدرك . وقال آخر : يد الرفق تجنى ثمرة السلامة ، ويد الخرق تغرس شجرة الندامة . وقيل : الرفق مفتاح النجاح وقيل أيضاً : بالرفق

تستجلب القلوب

وقال أبو الفتح البستى

ورافق الرفق فى كل الأمور فلم يندم رفيق ولم يذممه إنسان
ولا يغرّنك حظ جرّهُ خَرَقٌ فالخرق هدّم ورفق المرء بنيان

وقال النابغة الذبيانى

الرفق يُمْنٌ والأناة سعادةٌ فاستأن فى رفق تلاق نجاحا

وقال آخر

من يستعن بالرفق فى أمرهِ يستخرج الحيـة من وكرها

١٦٢ — ﴿ برّوا آباءكم تبركم أبناؤكم ﴾

ليس هناك مخلوق لا يشعر بما للوالدين من الولاء الجميـل والفضل الجزيل ، فهما سبب وجوده فى هذه الحياة ، وقد راعياه مراعاة الحنان والإكرام منذ الصغر ، وربّياه جهد طاقتهما حتى الكبر ، فلم يألُوا جهداً فى إرضائه والعمل على تمام راحته ، و إذا كان هـذا هو حالهما معه ، فما أولاه أن يقابلهما بمثل إكرامهما له ، ويبرهما فى كبرهما مقابل عطفهما عليه في صغره ، ويساعدهما فى لوازم الحياة بكل ما أوتى من قوة ، وما وُهبَ من عقل ، وهو يعلم أنه ليس من الدين ولا من المروءة أن يقابلهما بالعقوق ، ويجحد فضلهما عليه ، و يُنكر ما قدّماه له من خدمات جليلة ، وما تحمّلاه معه من متاعب جسيمة ، ولقـد

حثنا الله تعالى بوجوب برّهما والإحسان اليهما فقال جل شأنه (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . وقل رب ارحمهما كما ربّيانى صغيراً) وقال عز وجل (ووصينا الانسان بوالديه إحساناً) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بروا آباءكم تبركم أبناؤكم) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (من أرضى والديه فقد أرضى الله ومن أسخط والديه فقد أسخط الله) وعنه أنه قال (من بر والديه طوبى له زاد الله فى عمره) وقال عليه الصلاة والسلام) ما من رجل ينظر إلى وجه والديه نظرةَ رحمة إلا كتب الله بها حجةً مقبولة مبرورة) وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يَجزى ولدٌ والداً إلا أن يجده مملوكاً فيُعتقَهُ) وعنه أنه قال (طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد) وقال (اثنان يعجل الله عقوبتهما فى الدنيا البغي وعقوق الوالدين) وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الكبائر ، الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس) وعنه عليه

الصلاة والسلام أنه قال (ليلة أسرى بى رأيت أقواماً فى النار معلقين فى جذوع من نار ، فقلتُ من هؤلاء يا جبريل ، قال الذين يشتمون آباءهم وأمهاتهم فى الدنيا)

وقال الحسن البصرى ، حق الوالد أعظم ، وبر الوالدة ألزم

أشكر محاسن والديك وعزهم ... واخفض لهم عز الجناح بذله

وقال آخر

لأمك حق لو علمت كبير ... كثيرك يا هذا لديه يسير

فكم ليلة باتت بثقلك تشتكى ... لها من جواها أنة وزفير

عليك ببر الوالدين كليهما ... وبر ذوى القربى وبر الأباعد

٢٦٣ — ﴿ صلة الرحم من صلة الرحمن جل شأنه ﴾

تتكوّن حياتنا الاجتماعية من الأسر « والعائلات » فإذا تفككت عُرى اتصال هذه الأسر ، وتحلّلت روابط تلك العائلات فقد ضاع القصد منها ، وأصبح كل فرد منعزلاً عن الآخر يهيم على وجهه فى الفيافى والقفار ، لايجد له ناصراً ، ولا يرى له معيناً وَحينئذ فلا تجد للحياة نظاماً ، ولا للعيش سعادة ، ولهذا كانت صلة الرحم السبيل الأقوى إلى توطيد عُرا المحبة ، وتوثيق روابط الألفة وَالوئام ، فمن تجرأعلى قطع تلك العلائق ، وفصم هاتيك الصلات بين الأقارب ، فقد اعتدى على النظام الإلهى ، ثم لا يجد

له من دون الله ولياً ولا نصيراً

قال الله تعالى (يا أيها الناسُ اتقُوا رَبكم الذى خَلَقَكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونِساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيباً) وقال جل شأنه (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) وقال عز وجل (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلونَ ما أمرَ اللهُ به أن يوصل ويخشونَ ربهم ويخافون سوءَ الحسابِ)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سرَّه أن يُبسط له فى رزقه وأن يُنسأله فى أثره فليصل (رحمَهُ) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الله تعالى خلق الخلق حتي إذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقال مَهْ فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم : أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، رضيت يارب ، قال فذلك لكِ) وقال عليه الصلاة والسلام (صلة الرحم تزيدُ العمر) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتققت اسمها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته) وعنه أنه قال (اثنان لا ينظر الله اليهما يوم القيامة قاطع الرحم وجارُ السوء) وقال أيضاً (صلةُ الرحم وحسنُ الخلق وحسن

الجوار يعمرن الديار ويزدن فى الأعمار) وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أسرع الخير ثوابا ، البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة ، البغى ، وقطيعة الرحم) وروى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن مجتمعون فقال (يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى ، فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى . وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم)

وقال بعض الحكماء : صلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق

وقال بعض الأدباء : من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ، ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك

وقال بعض البلغاء : صلوا أرحامكم فإنها لا تُبلى عليها أصولكم ولا تُهضم عليها فروعكم . وقال آخر : من وصل رحمه وصله الله ورحمه

وحسبك من ذل وسوء صنيعة ... مناوأة ذى القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبهُ ... لترجعه يوماً إلىَّ الرواجعُ
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصلٌ ... وعبدٌ لأرحام القرابة قاطعُ

١٦٤ — ﴿العمل للدارين صفقة رابحة﴾

ماأحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس للرجل

تقضى الشريعة الإسلامية ، والقوانين الإلهية ، أن يعمل الإنسان للدنيا والآخرة معاً ، بحيث لاينكب على الدنيا ويفرط فى الحب لها والولوع بها ، فيسوقه ذلك إلى التغالى فى لذاتها والانهماك فى شهواتها ، فينسي عاقبته ويخسر آخرته ، ولايترك الدنيا مطلقاً ويرغب عنها كلية ، فيضيعها ويقضي على الغرض منها ، وحين إذ ذاك يكون قد أخلّ بنظام الكون ، وخالف قوانين الشريعة

قال تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين) وقال (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وقال عليه الصلاة والسلام (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة . ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (أعظم الناس همّاً المؤمن يهتمّ بأمر دنياه وأمر آخرته) وعنه أنه قال (خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلاًّ على الناس) وقال أيضاً (دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ

من الدنيا فوق مايكفيه أخذ حتفَهُ وهو لا يشعر) وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من أحبّ دنياه أضرَّ بآخرته ، ومن أحبَّ آخرته أضر بدنياه فآثِرُوا مايبقى على مايفنى)

وقال على كرم الله وجهه لرجل ذم الدنيا عنده : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فَهِم عنها ، ودار غِنًى لمن تزوّد منها

وقال سفيان الثورى رحمه الله : مكتوب فى التوراة ، إذا كان فى البيت بُرٌّ فتعبَّد ، وإذا لم يكن فاطلب ياابن آدم : حرك يدك يسبب لك رزقك ، وقال وهب بن منبه : مثل الدنيا والآخرة مثل ضَرَّتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى

وقال ابن السماك : من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها .

وقال بعض الحكماء : ليكن طلبك الدنيا اضطراراً ، وتذكرك فى الأمور اعتباراً ، وسعيك لمعادك ابتداراً ، وقال آخر : انظر إلى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ، ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها

وقال غيره : ليس من الرغبة فى الدنيا اكتساب مايصون العرض فيها

وقال بعض السلف : الموت قصاراك فخذ من دنياك لأخراك

وقال آخر : إنى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى ، وشر

الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر : وقال غيره من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ، ومن آثر الدنيا حُرمها والآخرة ، وقال جرير :

فلا هو فى الدنيا مضيِّع نصيبه ولا عَرَض الدنيا عن الدين شاغله

١٦٥ — ﴿زارع البرّ يحصد السرور﴾

الكرم والمعروف والإحسان صفات جليلة فى النفس تدفعها إلى فعل المكرمات ، ومد يد المساعدة لذوى الحاجة والبائسين والعمل على تخفيف الكوارث عمن سطا عليهم الدهر ، وصرعتهم شقوة الحياة وهى العوامل الفعالة إلى غرس بذور المحبة بين الناس وتوطيد علائق الألفة بين الأفراد ، ويكفى المرء دليلاً على الترغيب فى التخلق بها ماقرنه الله تعالى من البركة والنماء فى أرزاق المحسنين وما وَعدهم إياه من الثواب والأجر العظيم

قال الله تعالى (وأنفقوا ممّا رزقناكم مِنْ قَبْلِ أن يَأتِىَ أحَدَكم الموْتُ فيقولَ رَبِّ لوْلاَ أخَّرْتنى إلى أجَلٍ قريب فَأصَّدّقَ وأكُنْ منَ الصالحينَ) وقال تعالى (الذين يقيمونَ الصَّلاَةَ ومما رزقْناهم ينفِقُونَ ، أولئك هم المؤمنونَ حقًّا) وقال جل شأنه (مَثلُ الذينَ ينفِقُونَ أموالَهُمْ فى سبيل اللهِ كمثل حَبَّةٍ أنبتت سَبْعَ سَنابِلَ فى كلِّ سُنْبُلَةٍ مائة حبَّةٍ ، واللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ واللهُ وَاسِعٌ عليمٌ) وقال عزّ وجل (وما تنفِقوامنْ خيرٍ يُوَفَّ اليكمْ وأنتم لاتُظلَمونَ)

وقال تعالى (وَما أنفقتمْ من شيءٍ فهُوَ يُخلِفُهُ) وقال تعالى (هل جزاء الإحسانِ إلا الإحسانُ) وقال تعالى (وَلا تحْسبَنّ الذين يبخلونَ بما آتاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سَيطوَّقونَ ما بَخِلوا به يومَ القيامةِ)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (استنزلوا الرزق بالصدَقة) وقال عليه الصلاة والسلام (حَصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداوُوا امرضاكم بالصدقة) ورُوى عنهُ عليه الصلاة والسلام أنه قال (إن الصدقة لتطفىء عن أهلها حرَّ القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظلّ صدقتهِ) وعنه أنه قال (إن أهلَ المعروف في الدنيا هم أهلُ المعروف فى الآخرة، وإن أوّلَ أهل الجنة دخولاً هم أهل المعروف) وقال (اصنع المعروف إلى مَن هو أهله وإلى غير أهله، فإن أصبْتَ أهله أصبتَ أهله وإن لم تصب أهلَه كنت أنت أهلَهُ) وَقال (جُبِلت القلوبُ على حُب من أحسن إليها وبغض من أساءَ إليها) وعن أبى هُريرة رضى الله عنهُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط مُنفقاً خلفاً، ويقول الثانى اللهم أعط ممسكاً تلفاً) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (قال الله تعالى أنفق يا بن آدم يُنفقْ عليك) وقال (من كانَ يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله

واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) وقال (كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان)

وقال على كرم الله وجهه : لا تستحى من عطاء القليل فالحرمان أقل منه ، ولا تجبن عند الكثير فإنك أكثر منه)

وقال الأحنف بن قيس : ماادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتي للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوى الأحساب

وقال سعد بن العاصى : قبَّحَ الله المعروف إن لم يكن ابتدىء من غير مسألة ، فالمعروف عوض عن مسألة الرجل إذا بذل وجهه فقلبه خائف ، وفرائصه ترعد ، وجبينه يرشح ، لايدرى أيرجع بنُجح الطلب أم بسوء المنقاب

وقال بعض الحكماء : إن فى الكرم عزّ الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت ، وخلود جميل الذكر . وقال آخر : الجود يوجب المدح ، والبخل يوجب الذم . وقال غيره : اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله ، وأحسن والدولة لك يُحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عُدّة لزمان بلائك

وقال أحد الأدباء : من لم يصن وجهه عن مسألتك فصن وجهك عن ردّه . وقال آخر : أفضل الناس ماعاش الناس فى فضلهِ

وقال أحد العقلاء : جود الرجل يحببُه إلى أعدائه ، وبخله يبغضه إلى أودائه . وقال آخر : من كثرت عوارفه ، كثر معارفه

وقال أحد البلغاء : من بذل ماله أدرك آماله . وقال أفضل العطية جهد المقل

وقال أحد الفضلاء : للمعروف خصائل ثلاث . تعجيله ، وتيسيره وتستيره ، فمن أخل بواحدة منها فقد بخس المعروف حقه ، وسقط عنه الشكر

وقال أحد الأجواد : خير النوال ماوصل قبل السؤال

وقال آخر : أكمل الخصال ثلاثة ، وقار بلا مهابة ، وسماح بلا طلب مكافأة ، وحلم بغير ذل

وكتب كسرى إلى بعض عماله : استقلل كثير ماتُعطى ، واستكثر قليل ما تأخذ ، فإن قرّة عَين الكريم فيما يُعطى ، وقرّة عَين اللئيم فيما يأخذ ، ولا تجعل الشّحيح لك معينا ، ولا الكذاب أمينا ، فإنه لا إعانة مع شح ، ولا أمانة مع كذوب .

وإذا اتّسعتَ برزق ربك فاجعلَنْ ... منه الأجلّ لأوجه الصدقات

ولم أر كالمعروف أما مذاقه ... فحلو وأما وجهه فجميل

خير أيام الفتى يومٌ نَفَعْ ... واصطناع المعروف أبقى مُصْطنَعْ

ما يُنال الخير بالشر ولا ... يَحصد الزارع إلا ما زرع

كن محسناً مهما استطعت فهذه الـ — دنيا وإن طالت قصير عمرها
إن المآثر في الورى ذرية — يفنى مؤثرها ويبقى ذكرها
فترى الكريم كشمعة من عنبر — ضاءت فإن طفئت تضوع نشرُها
إذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى — فأنت إذاً والمقترون سواء
على أن في الأموال يوماً تباعة — على أهلها والمقترون براء
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم — فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه — لا يذهب العرف بين الله والناس

١٦٦ — ﴿ الشكر جلاّب النِّعم ﴾

إذا كنت في نعمة فارعها — فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإلـه — فإن الإله سريع النقم

الشكر اعتراف المرء بالإحسان لذويه ، وإقراره بالثناء على مسديه ، فجحدُ النعمة كفر ، وإنكارها لؤم ، لهذا كان من الواجب أن يشكر الانسان المولى العلى الأعلى على تواتر نعمه ، ومزيد إحسانه حتى يضاعف له في رزقه ويبارك له في عمله ، كما يجب عليه ألا يجحد شكر من قدم اليه صنيعاً حسناً وأولاه معروفاً ، فإذا فعل ذلك فقد أدى الواجب واستحق العطف والمعونة متى عرته شدة أو نابته نائبة

قال الله تعالى (ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه . ومن كفر فإن الله غنيٌّ حميد) وقال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم . ولئن كفرتم

إن عذابى لشديد)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أشكر الناس لله أشكرهم للناس وقال عليه الصلاة والسلام (من صلى الصلوات الخمسَ فقد) شكر الله ومن دعا لوالديه فى إدبارهما فقد شكرهما) وقال عليه الصلاة والسلام (أيُّما رجل صنع الى أخيه صنيعةً فلم يجد لها جزاء إلا الدعاء والثناء فقد كافأه) ورُوى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (التحدُّث بنعمة الله شكر، وتركها كفرٌ ، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ، والجماعة رحمة والفُرقة عذاب) وعنه أنه قال (من أتى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له) وقال أيُّما عبد جاءته موعظةٌ من الله فى دينه فهى نعمةٌ من الله عليه ، فإن قابلها بالشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد إثماً ويزداد الله عليه بها سُخطًا)

وقال على كرم الله وجهه : كفر النعمة لؤم

وقال الحسن : كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ماهو أعظم منها

وقال عمر بن عبد العزيز : تذكروا النعم فإن ذكرها شكر

وقال المغيرة بن شعبة . أشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فانه لا بقاء للنعم إذا كُفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت

ودخل أبو هرون على بعض الحكماء فقال له يرحمك الله ماشكر العينين ؟ قال إذا رأيت بهما خيراً ذكرته ، وإذا رأيت بهما شراً سترته ،قال فما شكر الأذنين ، قال إذا سمعت بهما خيراً حفظته و إذا سمعت بهما شراً نسيته

وقال عبد الحميد الكاتب : من لم يشكر الإنعام فاعدده من الأنعام

وقال بعض الحكماء : من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة ومن مَنَّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أعجب بعمله حبط أجره . وقال آخر : كفر النعمة من أمارات البطر وأسباب الغير

وسئل بعضهم ماأضيع الأشياء ؟ قال المطر الجود فى أرض سبخة لايجف ثراها ولا ينبت مرعاها ، وسراج يوقد فى الشمس ، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها

وقال بعض الأدباء : الشكر أفضل من النعم ، لأنه يبقى والنعم تفنى ، وقال آخر : من أعطي أربعًا لم يمنع من أربع ، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى الاستشارة لم يمنع الصواب وقال غيره : لا تسيء إلى من أحسن إليك ، ولا تمُنَّ على من أنعمَ عليك ، وقال غيره : من بذل بعض عنايته لك فابذل جميع شكرك له

وقال بعض الفضلاء : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل

لسانك بالشكر

وقال بعض العقلاء : أمسكوا المعروف عن ثلاثة ، اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والفاحش فإنه يرى أن الذى صنعتَ اليه إنما هو لمخافة فُحشه ، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديتَ إليه

وقال بعض الفصحاء : الكريم شكور أو مشكور ، واللئيم كفور أو مكفور . وقال آخر : من كفر نعمة المفيد ، استوجب حرمان المزيد . وقيل : قيمة كل نعمة شكرها

من جاوز النعمة بالشكر لم ... يخش على النعمة مُغتالها
لو شكروا النعمة زادتهمُ ... مقالة الله التى قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم ... لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى ... زوالها والشكر أبقى لها

وقال آخر :

شكر الإله بطول الثناء ... وشكر الوُلاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء ... وشكر الدنىء بحسن العطاء

سأشكر لا أنى أُجازيك منعما ... بشكرى ولكن كى يزاد لك الشكر
وأذكر أياماً لدىّ اصطنعتها ... وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

الشكر أفضل ما حاولت ملتمساً ... به الزيادة عند الله والناس

إن الصنائع أطواق إذا شكرت ... وإن كُفرت فأغلال لمنتحلِ

أوليتني نعماً أبوح بشكرها ... وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكر نك ماحييت وإن أمتْ ... فلتشكرنك أعظمي فى قبرها

١٦٧ — ﴿ الإخلاص والرياء وأثرهما فى العامل وعمله ﴾

الإخلاص هو أن يعمل المرء الخير بوحي ضميره الخالص، ويقدم الاحسان بدافع نفسه الطاهرة، قاصداً وجه الله الكريم، وطالباً ثوابه العظيم، غير ناظر لسمعة، أو متطلع لشهرة، إذ كل ما يعمل رياء لا خير فيه، ولا يجلب لصاحبه غير المقت والازدراء، وقد أثنى الله تعالى على المخلصين وذم المرائين.

فقالَ جل شأنه (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلِصاً وكان رسولا نبياً) وقال تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) وقال عز وجل (فويلٌ للمصلِّينَ الذين همْ عن صلاتهم ساهون، الذين هم يُرَاءونَ ويمنعونَ الماعونَ)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أسرّ عبدٌ سريرةً إلا ألبسهُ الله رداءها إن خيراً فخيرٌ وإن شرا فشرٌ) وقال عليه الصلاة والسلام) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى (وروى النسائي عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله تعالى لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصا وابتغيَ به وجههُ) ورويَ عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال (قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليماً ، ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة) وقال عليه الصلاة والسلام (شرار أمتي المعجب بدينه ، المرائى بعمله ، المخاصم بحجته ، والرياء شِرْك) وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما من عبد يقوم مقام سمعة ورياء إلا سمّعَ الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام (أخوفُ ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية) وقال (إن الشِّرْك أخفى فيكم من دبيب النمل) — والمراد بالشرك الرياء .

وقال على كرم الله وجهه : لا تعمل شيئا رياء ، ولا تتركه حياء

وقال بعض الحكماء : من التمس أربعا بأربع ، التمس مالا يكون

من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون .

ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون .

ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون .

ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون .

وقال بعض الفصحاء : المرائى يتبهرج بزي الصلحاء وليس منهم ويظهر بمظهر الأخيار وهو ضدهم ، حتى يستعطف القلوب النافرة ، ويخدع العقول الواهية .

وقال بعض الفضلاء : لتكن سريرتك أحسن من علانيتك

وقال اخر : الرياء يفضى بصاحبه إلى استهزاء الناس به .

وقال بعض الصلحاء : كل حسنة لم يرد بها وجه الله ، فعلتها قبح الرياء ، وثمرتها سوء الجزاء . وقال آخر : كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله فى شيء ، ولو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ، ثم أحب أن يعلم الناس به أنه كتمه فهو من أقبح الرياء

وقيل : المتزين بما ليس فيه كلابسِ ثوبَى زور ، فهو بريائه محروم الأجر ، مذموم الذكر ، لأنه لا يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ، ولا يخفى رئاؤه على الناس فيحمد به .

وأفضل البر ما لا مَنَّ يتبعه ولا تقدمه شيء من المطل
فإنما الجُود بذل لم تُكافَ به صنعا ولم تنتظر فيه جزا رجل

وقال مؤلف هذا الكتاب :

عليك بالصبر والاخلاص فى العمل ولازم الخيرَ فى حِلّ ومُرتحل

١٦٨ — ﴿ الصراحة مرآة النفوس الطاهرة ﴾

الصراحة خلق يوجب على الانسان الافصاح بما فى قلبه من غير زيغ ولا مراوغة ، فليس من العيب أن يسرد الانسان لأخيه كل ماجرَيات الحياة بوضوح وجلاء حتى يتضافرا معاً على الاصلاح . ولكن العيب كل العيب أن يتلون المرء فى أحواله ومعاملاته ومحادثاته ثم هو يعلم أن للسان سقطات وللوجه علامات ومهما يُبطن تظهره الأيام

ولا شك بعدها أن تعرف حقيقة أمره ، وتظهر خبيثات نيته ويفتضح سوء خلقه ، ولا يلومنَّ بعدئذ إلا نفسه ، حيث ينفض الكل من حوله ، ويبرأ الجميع من معرفته .

قال الله تعالى (وَمِنَ الناسِ مَنْ يعجِبُكَ قولهُ فى الحياة الدنيا وَيُشْهِدُ اللهَ على مَا فى قلبه وهو أَلَدّ الخِصام) وقال جل شأنه (يَقولونَ بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) وروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا ينبغى لذي الوجهين أن يكونَ وجيهاً عند الله) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (من كان له وجهان فى الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار » وقال عليه الصلاة والسلام « ليس من أخلاق المؤمن التملقُ ولا الحسد إلا فى طلب العلم »

وقال على كرم الله وجهه : وما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه ، وقال أيضا . أعداء الرجل قد يكونون أنفع من اخوانه ، لأنهم يهدونه إلى عيوبه فيجتنبها . ويخاف شماتتهم فيضبط نعمته ويتحرّز من زوالها بغاية طوْقه — وقال ، المرآة التى ينظر الانسان فيها إلى أخلاقه هى الناس . لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساوئه من أعدائه فيهم ، وقال، اعلم أن الذى مدحك

بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك . وثوابه وجوابه قد سقطا عنك .

وقال سعيد بن عروة : لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيها من قبح المنظر ، وعجز المخبر أحبّ إلى من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين .

وقال الأحنف بن قيس : لا صديق لمتلون . ولا وفاء لكذوب ولا راحة لحسود ، ولا مروءة لدنى ، ولا زعامة لسيىء الخلق .

وقال الاسكندر : انتفعت بأعدائى أكثر مما انتفعت بأصدئى لأن أعدائى كانوا يعيروننى ، ويكشفون لى عيوبى ، وينبهوننى بذلك على الخطإ فاستدركه ، وكان أصدقائى يزينون لى الخطأ ويشجعوننى عليه

وجاء رجل إلى المهدى فقال له أنا عبدك ، فقال لا أعلم أحداً ينسب نفسه إلى مخلوق مثله فإنه ملقٌ كاذب لا يقبله إلا مفتون أو مأفون .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا مدح ، قال : اللهم أنت أعلم بى من نفسى . وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون .

وقال بعض الحكماء : أن الملَق مصائد العقول الواهنة والمداهنة شبكة القلوب الغافلة ، وهما من ضروب التدليس والتمويه والتضليل والتغرير ، وليس فى من يكون الملق والمداهنة بعض سجاياه خير

يرجى ، ولا صـــلاح يؤمل ، وقال آخر ، إنّ المتملقين يجعلون التملق خديعة ، فاذا وجدوه مقبولا فى العقول الضعيفة أغروا أربابها وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم — وقال غيره ، عجبت لمن قيل فيه الخير ، وليس فيه — كيف يفرح ، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه — كيف يغضب .

وقال بعض الفضلاء . من أعظم الذنوب تحسين العيوب ، وقال آخر ، لا تحمل على ظنك ما لا تطيق ، ولا تعمل عملا لا ينفعك ولا تغتر بالمداهنة ، ولا تثق بمال وإن كثر ، وقال غيره ينبغى للرجل أن يكون مرآة أخيه تريه خيره وشره .

وقال أحـد العقلاء ، أعرف الرجل من فعله ، لا من كلامه وأعرف محبته من عينيه لا من لسانه .

وقال بعض البلغاء . التملق خدعة لا يرتضيها عاقل ، ولا ينخدع بها مميز ، وقال آخر ، من آداب الكلام أن لا يتجاوز المرء فى مـدح ولا يسرف فى ذم ، لأن التجاوز فى المدح ملَق ، يصدر عن مهانة والسَّرَف فى الذم انتقام يصدر عن شر ، وكلاهما شين وإن سلم من الكذب

وقال أبو حيان الأندلسى

عدایَ لهم فضلٌ على ومِنّةٌ فلا أبعَدَ الرحمن عنّى الأعاديا
همُ بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهمْ نافسونى فاكتسبت المعاليا

وكم من صديق وُده بلسانه خئون بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكنى لطفاً اذا ما قابلته وتقصدنى منه إذا ما غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا وفي غيبة إن غاب صابٌ وعلقم

وقال صالح بن عبد القدوس

قل للذى لست أدرى من تلونه أناصحٌ أم على غش يناجينى
انى لأكثر مما سمتنى عجباً يدٌ تشج وأخرى منك تأسونى
تغتابنى عند أقوام وتمدحنى فى آخرين وكلٌ عنك يأتينى
هذان شيئان قد نافيت بينهما فاكفف لسانك عن شتمى وتزيينى

خلّ النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى إلا عدواً أو صديقا

ولا خير فى واد امرىء متملق حلو اللسان وقلبه يتلهّبُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولا خير فى ود امرىء متلون اذا الريح مالت مال حيث تميل

١٦٩ — ﴿ الاستقامة والاعتدال أساس المدنية الحقة ﴾

الاستقامة والاعتدال هما خصلتان ممدوحتان إذا وجدتا فى المرء دلتا على حسن سيره وكمال عقله ، وهما سياجه الوحيد عن دفع ما يتسرَّب اليه من ضرر ، وصد ما يلحقه من قدح ، ولولاهما لما كان النظام الذى نشاهده ، ولا كان الاطمئنان الذى نمرح فى بحبوحته، فهما سبيل نجاح

لمن أراده وطريق سعادة لمن رغب فيها ، وهيهات هيهات أن ينال الحلو منهما مأربه ، أو يبلغ قصده ، بل لا يزال طول حياته يتخبط فى دياجير ظلام ، فلا يرى للنور بصيصاً فيهتدى به ، ولا للذة الحياة بريقاً فيصل اليه ، فينقطع رجاؤه وتفنى معه آماله

قال الله تعالى (إن الذينَ قالوا ربنا اللهُ ثمّ استقاموا تتنزّلُ عليهم الملائــكةُ ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنةِ التى كنتم توعَدُون) وقال تعالى (فاستقمْ كما أُمِرْتَ ومنْ تابَ معكَ ولا تطغَوْا إنهُ بما تعملونَ بَصِيرٌ) وقال جل شأنه (وأنّ هٰذا صِراطي مستقيماً فاتبعوهُ ولاتتبّعوا السُّبُلَ فتَفرقَ بكُمْ عَنْ سبيلهِ) وقال عز وجل (وأنْ لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهمْ ماءً غَدَقاً) وقال تعالي (ولوْ أنَّ أهلَ القُرى آمنوا واتقوْا لفَتَحْنَا عليهمْ بَركات مِنَ السماء والأرض) وقال تعالى (أفمَنْ يمشى مُكبًّا على وجهه أَهْدَى أمَّنْ يمشى سويًّا على صراط مستقيم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (استقم وليحسُنْ خلقُك للناس) وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (قاربوا وسَدِّدوا واعلموا أنه لن ينجوَ أحد منكم بعمله ، قالوا ولا أنت يارسول الله ، قال ولا أنا إلاّ أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل) وعن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال قلت يارسول الله

حدثني بأمر أعتصم به ، قال (قل ربى الله ثم استقمْ) وقال عليه الصلاة والسلام (خير الأمور أوساطها)

وقال على كرم الله وجهه : خير الأمور النمط الأوسط ، إليه يرجع الغالى ، وبه يلحق التالى . وقال بعض الحكماء للاسكندر : أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الأمور ، فان الزيادة عيب والنقصان عجز وقال آخر : ماجاوز الحد لا يسمى فضيلة ، كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة نُسِبَ إلى التهوُّر ، والسخى إذا زاد على حد السخاء نُسِبَ إلى التبذير

وقال بعض الأدباء : أحسن الأعمال أن تأتى بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا نقصان ، فهى أوسط الأحوال فيها وأعدلُها ، لأنه لم يكن تقصير فتندمَ ، ولا تكثير فتعجزَ ، وقال آخر إياك ومفارقة الاعتدال ، فان المسرف مثل المقصر فى الخروج عن الحد

وقال بعض العلماء : إن العدل مأخوذ من الاعتدال ، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل ، ولست تجد فساداً إلا وسببه الخروج من حال العدل إلى ماليس بعدل من حالتى الزيادة والنقصان

وقال بعض العقلاء : أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك . وقال آخر : أكثر الخير فى الأوساط

قال أبو العلاء المعرى

إذا كنت تبغي العيش فابغ توسطاً　　فعندَ التناهي يَقصُرُ المتطاول
تُوَقى البدورُ النقصَ وهي أهلةٌ　　ويدركها النقصان وهي كوامل
عليك بأوساط الأمور فانها　　نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وقال آخر

لاتذهبنّ فى الأمور فَرَطا　　لا تسألنّ إن سألت شططا
وكن من الناس جميعًا وسطا

ودع عنك إسراف العطاء ولا تكن　　لكفيك فى الإنفاق إمساك مقتر
ألا إن أوساط الأمور خيارُها　　مقال نبيّ عن هُدَى الله مُخبر

١٧٠ — ﴿ الأمل رحمة من الله للناس ﴾

فليست حياة المرء إلا أمانيا　　فإن هى ضاعت فالحياة علي الأثر

الأمل خلق كريم، به تنشرح النفس، ويتّسع مجال العمل ويقوم الإنسان بما عليه من واجبات الحياة طبقا للقوانين الشرعية فلا يصيبه فيها ملل، ولا تعتوره منها كآبة فما أصابه من خير شكر الله عليه، وما مسه من سوء قابله برباطة جأش، وثبات جنان وتضرع إلى مولاه الأعلى أن يخلف عليه فيما أصابه فى عيشه، ويزيل عنه مااعترضه فى أمور حياته. ثم هو لايكاد يستأنف عمله واضعًا الأمل نصب عينيه، لعلمه أنه العدةُ على اقتحام المصاعب بصدر رحب والوسيلة على إرتكاب الأهوال فى سبيل الوصول إلى طلبه، غير

هياب ولا وجل . مادام يعتقد أنه على طريق الحق يسير ، و إلى غاية شريفة يأمل ، واقفاً عند حد لذلك الأمل ، حتي لايخرج به إلى درجة الطامع فى الدنيا والمتكالب عليها ، وشتان ما بينه وبين امرىء انقطع الأمل منه فتسرّب اليأس إلى فؤاده ، وتملك القنوط من قلبه ، فقعد عن العمل ، وكفّ عن السير فى سبيل الحياة ، حتى ضاقت به الأرض على سعتها ، وأصبح يعيب الزمان وأهله ، وما للزمان عيب سوى نفسه ، ثم صار يطلب الفرار من الحياة ، وربما أهلك نفسه تخلصاً منها ــ وهو مانشاهده بين ظهرانينا من بعض الجهلاء اليائسين فيذهب غير مأسوف عليه وبئس المصير

قال الله تعالى (ولاَ تيأسوا مِن رَوْحِ اللهِ إنه لاييأس مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرونَ) وقال جل شأنه (وَمَنْ يقنَطُ مِنْ رحمةِ ربهِ إلاَّ الضالونَ)

وروى الديلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إنما الأملُ رحمةٌ من الله لأمتى ، لولا الأمل ماغرسَ غارسٌ شجراً ولا أرضعت أمٌّ ولداً)

وقال بعض الحكماء ، لولا الأمل مابنى بان بنياناً ، ولا غرس غارس غرسًا

وقيل . قتل القنوط صاحبه ، وفى الظن بالله راحة القلوب

وقال الطغرائى

ولا تيأسن من صنع ربك إنه ... ضمين بأن الله سوف يديلُ
فإن الليالى إذ يزول نعيمها ... تبشر أن النائبات تزول
ألم تر أن الليل بعد ظلامه ... عليه لإسفار الصباح دليل
ألم تر أن الشمس بعد كسوفها ... لها صفحةٌ تغشى العيون صقيل
وأن الهلال النِّضوَ يُقمر بعد ما ... بدا وهو شخْتُ الجانبين ضئيل

وللنفوس وإن كانت على وجل ... من المنيـة آمال تقويها
فالصبر يبسطها والدهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها

لاخير فى اليأس كل الخير فى الأمل ... أصل الشجاعة والاقدام فى الرجل
أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

١٧١ — ﴿ من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه ﴾

عقبُ الجِدّ نجاح وغنى ... ورداء الفقر من نسج الكسل

إن نظام هذه الحياة يتطلب السعى والعمل ، وحركة الأعمال فيها تتوقف على الجد والاجتهاد ، ولذلك كان من الواجب أن ينهض الإنسان للعمل مستشمراً بشمار الجد والنشاط ، طارحاً القعود والكسل وراءه ظهرياً ، حتى يقوم بما فرضته عليه الطبيعة — وهى سنة الله فى خلقه — ويعمل بما أوحته اليه القوانين الشرعية ، والعاقل لايرضى لنفسه أن يكون كَلًّا على غيره ، وهو يعلم أن الرزق منوط

بالسعي ، وأن مصالح الحياة لاتتم إلا باشتراك الأفراد حيث يقوم كل واحد بعمل خاص له ، وهناك تتبادل المنافع ، وتدور رحى الأعمال ويتم النظام على الوجه الأكمل

قال الله تعالى (فإذا قُضيت الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وقال تعالى (هُوَ الذي جعلَ لكمُ الأرضَ ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشورُ) وقال جل شأنه (وَألَنا لهُ الحديدَ أن اعمل سابغاتٍ وقدّر في السرْد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير) وقال عز وجل وقُل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فيما يرويه عن ربه إن الله يقول ياعبدى حرّك يدك أنزل عليك الرزق) وروى الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اطلبوا الرزق في خبايا الأرض) وقال عليه الصلاة والسلام (ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطٌّ خيرٌ من أن يأكلَ من عمل يده) ورُوى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن من الذنوب ذنوباً لا يُكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة يُكفرها الهمومُ في طلب المعيشة)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لايقعدنّ أحدكم عن طلب الرزق ، وهو يقول اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لاتمطر ذهباً

ولا فضة، والله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض

وقال بزرجمهر : إن يكن الشغل مجهدة ، فان الفراغ مفسدة

وقال بعض الحكماء : اجعل الاجتهاد غنيمة صحتك ، والعمل فرصة فراغك ، فليس كل الزمان مؤاتياً لك ولا مافات مستدركا

وقال أحد الأدباء : العمل تُرْسٌ يقى سهام البلاء ، والجد سيف يقطع أعناق الشقاء . وقال آخر : لاشيء أحسن من عقل زانه حلم ومن عمل زانه علم ، ومن حلم زانه صدق

وقال بعض البلغاء إن الله تعالى جعل طلب الرزق مقصوراً على الخلق كله ، وأهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرُّز ، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال والخِلابة والاحتيال . وقال آخر : مَن أمضى يومه فى غير حق قضاه ، أو فرض أدّاه ، أو مجد أثله ، أو حمد حصله أو خير أسسه ، أوعلم اقتبسه ، فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال غيره إذا عمل المرء ولم يدرك حاجة فحسبه نفعاً أن يسلم من عواقب التوانى التي هي أسوأ من مغبات الخيبة . وقال غيره : من صادف حظاً بدون مشقة كان فيما ناله كالمغتصب ، إذ ليس فى الحظوظ استحقاق

وقال بعض العقلاء : لاتمض يومك فى غير منفعة ، ولا تضع مالك فى غير صنيعة ، فالعمر أقصر من أن ينفذ فى غير المنافع ، والمال

أقل من أن يسرف فى غير الصنائع ، والعاقل أجل من أن يفنى أيامه فيما لا يعودُ عليه نفعه وخيره ، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره

وقال بعض العلماء : هل يجوز فى وهْم ، أو يتمثّل فى عقل ، أو يصح فى قياس ، أن يُحصد زرع بغير بذر ، أو تُجنى ثمرة بغير غرس أو يُورَى زند بغير قدْح ، أو يثمر مال بغير طلب

وقال بعض الفضلاء : الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء إلا موضع العمل ، والعمل كله هباء إلا فى موضع الإخلاص

وقد قيل : كل رزق له سبب ، ومن طلب الأمر وجدّ وجد

وقال ابن شهاب :

تتبَّعْ خبايا الأرض وادع مليكها ... لعلك يوماً أن تجابَ فترْزقا
فيؤْتيك مالاً واسعًا ذا متانة ... إذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

وقال صفى الدين الحلى

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لا يُبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ... ولا تتم المنى إلا لمن صبرا

وقال الشاعر

وما طلب المعيشة بالتمنى ... ولكن ألق دلوك فى الدلاء
تُجِئْكَ بمثلها طَوْراً وطوراً ... تَجِئْكَ بحمأةٍ وقليل ماء
ولا تقعد على كسل التمنى ... تُحيل على المقدَّر والقضاء

فإن مقادير الرحمن تجرى بأرزاق الرجال من السماء
مقدَّرةً بقبض أو ببسط وعجزُ المرء أسباب البلاء

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا * ندمت على التفريط فى زمن البذر

دع التكاسل فى الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان

بصرتُ بالحالة العليا فلم أرها تُنال إلا على جسر من التعب

وما طالب الحاجات فى كل وجهة من الناس إلا من أجدَّ وشمَّرا

١٧٢ — ﴿ المثابرة والثبات على الأعمال سر النجاح ﴾

الثبات هو المواظبة بدون هوادة ولا انقطاع ، ولأن الأعمال لا تتكلل بالنجاح ، ولا يبلغ المرء منها أمنيته إلا بالثبات فيها ، وتوطيد العزم على المثابرة عليها ، من غير أن يجعل لليأس عليه سبيلا ، أو يدع للسآمة عنده مجالا ، وما فشل فى عمله إلا من ضعفت عقيدته وخارت عزيمته ، فقعد عن مواصلة العمل ، ولم يهتد إلى بلوغ الأمل ولكن كبار النفوس أشداء الشكيمة ، تراهم لا يزالون يكافحون الأعمال من جميع وجوهها بقلوب ثابتة ، وعزائم صادقة ، فلا يلبثون أن يبلغوا منها مآربهم ، ويفوزوا منها بمقاصدهم ، جزاءً ما تحملوا من متاعب ، وتجشموا من مصاعب ، والله لا يضيع أجر العاملين .

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتُمْ فئةً فاثبتُوا واذكروا اللهَ كثيرا لعلكم تفلحون) وقال جل شأنه (فاذا

عَزَمت فتوَكل على الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ) وقال عليه الصلاة والسلام (من أبطأ به عمله لم يسرع بهِ نسَبه) وقال عليه الصلاة والسلام (من بات كَلاًّ من طلب الحلال بات مغفوراً له) .

وقال على كرم الله وجهه : التوانى مفتاح البؤْس ، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة ، ومن لم يطلب لم يجد، وأفضى إلى الفساد ، وقال من أَطاع التوانى ضيع الحقوق ، ومن العجز طلب مافات مما لا يمكن استدراكه ، وترك ما أمكن مما تحُمد عواقبه وقال : لهب الشوق أخف محملاً من مقاساة الملالة .

وقال الأحنف : إياك والكسل والضجر ، فانك إن كسلت لم تُؤد حقاً ، وإن ضجرت لم تصبر على حق

وقال يَزيد بن الملهب : ما يسرنى أنى كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود الضجر .

وقال أعرابى : العاجز هو القليل الحيلة ، الملازم للأَمانى المستحيلة

وقال أحد الحكماء : ما لزم أحد الدَّعة إلا زل ، وحب الهوينا يكسب الذل ، وحب الكفاية مفتاح العجز . وقال آخر : احذرْ مجالسة العاجز ، فان من سكن إلي عاجز أعداه من عجزه ، وأمده

من جزعه ، وعوده قلة الصبر ، ونسّاه ما فى العواقب ، وليس للعجز ضد الا الحزم

وقال أحد الفضلاء : من دام كسله خاب أمله ، ومن التوفيق بغض التوانى

وقال غيره . أولى الأمور بالإنجاج ، المواظبة والإلحاح

وقيل لا تؤخرن عملاً عن وقته ، فان للوقت الذى تؤخر اليه ، عملا آخر ، ولست تطيق ازدحام الأعمال ، لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل

وقيل أيضا . من لزم الرقاد ، عدم المراد ، ومن كثر توا كلهُ كثر إهماله ، ومن كثر إهماله ضاعت أمواله

لقد هاج الفراغُ عليك شغلاً — وأسباب البلاء من الفراغ

توكل على الرحمن فى الأمر كله — ولا ترغبنْ فى العجز يوما

لا تكونَنَّ للأُمور هيوباً — فإلى خيبة يصير الهيوب

إذا هم لم تردع عزيمة همّهِ — ولم يأتِ ما يأتى من الأَمر هائبا

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه — ونكب عن ذكر العواقب جانبا

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة — ولا تك بالترداد للرأى مفسدا

فانى رأيت الريث فى العزم هجنة — وإنفاذ ذى الرأى العزيمة أرشدا

١٧٣ — ﴿ الألفة والاخوة قوّة والتفرقُ ضعف ﴾

قضت الشرائع بالألفة والتآخى ، لما يعترض حالنا فى هذه

الحياة من العوائق والمصاعب، وما ينتابنا فيها من النوائب والمصائب مما لا يقدر الفرد على احتماله، أو دفع أضراره، فبالألفة والأخوة تتوطد العلائق بين الافراد، وتقوى الرابطة بين الجماعات، ويعمل الكل متحدين على مكافحة معترضات الحياة، وتذليل صعابها، فتفتح امامهم الطرق، ويسهل عليهم عبورها، حتى يصلوا إلى ما يشاءون من بلوغ النجاح، ونيل الآمال، ومن هذا يتضح لك سوء عاقبة من انشق على إخوانه، وقطع حبل المودة فيما بينه وبينهم، فانه لا يزال تتخبطه الوساوس، وتتلقفه الحوادث، ولا يجد من يرشده أو يشاركه في دفع ضر أو جر مغنم.

قال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتهِ إخوانا) وقال (إنما المؤمنون إخوةٌ) وقال (ونزعنا ما في صُدُورهم من غِلّ إخوانا على سُرُر متقابلين)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤمن آلفٌ مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) وقال عليه الصلاة والسلام (لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عبادَ الله اخوانا) وقال عليه السلام (تدخلوا الجنة حتى تُؤمنوا ولا تؤْمنوا حتى تحابوا) وعن أنس أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم قال (أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقا

الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة الملتمسون للعثرات المفرقون بين الاخوان).

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لقاء الاخوان جلاء الأحزان

وقال على كرم الله وجهه لابنه : الغريب من ليس له حبيب .

وقال ابن المعتز : من اتخذ إخوانا كانوا له أعوانا .

وقال خالد بن صفوان : أعجز الناس من قصَّر فى طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .

وقال عبد الملك بن طاهر : المال غاد ورائح ، والسلطان ظل زائل والإخوان كنوز وافرة .

وقال زياد : خير ما اكتسب المرء بالاخوان فانهم معونة على حوادث الزمان ، ونوائب الحدثان ، وعون فى السراء والضراء .

وقال أحد الحكماء لابنه : يابنىّ لا تستقل عدواً واحداً ، ولا تستكثر ألف صديق ، ولاتستبدل بأخ قديم أخا مستحدثا مااستقام لك. وقال آخر : المودّة والأُخوة سبب التآلف ، والتآلف سبب القوة والقوة حصن منيع وركن شديد ، وبها يُمنع الضيم ، وتُنال الرغائب وتَنجح المقاصد .

وقال بعض الأدباء : أفضل الذخائر أخٌ وفىّ حميم ، صادق المودة لطيف الصحبة ، يهتم لشأنك اهتمامه بشأنه ، ويتوفر على هنائك كما

يتوفر على هنائه .

وقال أحد الفصحاء : الصديق الحميم عدة في البلايا ، وعمدة في المحن ، وبلسم في النوائب ، ومرهم في الشدائد . وقال آخر : لاتساغ مرارة الأوقات ، إلا بحلاوة الإخوان الثقات ، فاستروح من غمة الزمان ، بمؤانسة الخلان .

وقال ابن الرومى

عليك بإخوان الصفاء فإنهم عماد إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيراً ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير

وقال عبد الله بن عرفة

هموم رجال في أمور كثيرة وهمى من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت فجسماهما جسمان والروح واحد

فانما الرجال بالاخوان واليد بالساعد والبنان

لا يحقر الصحبة إلا جاهل أو مارق عن الرشاد غافل

وما المرء إلا باخوانه كما تقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم

١٧٤ — ﴿ اختيار الاصدقاء ميزان العقول الراجحة ﴾

الناس في هذه الحياة متفاوتوا الأخلاق متباينوا المشارب ، فمنهم من ساءت أخلاقهم فنزعت نفوسهم إلى الشهوات ، ومالوا الى اللذات

فما عرفوا غير إشباع نهمتهم ، وما راعوا غير العمل لأهوائهم ، فهؤلاء لا خير يُرجى منهم ، ولا منفعة تعود على المجتمع الإنسانى من ورائهم فالابتعاد راحة ، وعدم الارتباط بهم وقاية عنهم ومنهم من حسنت طباعه فقمع نفسه عن لذاتها ، وردعها عن شهواتها ، وعمل المنفعة العامة ، وصار فى طريق الاصلاح ، وهذا هو الجدير بالألفة ، والخليق بالتودد ، فالخير معقود بمصاحبته ، والسعادة مقرونة بمصادقته ، لان نفسه الطاهرة تطمح على الدوام إلى الكمال ، وقلبه الثابت مشرئب لنيل معالى الامور — والمرء على دين خليله .

قال الله تعالى (وحَسُنَ أولئِكَ رفيقاً) وقال فى معرض التحذير من قرناء السوء مبيناً ندامة من لم يحتط لنفسه فى اختيار من يصادق (ياويلتى ليتنى لم أتخِذْ فلاناً خليلاً) وقال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظَلمُوا فتَمَسَّكُمُ النارُ وما لكُمْ مِنْ دونِ اللهِ من أولياء ثمَّ لا تُنصَرُون)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عليكم باخوان الصدق فانهم زينةٌ فى الرخاء وعصمة فى البلاء) وقال عليه الصلاة والسلام المرء كثير بإخوانه ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له) وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل) وعنه عليه الصلاة

والسلام أنه قال (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد ، فصاحب المسك إما أن تشترى منه أو تجد ريحاً طيبة، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك ، أو تجدمنه ريحاخبيثة)

وقال على كرم الله وجهه : خير إخوانك من واساك ، وخير منه مَن كافاك .

وقال عبد الله بن جعفر : عليك بصحبة من إذا صحبته زانك وإن غِبت عنه صانك وإن احتجت إليـه مانك ، وإن رأى منك خلةً سدّها أو حسنةً عدها .

وقال لقمان لابنه : يابني لا تجـالس الفجار ، ولا تماشهم ، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم ، وجالس الفضلاء والعلماء فان الله يحيي القلوب الميتة بالفضيلة كما يحيي الأرض بوابل المطر

وأوصى أمير المؤمنين أولاده ، قال : يا بنى عاشروا الناس عِشرةً إن غبتم حَنُّوا اليكم ، وإن فُقِـدتم بكوا عليكم ؛ إن القلوب جنود مجندة تتلاحظ بالمودة ، وتتناجي بها ، وكذلك هى فى البغض فان أحببتم الرجل من غير خير سبق منه اليكم فارجوه ، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه اليكم فاحذروه .

وقيل لابن السماك : أيُّ الاخوان أحق ببقاء المودة ؟ قال الوافر دينهُ ، الوافى عقلهُ الذى لا يملُّك على القرب ، ولا ينساك على البعد

إن دَنوت منه داناك ، و إن بعدتَ عنه راعاك ، و إن استعنت به عضدك و إن احتجت إليهِ رفدك ، وتكون مودّة فعله أكثر من مودة قوله

وقال بعض الحكماء

احذر من الكريم إذا أهنتَه ، واللئيم إذا أكرمته والعاقل إذا أحرجته ، والأحمق إذا مازحته ، والفاجر إذا عاشرته ، وقال آخر الصديق النصوح من بصَّرك مواضع رشدك ، وعواقب غيّك

وقال غيره . معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب ، وصداقة الجاهل تعب وقال غيره ، شر الإخوان الواصل فى الرخاء ، الهاجر عند الشدة

وقال بعض البلغاء : من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار مودة الأشرار ، وقال آخر ، اصحب من الإخوان من أوْلاكَ جمائلَ كثيرة ، فكافأته بجميلة واحدة فنسى جمائله ، وبقى شاكراً ذاكراً لجميلتك يوليك عليها الإحسان الجميل ، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل

وقال غيره : الصديق من استروحت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب

وقال أوس بن حجر

وَليس أخوك الدائم العهد الذى يذمُّك إن ولّى ويرضيك مقبلا
ولكن أخوك النائى مادمت آمنا وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

وقال أبو تمام :

من لى بانسان إذا أغضبتهُ وجهلت كان الحلم ردّ جوابه
وإذا صبوتُ الى المُدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغى للحديث بطرفه وبقلبه ولعلّه أدرى به

وقال الأحنف بن قيس

أخوك الذى إن تدْعه لملمّة يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

إن أخاك الصدق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدَعك شتّت فيك شملَه ليجمعك

ليس الصديق الذي إن ذلّ صاحبهُ يوماً رأى الذنب منهُ غيرَ مغفور
وإن أضاع له حقاً فعاتبهُ فيه أتاه بتزويق المعاذير
إن الصديق الذى تلقاه يعذِرُنى ماليس صاحبه فيه بمعذور

إن كنت متخذاً خليلا فتنقّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً فى الود فابغ به بديلا
ولقلّما تلقى اللئيم عليك إلا مستطيلا

واحذر مؤاخاة الدنىّ لأنه يُعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
واختر صديقك واصطفيه تفاخراً إن القرين إلى المُقارن يُنسب
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً * إن الكذوب لبئس خلا يصحبُ

٢٧٥ — ﴿ العتاب وأثره فى نفوس الأصحاب ﴾

لما كان التآخى والتآلف بين الناس من التعاليم الشرعية ، والنُّظم الإلهية ، وكان من الواجب أن يعمل المرء على دوام العلائق ، واستمرار الروابط ، ولا يتم ذلك مع من اختارهم لصحبته ورضيهم لأخوته إلا باحتمال عثراتهم ، والصفح عن هفواتهم ، كان من المحتم عليه ألا يقطع أخاه لأول وَهلة ، أو يتركه لأيسر كَبوَة ، بل يعاتبه على ماصدر منه بالحجة والبرهان بقصد إصلاحه ، لالغرض تعنيفه وليلاحظ عدم الإغراق فى العتاب ، فإن ذلك يوجب مجانبته وقطع مصاحبته ، وقد ورد فى احتمال الأذى آثار كثيرة

قال تعالى (والكاظمينَ الْغَيْظَ والعافينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المحسنينَ) وقال جل شأنه (وجزاءُ سيئَةٍ سيئةٌ مثلُها فمَنْ عفا وأصلحَ فأجْرُهُ على اللهِ)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى أمرنى بمُدَاراة الناس كما أمرنى بأداء الفرائض) وقال عليه الصلاة والسلام (مداراة الناس صدقة) وقال رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم (ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بد له من معاشرته ، حتى يجعل الله له من ذلك مَخرجاً) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (من اعتذر إليه أخوه المسلم من ذنب قد أتاه فلم يقبل منه لم يرد على

الحوض غداً) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بشراركم، قالوا بلى إن شئت يارسول الله ، قال إن شراركم الذى ينزل وحده ويجلد عبده ، ويمنع رفده ، قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك ، قالوا بلى إن شئت يارسول الله ، قال من يبغض الناس ويبغضونه ، قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك ، قالوا بلى إن شئت يارسول الله ، قال الذين لا يقيلون عثرة ، ولا يقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنباً ، قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك ، قالوا بلى إن شئت يارسول الله ، قال من لا يُرْجى خيره ولا يؤمن شره)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنهُ : أعقل الناس أعذرهم للناس

وقال على كرم اللهُ وجهه : لا تقطع أخاك على ارتياب ، ولا تهجره دون استعتاب

وقال معاوية : لو كان بينى وبين الناس شعرة ماانقطعت لأنهم إذا جذبوها أرسلتها ، وإذا أرسلوها جذبتها

وقال الأحنف : من حق الصديق أن يتحمل ثلاثا ، ظلمَ الغضب ، وظلم الدَّالَّة ، وظلم الهفوة

وقال أحد الحكماء : إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه أو خَلّةً لا تحبها ، فلا تقطع حبله ، ولا تصرم وُده ، ولكن داو كَلْمَهُ واستر عورته ، وأبقه ، وابرأ من عمله

وقال آخر : مما يجب للصديق على الصديق ، الإغضاء عن زلاته والتجاوز عن سيئاته ، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبه بلا إكثار ، فإن كثرة العتاب مَدْرجة للقطيعة . وقال غيره : لاصديق لمن أراد صديقاً لاعيب فيه . وقال غيره : لاتقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه . وقال غيره : كل عقل لايُدَارى به الكل فليس بعقل تام

وليس عتاب الناس للمرء نافعاً إذا لم يكن للمرء لبٌّ يعاتبه

وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لاتجتمع إلا فى كريم حسن المحضر ، واحتمال الزلة ، وقلة الملال

وقال بعض البلغاء : من لا يؤاخي إلا من لاعيب فيه قلَّ صديقه ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ، ومن عاتب على كل ذنب دام عتبه ، وكثر تعبه

وقال ابن عباس

يا صديقي الذي بذلت له الودْ دَ وأنزلته على أحشائي
إنَّ عيناً قذّيتَها لتراعيـ ـك على ما بها من الأقذاء
ما بها حاجة إليك ولكن هي معقودة بحبل الوفاء

وقال احمد بن أبان

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخٍ وكنت أجازيه فأين التفاضُلُ
ولكن أداويه فإن صح سرني وإن هو أعيا كان منه تحامُلُ

وقال بشار بن برد

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
وإن أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

١٧٦ — ﴿ الكلام وما يترتب عليه من المنافع والمضار ﴾

إن الكلام لفى الفؤاد وانّما جُعل اللّسان على الفؤاد دليلاَ

الكلام هو واسطة التعارف بين الناس ، والتعاون معهم ، فلا يستغنى المرء عن محادثة غيره فى شئون الحياة ونُظم الأعمال

ولما كان الكلام هو عنوان درجة الشخص ، ودليل جوهر نفسه بين النفوس ، وجب أن يكون صحيحاً مختاراً ذا فائدة ، صادراً عن عقل وروية ، وصدق وحسن طوية ، بعيداً عن البطلان والسخرية ، قليلاً على قدر الكفاية ، فإن الكلام الكثير ينسى بعضه بعضاً ، وتكراره يدعو إلى السآمة والملل ، وقلما سلم مكثر من لغو وهذر

قال اللهُ تعالى (ياأيُّها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (وهُدوا إلى الطِّيب من القول وهدوا إلى صِراطِ الحميدِ)

وقال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رحم اللهُ عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم) وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ (يامُعاذ أنت

سالمٌ ماسكتَّ فإذا تكلمت فعليك أوْ لك) وقال عليه الصلاة والسلام (أبغضكم إلىَّ المتفيهِق المِكثار والملحُ المهذار) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (إن اللهَ تعالى يكره الانبعاق فى الكلام فرحم اللهُ عبداً أوجزَ فى كلامه) وقال عليه الصلاة والسلام (وهل يكُبُّ الناسَ على وجوههم أو مناخرهم فى النار إلا حصائدُ ألسنتهم) وقال (هلك المتنطِّعون) وقال عليه الصلاة والسلام مثنياً على الكلام الذى يتحرى فيه صاحبه مايجب أن يتحراه : (إن من البيان لسحراً و إن من الشعر لحكمة)

وقال على كرم اللهُ وجهه : أحسبوا كلامكم من أعمالكم وأقلوه إلا فى الخير . وقال أيضاً : اللسان معيار أطاشه الجهل وأَرجحه العقل وقال : خير الكلام ماصدقه الفعال

وقال أبو الأسود الدؤَلى لابنه : يابنى إن كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك

وقال جعفر بن يحيي : إذا كان الإِيجاز كافياً كان الإِكثارُ عِياً وإن كان الإِكثار واجباً كان التقصير عجزاً

الصمت فى غير فكرة سهو   والقول فى غير حكمة لغو

وقال المهلب : لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحبّ إلىّ من أَن أرى للسانه فضلاً على عقله

وقال بطليموس: إفرح بما لم تنطق به من الخطإ أكثر من فرحك بما نطقت به من الصواب

وقال بعض الحكماء: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تَدْحَضُه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها. وقال آخر بكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدْل المنطق تجاب الجلالة. وقال غيره إنما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال. وقال غيره: من أعجب بقوله كثر زلَلُهُ وقلّ سامعوه، وليس لكثرة الهذَر نفع يوازى ضَرّه

وقال بعض البلغاء: الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذار وقال آخر: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك، أو يتلف نفسك فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يَقْصُر عن الصواب، ويُسرع إلى الجواب. وقال غيره: الكلمة أسيرة فى وثاق الرجل فاذا تكلم بها صار فى وثاقها. وقال غيره: رب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها

وقال بعض الأدباء: سعِد من لسانُه صَموت، وكلامه قوت وقال آخر: الكلام فى الخير كله أفضل من الصمت، والصمت فى الشر كله أفضل من الكلام

وقال بعض العقلاء: أشد الناس بلاء وأكثرهم عناء من له لسان مُطلَق، وقلب مُطْبَق، فهو لا يستطيع أنْ يسكت، ولا

يحسن أن يتكلم .

وقال بعض العلماء : من أعوز ما يتكلم به العاقل ألاّ يتكلم إلاّ لحاجته أو لحجته ، ولا يفكر إلاّ في عاقبته أو في آخرته .

وقيل لإياس بن معاوية : ما فيك عيب إلاّ كثرة الكلام : قال أفتسمّونه صوابا أو خطأ . قالوا بل صواباً . قال فالزيادة من الخير خير

وقيل : إذا تم العقل نقص الكلام .

وقال أبو الفتح البُسْتى .

تكلّمْ وسدِّد ما استطعتَ فانما كلامُكَ حي والسكوت جَمادُ
فان لم تجد قولا سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقال غيره :

رأيت العز في أدب وعقلٍ وفى الجهل المذلة والهوانُ
وما حسن الرجال لهم بحسن إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً أن تراه له وجه وليس له لسان

وقال غيره

وزن القول من قبل الكلام فإنما يدل على قدر العقول التكلم

١١٧ — ﴿ الضحك والمزاح . ومقدار المكروه منهما والمباح ﴾

المزاح والضحك الكثير سقوط واليأس من روح الآله قنوط

المزاح والضحك خلتان غير ممدوحتين ما لم تكونا في حدالظرف

والكمال ، مع مراعاة الظروف الخاصة بهما ، بقصد ترويح النفس وتفريج السآمة ، ليستأنف المرء عمله بالجد والنشاط ، مع التزام الأدب والصدق ، كى يكون محفوظ القدر ، موفور الكرامة ، أما إذا خرج الانسان بهما عن موضع الجد والاحترام ، وحد الحشمة والوقار ، فقد عرّض نفسه للازدراء والاحتقار ، وبئست حال من لم يعرف لنفسه قدرها ، ولم يحفظ لكرامته مقامها فى هذا المجتمع الانسانى .

قال تعالى مخاطباً لقوم هذا شأنهم (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنى لأمزح ولا أقول إلا حقًّا) وقال عليه الصلاة والسلام (إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه) وعن عائشة رضى الله عنها قالت (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً قط ضاحكاً حتى ترى منه لهواته ، إنما كان يتبسم) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الصمت سيد الأخلاق ومن مزح استخف به)

وقد ورد (المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : التبسم أبلغ فى الإيناس من الضحك الذى يكون استهزاء وتعجباً)

وقال الحجاج بن يوسف الثقفي : المزاحُ يوغِرُ صدر الصديق

وينفر الرفيق ، ويبدى السرائر ، ويظهر المعاير ، ويجاب الشتم ويثير الحقد .

وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة

وقال بعض الحكماء : الضحك شاغل عن النظر فى الأمور المهمة مذهل عن الفكر فى النوائب الملمة ، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ، ولا لِمَنْ وُصِمَ به خَطَرٌ ولا مقدار .

وقال أحد الادباء : على العاقل أن يتقى المزح ، وينزه نفسه عن وصمة مساويه ، فانه مَخْرَج إلى القطيعة، ومذهبة للهيبة والبهاء، ومدعاة لتجرؤ الغوغاء والسفهاء : وقال غيره .

الضحك كالمزاح يلزم تحاميه والنفور منه ، والأحرى بالعاقل أن يبدل الضحك عند الإيناس بالتبسم .

وقال بعض العلماء : من قلَّ عقله كثر هزله . وقال آخر . إحذر فلتات المزاح فسقطة الاسترسال لا تُقال .

وقيل : المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب .

وقيل أيضا كثرة الضحك من الرعونة وضحكة المؤمن غفلة من قلبه

وقال النيسابورى .

شَرُّ مزاح المرء لا يُقال وخيره ياصاح لا يُنال
وقد يُقال كثر المزاح من الفتى تدعو إلى التلاحى

إن المزاح بدؤه حلاوه لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجل الشريف ويجترى بسخفه السخيف

وقال ناصح الدين

لاتجعل الهزل دأباً فهو مَنقصةٌ والجدُّ تعلو به بين الورى القِيَمُ
ولا يغرَّنكَ من ملك تَبَسُّمُهُ ماسحَّت السُّحب إلا حين تبتسمُ

وقال على كرم الله وجهه

ودع المزاح فربَّ لفظة مازح جلبت اليك بَلا بِلا لاتُدْفع
أفد طبعك المكدودَ بالهَم راحة بضحك وعلِّلْهُ بكاسٍ من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
واحذر من المزح كم فى المزح من خطر كم من صديقين بعد المزح فاختصما

١٧٨ — « العاقل من اتعظ بغيره واعتبر به »

إذا المرء كانت لهُ فكرة ففى كل شىء له عِبرة

الاعتبار هو الاتعاظ بحوادث الزمان ، والانتصاح بنصائح الحدثان ، فالعاقل من أخذ فى أموره بالثقة ، وسار فى أحواله بالحيطة كى تقل عثراته ، وتنقطع هفواته ، ومن الجهل الفاضح أن ينظر الإنسان للحوادث نظر متفرج غير متدبّر ، لا نظر متفكر معتبر ولذلك تراه يقع فيما وقع فيه غيره ، ولعمر الحق أن هذا الخطأ فادح لا ينبغى أن يكون من العقلاء ، فيجب تداركه والعمل على تلافيه

وليحرص كل الحرص أن يكون لنفسه من الأيام واعظ ، ومن الحوادث رادع ومرشد ، ليعيش عيشة الآمنين السعداء

في كل شيء عبرة لمن عقل   قد يسعد المرء اذا المرء اعتدل

قال الله تعالى (فاعتبرُوا ياأُولى الأبصار) وقال تعالى (إنَّ في ذلكَ لَعِبرَةً لِمَنْ يَخشى) وقال جل شأنه (إنَّ في ذلك لَذِكرى لمن كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهوَ شهيدٌ) وقال عز وجل (إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأولى النُّهَى)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (السعيدُ من وُعظ بغيره)

وقال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأديباً ، وبتقلب الأيام عظة . وقال آخر : ان للباقي بالماضي معتبراً وللآخر بالأول مزدجراً والسعيد لايركن الى الخِدَع ، ولا يغترُّ بالطمع . وقال غيره السعيد من اعتبر بأمسه

وقال بعض الفصحاء : كفى بالدهر مخبراً بما مضى عما بقي ، وكفى عبراً لأولى الألباب ماجربوا

وقال بعض البلغاء : ما أكثر العبرَ لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر

وقيل لأحد الحكماء : من أدَّبَكَ ، قال ماأدبني أحد ، رأيت الجهل قبيحاً فاجتنبته . وقيل : من كثر اعتباره قلّ عثاره

وقيل أيضاً : العاقل من اتعظ بغيره واعتبر به

وقال ابراهيم بن شكله

من لم يؤدّبه والداه أدّبه الليل والنهار
كم قد أذلّ كريم قوم ليس لهُ منهما انتصار
من ذا يد الدهر لم تنله أو اطمأنت به الديار
كلٌّ عن الحادثات مغضٍ وعنده للزمان ثار

وقال طاهر بن الحسين

إذا أعجبتك خصال امرىء فكُنْهُ يكن منك مايعجبك
فليس على المجدوالمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك

١٧٩ – ﴿إن النفس لأمّارة بالسوء﴾

ان للنفس نزعات شيطانية ، ولذات شهوانية ، فاذا هى تُركت وشأنها تمشى وراء لذاتها ، وتسير فى سبل شهواتها ، فتنزع إلى الشر فى كل منزع ، ولا شك أنها تودى بصاحبها فى الهلاك فيردى فى مهاوى الردى ، أما من تغلب على نفسه وقادها بعقل راجح وفكر ثابت ، ومنعها عن أطماعها الدنيئة ، وكفها عن شهواتها الخسيسة ، فإنه يكون بعيداً عن مواطن الشقاء والهلاك ، غير مرتكب إثماً ، ولامتحمل وِزراً ، وسيجزيه الله الجزاء الأوفى مع المتقين

قال الله تعالى (وَأَمّا من خافَ مقامَ ربِّهِ ونَهَى النفسَ عنِ الهَوَى فإنَّ الجَنَّةَ هىَ المأْوَى) وقال تعالى (قدأفلحَ من زَكَّاها

وقد خاب مَنْ دساها) وقال جل شأنه (ولا تتبع الهوى فيُضِلّكَ عنْ سَبِيلِ اللهِ) وقال عز وجل (أفرأيتَ من اتخذَ إلهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلّهُ اللهُ على عِلْم وَخَتمَ على سَمْعِهِ وقلبِهِ وجعلَ على بصرِهِ غشاوةً)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الكيِّسُ من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبعَ نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) وقال عليه الصلاة والسلام (المجاهد من جاهد نفسه وهواه) وقال عليه الصلاة والسلام (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) ورُوى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (إياكم والهوى فإن الهوى يُصم ويُعمى)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اقذَعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع إلى شر غاية ، إن هذا الحقّ ثقيل مرى وإن الباطل خفيف وبىّ ، وترك الخطيئة خيرٌ من مُعالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا

وقال على كرّم الله وجهه : أخاف عليكم إثنين اتباع الهوى وطول الأمل ، فان اتباع الهوى يصدّ عن الحق ، وطول الامل يُنسى الآخرة ، وقال : إياكم وتحسين الشهوات على أنفسكم ، فإن عاجلها ذميم وآجلها وخيم

وقال الشعبي : إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه

وقال ابن السماك : كن لهواك مسوّفا ، ولعقلك مسعفا وانظر ماتسوء عاقبته ، فوطن نفسك على مجانبته ، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها ، وترك ماتهوى دواؤها ، فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء

وقال بعض البلغاء : من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه ، ومن أعمل جدّه بلغ كُنه أمانيه . وقال آخر : أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعًا لك . وقال غيره : من أمات شهوته فقد أحيا مروءته .

وقال غيره : الهوى عسوف ، والعدل مألوف

وقال بعض العلماء . ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة . ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم

وقيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس وأحراهم بالظفر فى مجاهدته ، قال من جاهد الهوى طاعة لربه ، واحترس فى مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقيل : العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقيل أيضا : من أطاع هواه أعطى عدوه مناه

وقال على كرم الله وجهه

صن النفس واحملها على مايزينها ❊ تعش سالمًا والقول فيك جميل

ولا ترينّ الناس إلا تجملاً   نبا بك دهر أو جفاك خليل

وقال أبو الفتح البُستى

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته   لتطاب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

إذا مارأيت المرء يقتاده الهوى   فقد ثكلته عند ذاك ثوا كله
وقد أشمت الأعداء جهلاً بنفسه   وقد وجدت فيه مقالا عواذله

١٨٠ — ﴿ من كتم سره فقد ملكَ أمره ﴾

كتمان السرّ من أفضل الأخلاق وأكبر الفضائل ، به تُصان والأَعراض وتُحفظ الأرواح ، وتلتئم الجماعات ، فرب سر أفشيته جاب شراً مستطيراً ، وأحدث فتنة أهلكت خلقاً كثيراً ، ولهذا كان من الواجب على الانسان أن يخفى سره ما استطاع ، وإلا عرض نفسه إلى أضرار كثيرة ، لا قبل له بها ، وحينئذ لا يمكنه دفع مايترتب على ذلك من الأخطار ، فيعض سبابة المتندم ، ولا ينفعه الندم، بعد ما انقضى الأمر.

قال الله تعالى (وأوفوا بالعهدِ إن العهدَ كان مسئولا)

وقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذى نعمة محسود) وعن أبى سعيد الخدرى رضى

الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجلُ يُفضى إلى المرأة وتفضى اليه ثم ينشُرُ سرها) وعن ثابت عن أنس رضى الله عنه أنه قال (أَتى علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعب مع الغلمان ، فسلم علينا فبعثنى فى حاجته فأبطأت على أمى ، فلما جئت قالت ما حبسك فقلت بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة ، قالت ما حاجته ، قلت إنها سر قالت لا تخبرن بسرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً . قال أنس والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به ياثابت) وقال عليه الصلاة والسلام (إذا حدَّث رجلٌ رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مَن كتم سره كان الخيار فى يده . وكان يقول رضى الله عنه : ما أفشيت سرى إلى أحد قط فلمتُهُ إذ كان صدرى به أضيق .

وقال على كرم الله وجهه : سرُّك أسيرك فان تكلمت به صرت أسيره

وقال عمر بن عبد العزيز . القلوب أوعية الأسرار ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرىء مفتاح سره .

وقال أنو شروان : من حصَّنَ سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته ، والسلامة من السطوَات .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بنى كن جواداً بالمال فى موضع الحق، ضنينا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإن أحمدَ جود المرء الانفاقُ فى وجه البر ، والبخل بمكتوم السر . وقال آخر : انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ، ولا جاهلاً فيخون . وقال غيره : من أفشى سره كثر عليه المتآمرون .

وقال بعض الأدباء : أضعف الناس من ضعف عن كتمان سره وأقواهم من قوى على غضبه ، وأصبرهم من ستر فاقته ، وأغناهم من قنع بما تيسر له . وقال غيره : كم من سر أراق إفشاؤه دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ، ولو كتمه لأمِنَ من سطوته ، وسلم من عواقبه

وقال بعض الفصحاء : من عجائب الأمور أن الأموال كلما كثر خزانها كان أوثق لهـــا ، وأما الأسرار فإنها كلما كثر خزانها كان أضيعَ لها . وقال آخر : ما أسرك ؟! لو كتمت سرك .

وقال غيره من لم تغيبه الأضالع ، فهو مكشوف ضائع .

وقال بعض العقلاء : إظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهاره سر نفسه ، لأنه يبوء بإحدى وصمتين ، الخيانة إن كان مؤتمنا والنميمة إن كان مستودعاً .

وقيل : من أفشى سره أفسد أمره، ومن كتم سره ملك أمره وقيل أيضا قلوب العقلاء حصون الأسرار، وليحذر صاحب السر أن يودع

سره من يتطلع عليه ، ويؤثر الوقوف عليه ، فان طالب الوديعة خائن

ولا تفش سرك إلا اليك ... فان لكل نصيح نصيحا
فانى رايت وشاة الرجا ... ل لا يتركوا أديما صحيحا

لا يكتم السر إلا كل ذى ثقة ... والسر عند خيار الناس مكتوم
فالسرُّ عندىَ فى بيت له غَلَقٌ ... ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

ومستودعى سراً تضمنت سره ... فأودعته من مستقر الحشا قبرا
ولكنَّنى أخفيه عنى كأننى ... من الدهر يوماً ما أحطت به خُبرا
وما السر فى قلبى كميت بحفرة ... لأنى أرى المدفون ينتظر النشرا

إذا ما ضاق صدرك من حديث ... وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عاتبتُ من أفشى حديثى ... وسرى عنده فأنا الملوم

ولست بمُبدٍ للرجال سريرتى ... ولا أنا عن أسرارهم بسئول

صن السر عن كل مستصحب ... وحاذر فما الرأى إلا الحذر

تم بعون الله تعالى وتوفيقه الجزء الأول من ديوان الانشاء
ويليه الجزء الثانى من صحيفة ٣٨١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٨١ – ﴿ الشحاذة وخطرها على المدنية والحضارة ﴾

يقضى نظام هذه الحياة على الإنسان أن يسعى ويعمل لطلب الرزق من وجوهه المشروعة حتى لا يمد يده للناس ، فإنه إذا قعد عن العمل ولزم البطالة والكسل ، فلا شك أن تسوء حاله ، وتنحط نفسه ، ويضيق عيشه ، فيلجأ إلى السؤال والشحاذة ، وأى عاقل يرضى لنفسه بهذه الحال التعيسة ، بل وكيف يقبل أن يكون عضواً أشل فى الهيئة الاجتماعية ، لا يقام له وزن ولا تعرف له قيمة .

قال الله تعالى فى مقام الثناء على من لا يسأل الناس شيئاً (لا يسألون الناس إلحافاً) وقال تعالى (يا أيُّها الذين آمنوا أنفِقُوا من طيباتِ ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمَّمُوا الخبيث منه تُنفِقون) ومن لا كسب له من أولئك المعطلين لا يمكنه الإنفاق (إن أنفق) إلا من ذلك الخبيث .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) وقال عليه الصلاة والسلام

اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول) وقال (لا تُلحفوا في المسألة فوالله لا يسألنى أحدٌ منكم شيئاً فتُخرج له مسألتُهُ منى شيئاً ، وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته) وقال عليه الصلاة والسلام (لو تعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئاً) .

وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن في وصيته له : يا بنى إن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً فإن اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره ، وإن كان كل منه كثيراً .

وقال لقمان لولده : يا بنى إياك والسؤال فإنه يذهب ملء الحياء من الوجه ، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك .

وقال أكثم بن صيفى : أفضل من السؤال ركوب الأهوال .

وقال شريح : من سأل حاجة فقد عرض نفسه للرق ، فان قضاها المسئول منه استعبده بها ، وإن رده عنها رجع كلاهما ذليلا ، هذا بذل البخل ، وذاك بذل الرد .

وقال رجل لابنه : إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه

وقال بعض الحكماء : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأنعم على من شئت تكن أميره .

وقيل لأعرابى ما السقم الذى لا يبرأ ، والجرح الذى لا يندمل

قال حاجة الكريم إلى اللئيم — وقال الشاعر :

إذا أعوزتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعاً وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريّا
فان إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيّا

لعمر الله ما عودت نفسي خضوعاً لامرىء فيه ابتذال
أيرضي من له عقل ورأى تماطي ما عليه به وبال

لا تحملن من الأنا م عليك إحسانا ومِنّه
واختر لنفسك حفظها واصبر فان الصبر جُنه
منن الرجال على القلو ب أشد من وقع الأسنه

لا تحسبن الموت موت البلا لكنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكنّ ذا أشر من ذاك لذل السؤال

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عِوضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

١٨٢ — ﴿أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع﴾

الطمع والحرص رذيلتان كبيرتان، وهما أصل الجشع وعدم الرضا بما قسم الله للمرء من الرزق ، وتكالب النفس على طلب الزيادة ولو من غير طرقها المشروعة . وليس مانراه من الجرائم الكثيرة من سرقة

وقتل وغيرهما إلا أثراً سيئاً من آثار الحرص على الدنيا والطمع فيها فلا يقف صاحبهما عند حد ، ولا ينتهى إلى غاية ، وتكون عاقبته الهلاك لا محالة ، ولو نبذ الحرص والطمع وراء ظهره ، ورضى بما كسبت يداه من رزق حلال لكفاه ذلك وعاش عيشة هادئة مرضية

قال الله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا ولا تتبِّعُوا خُطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبينٌ) وقال جل شأنه (وَلا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) .

روي الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إياكم والطمعَ فانه الفقر الحاضر) وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال (أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال يا رسول الله أوصنى وأوجز ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليك بالإياس مما فى أيدى الناس ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وإياك وما يعتذر منه) وكان يقول فى دعائه عليه الصلاة والسلام (اللهم إنى أعوذ بك من طمع يهدى إلى طبَع) .

وقال على كرم الله وجهه : ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع . وقال : أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع .

وقال بعض الحكماء : من أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا

يسكن قلبه الطمع .

وقال أحد الفلاسفة : العبيد ثلاثة عبد رقّ ، وعبد شهوة ، وعبد طمع

وقيل للإسكندر : ما سرور الدنيا ؟ قال : الرضا بما رزقت منها قال : فما غمها ؟ قال الحرص عليها .

وقيل : الحرص مفسدة للدين والمروءة، ومن لزم الطمع عدم الورع

قال أبو العباس أحمد بن مروان

وذى حرص تراه يلُم وفراً لوارثه ويدفع عن حماهُ
كـكلاب الصيد يمسك وهو طاو فريسته ليأكلها سواهُ

١٨٣ — ﴿ تجنب الفحشاء لا تنطق بها ﴾

الفحش هو النطق بالألفاظ البذيئة . والـكلمات المبتذلة التى تجلب كثيراً من العداوة والبغضاء . وتجر من المنازعات والمشاحنات التي قد تنتهى بأوخم العواقب ، وأسوإ النتائج ، فتتفكّك عُرا المحبة وتنقطع روابط الألفة ، ويحل الفساد محل النظام ، والخصام محل الوئام ، وإذ ذاك تسوء الأحوال ، وتضطرب رحى الأعمال.

قال الله تعالى (لا يحِبُ اللهُ الجهرَ بالسُّوء منَ القـــوْل إلاّ مَنْ ظُـلمَ وَكان اللهُ سَميعاً عليماً) وقال جل شأنه (وَاذا سمعوا اللَّغوَ أعرَضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالُنا ولـكم أعمالُكم ، سلامٌ عليكم لا نبتغى الجْاهلينَ) وقال جل شأنه (والذين هم عن اللغو معرضون)

وقال عزّ وجل (ما يَلفظُ مِنْ قولٍ إلاّ لديهِ رقيبٌ عتيدٌ) وقال تعالى (إنّ السمعَ والبصرَ والفؤاد كلٌ أولئك كان عنهُ مسئولاً)

وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليهِ وَسلم قال (إن شرّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة مَنْ تركه الناس اتقاء فُحشه) وعن ابن مسعود رضي الله عنهُ أنهُ قال قال عليهِ الصلاة والسلام (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىّ) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (إن أكبر الكبائر أن يلعن الرجلُ والديه قيل يارسول الله وكيف يلعن الرجل والديه قال يسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسب أباهُ ويسب أمّهُ) وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (رحم الله من حفظ لسانه وعرَف زمانه واستقامت طريقتهُ) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام وقال أيضا (سبابُ المؤمن فسوقٌ وقتاله كفرٌ) وعن أبي موسي رضى الله عنه قال (قلت يا رسول الله أى المسلمين أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويدهِ ، وقال (إن الله لايُحب الفاحش المتفحش).

وقال عمرو بن عُتبة : نزه نفسك عن استماع الخنَى ، كما تنزّه لسانك عن الكلام به ، فان السامع شريك القائل ، ولو رُدت كلمة الناطق بالأذى فى فيه لسعد رادُّها كما شقى قائلها .

وقال المهلب : إذا سمع أحدكم العوراء فليطأطىء لها فتتخطاه

وقال حاتم

وكلمةِ حاسدٍ فى غير جرْمٍ سمعت فقلت مُرّى فانفُذينى
عنيت بها كأن قيلت لغيرى ولم يعرق لها يوماً جبينى

وقال أبو الحسن بن الحرث الهاشمى

تحرَّ من الطرق أوساطها وعدّ عن الموضع المشتبه
وسمعكَ صُنْ عن قبيح الكلام كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند استماع القبيح شريكٌ لقائله فانتبه

وقال الشاعر

إذا مابدت من صاحب لك زلةٌ فكن أنت محتالاً لزلّته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحشَ سمعُهُ كأنَّ به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطٌ أذًى ولا مانعٌ خيراً ولا قائلٌ هُجرَا

وقال آخر

تجنب الفحشاء لا تنطق بها مادمت فى جد الكلام وهزله
واحبس لسانك عن ردىء مقالة وتوقَّ من عَثر اللسان وزَلّه
كم كلمة جرّت لرأس نقمةً كالدهر يَرشُقُ نَبْلَهُ فى نُبْله

١٨٤ — ﴿ الغيبة والنميمة والسعاية وما ينجم عنها من المضار والأخطار ﴾

الغيبة هى أن تذكر أخاك بما يكره ، والنميمة نقل الحديث من

قوم إلى قوم على وجه الإفساد، والسعاية هي الوشاية بين الناس باختلاق الأكاذيب، وكلها صفات ذميمة تجلب الشر، وتدعو إلى الفُرقة، وتوغر الصدور، وتثير الأحقاد، كيف لا وأنها داعية الفساد وأس الشقاء والبلاء، تحط بصاحبها إلى أسفل الدركات، وتنفر الناس منه، فيصبح ولا أنيس له ولا جليس، ولعمرى إن مثل هذا جدير به أن يفر من وجه الناس حياء وخجلاً، والعاقل من تبرأ من تلك الخصال الرديئة، وتطهّر من أدرانها الخبيثة، وعمل على محاربتها بكل مافى وسعه

قال الله تعالى (ولا تُطعْ كلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنَمِيم مَنَّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ أثيمٍ عُتُلٍ بَعْدَ ذلكَ زَنِيمٍ وقال جل شأنه (ياأيُّها الذينَ آمنوا اجتنبُوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثمٌ ولا تجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكم أنْ يأكل لحمَ أخيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللهَ إن اللهَ تَوابٌ رَحِيمٌ) وقال عز وجل (ياأيُّهَا الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنَبأٍ فتَبَيَّنُوا أن تُصيبُوا قَوْمًا بجَهَالةٍ فتُصْبحُوا على مافَعَلْتُمْ نادِمين)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال شراركم المشّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوبَ) ورَوى البخارى عن أبى هُرَيرة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ملعون ذو الوجهين ، ملعون ذو اللسانين ، ملعون كل شغار ، ملعون كل قتّات ، ملعون كل منّان).

وعن أنس رضى الله عنه أنه قال عليه الصلاة والسلام (من اغتيبَ عنده أخوه المسلم فلم ينصُرْهُ وهو يستطيع نصْرَهُ ، أذَلَّهُ الله فى الدنيا والآخرة) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (من ذبَّ عن عِرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يقيَهُ من النار) وقال عليه الصلاة والسلام (إذا وُقع فى الرجل وأنت فى ملإٍ فكن للرجل ناصراً وللقوم زاجراً وقم عنهم) وقال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرفعنّ إلينا عوْرة أخيه) وقال (لا يراح القتات رائحة الجنة) وقال عليه الصلاة والسلام (لما عُرِج بى مرَرْتُ بقوم لهم أظفارٌ من نُحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ، قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم) وروى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حُرم عليهما).

وقال على كرم الله وجهه : الأشرار يتبعون مساوىء الناس ويتركون محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة).

وقال ابن عباس : اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن تذكر

به ، ودع منه ماتحب أن يدع عنك .

وقال المهدى : ما الساعى بأعظم عورة ، ولا أقبح حالا ، من قابل سعايته ، ولا يخلو أن يكون الساعي إليك حاسداً نعمة . فلا تُشْفِ غيظه . أو عدواً فلا تعاقب له عدوه لئلاّ يشمت به .

وقال أرسطاطاليس : النميمة تهدى إلى القلوب البغضاء . ومن نقل إليك نقل عنك .

وقال بعض الملوك لولده : ليكن أبغض رعيتك إليك أشدهم كشفاً لمعايب الناس ، فان للناس معايب أنت أحق بسترها ، وأنت إنما تحكم بما ظهر لك ، والله يحكم بما غاب عنك ، واكره للناس ما تكره لنفسك ، واستر العورة ، يستر الله عليك ما تحب ستره ولا تُصغِ إلي حديث ساع : فان الساعى غاش ، وإن قال قول نصيح

وقال بعض الحكماء : الساعى بين منزلتين قبيحتين ؛ إما أن يكون قد صدق فخان الأمانة ، وإما أن يكون قد كذب فخالف المروءة ، وقال غيره . الصدق يزين كل أحد إلا للسعاية فان الساعى أذم ، وآثم ما يكون إذا صدق .

وقال بعض الأدباء لم يمش ماش شر من واش .

وقال بعض الفضلاء : النميمة دناءة ، والسعاية رداءة ، وهما رأس الغدر ، وأساس الشر ، فتجنب سبلَها ، وتحرز من أهلهما

وقال آخر : إذا رأيت من يغتاب الناس فاجهد جهدك ألا يعرفك ؛ فإن أشقى الناس به معارفه .

وقال بعض العلماء : السعاية إلى كل ذى قدرة مهلَكةٌ . فكم دم أراقه سعيُ ساع ، وكم حريم استبيح بنميمة نمام . وكم من صفيين تقاطعا ، وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تفارقا .

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان وكان معه جلساؤه فقال له أريد أن أسر إليك أمرا ، فقال لأصحابه إذا شئتم فقوموا فلما تهيأ الرجل للكلام . قال له عبد الملك إياك أن تمدحنى فأنا أعلم بنفسى منك ولا تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب . أو تسعى إلىّ بأحد فإن السعاية من أفظع الجرائم ، وإن شئت أقلتك — قال أقلنى

وقيل : النميمة سيف قاتل

وقال أبو تمام

ومن يأذن إلى الواشين تسلق ... مسامعه بألسنة حداد

لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا ... فيهتك الله سترا عن مساويكا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

يسعى عليك كما يسعى اليك فلا ... تأمن غوائل ذى وجهين كياد

لا تقبلنّ نميمة بُلغْتَها ... وتحفظنّ من الذى أنباكها

ان الذى أَهدى اليك نَميمةَ ... سينم عنك بمثلها قد حاكها

من نمَّ فى الناس لم تؤمن عقاربه على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدرى به أحد من أَين جاء ولا من أين يأتيه

١٨٥ — ﴿ الحقد والحسد وأثر ضررهما فى الهيئة الاجتماعية ﴾

الحقد والحسد صفتان مذمومتان تأكلان حسنات صاحبهما كما تأكل النار الحطب، فهما منشأ العداوة والبغضاء ، وسبب كل قطيعة ، وتفرق كل جماعة ، وإن الحسود لخارج على ربه ، غير راض قسمته فى خلقه ، فهو يعارضه فيما قضى وقدر ، على طبق علمه ومقتضى حكمته ، وقد جلب على نفسه غماً لا يهدأ ، وناراً لا تنطفئ ، فلا يستقر له بال ، ولا يستريح له ضمير ، فحرى بالعاقل أن يفك نفسه من تلك الأغلال ، ويخلص من كابوس هاتيك الخصال فتسعد حاله ويفوز بالرضا والرضوان . قال الله تعالى (أم يحسدون الناسَ على ما آتاهمُ اللهُ من فضلهِ) وقال جل شأنه (وَمن شر حاسد إذا حسد) وقال عز وجل (وَإن يكادُ الذين كفروا ليزلقونَك بأبصارهمْ لما سمعوا الذكرَ ويقولون إنهُ لمجنون)

وروى عن أَنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام) وروى الطبرانى أنه قال عليه الصلاة والسلام (ليس منى ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا

أنا منهُ — ثم قرأ (والذين يؤْذونَ المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينا)

وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال (قيل يارسول الله أى الناس أفضل ؟ قال : كل مخموم القلب صدوق اللسان ، قالوا صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ، قال هو التقى النقى لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد) وقال عليه الصلاة والسلام (دب اليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد هى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر ، والذى نفس محمد بيده لا تُؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم) وقال المؤمن يغبط — والمنافق يحسدُ)

وقال عبد الله بن المعتز : الحاسدُ مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه ، طالب مالا يجده

وقال الحسن بن على : يحسد أحدهم أخاه حتى يقع فى سريرته وما يعرف علانيته ، ويلومه على مالا يعلمه منه ويتعلم منه فى الصداقة ما يعيِّره به إذا كانت العداوة

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح أن تحط عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفاك مئونة شطر غيظك

وقال معاوية رضى الله عنه : ليس فى خصال الشر أعدل من من الحسد ، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود

وقال بعض الحكماء : من صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة

وقال غيره : من رضى بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال غيره ما أمحق للايمان ولا أهتك للستر من الحسد ، وذلك أن الحاسد معاند لحكم الله تعالى باغ على عباده ، عات على ربه ، يعتد نعم الله نقما ، ومزيده غِيَراً ، وعدل قضائه حيفاً ، للناس حال وله حال ، ليس يهدأ ليله ، ولا ينام جسمه ، ولا ينفعه عيشه ، محتقر لنعم الله عليه ، متسخط ما جرت به أقداره ، لا يبرد غليله ، ولا تؤمن غوائله ، إن سالمته وترك ، وإن واصلته قطعك وإن صرمته سبقك

وقال بعض الأدباء : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود له نفَس دائم ، وهم لازم ، وقلب هائم

وقال بعض العلماء : من انقاد للطبع اللئيم ، وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء باربع مذام

إحداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ، ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء

والثانية انخفاض المنزلة ، وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه

ونفورهم منه

والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محباً ، وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم ولياً .

والرابعة إسخاط الله تعالى فى معارضته ، إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ، ولا لنعمه من الناس أهلاً .

أعطيت كل الناسَ من نفسى الرضا   إلا الحسودَ فإنه أعيانى
ما إن لى ذنباً إليه علمتُه   إلا تظاهر نعمة الرحمن
وأبَى فما يرضيه إلا ذلتى   وذهاب أموالى وقطع لسانى

إنى لأرحم حاسِدِىَّ لِحَرِّ ما   ضمّت صدورهمُ من الأوغار
نظروا صنيع الله بى فعيونهم   فى جنة وقلوبهم فى نارِ
لا ذنب لى قد رمت كتم فضائلى   فكأنما برقعتُ وجهَ نهار
وسترتها بتواضعى فتطلَّعتْ   أعناقها تعلو على الأستار

لا يحمل الحقدَ من تعلو به الرتب   ولا ينال العلا من طبعه الحسد

إن الحسود الظلوم فى كَرْبِ   يخالهُ مَنْ يراهُ مظلوما
ذا نفَس دائم على نفس   يظهر منها ما كان مكتوما

ياطالب العيش فى أمن وفى دَعة   رغداً بلا فتر صفواً بلا رنق
خلِّصْ فؤادك من غل ومن حسد   فالغِل فى القلب مثل الغُل فى العنق

أيا حاسداً لى على نعمتى   أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه   لأنك لم ترض لى ما وهب
فأخزاك ربى بأن زادنى   وسدَّ عليكَ وجوهَ الطلب

١٨٦ — ﴿ وصف روضة غناء ﴾

روضة واسعة الأرجاء، فسيحة الأنحاء، تحار فيها الأبصار، وتقصر عن وصفها الأفكار ترابها من مسك وكافور، وحصباؤها الدر النضير قد فاح أرجها، وأضاءت سرجها، جنة عالية، قطوفها دانية، وطلحها منضود، وظلها ممدود، وأعلام أشجارها مرفوعة، وفاكهتها كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، خضرة نضرة أنيقة، ظلولها وديقة، وأغصانها وريقة، ذات ألوان وأفنان، وأكمام وأكنان، وثمرات حسان، قد فاح الطيب من مجامر أزهارها، وصاح خطيب العندليب على منابر أشجارها

الورد في أعلى الغصون كأنه   ملك تحف به سَرَاة جنوده

وترنم البلبل على العيدان، فتمايل تمايل النشوان، أو القيان الحسان وقد ملئت من أنواع الأزاهر، وألوان النبت الباهر، بدُرٍّ وزبرجد وفضة وعسجد، تجوس المياه خلال ديارها، وتشرق بآفاقها أنوار أنوارها، وبرز إبريزها، وحسن تطريزها، وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت، ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت عاليها من رونق الورق المونق، ثياب سندس خضر واستبرق، فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، من أثمار ذات بهجة، وأزهار تنعش

المهجة ، فتحلت بما يروق لسان كل إنسان ، وتجلت فى رفرف خُضر ، وعبقرى حسان .

في روضة غناء غناها الصبا فترقّصت طرباً غصون البان

ومن نظر إلى ما فيها بعين الحقيقة ، وسرّح بصره فى هذه الروضة الأنيقة ، لشكر أيادى صانعها ولجأ إليه ، وأثنى على صانعها وإن كان لايحصى ثناء عليه .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قُضُب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

١٨٧ ــ ﴿ مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله ﴾

لعمرك ما مصر وإنما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها وروضتها المقياس والنيل كوثر

مصر مدينة ذات محاسن ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، روضة أريضة ، عيون أزهارها مريضة ، وأنواع البركات من نهرها مفيضة ونوازع الهموم والغموم بها مريضة ، كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس فى وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلالة ، أو سرير ملك نصب فى ميدان ، أو قاب جيش له مصر والجزيرة جناحان ، مقرّ العلماء الأعلام ، والقضاة والحكام ، كم سكن بها من خلفاء

وملوك وأمراء ؛ ورؤساء ووزراء ، وفقراء وأغنياء ، وكتاب وشعراء تقام فيها معالم العلوم والفنون ، ونغمات وألحان ، وتدريس أفنان وقضاء أوطار ، وضرب أوتار ، كل نفس بما كسبت رهينة . وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة ، فهذا يسعى فى خلاص ذمته ، وهذا يوقعه القدر فى حبائل جنايته بخيانته ، قل كلٌّ يعمل على شاكلته .

بها ما شئت من دين ودنيا　　وإخوان تأسوا فى المعانى
فمشغوف بآيات المثانى　　ومفتون برنات المثانى
وكم من قارىء فيها وقار　　أضرا بالجفون وبالجفان
وكم من معلم للعلم فيها　　وناد للندى حلو المجانى
فصل إن شئت فيها من يصلى　　وإما شئت فادن من الدنان
ودونك صحبة الأكياس فيها　　أو الكاسات منطلق العنان

قال ابن إياس إن بعض الحكماء وصف أرض مصر فقال : هى فى ثلاثة أشهر (لؤلؤة بيضاء) وثلاثة أشهر (مسكة سوداء) وثلاثة أشهر (زمرّدة خضراء) وثلاثة أشهر (كهرمة صفراء) وذلك لأن أرض مصر يركبها النيل وقت فيضانه ، فتكون بيضاء من افتراش الماء عليها — ثم تصير مسكة سوداء متى نزل الماء من عليها — ثم تصير زمرّدة خضراء وقت الربيع — ثم يصير زرعها أصفر كالذهب .

فمن الناس من يسكن مصر ليمدّها عونا على تقواه ، ومنهم من

يعدّها للعبه وملهاه ، هذا يرعى فيها النجوم ، ويناجى الحى القيوم وهذا يغفل ليله إلى الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم ، هذا ينظر اليها بعين الفكر ، والتبصر فى عجائب القدرة ، وهذا ليس له منها إلا الابتهاج بنضارة الزهرة .

رأيت رياض القدس فى روضة المنى   على نيل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للناظرين مشارق   وفيها وجوه كالبدور البوادر
ويشبه سيب الماء فيها صوارماً   بأيدى الهنا سلت اسلب النواظر
عليها جلال الله جَلَّ جلاله   وفيها سرير السر سرُّ السرائر

يحيط بأرجائها النيل الميمون ، فيبرىء من الأسقام عليلا ، ويشفى من الأوار غليلا .

ديار مصر هى الدنيا وساكنها   هم الأنام فقابلها بتفصيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها   مصر مقدّمة والشرح للنيل

والنيل حياة الأرواح والأنفس ، ويحشر له الناس ، ويحتج فيه إلى المقياس ، وفى الحقيقة هو خلعة رضى ولباس ، ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل ، ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل ، ويركب اليه الملك والجنود ، ويكون للناس من مائه ولونه المحمر ورود .

ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وله فى كل سنة أجل معدود .

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا　كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعه　محلق علاّ الدنيا بشائره

١٨٨ — ﴿النور وأثره فى الإنسان والحيوان والنبات﴾

النور حاجة من حاجات الجسم ، يسر من وجد فيه للحصول عليه كما يتألم لفقدانه ، فهو يزيد الجسم قوة ونشاطا ، والقلب طهارة والفكر جودة ـ أنظر إلى العصفور فإنه يصفو حاله فى النور ، ويترنم بألحانه ، ويغرد بصوته الجميل ، ويقضى وقته فى سعة من السرور ، وإن حرمه اضطرب لفقده ، وفترت همته فلا تسمع له صوتا ولا لحنا ـ قال كبار الحكماء (المحل الذى لا يدخله الشمس يزوره الطبيب) وقال آخر (لا بد من طبيب للعائلة ، والأفضل أن يكون هذا الطبيب نور الشمس) وانظر أيضاً إلى النباتات والأثمار ، فلا تنبت ولا تنضج إلا بالنور — فهو رأس السعادة وأصل الوجود ، وسبب النمو والصعود وعليه مدار الصحة والصفاء ، بل هو حياة من فى الأرض والسماء فيلزم الاعتناء بوصوله إلى محلات النوم والمطالعة .

١٨٩ — ﴿اللغة العربية ومزاياها على سائر اللغات﴾

إن للغة العربية من الفوائد ، خزائن لا تنفد ، وكنوزا لا فنى وبدوراً لا تحجب ، وعيونا لا تنضب ، ورياضا لا تذوى ، ولكن لا يصل إليها إلا من غاص بحرها ، وولّى وجهه شطرها ، وسبر كُنهه

أغوارها ، وجاس خلال ديارها ، وجاب نجادها ووهادها ، وراد مروجها ، وورد مناهلها — ومن المزايا التى تترتب على معرفة العربية وتمتاز بها على سائر اللغات الأعجمية ، كونها أوسع من غيرها من اللغات ، وأكثرها طرقاً فى فن الكتابات ، وأفصحها مقالا ، وأفسحها مجالا ، وأوفقها للنظم طباعاً ، وأطولها فى النثر باعاً ، فيمكن أن يؤتى فى المقام الواحد بدرجات من الإسهاب ، وأنواع من الإيجاز تستطاب إلي غير ذلك من أساليب البلاغة والبراعة ، التى توسع مجال اليراعة.

وكونها غير قابلة للانعدام ، كغيرها من لغات الأنام ، لأنه نزل فيها كتاب عربى مبين ، تلاوته من أعظم العبادات عند جميع المسلمين ، فما دام هذا الدين قائماً ، كان هذا اللسان موجوداً دائماً بخلاف اللغات الأخرى فليس فيها كتاب يتعبد بمجرد تلاوة كلامه لاعتقاد أربابها أن الترجمة كافية فى بيان مرامه . وقد أوصى أحد فلاسفة الألمان يوماً تلاميذه فقال (إذا أردتم أن تكتبوا فكراً تأمنون عليه كرور الأجيال فا كتبوه بالعربية فإن لها دون غيرها من اللغات مزية ، فقالوا وما مزيتها فقال (لأن فى العالم أمة عظيمة العدد ترى من أصول دينها تلاوة كتاب فيها يسمى « القرآن » ولا شك فى بقاء الأديان فى الأمم العظيمة الشأن ، وحينئذ فلا ريب أن هذا الكتاب يبقى ما بقى هذا الدين وأن العربية تبقي ما بقي هذا الكتاب)

وما يطنطن به بعض الناس من قصورها ، إنما هو عن جهل بها أو لغرض يتعسر إخفاؤه ، وما يعترض به من أن الاستكشافات في هذه العصور كثيرة ، وليس في اللغة العربية كلمات للدلالة عليها فاعتراض ضخم في الظاهر فارغ في الباطن .

وما مثله إلا كفارغ بندق خليٌّ من المعنى ولكن يفرقع

فإن باب الاصطلاح ليس مغلقاً في اللغة العربية مفتوحاً في غيرها

وبالجملة — فاللغة العربية أليق اللغات وأكفلها بحاجة العلوم فون ذلك سعتها ، فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألف كلمة — وعدد كلمات الإنجليزية ١٠٠ ألف كلمة (على أن معظم هذا العدد الأخير اصطلاحات صناعية) وعدد مواد العربية ٤٠٠ ألف (مادة لا كلمة) .

وبسبب غنى اللغة العربية وسعتها نجد فيها للمعانى الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل معنى ، مهما كانت درجة التفاوت ، وبذلك لا يكون محل للالتباس أو الإبهام في التعبير اللذين هما آفة العلم والأدب

١٩٠ — ﴿ ما هي الحاجة الماسة لحفظ اللغة العربية الفصحى ومضار استعمال العامية كتابة ﴾

غير خاف أن اللغة العربية رابطة عامة لعدة من الخلائق في المغارب والمشارق ، ولحمة عظمى لجملة من الأمم ، صلتها من آكد الصلات ، وحرمتها من أعظم الحرم — ولا يكفى في عقد هذه اللحمة

اللغة العامية ، لأن لـكل شعب فيها طريقة خصوصية فلهجة المصريين أو الحجازيين تخالف لهجة غيرهم من المغربيين أو الشاميين ، فالأمر العام الذى ترجع هذه اللهجات إليه ويعتمد فى مبادلة الأفـكار المختلفة عليه ، هو اللسان الصحيح الشريف ، لسان التحرير والتأليف — أجل إن اللغة العربية مفتاح العلوم ومصباح الفهوم ، وواسطة لإدراك ما يجده الانسان ، ويقع تحت العيون والآذان ، تجعل صاحبها قادراً على ارسال أشعة أفـكاره إلى أبناء جلدته فيستجلون ضياء أنواره ولا يجدون فى طريقهم عقبات من العقادة ، تحجب عن الطالبين مراده ، بخلاف من تقاعدوا عن الحصول عليها ، وتقاعسوا عن تعلمها وصرف الهمة اليها ، فلا يعرفون قيمتها إلا عند الشروع فى العمل ، ويأسفون حينئذ على حرمانهم من مزاياها بطاعتهم دواعي الـكسل ، ويـندمون ولا ينفع الندم حيث زلت القدم .

وليس من وسيلة لحفظ لغة أمة أقوى من استعمالها فى التعليم والتعلم ، ولا واسطة لنماء علم بين أمة ونشر التعليم بين بنيها غـير استعمال لغتها — فبديهى أن استعمال أمة لغة غير لغتها فى التعـلم والتعليم هو هجر للغتها وإماتة لها ، فاللغات المسماة الآن ميتة ما صارت كـذلك إلاّ لهجرها .

وهناك أمر أشـدّ خطراً وأعظم وقعا وضرراً وهو أنه لما كان

السواد الأعظم من الشرقيين هم المسلمون وكان هذا الدين الاسلامي قائما بالقرآن الكريم الذي هو باللغة العربية لزم لأجل فهمه بقاء اللغة العربية بحيث متى انعدمت امحق الدين الاسلامي وهلك السواد الأعظم من الشرقيين دنيا وأخرى لأن الدين هو ملاك الامر والعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

أجل — إن من أحبّ الله أحب رسوله العربي ومن أحبه أحب العرب ومن أحبهم أحب اللغة العربية ومن أحبها عنى بها وثابر عليها وصرف همته إليها فان العرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة — والإقبال على تعلمها من الديانة إذ هي أداة العلم وواسطة التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد — ثم هي لإحراز الفضائل واشتمالها على المروءة وسائر مكارم الأخلاق، ولو لم يكن في الإحاطة بمعرفة مبانيها والوقوف على حقائق معانيها وتصاريفها ومجاريها والتبحر في جلائلها ودقائقها ومجازاتها وحقائقها إلا قوّة اليقين في معرفة إعجاز كتاب الله المبين وزيادة التبصُّر في إثبات النبوّة التي هي عمدة الإيمان لكفى بالعربية الفصحى فضلاً يحسن أثره، ويطيب في الدارين ثمره

١٩١ — ﴿ فوائد تمهيد الشوارع ونظافتها وإنارتها ﴾

مما يستدل على حالة التمدين والحضارة ملاحظة كيفية الشوارع

والأزقة — فمن أهم الواجبات بذل الهمة وإمضاء العزيمة فى تحسين وتجميل شوارع البلاد — على أنه لا يسمح لهم التمدين قط بترك الشوارع والأزقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط مظلمة الأرجاء قذرة الأنحاء بل يطلب منهم دائماً أن تكون مستقيمة عريضة نظيفة مدكوكة ممهدة . وذلك لأن الشارع أو الزقاق إذا كان ضنكا يمنع سهولة تجدد الهواء ويعوق امتداد النور إلى مخزن الناس أو حوانيتهم فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والاورام ونحو ذلك — وإذا كان معوجاً فانه يعسر انطلاق حصوات الناس فتعثر أرجلهم وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم وحينئذ يكون السير فى الزقاق عراكا لا انتقالا وإذا كان وعراً غير مستو فإنه يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالهم الثقيلة فتهشم حوافرها وتتكسر أرساغها فضلا عن المؤذيات التى تنجم من الشتاء فى تلك الطرق الوعرة فيؤثر فيها بحيرات من الأوحال تمنع الذهاب والإياب ، وتقفل للتجار والصناع الأبواب ، وعندها تقف حركة الأعمال وتتعطل الأشغال وتتجرع الفقراء كأس الذل والهوان ، ولا يبقى سبيل لسلوك العميان ومن حيث ان الأقذار والاوساخ لها أشد الأفعال السيئة فلا يسوغ والحالة هذه تغافل ولاة الأمور عن ملاشاتها ، ويجب

الاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للاسواق والشوارع والخاصة للبيوت والمساكن فراراً من تلك التأثيرات الرديئة ومراعاة حق المدنية

١٩٢ – إنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

التاريخ حياة الذكر ومدبر الحياة يسجل لكل واحد المجد والشرف والفخار ، أو الذل والضعة والعار — فهو الحكم المطلق ، الواقف بالمرصاد ، يكافىء من حسنت سيرته ، ويعاقب من ساءت خطته

المرء بعد الموت أحدوثة   يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرىء   تطيب بعد الموت أخباره

وإن أعمال الانسان كالنجوم، والحياة كالنهار والموت كالليل ، لأنه لا يظهر فضل المرء الا بعد موته ، ولا يعرف مقامه إلا بعد ذوقه كأس الحمام — فكما أن النجوم لا تظهر الا فى الليل كذلك الرجل لا ترى أعماله إلا بعد موته ، فان كانت صالحة ترى القوم قد عدت مآثره ، وكان محمود الشهرة طيب الثناء يخلد له التاريخ صفحة بيضاء وإن كانت طالحة فقد صب عليه ربه سوط عذاب ، وأصحبه قومه باللعنات، وصار اسمه لا يذكر الا مردفاً بالتهكم مقروناً بالاحتقار — وما ذلك الا لأنه حاد عن طريق الخير وشذ عن فعل المعروف ولم يراع للعاقبة حقاً ، ولم يخش لها بأساً ، ولم يدر ماذا يكون بعده مما يسجله التاريخ له من المجد والفخار ، أو الخسة والاحتقار

وأفضل الناس من طمح ببصره إلى الأمام، وعلم أن الآجال صحائف الأيام فقلدها أفضل الأعمال وجرد تاريخه من نقطة سوداء تشوه وجه صحيفته البيضاء حتى كان مثالا حسنا لمكارم الأخلاق وجمال الطباع، نصيراً للمروءة فهذا الذى يسجل له التاريخ ذكراً حسناً وحديثاً عاطراً وأثراً خالداً .

فيرى على مرّ الدهور لدى الورى حياً بما أولاه من إحسان

بخلاف من جعل مطمح نظره الشهوات واللذات وأفنى عمره فيما لا يغنى ولا يثمن من جوع، فحشر نفسه فى زمرة من لا يخافون عقاباً ولا يتحاشون عذاباً فيغير الله نعمته وتحل به نقمته ويسجل لنفسه الخزى واللعنة إلى يوم الدين وحقت عليه كلمة العذاب .

حياتنا كالموت إن لم تكن نهجاً إلى تخليد ذكر يدوم

وعلى الجملة — إن من ترك له ذكراً حسناً لم يمت أبداً — قال عليه الصلاة والسلام (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) فهذه ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين فى حق صاحب العمل كى تديم عمله وتجعله باقيا — فهذه الفضائل مخلدة للذكر مؤبدة للأجر وبضدها تتميز الأشياء .

نافث على الخيرات أهل العلا فإنما الدنيا أحاديث

كن محسنًا مهما استطعت فهذه الدنيا وإن طالت قصير عمرها
إن المـآثر فى الورى ذرية يفنى مؤثرها ويبقى ذكرها
فترى الـكريم كشمعة من عنبر ضاءت فإن طفئت تضوع نشرها

فالدنيا دار كثير سكانها ، عديد قاطنوها ، تختلف آراؤهم بحسب اختلاف مطالبهم ومشربهم — وينقسمون إلى فرق متعددة كل منها يقوم بعمل دون غيره — فالأطباء يعالجون المرضى ، والقضاة ينظرون فى القضايا ومحاكمة المجرمين — والمهندسون لبناء المساكن وإصلاح طرق الرى — والنجارون لعمل ما يلزم للمنازل من أبواب ونوافذ وغيرها ـ والحدادون يسبكون الحديد . والـكل يسعى فى هذه الدار لينال قسطا من المـال يساعده فى الحياة أو ليؤدى واجبًا مفروضا عليه وهو العمل ـ ولعمر الحق ما الحياة إلا شقاء ونصب يولد الإنسان باكيا علامة له على شقائه فيهـا وعذابه الدائم الذى لا ينتهى إلا بانتهاء أجله ، ويموت باكيا من شدة الالم ، وينتقل من داره التى يسكنها إلى القبر الذى يجعله مأواه ومسكنه ، ويصير جسمه الذى كان كالزهرة النضرة جثة هامدة لا حراك فيها ، وبعد ذلك تتحول الجثة إلى رفات سحيق — فإذا تأمل الإنسان وتبصر وعلم أن ذلك هو حاله ، لنبذ ملاذ الدنيا ، ولعافى النفس عن الهوى ، ولعلم أن الجنة هي المـأوى فلا يترك حسنة إلا ويأتى بهـا ، ولا سيئة إلا

ويتخلى عنها . ويكون حقيقة هو الرجل الذى عرف الحياة وقدرها وعرف الآخرة وأعد لها من الحسنات والفضائل ما يخلده له ذكراً حسنا

إذا كنت فى أمر فكن فيه محسناً فعما قليل أنت ماض وتاركه

١٥٣

إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب ، قعدت وأنت كبير حيث تكره

لا يخفى أننا نجد من شعورنا الإنسانى أن الأحوال النفسانية المختلفة كالتفكر والإحساس والإرادة صادرة عن شىء باطنى قائم بذاته مغاير للجسم ، فهذا الشىء يسمى بالنفس أو الروح — وبما أن شعورنا يبقى على حالة واحدة من الصغر إلى الكبر ، وأن الجسم تلحقه التغيرات المختلفة ، نعلم أن النفس ليست مادة وليست قابلة للقسمة ، وأنها شىء آخر مخالف للجسم ولكنها مرتبة به حيث نجدها تقتسمه أحواله ، كالقوة والضعف والصحة والمرض ، كما أن الجسم مرتبط بها ويقتسمها أحوالها كالفرح والحزن وخلافهما

ثم إن التفاعلات المتغايرة التى بين الجسم والنفس إما أن تكون متسببة عن النفس أو عن الجسم وذلك إذا كانت حالة من أحوال النفس تتولد من أثر ظاهرى فى الجسم تعتبر تفاعلا سببه الجسم. وإذا كانت حالة من أحوال الجسم تتولد عن أثر باطنى فى النفس تعتبر تفاعلا سببه النفس

وينتج من ذلك أن الأحوال الجسمية الظاهرية تكون محسوسة للنفس وأن الجسم تلحقه الحركة بواسطة تأثير النفس فيه.

وأقرب أجزاء الجسم من النفس هى الأعصاب، لأنها توصل الآثار الظاهرية إلى النفس وتكون واسطة لها فى تأثيراتها فى الظاهر، وتدعو الجسم بواسطة الإحساسات النفسانية إلى الحركة الاختيارية، ولذلك يمكن أن تعتبر الأعصاب آلات للنفس.

والأعصاب تكون فعالة إما بواسطة التأثيرات الظاهرية أو الباطنية، فالظاهرية كالضغط والضرب أو الحرارة والنور والكهربائية — والباطنية كدورة الدم والأحوال الصادرة عن النفس والأعصاب منها ما ترسل الآثار من محيط دائرة الجسم إلى مركز الإحساس النفسى، وتسمى أعصاب الاحساس — ومنها أعصاب ترسل التأثيرات النفسانية الطالبة للحركة إلى محيط الجسم وتسمى أعصاب الحركة الاختيارية إن كانت مسبوقة بالارادة — والاضطرارية إذا لم يسبقها إرادة — وهناك حركة شبيهة بالاضطرارية كالضحك عند رؤية شىء غريب، وكحركة الدم عند الحياء والخجل، وكحركة الأعضاء الصادرة تحفظاً كتغميض العين اتقاء خطر، والحركات التقليدية كالتثاؤب عند رؤية آخر قد تثاءب — وغير ذلك، ويعد من ذلك النوع الحركات الطالبة لها الآداب فى المقابلة والمؤانسة والانسانية فهى وإن

كانت اختيارية فالتمرن عليها يجعلها كالاضطرارية، فالذى يتربى بأخذها تصير له عادة، وطبعاً لا تحتاج فى صدورها إلى إرادة منه .

ولما كانت النفس فى الإنسان أمارة بالسوء ميالة للشر طلابة للراحة احتاج الناشىء فى صغره إلى مزيد عناية . فمن ألهم الله والديه أن يرضعاه ثدى الأدب والجد من صغره ووهبه مع ذلك عقلاً كاملا ، شب وحب الإرتقاء يشب فى صدره ، وذروة المجد مرمى نظره وخدمة الوطن كل أمله ، فلا يستصعب شاقاً ، ولا يجد فى طريقه للمجد عائقاً ، فهو ينفر من الراحة ، ويأنف الانغماس فى اللهو مع السفلة ويجد نفسه أعلى مقاماً وأرفع منزلة من أن يدنس سمعته أو يلوث صيته بالانكباب على إضاعة الوقت فيما يضر ولا طائل تحته فيمقت جنبه المضجع وتبغض عينيه الكرى إلا أغراراً أو مضمضة

ومن أهملاه والداه شب والكسل قرينه والهاوية قطينه والفقر أليفه والعجز حليفه يعيش ليأكل ويقتل الوقت الثمين ولا يميز بين الغث والثمين ، حتى إذا كبر صدمته مصائب الحدثان ، وافترسته مخالب الزمان .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

قال الامام الغزالى (الصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش

ومائل إلى كل ما يمال إليه به ، فإن عود الخير نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة — وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدبه — وإن عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه) وحينئذ فلابد للارتقاء الأدبى من التربية وهذه يجب أن يبدأ بها من الصغر

١٩٤ ﴿ فوائد ومضار الانتقاد ﴾

الانتقاد والفحص من أحسن الوسائط لاصلاح الأعمال وترقيتها وتطهيرها مما طرأ عليها من الفساد إهمالا أو سهواً أو جهلا — وإن النفس المهذبة المتربية لترتاح لمن يقوّم عوجها من عالم عليم ، وإمام حكيم ، فيسمع قوله ويخشى لومه ويتقبل انتقاده بقبول حسن — فبذلك تتقدم العلوم والمعارف ولا يظهر منها إلا ما هذبته العقول ونفحته الأفكار وأصلحته الأنظار والأبصار ، فتتجلى فى أحسن مثال وأبهى منظر وكمال ، منطوقها الحقائق ومفهومها الدقائق يعلو وجهها البشر والسرور ، ويقرها جميع الجمهور ، وبذلك تقوم المصلحة العامة على قدم الأمانة وتسير الأمة فى سبيل الرقي والنجاح فيسمو عزها ويبسط سلطانها

وقد اعتنى به الغربيون اعتناء عظيما لأنه يدعو الحاكم والكاتب والتاجر والصانع لبذل جهده فى اتقان عمله ، فتتقدم البلاد وتحسن

حالتها حساً ومعنى ، فتراهم لا يبرز بينهم كتاب ولا يشرق عندهم مخترع حتى يفحصوه فحص الناقد البصير فينظرون فيه من كل وجهة ويزنونه وزناً دقيقاً — وبذلك طهروا المطبوعات من المضر والتافه والساقط فلا يجسر على نشر ما كتب إلا الكفء القدير الواثق بعمله الطالب نفع وطنه ، وإلا كان عمله إذا أقدم تجارة تهددها سوق الكساد ولا تلبث أن تبور ويضرب بها عرض الحائط .

والانتقاد من أهم ما أنشئت لأجله الصحف والمجلات فهو أجل منافعها إذ به يرتدع الظالم عن غيه ويجبر المستبد على الوقوف عند حده ، فهي توصل صوت الشعب وتعبر عن رأى الامة لمن يقدر على تلبيتها وإجابة ندائها والاصاخة لمطالبها وتخفيف ويلاتها ومصائبها

وبالجملة — الانتقاد ضرب من ضروب الاصلاح إذا كان الغرض منه الارشاد إلى الصواب والتنبيه عن الخطأ والحض على الصحيح والاصرار مجلبة للتقاطع والاحقاد ومثار التنافر والعناد وحينئذ يسقط نفعه ولا يحسن وقعه إلى يصير تعنتا ودعوى كاذبة يلصق العار بالمنتقد ويحط من كرامته لان قصده إرسال ما فى كنانة غيظه من سهام التشفي والانتقاص

فاذاً يجب على المنتقد أن لا يضرب بحسامه إلا صفحا كى لا يجرح شعور المنتقد جرحاً مميتاً قاتلاً — ويجب عليه ألا تبلغ

لهجته الشدة ولا تتجاوز اللائق بالأديب من الرقة — ويجب عليه أن يدرأ العيوب والشبهات فاذا لم يجد شبهة فلا مناص من الانتقاد .

كما أن الواجب على من انتقد عمله أن يقدّر الانتقاد الصحيح حق قدره وينظر فيه نظر من يريد الصواب وَينشد الهداية ويبحث عن موقع الخطل ولا يتعالى وَيتغطرس شامخا بأنفه ، فما هو بالمعصوم وإن هو مهما علا كعبه فى فنه إلا إنسان — والله وحده هو الذى تفرد بالعصمة والكمال .

١٩٥ — ﴿فوائد ومضار التقليد﴾

التقليد التشبه بالغير إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، والعاقل من قلد غيره فى الفضائل وَالكمالات ، وَنافسه فى اقتناء الخيرات وزاحمه فى كمال الأعمال ، وتشبه به فى جلائل الأفعال :

هذه أمة الغرب التى ما كانت تذكر قلدت الشرق عند ما كان شمسا مشرقة أيام الحروب الصليبية فارتقت ، وأخذت عن العرب أحسن العادات ، وَأفضل الصفات ، وكمال العرفان ، وأصبحت الآن هى التى تضىء العلم والعمل على أرجاء المشرق الذى غربت شمسه وأشرقت عليهم وكلنا لاه يمرح ويلعب ، وتفعل الغربيون بنا ألاعيبهم ونحن أطوع لهم من خيال ، وتبعناهم تبع المقلد الأعمى فياله من داء عضال

اختلفت فى أدوائه رجال الشرق ، فمن قائل لا سبيل لنا إلى الخروج من ربقة هذا الانحطاط إلا تقليد الأمة الفلانية ، واختار أمة من الأمم الغربية ، أشرب فى قلبه حبها ،أخذ يبث أعمالها ويؤم أميالها ومن مدّع أن التقليد لهذه الأمـة يوصلنا للغرض المطلوب وأنه يجب علينا أن نقلد الأمة الشهيرة ، وانتقى له أمة أخرى مدحها وفضلها على سواها ، وهكذا حتى كثرت الأحزاب ، واختلفت الميول وصار كل حزب بما لديه فرحاً ، ونسوا أو تناسوا الدواء الشافى وهو رجوعهم إلى كتابهم وعوائدهم وأخلاقهم والتمسك بعقائدهم ودينهم هؤلاءهم رجال الصدر الأول من الإسلام لم يبلغوا هذه الدرجة الفخمة التى يرتعدلهاقلب الجبان ، ويعجب منها كل إنسان ، إلا لكونهم كانوا يرجحون غيرهم فى الشجاعة ولا يقلدون إلا فى الفضيلة لالأنهم كانوا مستكملى العَدد والعُدد - بل لأنهم اجتمعوا تحت كلمة الوحدة وانقادوا للقانون الشرعى الذى هو كافل لأحوال المعاش والمعاد فكانوا يتحاكمون إليه في السلم والحرب وجميع الاعمال بحيث لا يبنون أمراً من الأمور إلا بعد عرضه على قواعد الدين وأحكامه فإن ساعدت عليه أتوه وإلا تركوه وبهذه الحالة صار جانبهم محفوظاً وسلطتهم نافذة وقوتهم مشهورة وأعمالهم مرضية إذ كانوا لا يولون الأمور إلا أربابها قائمين بإقامة الحدود محافظين على شعائر الدين إلى أن غير الأمراء والرجال ما فى

أنفسهم واتبعوا شهواتهم وبدّلوا وجهتهم وفرّقوا كلمتهم فحقت عليهم كلمة (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

ولا تنشط أمة من غفالها أو تقوم من رقدتها أو تستيقظ من غفلتها إلا بباعث يبعثها ومنبه ينبهها كذكر مجد أسلافهم وتقليدهم فى أعمالهم وإفهامها أن لهم استعداداً للكمال ورجاءهم الخير وتوسمهم إقبال الزمان وتبسم الدهر فى وجوههم

وقصارى القول ان التقليد غريزة أودعها جل شأنه فى نفس الانسان لتكون داعية العمل ورائد الرقى ومبعث الحركة ومطلع شموس المدنية والعرفان

يولد الطفل وهو لا يعلم شيئا من شئون الحياة فتراه مولعاً بتقليد أمه وأبيه وسائر ما يقع تحت حواسه من حسن أو قبيح فجدير بالانسان أن يصرف تلك الغريزة إلى النافع من الأشياء ويجعلها وصلة بينه وبين أعاظم الرجال فيقلدهم فيما أتوه من جليل الأعمال فان شاء فليكن مرشداً حكيما أو قائداً عظيما أو طبيبا ماهراً أو منشئا محرراً أو سياسيا محنكا أو أصوليا بارعا أو سائحا متجولا أو قاضيا عادلا أو وزيراً نصوحا أو خطيبا فصيحا أو شجاعا مدافعا أو تاجراً رشيداً أو مخترعا مفيداً — فانه إن فعل ذلك علم مقدار نفسه فى الوجود وقلد تقليداً نافعاً وأفاد واستفاد وإن أضاع تلك الهبة

النفسية ، وقلد تقليد الغراب ، وكان كمن اغتر بالسراب وبهره حسن المنظر فشغله عن سوء المخبر وصار يخبط فى أموره خبط عشواء لا يميز بين السراء والضراء ، فذلك الذي رجع بصفقة المغبون وضل ضلال المفتون وكان تقليده وبالا عليه وضرراً على من التفوا حوله وحذوا حذوه ، فضل وأضل

١٩٦ — ﴿ الربا نذير الخراب والدمار ﴾

رغد العيش مبنى على تبادل أعمال البر والاحسان بين الناس وعلى مواساة بعضهم بعضاً وأخذ بعضهم بيد بعض ، وإلا فلا مدنية ولن تجد من دين نزل من السماء إلا وهذه الخصال فى مقدمة تعاليمه ومن باع درهما بدرهمين فقد عمد إلى قطع تلك الروابط الثابتة ، ورضى من الحياة أن يعيش فى التجرد من الانسانية والمدنية ، فلا يحسن ولا يحسن إليه ، ولا يواسى أحداً ولا أحداً يواسيه ، وهى خسارة كبرى يحتسبها عليه نظام الدين والعمران

ذلك هو المرابى آثر نعمة نفسه على إقامة المصلحة العامة وهى العمل بحكم المواساة والبر فجر ذلك إليه ، إذ فقد من الناس من يواسيه إذا أجدب أو يبره إذا أترب — وأيقظ على مطالبه الأطماع وعرض ثروته لأهداف الأغراض ، واستبدل بشاشة الوجوه وكنوز الضمائر ببهارج الظواهر

وإن من النفوس نفوساً تؤثر الكثير المظنون من المنافع على القليل المقطوع به منها — وإنما ينشأ ذلك من بعد الهمة أومن الطمع الهائل — وما تلك الأنواع من النفوس بكثيرة العدد فى الناس وإنما الذى يغلب وجوده فى جميع الطبقات هى التى تؤثر القليل المحقق على الكثير المظنون لا سيما إذا كان هذا محفوفاً بمشاق ومكاره وكان ذاك مما يبلغ براحة واطمئنان

ومتى هان على الناس بيع الدرهم بدرهمين أخلدوا إليه ، وأعرض أكثرهم عن مشقة المكاسب المدنية من نحو تجارة وصناعة وزراعة لأن ماتأتى به هذه الأسباب من النمو المالى على ما فيه من الجهد والعناء مظنون — على العكس مما يجىء به المكسب الربوى فإنه مع قلة مؤونته وخفة عمله مشهود ومتحقق

والنفوس أكثر ميلا وأشد لوعاً بما كان من هذا الضرب من المكاسب — وهناك مهب الفقر المدقع ، ومصب العجز المدمن وهما خطبان أليمان — لا ينتظم بهما جنس ولا يصير عليهما اجتماع وذلك ما يفعله الربا بالهيئة الاجتماعية — قال تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا) والحكمة فى تحريم الربا هى أنه يقتضى أخذ مال الغير وهو القدر الزائد بدونه

عوض ، وهذا حرام لقوله صلى الله عليه وسلم (حرمة مال المسلم كحرمة دمه) وقد أجمعت الأئمة أيضاً على حرمة أكل مال غير المسلم من الذين دخلوا بلادنا بأمان وعهود بخلاف الحربيين

كيف لا وأنه إذا تمكن الشخص من تحصيل درهم زائد بواسطة عقد الربا لأعرض عن وجوه الكسب كالحرف والصنائع ، لما فيها من المشقة العظيمة ، ولا شك أن هذا يفضي إلى انقطاع منافع الخلق لأن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والصنائع والحرف فإذا حصل الإعراض عن هذه الأشياء استغناء بالربا فلابد أن يختل نظام العالم وأيضاً الربا يؤدى إلى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس بسبب منع القرض والسلف — فإذا حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم ورد مثلها فقط ـ وأما لو كان الربا حلالا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين فيؤدى ذلك إلى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس — بل وإلى ذهاب أملاكهم ووقوعهم فى ذل الفقر والمسكنة كما عليه الغالب من أهل زماننا هذا قال تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات)

١٩٧ — ﴿ اختيار الزوجين لبعضهما سر الحياة الجميلة ﴾

الأسرة وإن كانت أخص المجتمعات فهى أصلها وأقرب للانسان من غيرها ، وتنتظم من زوجين متآلفين ، يأنس كل منهما إلى الآخر

والازوواج الأدبى هو ما يكون ملحوظاً فيه إلى الحكمة الإلهية التى هى طلب العفة والتكثير ، وما وراء ذلك من قضاء الميول الجسمية فخارج عن مقصد الآداب وان كان ذلك هو الباعث الطبيعى - ومن دواعى الازدواج طلب مصافات النفوس والانس والتعاون وغير ذلك من الصفات الفضلى التى تؤذن بصفاء العيش وابتهاج النفس ولا يصدر ذلك إلا عن ثابت محبة بين الزوجين لذاتهما

ثم إن المحبة للذات إما أن تكون لجمال الخلق أو كمال الخلق فان كانت لجمال الخلق والظاهر التى وراءها الاخلاق الذميمة فقل أن تصل بالانسان إلى غاية محمودة — بخلاف التى تنبعث عن كمال الأخلاق وحسن السجايا ولو كان دونها دمامة الخلق

وأهم الخصال الحميدة بينهما هى الثقة ببعضهما فى جميع الاحوال ومتى نفدت الثقة انحلت عرى النسبة بينهما ، وعاشا مفترقين أهواء مجتمعين أجساماً ولولا ما شرع الله من الطلاق لتفاقم الامر وعز الصبر - ولذلك كان اختيار الزوجين لبعضهما فى الامم السالفة لاسيما الامم العربية من أهم الامور فكان العربى يقطع المراحل لاستوصاف خطيبته ، ويقصد الخبير بشأنها الدربة المجرب الذى عجم عود الايام فيلقى عليه من وصفها ، فيأخذ فى سرد شمائلها من جمال الظاهر وكمال الباطن وحسن السجايا التى يجب أن تكون عليها النساء

وقتئذ وكذلك هي عند استوصافها الزوج — فكان لا مطمع لنظرهما إلا الصفات الجميلة من الكرم والمجد والشجاعة والعفاف .

والزوج والزوجة سيان فى الحقوق ومتساويان في المعاملة فكما أن سيد العائلة لكونه أقوى حماساً وأشدّ بأساً وأوسع تصرّفاً كذلك هى رئيسة أموره لتدبيرها المنزل ونظرها فى مصالحه وجلبها لراحته — فاسترقاقه إياها أو صرفها فى خدمته الخارجية عن حقوقه ضد للعدل مناف للآداب حطة فى الإنسانية خدش لناموس الحياة وكما أنها تقتسمه الحزن والسرور تقتسمه كذلك الخيرات المنزلية فلا حق له فى اختصاصه بأطايبها واستئثاره بها نفسه ولو رضيت الزوجة

وتقوى النسبة بين الزوج والزوجة إذا صارا أبوين لاتحادهما على أمر واحد وهو « التربية » وفى هذه المرتبة تتم العائلة وتزيد الحقوق فتكون ثلاثة حقوق ، حقوق الأبناء على الآباء ، وحقوق الآباء على الأبناء — وحقوق الأبناء على بعضها .

فأما حقوق الأبناء على الآباء فهو الاعتناء بالتربيـــة الجسمية والعقلية وطبع محاسن الأخلاق وجميل الصفات وتعليمهم التعاليم الدينية مع تمرينهم على العمل بها وأخذهم بالرفق والتودد لا بالقسوة والتخوف — والتسوية بين الأشقاء وبعث المحبة فيما بينهم وتعويدهم على اقتسام الحزن والسرور بعضهم البعض وهديهم إلى ما يصلح

معاشهم من بعدهم والمحافظة على ذلك كله وعدم التفريط فيه .

وأما حقوق الآباء على الابناء فهى الطاعة وخفض جناح التواضع والاحترام والتعظيم من قدرهم والثقة بهم والإحسان فى المعاملة اليهم ومساعدتهم والشكر على أنعمهم والخشية لا الخوف منهم .

وأما حقوق الابناء على بعضهم فالحب والاحترام والشفقة والعدل فى المعاملة وصفاء السريرة والمساعدة وغير ذلك — وما يكون منهم منافياً للآداب والمعاملة كظلم أحدهم الآخر أو الاضرار به فموكول لعقاب الآباء متبعين العدل والانصاف مع الاحتراس والحيلة كيلا يظن به من يستحق العقاب منهم أنه أدنى درجة من أشقائه أو من له الحق أن له الفضيلة عليه .

وبالجملة أن تربية الابناء سواء الذكور منهم والاناث وتعليمهم العلوم والآداب من أول واجب على كل أمة تريد صلاحها وتقدمها وانخلاعها عن جلباب البساطة وإنقاذ أفرادها من مهالك الجهل والتوحش والانحياز بهم إلى جانب للتمدين والحضارة حتى تكمل النسبة بين الرجل والمرأة ، يقوى تعارفهما وتتأكد ألفتهما وثقتهما ويكون مجموعهما مثالاً للخير وصورة للآداب يبعثانها فيأبنائهم وتكون العائلة مثالاً للمجتمعات الخارجية ونموذجاً للوطن ومثلا أعلى للأمة التى هو منها .

فالعائلة بالآباء خيرها بخيرهم وشرها بشرهم .

إذا كان رب البيت بالطبل ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وكما تكون الآباء تنشأ الأبناء فلا يستخرج من الحديد الذهب ولا يجنى من الشوك العنب .

ينشو الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها ينبت الشجر

٨١١ — ﴿ المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ﴾

حب النفس فطرة فى كل انسان ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس ، وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية ، بل هو خلق وجد مع الانسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه

ولما كان الانسان فى حالته الفطرية الاولى قبل كل اجتماع كانت ملكة حب الذات لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات التى تنازعه فى معيشته — بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذى يتبعه فى سلوكه فلا يتأخر عن فعل أمر يعود عليه ، أو يجلب له لذة ولو كان قبيحا أو فيه شر للناس .

ولكن منذ اليوم الذى ابتدأ الانسان فيه أن يعيش فى جامعة من أبناء جنسه متضامنة فى وسائل الحياة أخذ الشعور بحب الذات يتناقص فى كل فرد من أفراد هذه الجامعة لما تحققه من أن حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده بل من وظيفة جميع أعضاء العائلة

التى هو منها — فالقبيلة التي تشمله ، فالحكومة التى ترعاه

ومن ذلك اليوم وجد فى جانب هذا الواجب الذى تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها فى ألاَّ يعمل فرد منها عملاً يعود عليها أو على عضو منها بالضرر — ومع التقدم رويداً رويداً فى نظام الاجتماع صار كل عضو من الأمة يتمتع بأعمال كل أعضائها ، وينتفع من أفكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء — على ذلك صارت الحقوق والواجبات متشعبة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد اليوم مرتبطاً بأهل بلده ارتباطاً شديداً

نعم إن حب النفس لا يزال فى فطرة كل إنسان بل انه لا يزال أشد الاحساسات الطبيعية وألزمها للنفس ، حتى يخيل أن كل حب سواه كالعشق أو محبة البنين أو الصديق أو المال لم يخرج فى الحقيقة عن كونه شعبة من حب الانسان لنفسه بالواسطة — بمعنى أن الانسان يحب نفسه فى كل إنسان وفى كل شيء يميل اليه

لكن لا ريب فى أن الدين والتربية والتأديب قد أثر جميعها على هذا الاحساس الطبيعى حتى أضعفه ، أو على الأقل رسم له دائرة محدودة لا يتخطاها — فكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة وهى ممنوعة إذا كانت بعكس ذلك

والتربية الحسنة النافعة إنما تظهر فى اختيار المنافع الشخصية

وانتخاب ما يكون منها موافقا لمصلحة الهيئة الاجتماعية ، فيخدم الانسان نفسه ويخدم الناس في آن واحـــــد ، وفى الغالب إذا خدم الانسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم فى تحقيق آماله ، لأن العمل إذا كان يحتوى على منفعة عمومية رضى الناس أجمعون ، وعضدوا عامله بأقوالهم وأعمالهم ، و هذا التعضيد يساعد به العامل — ولا شك فى تنفيذ ما أراد وتحقيق ما قصد

ومن الأسف أن الشرقيين قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس فى تربية النشء ، فشبوا على ما نراه ممتازين بمهارة غريبة فى انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير — فهم يتهافتون على العمل النافع لهم إذا كان فيه إضرار بالمصلحة العامة — وقد لا يقبلون عليه إذا تجرد من ذلك — فالموظف يعرف لتقدمه كل الطرق ما عدا طريقاً واحداً وهو « الشغل »

والفرد من الأهالى لا يستعين فى طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات ، وبجميع أعمال الزور حتى ضد أقرب الناس إليه

وها نحن نعيش اليوم كل واحد في جانب الآخر بدون أن يمتزج به إلا امتزاجاً سطحيا — كل منا سائر فى طريقه مهتم بنفسه لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط — مع أننا نرى غيرنا على خلاف هذه الأخلاق

نرى الأمة المكونة من أربعين مليونا من النفوس مثلاً كل أفرادها على قلب رجل واحد

وإذا ذكر اسم الوطن ألفيت هذا المجموع العظيم مؤلفا من جمعيات سياسية وجمعيات علمية وأخرى فنية وهكذا بقدر ما يوجد من فروع العلوم والفنون — نرى حب الاجتماع فى كل شىء وفى كل إنسان عند الأمم الغربية — فلهذا يلزم تعويد نشأتنا على الاجتماع بأمثالهم حتى إذا شبوا على ذلك كان حب الاجتماع فطرة فيهم فلا يكون حب النفس من العيوب المفضية إلى انحلال أجزائنا والإضرار بجامعتنا كما هو الآن

١٩٩ — ﴿ فوائد الوقار ومضار الاحتقار ﴾

الوقار أو الاحترام هو محك التربية فكلما كان ناميا فى أمة كانت تربيتها جيدة ، وإذا كان فقدكان فقدانه إنذاراً بانحلال جامعتها وسقوط أبهتها وعظمتها

وإن أهم شىء يحفظ الأمم ويزيد فى رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الاساسية مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف أو جميل أو نافع

وإذا كان هذا الاحترام عاما عند الجميع وشاملاً لجميعها كان دليلاً على قوة تربية الأمـــــة حيث لا يجرؤ على مخالفة هذا التيار

القوى إلا نفر قليل .

ونحن معشر المصريين لا نحترم وطننا ولا نعرفه ، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب والدخلاء وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب فى الحقيقة لنا

أما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراماً فى نفوسنا لا فى الماضى ولا فى الحال — إذ فى الماضى كان المصريون يخشونها ويرهبونها أشد الرهبة حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة .

واليوم إذا اعتدل مبدأ السلطة ، انقلب الخوف بناء على حركة رد فعل طبيعى وبمحرضات أخرى إلى استخفاف ، وكلاهما بعيد عن الاحترام الذى يلزم أن يكون متبادلاً بين الهيئة الحاكمة والمحكومة

فاذا توفر هذا الاحترام من الجهتين من جهة الحكومة بالتفاتها إلى راحة الأمة والاعتناء بسماع ندائها وتنفيذ رغباتها كما ينبغى وبحسب الامكان — ومن جهة الأمة بأن تثق بوكلائها ولا تتأخر عن طلب الاصلاحات التى تراها لازمة لها وتغيير القوانين التى تراها مضرة بها بلا تردد ولا خوف وتقدر أعمالهم حق قدرها إن كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتنبههم إن أخطأوا وتشجعهم على الاستمرار فى الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى يكون ذلك لزاماً لهم كان ذلك من أهم أسباب سعادة الأمة .

والأسرة — يلزم أن يكون أساسها الاحترام ونحن مع الأسف نرى الروابط للعائلية عنـــدنا قلّما تكون محترمة وكثيراً ما يتغلب عليها هوى النفس.

فليس بالنادر أن يتزوج الرجل امرأة وتلد له أولاداً ثم يتركها وأولادها ويتزوج سواها — وقد يترك هذه حاملًا ليأخـــذ غيرها كذلك — وهكذا يقضى حياته فى تشييد بناء عائلات وهدمها بدون أن يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده لأنه لم يفكر إلا فى لذة دنيئة لا تذكر فى جانب الأضرار التى تنجم عنها — وإن أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق — وهو أبغض وجوه الحلال إلى الله تعالى — وقد اعتاد أهل مصر استعماله بطريقة شائنة جداً لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل.

فعلى الآباء أن يحترموا أنفسهم أمام أولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب أن تكون لا كما هى الآن ميدان يتخاصم فيه الأهل ويتشاتمون وقد يتضاربون ويفترقون.

وأيضاً لم يوجد بيننا احترام للعلم والفضيلة ولذلك لا تميز فى المعاملات بين صاحب الفضيلة وصاحب الرذيلة بل فى بعض الأحيان قد يكون احترامنا للثاني أكثر من الأول — على أن المدنية الصحيحة

تعتبر أكبر مكافأة لمن عمل عملا صالحا أن يحترمه الناس – وأكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث أن يحتقروه – ولا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبًا فيها ، والرذِيلة ممقوتة مبغضة إلى النفوس إلّا إذا أحس الناس بقوة حكم الرأْى العام وسلامته – ولا يوجد شيء يبرهن على فساد أخلاق الأمة أكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها إذ لا شيءَ أَقرب للفضيلة من احترام الفضيلة .

وبالأَسف نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون بمعارفهم وأعمالهم – ونرى شباننا يهزءون بالشيوخ ولا يثقون بتجاربهم فيرمونهم بالجْهل ، ويحسدونهم على وظائفهم إن كانوا من أَصحابها ويزاحمونهم فى الأَقوال والأَعمال ولا يتأخرون عن أن يتسوَّروا أَكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء على مراكزهم .

٢٠٠ – ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾

العالم الإنسانى جميعه جسم واحد أعضاؤه الامم – صحته الهدى – داؤه البغى – دواؤه النصح والارشاد . فإذا لم يأمر الآمرون بالمعروف ، وينهى الناهون عن المنكر ، خسروا الدنيا والآخرة وباءوا بغضب يحارب ضمائرهم ، وخسارة تنقص أموالهم وقتل يحصد رءوسهم ، وانتهاك لحرماتهم وصبت اللعنة عليهم والخزى والعذاب

المهين . وإذا قام الهداة بإرشاد الرعية وأوقفوا الأمراء عند حدهم إذا ظلموا ، وعلموهم إذا جهلوا ، وذكروهم إذا نسوا ، كان العدل وانتظم الأمر — ولم يأل الناصحون من الأمم جهداً فى غابر الأزمان فى النصح والارشاد ولم يبالوا بما ينالهُم من الأذى والموت قياماً بما عهد إليهم وما توحى به ضمائرهم . وهذا « بيدبا » حكيم البراهمة قام مقام الخصم الألد فى وجهه « دبشليم » ملك الهند حينما طغى وتجبر . فوقف مدافعا عن أبناء أمته الضعفاء فى منزلة بين المنزلتين ، إما استقامة الأمور وانتظام الجمهور ، وإما سفك دمه وإذاقته طعم الموت الزؤام ، وأبى ذلك الفليسوف البقاء على الذلة والهوان ، فنال بالنصح بغيته ، وأبقى له أثرا يذكر بعده . فحيا الله الحكمة والحكماء ومن معهم

وهؤلاء الخلفاء الراشدون عنوان العدل ، ونبراس الهدى ، وعلم السعادة ، ومع ذلك لم يذرهم الناصحون ولم يدعهم المرشدون

وكذا النصحاء وقفوا فى وجوه بنى أميَّة وستعذبوا التعذيب ورضوا بالموت كما وقع « لحطيط الزيات » إذ قال للحجاج إنك من أعداء الله فى الأرض تنهك المحارم وتقتل بالظنة ، وعبد الملك بن مروان أعظم منك جرماً وأكبر منك إثماً وإنما أنت خطيئة من خطاياه وسيئة من سجاياه ـ فأمر بقتله فقتل شهيد الحرية وهو

فى الثامنة عشرة من عمره .

وأيضاً ملوك العباسيين كم وعظهم الواعظون وأنذرهم المنذرون هـذا أبو جعفر المنصور دخل عليه عبد الرحمـن بن عمر الأوزاعى وقال له يا أمير المؤمنين أخاف أن تسمع النصح ولا تعمل به فصاح به الربيع وانتهره بالسيف فقال المنصور هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة ـ وسار الأوزاعى فى نصحه ووعظه وزجره لأمير المؤمنين وإنذاره .

فلولا الهداة والمصلحون فى الدول العربية والمحررون والحـكماء فى الدول الغربية لغلب العزيز أذلها وأقلّ الـكثير أقلها وأضحت طعمة للآكلين فريسة للقانصين فأسرع إليها الفناء وحقت عليها كلمة العذاب والشقاء ـ قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

فاصلاح الأمم يتوقف على توخى أحسن المثل التى ينتهجها قادة الشعوب وانتهاج أوضح المسالك التى يسلـكها المصلحون ليسيروا مع الأمم سير الأستاذ مع تلميذه وليأتوا البيوت من أبوابها وليخاطبوها بلسانها ـ وكما أن الأستاذ يحادث قلب التلميذ بما يشاكل طباعه ويناسب أطوار استعداده فهكذا قادة الأمم مع الشعوب ـ هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ ومن غيّرها فقد حاد عن الصراط المستقيم

٢٠١ — ﴿هل نحن فى عصر المدنية﴾

التمدين تمصير الأمصار وتنظيم المدن وعداد مرافق الحياة فيها لتنال حظها من أصول حياة دهرها ـ وللمدنية خمسة مطالب «الغذاء» لصلاح الجسد و « الدواء » لاتمامه و « الثوب » لوقايته مما يحيط به من الجوّ ، و « المسكن » ليقيه من عاديات الوحوش واللصوص و«السلاح» لحفظه من عدوّ من جنسه يفاجئه ـ وتحوط هذه المطالب خمسة دوائر .

الأولى — لأركان المدنية الأربعة الإمارة والزراعة والتجارة والصناعة .

الثانية — للرياضيات من فلك وحساب وهندسة وجبر .

الثالثة — للطبيعيات وهى المعدن والنبات والحيوان والإنسان ثم القوانين العامة والكيمياء . ثم الضوء ونواميسه . ثم الحرارة وقوانينها

الرابعة — للبخار ونقله الأجسام وإدارته الآلات وإحداثه الضوء ونقله البريد .

الخامسة — للكهرباء وتلغرافها وإداراتها آلات أعمال الغذاء والملبس والمسكن وإضاءتها وحرارتها ـ فهذه هى الدوائر الخمس التى أحاطت بالانسان وخدمت غذاءه ودواءه وثوبه وداره وحصنه فرجعت الحياة وإن تعاظم شأنها وكبر شكلها واتسع نطاقها إلى

كسرة خبز وثوب وأمن

وليس التمدين إشباع البطن وستر الجسم والأمن على النفس وما أحاط بها — كلا : فهناك بهجة للنفس وسرور للقوى المفكرة بتعقل مثل هذه العلوم — وكأن هناك تسابقاً بين شهوات الاجسام وقوى العقول ، فكما يتسابق ذوو الشهوات إلى نارها . يسبق الحكماء إلى نورها — ولئن كان للاجسام غذاؤها فللعقول بهاؤها وروحها ولئن بقى بها الجسم ودوويت بهاعلله ، فللارواح فرح بمعرفتها وبهجة بادراكها — وهذه الأجسام إذا خلقت عاجزة دبرتها العقول ، وجعل إحتياجها سبيلاً لاستنباط الحيل والدقائق ، والنظر فى الكثائف واللطائف ، واستخراج الدقائق ، حتى تعرج الارواح إلى عالمها ، وتدرك أسرار ما أحاط بها ، حتى سارع الإنسان اليوم إلى درس الطائر فى حركاته وسكناته ، فيسكن معه فى جنته العالية التى لا تسمع فيها لاغية

إن المدنية ترفع الاخلاق بنسبة واحدة ، ترفع الخير والشر معاً ، فإن غلب شرُّها خيرَها آلت بها الى الدمار كدولة الرومان وان غلب الخير الشر بقيت الى أجل معلوم ما دام القلب موجوداً فاذا عظم بناء هيكل المدنية وتم نظامه لم تؤثر فيه زعازع المفاسد إنما يبقى ثابتا إلى أجله ، فلا دهشة من سماع فساد الاخلاق والغش والخيانة وعموم السكر فى أمة عظمت مدنيتها ، لان ذلك قليل فى

جانب شامخ عزها ورفيع مجدها — فالبحر لا ينجسه شيء

ومتى زاد الضرر فغلب المنافع ، آلت الأمة للخراب كمدنية المصريين المبنية على شفا جرف هار — قال هنرى الفرنسى (إصحب الخمر معك لتبيد الجنس الشرقى) وذلك لأن القوم علموا أن الشرقى غِرٌّ ساذج يغتر بالزخارف وليس لديه من العلوم والمعارف ما يقاوم هذه المبكيات المحزنات

وبالجملة — فالمدنية هي التى ترقى الأفكار ، الداعى لتحسن الأخلاق والإحسان فى المعاملات — والمراد بترقى الأفكار انتقالها من المدارك الشهوانية إلى المدارك الروحانية ، مدارك الضمير الحر ، والنفس الطيبة المهذبة ، وذلك لأن الإنسان خلق وله نفسان ، واحدة حيوانية ، والأخرى روحانية — فالأولى هى الأمّارة بالسوء ، الداعية إلى الشهوات — والثانية هى الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر والأصل فى الإنسان أن تتغلب عليه الأولى لمعاشرته للناس ومعاملته إياهم فتملكه الرذائل ، ولكن إذا استعملت معه الوسائل لقهرها فقهرت ، وتغلبت الثانية عليها تملكته الفضائل ، وصار بعد أن كان لا يسير إلا حيث يقود طمعه وشرهه يسير حيث يرى الفضيلة فيتبعها

أما ما يظنه الناس من أن المدنية والتمدين حسن الثياب والهيئة ، وجمال السمت أو من يأكل أطايب الطعام وأشهاه ويلبس أحسن الملابس

وأبهاها — أو الإسراف فى الشهوات واللذات ، أو عدم المحافظة على الدين والشريعة أو التحايل على جمع المال وتثميره أو غير ذلك مما تلوكه ألسنة المغترين بظواهر الألفاظ ، وهم عن معانيها غافلون ، فبعيد كل ذلك عن التمدين والمدنية الحقة

٢٠٢ — ﴿ هل الأفيد إجبار الحكومة كل شاب على الجندية أو إطلاق سراح الموسر الذى يفدى نفسه بماله وأسر المعسر ﴾

معلوم أن الإنسان لا يكمل حاله إلا بالشجاعة والعدل والعفة والعلم ، فهذه أمهات الأخلاق وجنات السعادات ، ورضوان الحياة بل هى الأساطين التى عليها بُنيت الإستقامة والكمال والمدنية فالشجاعة هى القوام الأكبر للحياة ولا قيمة للعلم بلا قوّة تنفذه

فى الجبن عار وفى الإقدام مكرمة والمرء بالجبن لا ينجو من العطب

هذه الأمة العربية افتتحت هذه البلاد بحد السيف والسنان والسلم والصلح فتربعوا فى دستها أيام الدولة الأموية والعباسية والفاطمية ولما ضرب المماليك مصر ضربات الظلم والاستبداد وبطشوا بطشهم فيها وتحكموا على النفوس وأكلوا اللحم وأذابوا الشحم وأهلكوا الحرث والنسل ظلّ القوم فى ديارهم صرعى من الجور والعسف لا سلاح معهم فنسوا من شدة الفزع الأكبر حظهم من الجندية مدة من الزمان وهم يتقلبون على جمر الجهالة ويسبحون فى بحار الضلالة

ويرسفون فى قيود العبودية والاسترقاق — حتى إذا ما جاء « محمد على باشا الكبير » فحررهم وأعتقهم وأطلق سراحهم وعلمهم العلم ودربهم على الحرب والضرب فضربوا بالمدافع والسيف وألفوا رحلة الشتاء والصيف ، فيوما تراهم للروس مهاجين وآخر فى الحجاز يقاتلون الوهابيين وطوراً فى بلاد الروم يقاتلون ، ومرة فى اليونان وكريد يتبارزون ، وآونة على الشام يزحفون — وكان العلماء الأقدمون يأمرون تلاميذهم بتعلم هذا الفن الجليل فكان أحدهم يقصد البحر وقد هاجت أمواجه فيركب السفينة فتتقاذفها الأمواج لتكمل نفسه بالشجاعة — وبعضهم كان يقف فى المواضع المظلمة المخيفة حتى يتعود عليها — وإذا كانت هذه الفضيلة من أشرف الخلال وأعلاها فلماذا يفر النشء المصرى من التحلى بها — واشتهر بين العامة أنهم يؤخذون ظلما وزوراً كأنهم يساقون إلى السجون

ليست شعرى ما هذا الجهل والضلال المبين الذى أضر بالامة وأسقطها فى يد الاحتلال — إن هذا لشيء عجاب كيف يسوغ للأغنياء الجمع بين نقيضين — اشتروا لأبنائهم العلوم واشتروا بمالهم الجبن حيث يفدى الواحد ابنه بدفع البدل ، كأنهم يحذرون أن يتكمل الابناء بفن الشجاعة

وكذا الفقير جمع بين نقيضين معكوسين الجهل والشجاعة

أليس من العدل أن يعرف الناس قاطبة ما القصد من نظام الجندية ، ثم لا يصطفى قوم لفقرهم وينبذ آخرون لدفعهم الفداء — كلا فان كلا المدرستين (مدرسة الشجاعة ومدرسة العلم) تهذيب وتدريب لاتعذيب وتغريب وإبعادوتخريب ، وإنما هو درس وتعليم .غايتهماخدمة الوطن — فاذاً الأجدر أن يحشر الناس فى صعيد واحد لا تفرقة بين غنى وفقير ، وإلا فما معنى الفدية ، وأى وجه لها إلا الدلالة على الجهل المطبق وعدم إدراك الفضيلة وما الميزة بين الصنفين وكيف الفرار من الفضيلة على أنها إن كانت فضيلة أفلا تعم النوعين ، وإن كانت رذيلة أفلا تشمل الطائفتين ، حتى يكون العدل مسويا بين الطرفين — فاذاً المسئولية واقعة على عاتق الحكومة المصرية التى لا تجعل الجندية إجبارية عامة لكل فردمن أفرادالرعية ، وتصلح شأنهاحتى لاتكون فى أعين الأهالى قذى بحيث يقال مدة خدمتها ، وتحسن المعاملة بين الجنود فى المأكل والمشرب والرياضة ، وترخص لهم بإجازات أُسبوعية وسنوية يقضونها بين أهاليهم وأقاربهم ، وتمهد لهم سبل الراحة والرغبة فى هذه الفضيلة الجليلة ، حتى تهرع إليها الشبان وتطرق أبوابها كما طرقت اليوم أبواب المدارس العلمية للتلاميذ ، واكتظت بهم حتى ضاقت عليهم بما رحبت وكانت المدارس قبلا خاوية على عروشها لا تؤمها التلاميذ إلا كرهاً ووراءهم أمهاتهم تسخم الوجوه وتلطم الخدود كما يفعل اليوم بمن أخذ

جنديا — فاللهم قرب الزمن الذى تتساوى فيه مدرسة الشجاعة بمدرسة العلوم والكل عليهما يتهافتون وفى فضيلتهما فليتنافس المتنافسون

٢٠٣ — ﴿ مدارج الإنسان فى معترك الحياة ﴾

الإنسان فى حال نشأته ودور طفوليته أضعف أنواع الحيوان قاصراً عاجزاً هلوعاً يترصده الحيوان المفترس بمخلب وناب ، وتكتنفه الطبيعة بمصائب وأوصاب ، فيدب محاطاً بمكاره الطبيعة الخارجية من أمراض قتالة وعوارض مغتالة ، ثم يشب فيقع فى قبضة مكاره النفس الداخلية فيكون منذ يدب إلى أن يشب عرضة للمهالك بين عاملين قويين أسهلهما عليه أقتلهما له — وليس هذا حال الإنسان باعتبار الطفولية فقط ، بل هو حاله أيضاً باعتبار أول وجوده على الأرض — إذ أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الانسان خلقه سليم الفطرة ساذجاً ، ليس عنده من القوة الطبيعة والالهامات الفطرية ما عند سائر الحيوان ليدفع به الآفات ، ويصد الهجمات ، اللهم إلا مسحة من العقل الفطرى ، كانت لا تغنى عنه من الحياة شيئا — ولكن الله سبحانه وتعالى أودع فى خزائن ذلك العقل أسراراً كامنة فيه كمون النار فى الزناد — فكما أن هذه لا تظهر إلا بالقدح ، كذلك تلك الأسرار « وهى مدارك العقول الفائقة » لا تظهر إلا بالاحتكاك بالمقاصد الحيوية التى لا تتناهى فى جانب العقل البشرى — ومن ثم

كان بدء صعوده من حضيض البهيمية إلى أوج البشرية بالطرق التدريجية والالهامات العقلية التي تترقى بترقى الحاجة ، وتنمو بنموّ وسائل التربية والتعليم .

ولا ريب أن الانسان يحتاج فى تدبير المعيشة إلى وسائط كثيرة — أهمها التعاون والاجتماع واحتياجه إلى مساعدة من عداه من بنى جنسه فى تدبير شؤون الحياة البشرية فكان ذلك من بواعث انضمامه فى أول حلقة من حلقات الاجتماع .

كيف لا — وإن الانسان بعد أن كان يسكن الغابات الكثيفة ويأوى إلى ظل الأشجار الغضة ، ويأكل من نبات الأرض ويهيم من الحيرة فى كل واد ، دخل فى أول طور من أطوار المدنية وهو الاجتماع ، ثم أخذ يبنى لنفسه الأكواخ الحقيرة ، وينحت فى الجبال بيوتًا — ومنها الكهوف الصناعية التى ترى فى كثير من الجبال ، اتقاء عوادى الطبيعة ، ودفعاً لمخاطر الوحدة ، ثم ما زال يتسع أمامه مجال الفكر وتتشعب طرق المقاصد بتشعب طرق المعيشة حتى تولدت فيه قوة الاختراع وقوة الحرص والطمع فنما عنده حب التغالى بمظاهر الاجتماع والتغالب فى ميدان المظاهرة الدنيوية فاحتاج للاعتصام بقوة الاجتماع فى المدن طلبًا لرغد العيش وهربًا من عناء البداوة فخطط المدن وابتنى المعاقل والحصون ومصّر الأمصار وشيَّد

فيها شاهقات القصور ، وزاهيات المنازل والدور ، وكان فى غضون ذلك يجول بفكره فى مناحى الطبيعة باحثاً عما أودع الله فيها من الأسرار وأوجد من المنافع فى المواليد الثلاث ليسخر منها لمصلحته ما شاء فيما شاء — ومن نعم الله سبحانه وتعالي ورأفته بهذا النوع الإنسانى أن جعل له من العقل سلطاناً إذا أطلقه من وثاق الأوهام تناول به أسرار الطبيعة من كبد السماء ويخرج بها من أعماق الأرض بلا حرج عليه لينتفع بها فى الحياة الدنيا ، فيزرع ويستثمر ويعمر ويستعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران ويستمد مادة الحياة الطيبة مع توالى الأزمان من خلال المتاعب والمشاق التى يتكبدها فى استجلاء الحقائق وإطلاق الفكر فى أطراف الوجود ، يتناول به من أسراره قوة تدرأ عنه غوائل الضعف الطبيعى الذى فطر عليه وتدفع طوارئ الطبيعة وأخطارها التى تكتنفه — وقد جد الإنسان وراء هذه الغاية فوصل وفعل فى الوجود من آثار العقل ما فعل مما هو مشاهد بالعيان فى كل زمان ومكان ، ولكن توصل إلى ذلك تدريجاً بأعمال الفكر والاسترشاد إلى طرق السعادة بنور العلم الذى استمده من الشرائع الإلهية ، واهتدى به إلى تطهير النفس البشرية من أدران البهيمة ، فأقام له ذلك العلم من نفسه على نفسه مجداً وحسباً يهديه نوره إلى الصراط المستقيم .

وبالجملة — خالق الله الإنسان الأول « آدم » أبا النوع الإنسانى الذى قال الله تعالى فيه للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا عِلْم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إنى أعلمُ غيبَ السموات والأرض وأعلمُ ما تُبدون وما كنتم تكتمون) .

ولقد ثبت بالأدلة القطعية أن آدم كان راقياً ، لأن الخالق جل شأنه علّمه كل ما يلزمه لحياته ، ولكنما الأيام وتقلباتها وحوادثها أنست أولاده مدنية أبيهم ، خصوصاً لما انقضى معظمهم فى حادثة الطوفان ، وتشتت من بقى منهم بعد رسْو سفينة نوح على الجودىّ يطلب أقل عيش فى الأرض ، والذين تناسلوا من هذا الفريق درجوا على سنة آبائهم لا مقرّ لهم ولا مأوى إلا الأمكنة التي يجددون فيها الأعشاب والنباتات .

فالانسان فى تلك الأزمان البعيدة كان يسكن الأكواخ الحقيرة والمغارات ، ويتخذ كل أدواته من الأحجار لجهله بما فى الارض من المعادن التى لم تخلق إلا له ، ولم يكن له عمل سوى استعداده لملاقاة

أعدائه من الحيوانات الضارية ، ومكث على هذه الحال الازمان الطويلة التي سماها علماء التاريخ بالعصر الحجري ، أو البربري ، أو عصر الهمجية ولكن لما كان بطبيعته قابلاً للرقي ، لوجود العقل فيه والحواس كما قال الله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئِدَة لعلكم تشكرون) نظر إلى نفسه وتحسر وقال : ما أتعسني حظاً كيف يكون للحيوان سلطان عليّ وأنا أعملُ وأختارُ ولي قوّة على الاختراع — وأنتبه من ذلك الوقت ودقق البحث حتى وصل إلي القصدير الذي لم يغنه شيئاً عن استعمال الأحجار لانها أقوى منه وأشد صلابة ، ولا تغير حرارة الشمس أشكالها كما تغير أشكاله ، فجدد البحث حتى وصل إلى النحاس الذي خطر بباله أن يخلطه بالقصدير ، فحصل على البرنز الذي كان مبدأ سعادة له وافتتاح عصر جديد سماه علماء التاريخ بالعصر البرنزي.

ولكن هذه الاكتشافات كانت سبباً عظيماً في استمراره في البحث حتى اكتشف الحديد الذي تمم سعادته ، واعتبر فاتحة عصر جديد ، سماه أهل التاريخ « بالعصر الحديدي » ومن هنا ابتدأت المدنية ، وانتشل الإنسان من وهدة كانت بعيدة الغور ، وقويت مداركه ، ووجدت عنده من التجارب حقيقة سماها « العلم » وفرع لها فروعاً عديدة ، وأغصاناً كانت ثمارها نجاحه وفلاحه ، فكانت تلك

الحقيقة أكبر سبب فى تمدينه ، إذ بها ذلل العقبات التى كانت أمامه واتخذ له موطنا يدافع عنه ، وعرف كيف يكتشف وكيف يخترق البحار والمحيطات ، وكيف يوجد الروابط بين البلاد والممالك ،وكيف وكيف . . الخ مما لم يتضح له إلا بعد الآلاف من السنين

فالانسان الآن بفضل العلوم وانتشارها ، ليس ذلك الذى كان لا يعاشر غير الوحش بل هو العالم الراقى المدرك واجباته العارف مقدار حياته (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)

٢٠٤ — ﴿ السعى والعمل روح العمران ﴾

كل من فى الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات

من ردد طرف البصيرة فى نظام هذا الكون وما أبدعته يد القدرة ، رأى أن الحكيم العليم قد ركبه من أمور تنوعت صفاتها وتغيرت مظاهرها ، وهى على اختلافها ليست فى الحقيقة إلا مادة واحدة عملت فيها عوامل القدرة فنصبتها على هذه الشرائط متنوعة الصفات مختلفة الاحوال ، حسبما تقتضيه طبيعة حياتها ، وحكمة وجودها ، لابسة من حلل النظام وحلىّ الاحكام ما يشهد للحق جل شأنه بالتفرد فى صفات الكمال — ومن بديع حكمته أنه لما انتقل الانسان من الوحشية إلى المدنية أثبت له ذلك الانتقال وجوب الاعمال ، ونادته الجماعة حىّ على التعامل ، فمن لا يؤثر أن يعمل لا يأكل

فاندفع كل إلى الخبط فى مهنته ، والغوص في حرفته ، فذهب يعارك الجمادات كل كثيف ، ويباشر الصنائع كل خفيف، ويمارس الملاقات كل عليل منقطع ، ويتاجر بالبضائع كل كليل مبتدع ، ويستقصى الموجودات كل دقيق مخترع . وهكذا قد انخرط الجميع في الارتباط وغرق الكل فى لُجج الاختباط ، فكلٌّ طائر على أجنحة الطيش لقطع آفاق العيش ، فترى البعض يشكو الكلال ، والبعض يندب الملال، وهذا يتوجع فى التعب ، وذاك يتفجع من الوصب ، فأعين تبكى من العسر ، وأفواه تضحك من اليسر .

كل من فى الكون يشكو دهره ليت شعرى هذه الدنيا لمن

فأبصار الجميع شاخصة إلى غرض واحد وهو طريق العيش والرزق ، فهم عليه متزاحمون بواسطة حِرَف ومِهن وأسباب مختلفة فالناس بين مزاحمة تقتضى تنافراً ، ومساعدة تقتضى ائتلافاً ، وليسوا فى ذلك سواء « فطرةَ اللهِ التى فطرَ الناسَ عليها » .

فالانسان مسوق بحسب خلقته وما تقتضيه فطرته إلى الشغل والعمل ليمرّن نفسه — ولذلك كان مضطراً طبعاً لان يتبصر زمن صحته فيما يكون إذا أصابه مرض يمنعه عن العمل ، أو اعتراه وهن الشيخوخة وضعف القوى ولهذا جاء فى الحديث الشريف (تزوّد من صحتك لسقمك ، ومن غناك لفقرك ، ومن شبابك لهرمك)

وبعبارة أخرى . سنة الله فى خلقه هى أن ينظر الانسان فى الحال إلى ما يؤول إليه أمره فى الاستقبال ، بل هذا النظر الذى يطلبه الوجود هو قاعدة سلامة الأوطان ، ورأس المدنية والعمران . وهذا إنما يدعو الإنسان إلى أن يدخر فى يومه شيئاً من ثمرة عمله فى هذا اليوم يستعمله فى يوم ثان إذا طرأ عليه ما يمنعه من العمل ، فإذا كان اليوم الثانى كان غير محتاج لنفقته لسبق حصوله عليها ، فإذا لم يعرض عليه ما يمنعه من العمل أمكنه شغل هذا اليوم فى تحسين آلات عمله أو مبادلة عمله ذلك اليوم بالآلة اللازمة له من غيره ليسهل عليه العمل بعد ، بما أدخره قبل — وهذا المدخر هو رأس المال

فرأس المال إذاً هو جزء من ثمار أعمال سابقة ، يستعان بها فى اللاحقة . وظاهر أن لكل إنسان رأس مال هو ما أدخره فالنجار الذى يملك فارة وقادوماً ومنشاراً هو صاحب رأس مال والحداد الذى يملك كيراً وسنداناً ومطرقة صاحب رأس مال ، ومالك محراث للحرث أو مسطرين للبناء أو مقص للخياطة كل من هؤلاء صاحب رأس مال .

وليس رأس المال قاصراً على النقود أو الأرزاق المستعملة فى استنتاج أرزاق أخرى أو مؤونة أو آلة ، بل الادراك رأس مال والأدب رأس مال ، والبر والخير رأس مال لمن يسديه ، وحب الوطن

رأس مال ، بل جميع الأعمال — فالسابق منها رأس مال فى الحال والحال رأس مال فى الاستقبال

فالطفل الذى يتعلم القراءة والكتابة والحساب وتاريخ وطنه وما كان عليه سلفه حاصل بتعلمه على رأس مال — وإذا تعلم بعد ذلك صنعة زاد رأس ماله ، وحينئذ لا يتوقف نجاحه فى المعيشة إلا على أن يكون عاملاً صادقاً أميناً مؤدياً لواجباته

والذى تعلم الشريعة وأحكامها حاصل على رأس مال يحصل له به الفائدة — والاعتبار باستعمال رأس المال فى إرشاد الناس إلى مصالحهم وإقامة العدل بين الناس ليقف كل عند حده فيحصل الأمن وتحفظ الحقوق — والطبيب له رأس مال هو معلوماته التى اكتسبها بالتعلم وانتفاعه منه موقوف على حسن استعماله لهذه المعلومات — والسياسى الذى جرب الأمور واختبر الناس يملك رأس مال تختلف قيمته بحسب تجاريبه ومعرفته لأحوال العالم وضروريات أمته . ورأس المال هذا يستعمله السياسى أيضاً كما يستعمل التاجر رأس ماله فى الاستغلال فيبذل منه فى صورة مقترحات ما يعود على الأمة التى يشتغل من أجلها بزيادة ثروتها ورفعتها ورفاهيتها بنسبة رأس ماله

ولرأس المال من أى نوع كان أهمية عظمى فلا غنى لأمة عنه وإلا فكيف يكون الاستنتاج إذا أعوز النجار القدوم والحداد

السكير والصناعة الفوريقة والبناء المسطرين والخياط المقص والزارع المحراث — وكيف تكون حالة لأمة إذا لم يحصل أفرادها على المعلومات الادبية والدينية والعلمية والابتدائية التي أصبحت اليوم ضرورية لكل إنسان، وبها يتميز عن غيره من أنواع الحيوان

وكيف تكون حالة الأمة إذا لم تتخذ رجالاً من أهلها أهل حزم وعزم ودارية سبروا الزمان وأهله يؤتم بهم فيحصل بين أفرادها التضافر والتعاون والتحابب، ويكون للأمة بمقترحاتهم ميول معلومة تسعى لها، إذ لا فوز لأمة اليوم في معامع المزاحمة وميادين التمدين والحضارة إلا إذا تمسكت بصفوة رجالها وأقدرهم وأمضاهم في العمل ولا جرم أن الأمة تتقهقر وتخسر بقدر مايعوزها من ذلك، فالاستنتاج بدون هذه الآلات ينقص نقصاً فاحشاً، ولو أجهد الصناع أنفسهم في العمل فلا تكون محصولات البلاد كافية لمعاش الأمة وحياتهم وتصبح الأهالي فقراء، ويعتريهم الاضمحلال والذلة والهوان

فان الثروة العمومية للأمة تتعلق كل التعلق بما ذكرناه من رأس المال، وبينها وبين حالة الأهالي ارتباط شديد فكلما صارت الأمة أكثر عدداً وأعز شأناً زادت الثروة العمومية بحسب نسبة حسابية يذيد عدد الأهالي تبعاً لنسبة هندسية، فإذا بلغت الثروة العمومية ثلاثة أمثال ما كانت عليه يبلغ الاهالي تسعة أمثال

ما كانوا عليه — وكما أنه لا سبيل للحصول على رأس مال إلا بالعمل والادخار كان السعي أو الحرمان كـذلك لا بقـاء له من غير مثـابرة على العمـل والادخار — فمن أنفق من غير أن يـكتسب فإنما يبدد ثروته ويعـد يـده إلى الفقر لأنـه يشتت ثمـرة العمل السابق الذى استجمـع بالسعى والحرمان فيـكون فى طريق الخراب طريق فيـه يرى رأس ماله انتقل من يـده إلى يـد غيره أكثر منـه نشاطاً وأحسن تبصراً

فالعمل المستجمع لا يحفظ إلا بالعمل ، فـكما أن الملابس تنهك ، والمنازل تتشعب إن لم يتداركهـا العمل ، كـذلك الأعمـال السابقـة لا سبيل لحفظها والانتفاع بها إلا إذا أمدت بأعمال لاحقة — وكما أن المبانى إن لم يتعهدها أصحـابهـا بالأعمال تسقط وتهدم وتنفصل أجزاؤها بعضها عن بعض فيتداركها آخرون بالعملة ويستجمعونها فتصبح بناء آخر جديداً ولـكن فى يد ملاك آخرين — فـكذلك العمل المستجمع فى السابق إن لم يـكن مقروناً بالعمل فى الحال تبدد وانتشر واستولى عليه آخرون فينتفعون به فلا يحفظ للتاجر رأس ماله فى استقلاله إلا بالعمل والمثابرة عليه وإلا ضاع سعيه السابق وما قاساه فى الحصول عليه من التعب والحرمان — وكـذلك الأمر فى رأس المال الذى يـكون فى صورة مقترحات لا تحصل

جميع فوائدها ، إلا إذا حصلت المثابرة لحق الهيئة الاجتماعية التي استعملت فى صالحها هذه المقترحات خسارة عظيمة هى ضياع أعمال مدخرة ادخرها السلف لينتفع بها الخلف ، ولا سبيل لهذا الخلف أن يدخر لخلفه رأس مال ، إلا إذا زادت الأعمال التى ادخرها سلفه بعمله والمثابرة عليه

٣٠٥ — ﴿ القضاء والمحاماة وأثرهما فى المدنية والحضارة ﴾

إن القضاء من أرفع الأركان ، وأقوى دليل على ذلك استتباب الراحة به والأمان ، فلو لم يكن قضاء لأخنى علينا الزمان ، ولشبت نيران البغى والعدوان ، ولتحرق أجسام الضعفاء ، وتتمتع بين ذلك بالنهب الأقوياء ، وغير خاف مايحدث من ذلك على كر الدهور والأيام ، من إعدام الجنس البشرى ، إذ أن روح القوة لابد أن تكون لدى الناس بدرجات ، فمنهم قوى ، ومنهم أقوى ، ومنهم سباق غايات ، فيقلد الفريق السابق زمام السلطنة فيفتك بالكل

فلهذا كان المقصد من القضاء إنما هو نصب قسطاس العدل فى الأحكام ، وإصدار الأمر بإذاقة القاتل كاس الحمام

إذا خان الأمير وكاتباه ⁂ وقاضى الأرض وَالسَ فى القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل ⁂ لقاضى الأرض من قاضى السماء

ولابد للقاضى أن يكون رجلاً حراً بالغاً عاقلاً سليم

السمع والبصر واللسان ، متصفا بصحة التمييز وقوة الجنان ، بعيداً عن السهو والغفلة ، مأمونا فى حال رضاه وغضبه ، عدلا فلا يكون مرتكباً للكبائر ، ولا مصراً على الصغائر ، أن يكون عارفا بالناسخ من الأحكام والمنسوخ ، والمقيد والمطلق ، والخاص والعام ، قادراً على استنباط الأحكام بالقياس

وينبغى أن يكون شديداً من غير عنف ، لينا من غير ضعف مستشيراً أهل الحزم والاجتهاد ، وأن يكون مكانه مرتفعا عن محل الخصمين ، وأن يحث الخصمين على أن يصالحا فإن أبيا أصدر الحكم عليهما وأبرمه ، وأن يمتنع من بيع وشراء لنفسه ، ومن إقامة وكيل فى ذلك معروف له فى البلدة لئلا تحابيه الناس ويحرم عليه قبول الرشوة ، وإذا حضر خصمان فلا يستقبل بالترحيب صاحب الشرف منهما ، بل يسوى بين الوضيع والرفيع والجليل والحقير والغنى والفقير والصغير والأمير — وينبغى له أيضا ألا يقضى بين الناس وهو متأثر بأى مؤثر خارجى أو داخلى كالسرور الزائد والحزن الشديد والبرد المؤلم والحر الذى يكاد يذهب بالعقل والجوع والعطش وغلبة النعاس حتى لا ينطبق على رجال القضاء قول الشاعر :

قضاة زماننا أضحوا لصوصاً عموماً فى البرية لا خصوصا

فحسبك أنهم لو صافحونا لسلوا من خواتمنا الفصوصا

والمحاماة مهنة شريفة ، وصناعة محتاج اليها فى البلاد المتقدمة ذات الشأن والثروة ، إذ معلوم أنه كلما زادت الثروة وتطلعت النـاس إلى الازدياد منها كثرت بينهم المنازعات فيحتاجون إلى المحامى وهو وكيل فى الحكم والمخاصمة ، يتكلم مكان المرء بما يعجز عنه ، ويدافع بما لم يعلمه ، ويشهد له بما لم يخطر على باله فيثبت الحق لأهله ، ويكفى موكله مؤونة التعب ، وينوب عنه فى مخاصمته ، فترى المحاميين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه ويقوى جنانه استعداداً للنزال في ميادين المقال وتأهبا للدفاع فى مواقف النزاع ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة فى الحكم ورفع التهمة والجرم — ويمارس هذه الصناعة اليوم كثير من الفضلاء جعلوا نصر الحق نصب أعينهم ، وإن دخل فيها جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب لا يهمهم إلا الحصول على الدرهم والدينار بأى وجه كان ، يدافعون عن القضية ولو علموا ضعف أساسها ، ويقدمون عليها ولو بدا لهم عدم نجاحها ، ويقفون ضد الحق وإن كان جليا ، فأولئك ليسوا من المحامين فى شىء ، وشقاء الأمة بهم أكثر من نفعها — فيجب على المحامى أن يكون عالما بصناعته محيطا بدقائقها ، وأن يكون ذا مروءة وشهامة وعفة ودين ونفس شريفة تنأى به عن الدنايا ، فصيح اللسان قوى الجنان مراعيًا المصالح العامة جاعلاً دأبه نصر الحق ، مرشداً للناس وهاديا لهم حتى يؤتمن على

أمورهم، ويوثق به فى شؤونهم، وتملكه الأمة قيادها وتعطيه زمامها.

يا أيها الشهم المحامى الألمعي ومن يراعى حكمة المشرع
عليك بالصدق وبالأمانة واحذر من النفاق والخيانة
فأنت خصم فى القضايا وحَكَمْ تهدى إلى الحق كما يهدى العلم
وأنت للقاضى أجل مرشد وهو إلى التحقيق منك يهتدي
وأنت قاض والقضاة تبع إذا شرحت ما تريد استمعوا
فانظر إلى قولك سامى الشان وصنْهُ عن زور وعن بهتان
واعلم بأن الله بالمرصاد لمظهر الفساد فى العباد

وبالجملة — لا مشاحة فى أن للقضاء الفضل العظيم، والنفع العميم لجميع المخلوقات، فهو الهيئة الحاكمة التى تردع الظالم عن ظلمه، وتوقف كل واحد عند حده، فهو الذى ينقذ الابرياء من مخالب الاشقياء بل هو الدعامة الوطيدة التى يبنى عليها أساس العمران، ويتوقف عليها عمار البلدان، واستتباب الامن فى كل مكان وزمان، فإذن هو الانفع للهيئة الاجتماعية، ولا يمكن الإستغناء عنه بحال من الاحوال بخلاف المحاماة فيمكن لرب الامر أن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه.

٢٠٦ — فوائد الصدق ومضار الكذب

الصدق أفضل خصال الانسان، وأوضح دلائل الإيمان، وأجل مواهب الإحسان، وأكمل نعم الملك الديان، وهو دال على جلالة القدر

ونزاهة النفس وعلوّ الهمة وصلاح الشيم والشمائل ، وبه تمام المكارم والفضائل ، فمن تحلى به فقد أحرز الفضل بكماله ، وجمع الخير فى أقواله وأفعاله ، لانه أوضح دلائل العقل وأعدل شواهد الخير وأرفع منازل البر وأقرب إلى السلامة وأبعد من الملامة وأجدر بالغبطة والكرامة وقد وصف المولى به نفسه حيث قال : (ومن أصدق من الله قيلا) وقال تعالى (يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقال عليه السلام (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البرّ وإن البرّ يهدى إلى الجنة).

الصدق يمن ومنجاة ومحمدة فيه الكرامة والاقبال والشرف

وأما الكذب فهو أوضع كل خطة وأجمعها للمذمة والخسة وأكبرها ذلاً فى الدنيا وأكثرها خزيًا فى الآخرة ، وهو من أعظم علامات النفاق وأقوى الدلائل على دناءة الاخلاق والاعراق ، لا يؤتمن حامله على حال ، ولا يصدق إذا قال — قال تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) وقال عليه السلام (آفة الحديث الكذب وأعظم الخطايا اللسان الكذوب) وقال الشاعر :

لا يكذب المرء إلا من مهانته أو عادة السوء أو من قلّة الأدب

فالصدق أوجبه العقل وأكده الشرع ، وإن كان لا يوجب نفعًا ولا يدفع ضراً ، فمن اتخذه سنة كانت له أحسن جنة ؛ وبه يتم الفضل وتكمل المروءة وتنتشر المصالح وتستر القبائح — وإن الكذب

رمد عين السيادة ، ومطفئ سراج المروءة والسعادة ، وموهن قوي الجلالة ، وسادّ طريق الإحسان ومحبط عمل الانسان وهادم بناء الايمان ، لأنه من الأفعال التى لا تقبلها العقول ولا تستجيزها الديانة قال بعض الحكماء : الكذب ملجأ الفجار ، وسبب العثار ، وقلما نجا منه من اضطر إلى الاعتذار .

فاذاً من الحق على كل عاقل ، والواجب على كل فاضل ، أن يأخذ نفسه باجتنابه وينزهها عن سقطته وارتيابه ، وأن يتحرى الصدق وإن توقمه ، وأن يرفض الكذب وإن نفعه .

وبالجملة — ليس الكذب فضيلة من الفضائل ولا سياسة من السياسات ، كما يفهم بعض المارقين المتملقين وليس مما يعلى قدر الانسان بل بالعكس يسقط المروءة ويذهب ماء الوجه ويدل على ضعف الإيمان بالله تعالى ، فمن اعتاد الكذب اعتاد الناس ذمه وأكثروا من السخط عليه ، كذلك الله تعالى يمهله حتى إذا أمسكه لم يفلته فإنه ظلم نفسه وظلم الناس بجانبه ، لا سيما إذا كان رئيسا من الرؤساء أو ممن يفهم فيهم الناس أنهم ناصحون أمناء — قال تعالى يصف حال الكذابين (يوم تجزى كل نفس بما كسبت ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة) وإن الكذاب الذى صار الكذب خلقا له — وليس التطبع بالتعود ببعيد ، فان العادة طبع ثان كما قرر الفلاسفة — لا إخال

باله يصفو يوماً لأنه بعيد عن الحقائق راكب سفينة فى موج مضطرب قل أن تنجو به ، وممتط مطية متعثرة قل أن تصل به إلى حيث يريد — قال حكيم :

لى حيلة فيمن ينـ ـمّ وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليلة

وفى الحديث الشريف (الكذب رأس كل خطيئة) ومما روى أن رجلا أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فى الإسلام فقال يا رسول الله إنى أعمل من الخطايا ما لا يمكننى أن أبتعد عنه فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام أتعاهدنى على ترك الكذب قال نعم — فلما ذهب الرجل وأراد أن يشرب الخمر قال فى نفسه أنا إن شربت الخمر وسألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فبمَ أجيب وقد دخلت فى الدين — إن أجبت بنعم أقام علىَّ الحد ، وإن أجبت بلا فقد كذبت ، وقد عاهدنى على ترك الكذب ، إذاً فلأتركنه ، فتركه وكذا بقية الموبقات وحسن إسلامه .

حقاً إن الصدق فضيلة حسنة لا يحصد غارسها فى نفسه إلا ثماراً طيبة وخيرات جزيلة — وقد حثَّ الله تعالى عليه فى القرآن الكريم إذ قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال يمدح أهله (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) وقال عليه الصلاة والسلام

(الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وإن أمنته) .

٢٠٧ — ﴿ مقارنة بين المعلم والطبيب فى الهيئة الاجتماعية ﴾

ان المولى تبارك وتعالى خلق الإنسان ضعيفاً مجرداً من العلوم والمعارف ، لا يميز بين الغث والثمين ، قابلا لطوارئ العلل والأسقام، تائهاً فى لجج الضلالات والأوهام ، يخبط فى أموره خبط عشواء ، لا يميز بين السراء والضراء ، فمتى وصل ليد المعلمين العلماء ، سلبوا جهله وقادوه إلى الهدى والاهتداء . وأما الأطباء فيصلحون الأجسام من العلل والأسقام بالأدوية والعقاقير ، وكلاهما لا يسد مسد الآخر فى قيامه بالأعمال المفروضة عليه .

وعلاج الأبدان أيسر خطباً   حين تعتل من علاج العقول

وحينئذ لا تفضيل بينهما والحاجة ماسة لكليهما ، وإنما التفضيل بمقارنة نتائج أحدهما بالآخر ، وهى تقضى بتفضيل المعلم على الطبيب إذ هو مقوم للروح الحاكمة على البدن — ولا ريب فى أن الروح أشرف من الجسم وأعلى . كيف لا وأن الطبيب حسنة من حسنات المعلمين الأعلام ، فمقامهم بين العالم فوق كل مقام ، ولهم الشرف الأسمى والاحترام .

٢٠٨ — ﴿ وصف الامتحان العام ﴾

فى منتصف الساعة السابعة من صباح يوم الاثنين دقت الأجراس

فاندهشت منا الحواس ، وتسلط فى قلوبنا الوسواس ، من هول محفل الامتحان ، وما أدراك ما الامتحان ، إن هو يوم لا ينفع فيه خل ولا رفيق ، ولا مال ولا صديق ، إلا أتى الله بقلب سليم (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)

دخلنا إلى الخيام ، وكأننا سقينا كأس الحمام ، وأخذ كل منا مضجعه ، وعرف كل واحد رقمه وموضعه ، ورأينا لجانا معقودة وأبوابا مسدودة ، وقسوة سائلين ، وتشديد مراقبين ، وطلبة يهمسون ولا يتنفسون ، فاستولى علينا الشيطان ، وتحققت الأذهان من الحرمان واستوى الجاهل وذو العرفان ، والشجاع والجبان فى هذا الميدان إلا أنى تسابقت تسابق الفرسان فى المضمار ، وأعربت بكل لسان عن وجوه الاضمار ، وثبت قدمى ، وأطلقت لسان قلمى ، وحليت الطروس باللطائف ، وطرزته بالطرائف ، وكشفت نقاب المعضلات وحللت صعاب المشكلات ، فلله الحمد من قبل ومن بعد ، إذ رميت السهام لنيل المرام ، وأصبت المرمى فى نهاية الامتحان ، الذى يكرم فيه المرء أو يهان

٢٠٩ — ﴿ التاريخ مدرسة عامة ﴾

ليس بإنسان ولا عاقلا　　من لا يعى التاريخ فى صدره
ومن وعى أخبار من قبله　　أضاف أعماراً إلى عمره

التاريخ مرآة الأعصر الغابرة والحاضرة ، به ينير العقل ويحي القلب ، ويلجم الارادة ، ويدعو إلى المقاصد الحسنة ، وهو نور الحق وحياة الذكر ، ومدبر الحياة ورسول القدم ـــ فيه معرفة أحوال الأمم ، وبلدانهم وعاداتهم وأعمالهم المادية والأدبية ، وصنائعهم وأنسابهم إلى غير ذلك ، فيعتبر بأحوالهم الماضية والتنصح بها . قال تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدجرٌ ، حكمةٌ بالِغَةٌ فما تُغني النذر) وقال عز شأنه (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) وقال الإمام علي لابنه الحسن رضي الله تعالى عنهما (أي بني إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم ، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله ، وتوخيت لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله)

وبالجملة ـــ فالتاريخ أجل العلوم قدراً وأجلاها في ظلمات الحيرة بدراً ، يكسب صاحبه النباهة ، حتى يفوق أمثاله وأشباهه ، فيحوز المراتب العلية ، ويفوز بالمطالب السنية ، إذ به تستنير الفكر والألباب وتعلم حوادث الأزمنـــة والأحقـــاب ، وبمرآتـه مادونـه

الأولون من العلوم والصنائع ، ويظهر ما خفى من أحوال القرون السالفة ، وأخبار الأمصار الجامعة ، وما فيها من الآثار والمنافع فهو أعظم مرب للانسان يدعو إلى التحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل ، فاذاً هو مدرسة عامة تسمو فيها العواطف ، وتشرف الإحساسات التى عليها المعول فى ارتقاء الأمة إلى أرفع الدرجات وهو الضامن الوحيد لتهذيب النفوس ، وتوسيع المدارك .

٢١٠ - ﴿ علوُّ الهمة من الإيمان ﴾

المعالى نداء الأحرار ، وتاج الملوك ، وشعار الامراء ، ومنار الفلاسفة والحكماء ، ومقصد الأدباء والشعراء ، فهى غاية مطالبهم وجلّ غرضهم ، وكلهم يسيرون اليها كالأسود الظافرة لا يرهبون خطراً ، ولا يقدمون حذراً .

دعينى أجدّ السعى فى طلب العلى فأبلغ سؤْلى أو أموت فأعذرا

فللمعالى سبل خطرة حرجة المسلك لا يظفر بها إلا المقدام الجسور ولا يتغلب على عقباتها إلى الحرّ الصبور ، ورُقى الأمم بعلو الهمم .

لا يعتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا

والرجل الخامل ينظر إلى المعالى من بعيد ، وهي بين يديه أقرب من حبل الوريد .

إذا ما تمنى المرء إدراك غاية عليه بإهمال التقاعد والكسل

فلا تبلغ الغايات من دون همة ... ويحظى بها الانسان بالكد والعمل

وأول السبل إلى درك المعالى هو الإقدام والتعب ، فالذى لا يقدم على الأمر الخطر بكل عزمه لا يناله والذى لا يتعب فى غايته ولا يسقيها من ماء فكرته لن يدركها ، وكيف يرقى العلاَ من طبعه الكسل .

يامن يسامى العلا عفواً بلا تعب ... هيهات نيل العلا عفواً بلا نصب

فلقد جعل الله سبحانه وتعالى الراحة فى بساط التعب والمجد من شامخات المصاعب ، وتاج العلا على هام المجدّ المجاهد — قال عليه الصلاة والسلام (لا تأتونى بأنسابكم وائتونى بأعمالكم) وقال الشاعر

دعينى أنل ما لا ينال من العلا ... فسهل العلا فى الصعب والصعب فى السهل

تريدين إدراك المعالى رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل

إن كنت تطلب عزاً فادرع تعباً ... أو فارض بالذل واختر راحة البدن

ثم إن الأقدام والتعب لا يصلحان للنجاح إلا إذا رافقهما حكمة ودراية واستقامة ، وثبات وصبر وحسن أخلاق .

فقلّ من جدّ فى أمر يحاوله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فمن شمر عن ساق عن الجد وجد مفتاح الجد ، ومن عشق المعالى عانق العوالى ، ومن جلب درّ الكلام ، حاب درّ الكرام ، ومن ركب الأمل الواسع ، لم يستبعد المحل الشاسع .

كل له غرض يسعى ليدركه ... والحر يجعل إدراك العلا غرضه

٢١١ – ﴿ وصف الحرب وما تخلفه من المضار والأخطار ﴾

الحرب هي باعث الهول والكرب، والطعن والضرب ، أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى ، وهي خدعة يوم لك ويوم عليك

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

كيف يفعل الانسان فعل الوحوش الضارية ، فيقتل النفوس البرية ، ويترك البلاد متخربة خالية ، قتل الانسان ما أكفره ، وما أشره وما أصلبه ، وما أكثر طمعه في ملك غيره وحسده ، فقاتل الله الطمع المجلب للخراب ، والمسفك للدماء ، المزهق لارواح العباد المهدد لشوكة الإمارة المدحض لنمو الزراعة والصناعة والتجارة المضعف قوة أسباب الارتقاء ، المفرق الابناء من الآباء والآباء من الابناء .

بخلاف السلم فإن به تأمن العباد على الاموال والاولاد ، وترتقي البلاد وتمنح المجد والاسعاد ، وينتشر العمران ، وتوطد دعائم الامان وتنتظم طرق المودة والوفاق ، وتنفصم عرى الشقاق .

وبالجملة — فالحرب ميدان تسفك فيها الدماء — ميدان الكر والفر تمشي الجنود إلى ميدان الحرب ، وهي تبكي وتتودع من الدنيا نادمين على ما قدمته يداهم من الشر ، فرحين على ما جنوه من أعمال الخير

يمشون ودمع العين ليس له انقطاع — قلوبهم راجفة ، وأبصارهم خاشعة ، ولسان حالهم يقول : أهذا اليوم الذى سنقف فيه بين يدى الله ، ويسأل كل منهم على ما قدمته يداه ، لا حول ولا قوة إلا بالله إنا لله وإنا اليه راجعون — وإذا تقابل الفريقان وانتشبت الحرب بينهما ، واشتبكت السيوف ، واضطرمت النيران،واتقدت نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض ، وزلزلت الاقدام من ولولة الانجاد ورنين القسي وقراع الرماح ، وأقبلت الآجال تفترس الآمال أمطرت السماء رصاصاً ، وأظلم الجو واكفهرت السماء ، وصمتت الألسنة ونطقت الاسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، وتلاصقت القنا والقنابل وتعانقت الصوارم والمناصل ، وبلغت القلوب الحناجر ، وأدركت السيوف المناضر وضاق المجال وتحكمت الآجال فلا ترى إلا رؤوساً تندر ، ودماء تهدر ، وأعضاء تتطاير وتتناثر ، وأجساماً تتزايل وتتمايل حتى ثملت الرماح من الدماء فتعثرت فى النحور وتكسرت فى الصدور وكثر أنين القتلى وجرت أنهار من دمائهم تستفتح الواحد الديان

ترى كثيراً من الجنود فى ساحة القتال ملقية على الارض قتلى وجرحى ، يئنون من كثرة الالم ، ترى الواحد منهم رافعاً يده مشيراً بها على ما أصابه ، واضعاً الاخرى على قلبه متحسراً على ما ناله

فهذا الشاب كان يفتخر بشجاعته ، وصارت الوحوش تأكل لحمه .

فما أرخص القتل فى ساحة القتال وأرخص الرجال الشبان وأكثر الشرك بالله — فبئست الحرب فإنها كلمة ترتجف عند سماعها قلوب الملوك ، وتشيب لرؤياها النشء الأبرياء .

بئست مصائبها ودواهيها العظمى فإنها توقف أحوال التجارة وتعطل المعامل والشركات ، وتكثر المشاكل والمنازعات والحروب الداخلية ، والنهب والسلب والقتل .

٢١٢ — ﴿ أول الحزم المشورة ﴾

تأن وشاور فان الأمو   ر منها جلىّ ومستغمض
فرأيان أفضل من واحد   ورأى الثلاثة لا ينقض

المشورة واجبة على كل ذى حزم ، متعينة على كل ذى لب وفهم ، وهى حصن من الندامة ، وأمان من الملامة ، وأحمد للرأى وأنجح للسعى ، فالمستشير على طرف النجاح ، والمستبد تلعب به الرياح والمشورة مع السداد ، والسخافة مع الاستبداد ، قال الله تعالى (وشاورهم فى الأمر) وقال عليه السلام (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار) وقال على رضى الله عنه (نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد) — وقال الشاعر .

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن   برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافى قوة للقوادم

فالمشاورة لقاح العقول ، ورائد الصواب ، ومن شاور عاقلا أخذ نصف عقله — وهى عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه ومن أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا ، وعند الخطأ عاذراً — وحينئذ لا عذر لأحد فى ترك المشورة ، وإن كان من أهل العقل والرشاد ، وذوى الرأى والسداد ، فان المشاور قد يكون له فى بعض الأمر هوى ، ولبعض الوجوه ميل ، فربما جنح إلى هواه ومال إلى ميله ، والمستشار إنما يعطيه لباب عقله وصفو رأيه وخالص نظره — قال بعض الحكماء: من استشار أهل العقول أدرك المأمول :

شاور سواك إذا نابتك نائبة يوما وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تنظر منها ما دنى ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآة

وبالجملة — إن فى المشورة سعادة عظمى وحياة طيبة — قال تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) وقال لقمان لابنه وهو يعظه : (يا بنى اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة إلى فعله . فقال ابنه كيف أجعل عقل غيرى لى قال تشاوره فى أمرك (وقيل للأحنف بأى شىء يكثر صوابك ويقل خطؤك فيما تأتيه من الأمور وتباشره من الوقائع قال بالمشورة لذى التجارب ومخض زبدة الآراء.

وقد قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ، قال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأنا ألف حازم . وقال الشاعر :

الرأى كالليل مسود جوانبه ... والليل لا ينجلى إلا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : فى المشورة سبع خصال استنباط الجواب ، واكتساب الرأى ، والتحصن من السقطة ، وهى حرز من الملامة ، ونجاة من الندامة وألفة للقلوب ، واتباع للأثر ولكنما الإنسان لا يشاور كل أحد ، بل من كان فيه ذلك ؛ غير آخذ رأى جاهل ، وعدو ، وحسود ، ومراء ، وجبان ؛ وبخيل ، وذى هوى

فالمرء إذا شاور إخوانه فى شؤونه أغناه ذلك عن كثرة التجارب ، ووفر عليه جزءاً كبيراً من أوقاته ، وأظهر له صديقه من عدوه ، وما شرعت تلك الفضيلة فى الدين إلا لحكمة عمرانية قد ظهرت جليا منذ ظهور الاسلام ، فان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأخذ آراء أصحابه فى الأمور المهمة — إذ من الثابت أنه استشار فى أسارى « بدر » فأشار أبو بكر بالفداء ، وشار عمر بالقتل ، فعمل برأى أبى بكر — وكذلك الصحابة كانوا يتشاورون

ولم نر المجالس الشورية الرسمية التى أصبحت الأمم تتغنى بها إلا من الاسلام ومن قاموا بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بتأسيس مجلس شورى بعد موته لينتخب من يكون أميراً . وقد انتخب عثمان رضى الله عنه ولم يقطع دابر الاستبداد ، ويضرب على أيدى المستبدين الطاغين إلا الشورى التى قيدت كل مطلق — وهاهى الأمم قد أصبحت تحكم نفسها بنفسها ، وتقترح على حكومتها ماشاءت أن تقترح موسطة فى ذلك المجالس الشورية ، ولو حافظ الشرقيون على هذه الدعامة الكبرى ، والأساس المتين لما تقوض مجدهم ، ولا سقطت دولهم

٣١٣ — ﴿ الزراعة وفوائدها ﴾

الزراعة هى الأم المغذية ، والمادة المقوية ، لنوع الإنسان وسائر أنواع الحيوان فهى مادة الحياة وروح المدنية وقوام الحضارة ، قال الله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله — ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون — وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) وقال عليه الصلاة والسلام (ما من مؤمن غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة) وقال أيضاً (التمسوا الرزق من خبايا الأرض) وقال الشاعر

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط فى زمن البذر

ولرفعة شأنها ، وعظيم مزيتها اعتنى بها قدماء المصريين حتى أنهم لم يدعوا قيد شبر من أرض إلا عمروه بالزراعة — وذكر المؤرخون أنه قد كان من أصول دولة الفرس أن يبرز الملك بجلالته مع أعيان أهل دولته ويباشر حراثة الأرض بنفسه فى أول يوم من أيام السنة تنويها بشرف الزراعة وتنبيهاً على ما يقتضى لأهلها من التشويق والشجاعة

وقيل لعثمان بن عفان رضى الله عنه : أتغرس بعد الكبر ، فقال لأن توافينى الساعة وأنا من المصلحين خير من أن توافينى وأنا من المفسدين — وقيل لأبى الدرداء وهو يغرس جوزة : أتغرس بعد الكبر وأنت شيخ وهى لا تطعم إلا بعد عشرين سنة أو ثلاثين فقال وما على إلا أن يكون الأجر لى والهناء لغيرى

وقيل فلاح المعيشة فى الفلاحة

٢١٤ — ﴿ النباتات والاشجار وأهميتها عند جميع العالم ﴾

من نعم الله التى لا تحصى ولا تكاد تستقصى النباتات التى منها الاقوات والادوية والفواكه والملابس والزينة والعلف والرعى والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن وغير ذلك من الاعمال التى يطول تعدادها ومنها الورق والازهار والاصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح — وقد أودع الله فيها من البركات ما صير الحبة الواحدة تخلف مائة حبة ، وأكثر من ذلك وأقل ، وأقل وجعل

الأشجار والثمار والأزهار مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فتجلى عن القلوب دونها عند مشاهدتها، وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها — ففيها منافع مختلفة التأثير منها ما تقوى به القلوب، ومنها أغذية تحفظ الحياة، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها، وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها

ومن حسنات الأرض على بنى الإنسان التى أبرزتها الزراعة فى تلك الأشجار التى شابهت الإنسان فى أطواره ونشأته، حتى إذا أنضجت وأستوت على سوقها، وتفرعت أغصانها أمدت الإنسان بكثير من الفوائد، وجزيل من المنافع، يجنى الإنسان منها الثمار التي يتفكه بها، مما لذ طعمه وطاب جناه (صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) وأزهاراً يانعة ذات عرف شذى ورائحة زكية يستخرج منها المياه العطرية ويستعمل بعضها فى الادوية الطبية مما يكون شفاء للأمراض ومزيحاً للعلل، ومنها تتكون الحدائق الغناء فترى الأشجار فيها وارفة الظلال قد تمايلت أغصانها واهتزت أفنانها وأينعت أزهارها ودنت قطوفها تضوع السكان بطيب نشرها وتنعش النفس برونقها — فإذا هب النسيم وتمايلت الأغصان تعطرت الأرجاء وتمثلت الجنان فى الرياض، وبها يستظل الانسان من الشمس

فتقيه حر الهجير — وتغرس فى حافتى الطرق لهذه الفائدة فتكسبها رونقا وزينة وتلطف هواءها وتنقى جوها ، فمادامت قائمة على ساقها تمد الانسان بالمنافع المختلفة والفوائد المتنوعة حتى إذا انقضى أجلها قطعت منها أخشاب ذات فوائد عظيمة تستعمل فى الأبنية والمنازل والأدوات المختلفة التى لا يستغنى عنها فى مكان ، وتصنع منها السفن التى تمخر فى البحر وتشق بحيزومها عباب الماء وتكاد شراعها تصافح السحاب فتسير فى البحار وهى الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام تحمل فى جوفها الناس والبضائع وتنقل الأخبار من مشارق الارض إلى مغاربها ، كما يستعمل الخشب فى الوقود — وغير ذلك من الفوائد التى تمتع بها الانسان وقضى منها مآربه

٢١٥ — ﴿ البخار سر رقى العالم المتمدين ﴾

ان قوة البخار شاملة أهم الصنائع والاشغال ، ونشاهد قدرته الباهرة — من ذلك سير البواخر البحرية وقطر السكك الحديدية والطابع والعمل فى المناجم والغزل والنساجة ، وغير ذلك

فلاستخدام البخار فى السفن وحدها قيمة لا تعدلها قيمة إذ أغنتنا السفن البخارية الآن عن الرياح واختلاف الفصول فضلاً عن اسعافها لنا على تقصير المسافات بسرعتها الفائقة .

وللبخار أيضا عمل يذكر فى الاسفار البرية فيحمل الانسان

على جناحه براحة وسرعة يعجب منها ، وقد أحيا مدناً وأمصاراً زاهرة ، وحاك للبشر المنسوجات ووفر البضائع فهبطت أثمانها ونقلها براً وبحراً بأجرة رخيصة ، ووصل بعض البلاد ببعضها صلة موثوقة العرا ، وأراح الناس من أتعاب لا حد لها ولا نهاية ، ووزع فى الوقت نفسه الاشغال والأعمال على جموع وجماهير تعد بالملايين

تلك قوة لا يعتريها الكلال ، فتدأب فى العمل نهاراً وليلاً إذا غذيك بالوقود ، وتقوم بوجباتها قياماً دقيقاً ، وقد أمست الآلة البخارية مسعفة للانسان ، ومساعدة له فى جميع أحواله ، فلا بدع إذا قلنا أن البخار رقى بالعالم المتمدين إلى ذروة المجد والفخر

وبالجملة أن البخار هو القوة العظمى التى ظهرت منها العجائب وبدت فيها الغرائب ، فتكاثرت بها أعمال الصناعة ، وأخصبت أرض الزراعة ، وراجت أسواق التجارة ، واتسعت طرق الثروة ، وكثرت أنواع الخير والنعمة — من ذلك الآلات البخارية التى تروى مقداراً عظيماً من الأرض مع السهولة والراحة ، وبذلك تضاعفت ثمرتها ومنها قطارات السكك الحديدية والسفن البحرية والطواحين والآت البخار التى تدار بها معامل المصنوعات والمنسوجات والمطابع وغير ذلك من ثمرات البخار وقوته التى تحار فى وصفها الأفهام ، وتعجز عن حصرها الأقلام

٢١٦ — ﴿ التجارة وفوائدها ﴾

التجارة تاج الأمارة ، وينبوع البركات ، والأرباح وتوفيقات بها تزيد ثروة البلاد ، وتتوفر أسباب التنعُّم للعباد — قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) وقال تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) وقال عليه السلام (أطيب ما يأكل الرجل من كسبه والكسب فى القرآن التجارة) وقال عليه الصلاة والسلام (التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) وقال عليه الصلاة والسلام (تسعة أعشار الرزق فى التجارة) وقال الشاعر :

كن تاجراً حراً بأى مال ... ولا تكن مستخدماً بحال
وكن إذا تاجرت ذا ادارة ... لتدرك الربح من الخسارة
واجتنب الربا وصنع الغش ... فان مولاك شديد البطش
فان بالتجارة الأناما ... نالوا المنى وحصلوا المراما
فهى قوام الملك والعباد ... فى كل موطن وكل ناد
وهى لعمر الحق لولا الخطر ... أول ما به الفتى يفتخر
لا سيما مع العفاف والشرف ... وصون رأس المال من داعي التلف

حقًا أن التجارة لجديرة بمزيد الاعتبار ، فان فيها غنى لأولى الأبصار — ولذلك نري الأمم التى فى مقدمة التمدين حريصة على جميع

ما ينمى أسباب التجارة ويزيدها اتساعاً واذدهاراً ومهارة .

هذه دولة انجلترا ما نالت نفوذها في كثير من الممالك الشرقية إلا بتجولها فى البحار للتجارة ، ولأهميتها قد اعتنت الأمم الغربية بتلقينها لأبنائها فى مدارس خصوصية أنشئت لهذا الغرض .

وبالجملة — التجارة لها تأثير جلىّ وسبب قوىّ على التمدين والخيرات في جميع الأوقات ، لأنها رسول التعارف ، ومنهل التآلف تزيد البلاد فى المال نمواً ورفعة وعلوّا ، وبعد ما تكون فقيرة حقيرة تصبح غنية خطيرة ، ثم أنه يلزم التاجر رأس مال كاف لعمله وأن يختبر أولا الأصناف التى يريد أن يتجر فيها ويخالط أهلها ويعرف مصدر ورودها ومقدار اللازم منها وما يلزم لها من العمال الأصدقاء ويخصص لها مكاناً تروج فيه ويرتبها ترتيباً سهل التناول ويرصدها فى دفاتر سهلة المراجعة ، ولا يستدين أكثر مما يمكن أن يقوم بوفائه فى مواعيد سداده ، وألا يبيع بالدين إلا لكل مؤتمن موثوق به فى حسن المعاملة .

سبل المعيشة فى الحياة كثيرة وعظيمها عند الرخاء تجارة
فهى الشهامة والكرامة فى الورى والمرء فى دار الحياة كرامة
لا خير فى عيش إذا لم ترعه عند التناول فى المقام سلامة
وبها يعيش المرء حراً سالماً لا يعتريه من السخيف ملامة

٢١٧ – ﴿ الصناعة راية الأمان لسعادة الأوطان ﴾

المعارف تتنوع حسب مواضيعها ، فمنها ما يحسب مركزها الخصوصى النفس الإنسانية الخالدة ، وهذه تسمى المعارف الدينية ومنها مايعد مركزها الخصوصى العقل البشرى ، وهذه تسمى المعارف العلمية ، ومنها ما يختص بالقوى الجسدية والحواس ، وهذه تدعى المعارف الصناعية ، وهى أفضل وأجل الوسائط لتقدم البلاد ونفع العباد ، ودعامة الحضارة وارتقاء الإمارة ، وتوطيد مركز الإدارة ومنبع الثروة والغنى ، وغاية التقدم والمنى ، بل روح العمران وتاج السلطان ، وحمى الأوطان وراية الامان فى كل زمان ومكان — وقد قيل : صناعة فى اليد أمان من الفقر ، وحرفة المرء كنزه — وقال الامام عمر بن الخطاب : إنى لارى الرجل فيعجبنى ، فأقول هل له حرفة ، فإذا قالوا لا سقط من عينى .

أفادتنى الصناعة كل عز   وهل عزٌّ أعزُّ من الصناعة

وللصناعة الاسبقية (عدداً) لكثرة فروعها ووفرة معداتها ونتائجها ، والاسبقية (رتبة) بالنظر إلى سعة علومها ، ويانع أثمارها ودقة أصولها وسمو درجاتها ، ولها من طول الباع فى إسعاف ماسواها من المهن ما يعزز مقامها ويؤيد شرفها مدى الايام ، وكل بلاد تروم التقدم والارتقاء أدبياً وماديا تجد أن المفتاح لما ترومه الاعتناء بالصناعة

إن الصنائع والفنـون كلاهما ... مما به الانسان قدراً يرفع
وهما الوسيلة للسعادة فاشـتغل ... بهما فإنك للبـلاد ستنفع
واختر لنفسك ما يكون صنيعة ... حسناً فقيمتك التى قد تصنع
ودع التـكاسل والبطالة إنها ... سبب يعوق عن المعاش ويمنع

٢١٨ — ﴿المطر وما يحدثه من المنافع للعباد﴾

المطر هو قطرات الماء الحاصلة من البخار الذى يصعد إلى الجو فيصير غيوماً وسحباً تسوقها الرياح بين القبة الزرقاء وسطح الأرض على أبعاد مختلفة — وعند ما تبلغ هذه الغيوم والسحب بعد ميل أو ميلين ارتفاعاً تبرد وتنخفض درجة حرارة الهواء فلا يستطيع حملها فتجتمع دقائق هذه السحب منضماً بعضها إلى البعض الآخر ، فتتكون منها قطرات المطر فتسقط لـكونها أثقل من الهـــــواء الكروى والغيوم فى الجو عند سيرها كثيراً ما تصادم رءوس الجبال ، وأحيانا تتغير جهة سيرها ، أو تصب ما فيها من البخار مطراً على رءوسها وجوانبها

وقد يحدث المطر أيضا من مصادفة السحب مجارى رياح درجة حرارتها أوطى من درجة حرارة الغيم السابح ـ وكثيراً ما تجمد الأمطار عند انحدارها بسبب شدة البرد فتنزل برداً أو ثلجا ، فسبحان الخالق العظيم .

٢١٩ - ﴿الماء حياة جميع العالم﴾

مما أنعم الله به على عباده الماء العذب الذى به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات. قال الله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون) وقال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء مباركاً)

وقال الشاعر :

وعارض مبتسم قد استهل ومدّ أطناب الغمام وأظل
حتى إذا أروى الثرى من وبله وأخصب الجدب تولى وارتحل
كم أنزل الله لنا من رحمة ومن حياة بحياة إذا نزل

فهو الذي أغاث الأنام ، وأروى الهضاب والآكام ، وأحيا النباتات والسّوام ، وجعله مزيلاً للأدران عن الابدان ، والاوساخ عن الثياب والمكان .

وبالماء يبل التراب فيصلح للاعمال والبناء ، وبه يرطب كل يابس ، ويستعين به كل زارع وغارس ، وتطفأ به النيران ، ويرتوى به الظمآن والعطشان ، من انسان وحيوان فى كل زمان ومكان وتصلح به المطبوخات — وغير ذلك من جميع الموجودات — تلك حكمة الحكيم العليم فسبحانه وتعالى المتفضل العظيم .

وبالجملة ـ فالماء من أجل النعم الالهية وأعظم المنن على كافة البرية التى لا تقدر أن تقوم بشكر المنعم عليها بعشر المعشار ولو أنفذنا فى

ذلك الأقلام والبحار — فقد جعله الله تعالى حياة كل شيء، وجعل نفعه عاماً لكل موجود، ولم يجعله ملكاً لأحد من الوجود.

ولذا امتنّ الله به على عباده امتناناً في الكتاب مسطوراً. فقال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) فيه يزول ظمؤنا، وبه يعود ما ينقص من كمية الماء في الدم بسبب التبخير والتبول وباقي الافرازات.

٢٢٠ — ﴿الحيوانات وما يبعث الانسان على الرفق بها﴾

خلق الله لنا الحيوانات لتساعدنا في أحوالنا المعاشية، وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها، وهم لا يطيقون إعمالها، ولا يقدرون عليها — ولو كلف الله العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها — وقد سلب الحيوانات العقل والذهن لتذل للانسان — فمنها ما نركبه ونحمل عليه الأثقال ونستعمله في جرّ العربات وحرث الأرض ودرس الحب. قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) ومنها ما نتخذ منه أقواتنا من اللحم واللبن وما نصنع منه ملابسنا وأغطيتنا وفرشنا بما يخرج منها من الأصواف والاوبار والاشعار وغير ذلك قال تعالى (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون — وهو الذي سخّرَ البحرَ لتأكلوا منه لحماً طريًّا)

وإذا كان الأمر كما ذكر فالواجب شرعاً أن نرفق بها ونشفق عليها ولا نحملها ما لا تطيق ونطعمها ونسقيها مكافأة لها على ما تجود به علينا من الأعمال النافعة كل وقت قال تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمالٌ حين تُرِيحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاَّ بشقّ الأنفس إنَّ ربكم لرؤوف رحيم) وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعاً إلى حين) .

١٢١ — ﴿أَنجزَ حُرٌّ ما وعد﴾

حقًّا إن الوفاء بالوعد من أفضل شمائل العبد وأوضح دلائل المجد وأقوى دواعي الإخلاص والود ، وأحق الأفعال بالشكر والحمد وهو أصل المودّة والصفاء وثمرة المحبة والاخاء قال تعالى (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها — وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً — يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقال عليه الصلاة والسلام) آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) وقال بعض الحكماء من لقى الله بلسان صادق ، وعامل الناس بحسن الأخلاق ، وألزم نفسه رعى العهود

والمواثيق ، فقد أرضى المخلوق والخالق ، وأدرك الفضل فى كل سابق

وما أصعب نكث العهود ، وأقبح تضييع الحدود ، وأكبر عصيان الخالق المعبود قال تعالى (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) وقال عليه الصلاة والسلام (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) وقال الشاعر

فإن جمع الآفات فالبخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل
لا خير فى وعد إذا كان كاذبا ولا خير فى قصد إذا لم يكن فعل

وقيل : وعد كالوعيد بمطل شديد يشيب الوليد ، سحائب الصيف أثبت من قوله ، والخطر فى صفحة الماء أقوى من عهده ، ومواعيد عرقوب أقرب إلى الانجاز من وعده .

إذا قيل فى الناس خليل فقل نعم خليل اسم شخص لا خليل وفاء
وإن قيل فى الناس جواد فقل نعم جواد ركوب لا جواد عطاء

وقال بعض الحكماء : من نكث عهده ومنع رفده وأظهر حقده فلا خير عنده .

وبالجملة — أجمعت الأمم واتفقت الشرائع على أنه لا نكث لعهد بعد إبرامه ، ولا نقض لعقد بعد إحكامه ، وهو أس مهدت عليه قواعد الإيمان ، وبنيت عليه أركان الاحسان ، وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق ، وهو أمرٌ قبله العقل وصدقه اللسان ، لو نبذه

الناس لأصبحوا فوضى ، وعادت سماؤهم أرضاً ، وأمسى عقد الحق محلولاً ، وصارم الصدق مفلولاً ، ودم التناصف مطلولاً ، فمن حفظ عهده وحافظ عليه ، فقد أسرع إلى الخير ووصل اليه .

ثبتت على حفظ العهود قلوبنا إن الوفاء سجية الأحرار

٢٢٣ — ﴿ الرشوة وأثرها فى تهديد الأمن والعام ﴾

قد تقرر فى عقول جهلة العوام أن الرشوة هى السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على ما يخالفُ الأصول المتبعة ، أو يخل بالأمن والسكينة ، أو يهتك حرمات الحقوق اتكالا على ما يضمره فى نفسه من الرشوة كافية للنجاة من العقاب أو الحصول على غرضه بأى وجه كان — وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة لا يصح أن يقضى أمراً فى مصلحة لأحد إلا بالرشوة ولذلك يرون أن من الواجب على من التمس إنجاز أى عمل يتعلق بمصلحة أن يقدّم إلى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالب به واجبات المصلحة التى أُنيطت بذمته ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوايد التى لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحد منهم ، بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل .

ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن

عناد خصم أو تدليس محتال ولا يكتفى بذلك فى اقتضائها فيسارع إلى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخليص حقه غنيمة باردة — وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرّع اليه فى قبولها منه لظنه أنه لا نجاح بدونها ، وليس ذلك إلا لرسوخ تلك المادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين فى طباع أدنياء الهمم ، تقرباً لذوى المناصب وتذللاً خبيثاً لا يجوزه الشرع ولا قانون البلاد ، وتنفر منه كل نفس ذى إحساس إنسانى مع أن حفظ الأموال من الضياع فى ما لا ينبغى وصرفها فى وجوهها الضرورية أليق بفعل العقلاء وأصون لمحرمات القانون وأبعد فى طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة — وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة .

٢٢٣ — ﴿ آثار منافع الصبر ومضار القنوط واليأس ﴾

الصبر أصل تفرّعت منه فروع البر والإحسان ، وأس بنيت عليه قواعد الطاعة والإيمان ، وهو حصن منيع المكان ، مشيد البنيان ، وجنة واقية ، وعزة باقية ، وقطب كرة الامور ، وعليه جميع الاحوال تدور . فليس شيء من الفضل إلا والصبر سببه واليه منتسبه قال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال عليه الصلاة والسلام

(الصبر كنز من كنوز الجنة) وقال الشاعر

وقل من جد في أمر يؤمله   واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وجميع خلال الخير ، وخصال البر وأحوال الطاعة ، وما جعل الله فى الإنسان من حسن الشيم ، وكرم الأخلاق ، وأسباب الديانة وداعى الإيمان ، إنما هى كلها مرتبطة بالصبر ، كيف ما تأملتها وعلى أى حال تدبرتها ، فحينئذ جميع أحوال الدنيا كلها من السراء والضراء مفتقرة إلى الصبر ، راجعة إليه ، سواء أكانت النفس راضية إليه أم كارهة له

وأما القنوط ، فهو خلة ذميمة وخصلة سقيمة يوهن القوى الجسمية ويميت القلب ، ويعظم الخطب ويضعف النفس ويورث اللبس ويدل على فساد الطبيعة ويبعث على مخالفة الشريعة ، ولا يسكن إلا القلوب المعتلة ، ولا يألف إلا العقول المختلة ، فويل للهلوع الجزوع ، ماأتعس حياته ، وأكثر آفاته ، يقل صبره لما ينزل ، ويسوء ظنه بما يستقبل فلا يزال أخا فكر ووجل ، عمره متصل بالنكد والخجل ، قال لقمان لابنه (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) فان الإنسان إذا أطاع نفسه وأهملها وأسلمها ليد الجزع وأغفلها ولم يحملها على الصبر فيما دهمها فقد بخسها حقها وأحرمها وهانت عليه وما أكرمها فسكنت إلى الجزع وامتنعت من السلوان — وقالت الحكماء ، من قل صبره ، وعظم عليه أمره ، وضاق عن حمل ما نزل به صدره ، فقد

تبين كفره — لأنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس

ضجر الفتى فى الحادثات مذمة والصبر أليق بالرجال وأوفق

٢٢٤ — ﴿ فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة ﴾

لا تعجلن بأمر أنت طالبه فقلما يدرك المطلوب بالعجل

فذو التأنى مصيب فى مقاصده وذو التسرع لا يخلو من الزلل

إن التأنى فى العمل دعامة النجاح ، ومصدر الفوز والفلاح ومحور الحزم ، وعضد العزم ، وحسن السلامة ، وصراط الاستقامة به تسود الممالك ، وتنجو من العطب والمهالك ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) وقال عليه الصلاة والسلام (من تأنى أصاب أو كاد — التأنى من الله) وقيل من تأنى نال ما تمنى ، وقيل يد التأنى تجنى ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجر الندامة — وقال الشاعر :

الرفق يمن والأناة سعادة فتأن فى أمر تلاق نجاحا

وما أتعس العجلة والاسراع فى الأمور ، فكم بذلك اندثرت مدن وقصور ، وما أشق من ارتدى برداء الاستعجال ، ولم ينظر إلي ما وراء ذلك فى الاستقبال ، من تقلبات الأحوال

وقد نهى المولى عن العجلة فقال (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال عليه الصلاة والسلام (العجلة من الشيطان ومن تعجل أخطأ أو كاد)

وقال بعض الحكماء : من استعجل فى أمر قبل أوانه ، عوقب بحرمانه
قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل
ومن تأمل بعين البصيرة فى حكمة خلق المولى تبارك وتعالى العالم فى ستة أيام مع كونه قادراً أن يخلقها فى أسرع من لمح البصر يرى مزايا التأني الواجب شرعاً اتباعه

٢٢٥ — ﴿ الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ﴾

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل   إلى غد إن يوم العاجزين غد
نعم ، إن الوقت سيف قاطع ، وبرق لامع . ومن الحزم انتهاز الفرصة وترك التوانى فيما يخاف فيه الفوت
وانتهز الفرصة إن الفرصة   تصير إن لم تنتهزها غصة
ومن أعظم المصائب فوات الوقت بلا فائدة ، واكتساب عائدة . قال تعالى (وأنفقوا مما رزقنا كم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب) وقال بعض الحكماء : اغتنم بياض النهار قبل العشية ـ وقال الشاعر
إذا ضيعت أول كل أمر   أبت أعجازه إلا التواء
فالعمر قصير ، وترتيب الأوقات يطيله ، والناس مبصرون ولكنهم عن قيمة الوقت عميان
يسر المرء ما ذهب الليالى   وكان ذهابهن له ذهابا

فمن اتخذ اليقظة نبراساً ، وانتهاز الفرصة أساساً ، هانت عليه عظائم الأمور ، وعظمت مهابته فى الصدور ، وخف عنه عبء الصعاب وانفتح له من الخيرات كل باب

ومن نبذ انتهاز الفرصة ، فلا شك أنها تنقلب عليه غصة ، ويقع فى حيرة لا يدرى كيف العمل ، وقد سبق السيف العذل ، لأن الماضى لا يرد ، والمستقبل ليس فى اليد

وعاجز الرأى مضياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فالزمان إذا مر على الإنسان بدون فائدة ، ولا اكتساب عائدة لا يحسبه العاقل من عمره ، ويظنه الجاهل من سعده وخيره

إذا فاتنى يوم ولم أصطنع يدا   ولم أكتسب علماً فماذاك من عمرى

قال حكيم : لا تؤخرن عملاً عن وقته فان للوقت الذى تؤخره إليه عملاً آخر ، ولست تطيق ازدحام الأعمال لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل

وبالجملة — إن ضياع الوقت لا يوازيه شىء آخر سواه ، مهما كان نفيساً فإذا فرطت فى متاع عزيز أو تحفة ثمينة أمكنك استردادها بضرب من ضروب الحيل — أما إذا فرطت فى ساعة من عمرك وأضعتها بدون أن تكتسب فيها خيراً أو محمدة لا يمكنك استرداد تلك الساعة ولو بذلت فى سبيلها ملء الأرض ذهباً — فالوقت إذاً أثمن

من الذهب والجواهر الكريمة ، وأعز من كل غال نفيس .

حياتك رأس المال والعلم ربحه وأخلاق أشراف بهن تصدر
وموسمك الأيام فلتك حازماً وإلا فذو التفريط لاشك يخسر
ومن ضيع الأوقات ضاعت حياته وعاش فقيراً جاهلاً ليس يشكر
ودع غائباً من فائت ومؤمل فوقتك سيف قاطع ليس يعذر

٢٢٦ — ﴿ أيهما أقوى نفوذاً سلطان الحاكم أم سلطان الدين ؟ ﴾

إن راحة المجتمع الانسانى ، وتقدم العمران ، معقودان بحافظين
أحدهما الوازع الباطن وهو (سلطان الدين) .
وثانيهما الوازع الظاهر وهو (سلطان الحكومة)

أما الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله، واليه يستند كل ما نجده من الخير فى العبادات والمعاملات ، إذ هو المظهر الحق للناس ، المبين لهم الطرق المؤدية لخيرى الدنيا والآخرة ، فيميزون بين الحسن والقبيح ، ويفرقون بين السقيم والصحيح ، ويستحضرون خالقهم فى السر والجهر ، فيديمون لبعضهم الائتلاف والإخاء والاخلاص والولاء ، ويسعون جميعاً فيما به طيب حياتهم ، وتشييد ملكهم ، لان الجامعة الدينية أهم أسباب سعادة الامم وتقدمها ولكن يا للأسف قد اعتل فى صدور من إذا عرضت لهم الشبهة ترددوا ، وترحل عن صدور أدعياء العلم الذين ان يوجد أبعد منهم

عن الصواب فى هذه المسئلة — وبالاسف أننا قد ابتلينا بضعف سطوة الوازع الدينى وخذل قوّته ووهن شوكته فنحن إذاً فى زمن أحد الوازعين فيه عليل وهو سلطان الدين .

والآخر صحيح وهو سلطان الحكومة

وهذا الوازع الصحيح هو فى أصل طبيعته لا يبصر ما يبصر ذاك ، ولا يتوصل إلى ما يتوصل إلى معرفته من الحوادث السرية والوقائع الخفية ، وشتان ما بين الغائب والشاهد — فكيف بهوَقدصار ملتزما أن يسد مسد أخيه عند من لم يبق لهم والعياذ بالله وازع الباطن .

٢٢٧ — ﴿ الكرم يبعث على ارتياح فى نفوس الكرام ﴾

إن الكرم إسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل ، ولفظ جامع لمعانى السماحة والبذل ، فالجود فعل محمود ، وعز موجود ، ومن جاذ فقد ساد ، قال تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال عليه الصلاة والسلام (السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الارض فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة، ألا وإن السخاء من الإيمان والايمان فى الجنة)

بخلاف البخل فانه أدنى خلة، وأودى علة ، قال تعالى (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شراً لهم) وقال عليه الصلاة والسلام (اللهم إنى أعوذ بك من البخل) وقال الشاعر

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى فليس إلى ما تأمرين سبيل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلا له فى العالمين خليل

وقال بعض الحكماء : ثواب الجود ثلاثة خلف ، ومحبة ، ومكافأة وثواب البخل مثلها . تلف ، ومذمة ، وحرمان ، وقال ، آخر : لو كان شىء يشبه الربوبية لقلت الجود ـ وقال عليه الصلاة والسلام (البخل جامع لمساوى القلوب ، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء) وعنه أيضا أنه قال (السخى قريب من الله وقريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ـ ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل) وقيل ـ ذللوا أخلاقكم للمطالب ، وعودوها على المحامد ، وعلموها المكارم ، وتجلوا بالجود يلبسكم ثوب المحبة ، فمن جاد ساد ، ومن ساد شاد ، وخير المال ما أفاد حمداً . ونفى ذماً ، وصان عرضاً . وأدى فرضاً

وقصارى القول ، أن الجود وصف حميد ، لا يدرك شأنه وكماله ولا يبلغ المديح غاية حسنه وجماله

لنعم الجود ساتر كل عيب وبئس البخل كشاف العيوب

وكم مدحت به رجال وأحيا ذكرهم على مر الأيام والليالى فمن هو حاتم ، وكعب بن مامة ، ومعن بن زائدة ، والفضل ، ويحى وغيرهم ممن دمرهم الدهر ، لولا أن الجود حفظ ذكرهم ونقش أثرهم على صفحات الأيام وضرب بهم الأمثال لنسخ ذكرهم من الألسنة

والبخل كشاف المعائب ، فضاح المثالب ، يجعل صاحبه مضغة فى أفواه المذام ، وسبة فى ألسنة الخواص والعوام

٢٢٨ — ﴿ رضاء لجميع الناس غاية لا تدرك ﴾

ولقد طلبت رضى البرية جاهداً فاذا رضاهم غاية لا تدرك

إن من الناس من يتقلد أسنى المراتب ، وأسمى المناصب ، ويحكم السياسة ، ويرأس الرياسة ، ويراعى فيهما ارضاء الخالق والمخلوق ولا يلهيه نعيم الصفاء وصفاء النعيم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم وعن إسداء المبرات إلى ذوى الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى المهضوم ، حيث يعلم أن أحب الناس إلى الله أنفعهم لعباده ، وأكيس الكيس من عمل لمعاده ، وأن من ولى الأمور ، وجب عليه إسعاف الجمهور ، بدون تفرقة بين الخامل منهم والمشهور ، فمثله مثل الربان الذى يدخر الزاد فى سفينته ويحكم السكان ، ولا يبحر إلا على أمان ، ولا يرسو إلا وهو ذو اطمئنان

أجل — إن أحوال الإنسان فى معاشه تشبه السفر فى البحار إذ هى محفوفة بالأخطار والأكدار ، فبينما يكون فيها رخىّ البال مغبوط الحال ذا أعوان ومال ، إذ بالزمان قد أخنى عليه فالتفت به كوارثه ، وشملته حوادثه ، حتى تكاد تنضب عنه مزاياه ، وتشين سجاياه ، فيخيل للناس أن تلك الرآسة التى نالها ، والمعالي التى طالها

إنما كانت عرضاً واتفاقاً ، وإنها كانت عارية عنده لاخلاقاً ، وأن فى وسع كل إنسان أن يدركها مثله إذا ساعده الزمان ، — إذاً فلا غرابة فى أنه لا يتأتى لأحد ولى الرآسة ، وإن انتهت اليه الشهامة والكياسة ، أن يرضى جميع الناس ، ويستخلص مودتهم له من دون التباس ، فإن أغراض الناس متفاوتة متباعدة ، ومقاصدهم متباينة متعاندة ، وأهواءهم كهبوب الرياح ، لا تستقر على حال من الأحوال

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا على لئامها

ومنهم من يتقلد المناصب عفواً وهو غير مترشح لها ، فتجمح به إلى حيث تلتوى عليه الأمور ، وتتجاذبه جواذب المحذور من المقدور ، فيخبط خبط عشواء ، وتطوحه الأهواء كيفما يهوى ويشاء

٢٢٩ — ﴿ أيهما أهنأ للمرء الصحة أم الثروة ﴾

الصحة أجل النعم التي أنعمَ الله تعالى بها على الانسان وأرفعها مقاماً ، إذ بها يطيب العيش ويهنأ البال . قال عليه الصلاة والسلام (إذ أصبحت معافاً فى جسمك ، آمناً فى سربك ، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء) فالصحة لا يوازيها مال ، ولا يقوم مقامها عز ولا جاه ، لأنها الأصل الذى تتفرع عنه الأعمال ، والأساس الذى تبنى عليه الخيرات قال عليه الصلاة والسلام لرجل كان يستمر فى الصوم (إن لبدنك عليك حقاً) وقال بعض الحكماء : الزم الصحة يلزمك

العمل — وماذا تجدى الثروة إذا أصبح الانسان فى آلام ، وماذا يفيد المال إذا وهنت الأجسام

لا أستلذ العيش لا أدأب له سعياً وكذا فى الهواجر والغلس
وأرى حراماً أن يؤاتينى الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتمس

فالصحة هى عين الغنى التام ، وظلال الأمان والسلام — قال عليه الصلاة والسلام (ما رأيت أهنأ من العافية) وقد قال بعض الحكماء إن من أهم شروط النجاح فى دار الدنيا ، أن يكون الانسان قوى البنية ، ومن أهم شروط عزة الأمة ، أن تكون أفرادها أقوياء ، لأن النجاح فى الصنائع للقوىّ من الصناع

وقد أجمع العقلاء على أن القوة العاقلة بدون الصحة معطلة لا يمكنها الوصول إلى الغاية المقصودة منها إلا بها ، ولذا كان الاعتناء بالتربية الجسدية ، ومراعاة جميع الوسائل الصحية أمراً لازماً حتى تتسنى تربية القوى المفكرة

والجسم للروح مثل الربع تسكنه وما تقيم إذا ما خرب الجسد

وبالجملة — فالصحة أثمن من الثروة ، فإن الرجل يجود بثروته ليملك صحته ، لأنه يستغني بالصحة عن الثروة ، بخلاف الثروة فإنها لا تغنى عن الصحة شيئاً — فالحياة بدون صحة عبء ثقيل

ومطالب الصحة انتظام العادات ، والرياضة اليومية ، والنظافة

والاعتدال فى الأكل والشرب فمن حافظ على هذه المطالب حفظ فى الغالب صحته من الاعتلال ، وجسمه من الاسقام

والصحة خير قنية ويتلوها الجمال ثم الغنى المكتسب بالطرق المحللة ، ثم الشباب

لذة العيش صحة وهناء فإذا وليّا عن المرء ولّى

٢٣٠ — ﴿ أثر السكك الحديدية فى المدنية والحضارة ﴾

إن الانسان بواسطة هذه السكك صار يستغنى فى سفره عن عدة أشهر ببعض أيام ، ومن عدة أيام بيوم أو بعض يوم ، فضلاً عما توفر عليه من ماله الذى كان يصرفه فى سفره ، وما اكتسبه من الراحة مما كان يكابده من المشاق والمصاعب والعوائق ، فلا تروج صناعة ولا تتقدم تجارة ولا زراعة إلا بها ، لأنها هى التى تنقل المصنوعات من بلد إلى بلد ومن مملكة إلى أخرى ، فيحسن حالها وتنقل حاصلات الزراعة من الثمار وغيرها فيزيد نفعها وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعتناؤهم بها

ومما لا شك فيه أن هذه السكك قد سهلت من السفر كل خطر شديد ، وجعلت البلد البعيد ، أقرب من حبل الوريد ، وسهلت المواصلات ، وقربت المسافات ، فنمت التجارة ، وعظمت الأمارة وتلألأ العمران ، فى سائر البلدان ، وتيسر للعلماء وأصحاب الصنائع السفر إلى البلاد البعيدة ، والاطلاع على أمور كثيرة ، وبذلك تتسع

العلوم وتكثر الفنون وغير ذلك من منافعها التي لا تحصى ، ولا تكاد تستقصى ، والفضل في ذلك للمهندس الشهير (جورج ستيفنسن)

٢٣١ — ﴿الشكر حجاب السعادة وجلاب الزيادة﴾

الشكر ترجمة النية ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص وعنوان الاختصاص ، ومصدر السعادة ، وقيد النعمة ومفتاح الزيادة ، وهو أمر محبوب ، ومرغوب فيه ومطلوب ، فلو كان يجل عنه ماجد لعلو شأنه ، أو ملك لرفعة سلطانه ، لما أمر الله عباده بشكره والتحدث بنعمته وبرّه

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد   لعزة نفس أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره   فقال اشكروني أيها الثقلان

فشكر المنعم واجب ، والثناء على المحسن أمر لازم ، ونعمة الشاكر من النقص والنقض في أمان ، ومن السمو والنمو في ضمان وهو تميمة لتدام النعمة — والسعيد من إذا أظلته النعمة لم يشتغل بسكرها عن شكرها ، فاذا أونسِت النعمة بالشكر ربعت فتربعت وإذا أوحشت بالكفر نفرت وطمنت — قال الله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) وقال عليه الصلاة والسلام (الشكر نصف الإيمان) وقال بعض الحكماء : الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، وكفران النعم ، عنوان النقم ، قال سيدنا عمر رضي الله عنه

(النعمة داء ليس لها شفاء إلا الشكر)

الشكر أعظم ما حاولت ملتمساً ... به الزيادة عند الله والناس

٢٣٢ - ﴿ وصف حديقة الحيوانات ﴾

أول مارأيته ملك الحيوانات وأشباله فى غابة من الغابات — وهو ملك مهاب ، حديد الظفر والناب ، (أسد) ضرغام ، وبطل مقدام ثم رأيت رعيته على اليمين والشمال مرتبة على هذا المنوال (فالفيل) له خرطوم طويل يشبه الصولجان ، ويحكى فى تلويه الأفعوان ، وأذنان كالترسين ، تحتهما نابان كالرمحين ، شديد الغيرة ، حقود يرتاح إلى الطرب (والزرافة التى حازت أنواع اللطافة ، عالية الصدر ، منحطة الأواخر ، جميلة الأوصاف والمفاخر — (والنمر) شرس الأخلاق دم الفريسة بين يديه يراق ، وثباته لاتنكر ، وثباته أشهر من أن يذكر — (والفهد) خصره رقيق واضح الجبين ، يتبختر ذات الشمال وذات اليمين - (والدب) مشغوف باللهو واللعب كثير الشهوة والطرب يقبل التعليم والتأديب ويأتى من بحر فطنته بكل عجيب - (والذئب) الذى له الغدر شيمة ، والغنم لديه غنيمة ، يألف الوحدة والانفراد ويسطو بأنياب حداد - و(الثعلب) رائغ ، وعن جادة الطريق زائغ وافر المكر والحيل ، يضرب بخديعته المثل - (والضبع) حضاجر كنيتها أم عامر ، موصوفة بالعرج - وتفترس كل من دب ودرج

و(النمس) صائل صائد ، ظهره عظم واحد ، له يدان قصيران ، لا ينجو منهما طير ولا ثعبان ـ (والسنجاب) أبلق ، بطنه أبيض وظهره أزرق يأوى الأشجار العالية ، ويسكن الأماكن الخالية ـ و(الظبى) كحيل الطرف ، ذكى العرف ، جميل الصفات ، حسن الالتفات — و(القرد النسناس) فى خلقه ما يشبه الناس ، معروف بالفهم والذكاء ، صبور على السراء والضراء — و(الببغاء) جميل الصفات . قوى على حكاية الأصوات ، فهمه صحيح ، ولسانه فصيح ـ و(الهدهد) وافر الهداية نافر عن الضلالة والغواية ، يميد فى حلله الفاخرة ويميس كأنما ألبسه سليمان تاج بلقيس ، فيالها من روضة أنبتت السرور ، وحوت أصنافاً جمة من الثمار والزهور ، وفى وسطها تلك الحيوانات التى لا أجمع بين أشخاصها وأسمائها ، ولا أتحقق من أحوالها وأنبائها

فتلوت إذ أدهشنى جمعها وخلقها (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها)

٢٣٣ — ﴿ آثار التواضع عند الله والناس ﴾

لا ريب أن التواضع للناس ، من موجبات الألفة والائتناس

وهو عبارة عن لين الجانب وخفض الجناح ، وهو خلق أهل العلم والصلاح ـ قال تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال عليه الصلاة والسلام : أفضل العبادة التواضع . وقال الشاعر

تواضع إذا ما نلت فى الناس رفعة فان رفيع القوم من يتواضع

فالتواضع سلم الشرف وموجب الترقى إلى أعلى الغرف ، وهو أجل مزية . وأفضل سجية . وتاج الوقار . وشعار الاطهار . وشبكة الشرف ، وأشرف الشرف

والكبر وصف فى الأنام مذموم ، وصاحبه من الخيرات محروم . ممقوت من الله تعالى ومن العباد . مسلوق طول حياته بألسنة حداد . بل صاحبه جدير بالخزى فى حياته ومماته . بل هو قتيل شهواته ولذاته . قال حكيم : (أنسنا إخوة هكذا يجب أن يكون الإنسان أخا للإنسان غير أن خزفا يختلف عن خزف فى القيمة ولو كان من طينة واحدة) وقال آخر (الأحمق كالرمل المنهار كلما قومت منه جانباً إنهار عليك جانب آخر) ومثله كالثوب الخلق ان رفأته من موضع تخرق من موضع آخر . فالكبر عنوان الحماقة

وليس الفقر من إقلال مال ولكن أحمق القوم الفقير

ليت شعرى — هل نسى المتكبر أصل وجوده . ومنهل وروده واغتر بنفس عالية . وحياة فانية . وتكبر على معاشريه . وترفع عن معاصريه . أما يعلم أنه من نطفة مذرة . وسيكون جيفة قذرة . وما بين ذلك حامل العذرة

أرى أبناء آدم أبطرتهم معيشتهم من الدنيا الدنية

فلم بطروا وأولهم منى   أو افتخروا وآخرهم منية

فالمتكبر مشئوم، والمتعاظم مذموم — والتكبر من أخطر الخطوب وأكبر القبائح والذنوب، قال الله تعالى (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين — ولا تمش فى الأرض مرحاً — ان الله لا يحب كل مختال فخور) وقال عليه الصلاة والسلام (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر) وقال الشاعر

وأحسن أخلاق الفتي وأجلها   تواضعه للناس وهو رفيع
وأقبح شيء أن يرى المرء نفسه   رفيعاً وعند العالمين وضيع

وبالجملة — فالكبر وصف محذور، حامله ممقوت عند الله محقور، يضعه الله كلما ارتفع، ويخفضه كلما طلع، وهو أخبث سرائر القلوب، وأعظم كبائر الذنوب، فلا يرى صاحبه أبداً إلا غليظاً فظاً، لا يرى لأحد سواه فى الفضل حظّاً، وقد قيل (من ترك الكبر استوجب الشكر) فالتكبر على الملوك سخافة، وعلى الأكفاء جهالة، وعلى الأسقاط خساسة

والتواضع سهولة الأخلاق مع الناس فى مخاطباتهم، ولين الجانب فى معاملاتهم، وتجنب العظمة والكبرياء، والتباعد عن الاعجاب والخيلاء، وهو حلية يتحلى بها الإنسان إن كان عاطلاً ويرفع ذكره إن كان خاملاً، به يسمو فى الدنيا قدره، ويعظم فيها

خطره ، يمتلك صاحبه مودة القلوب ، وينال كل مرغوب ومحبوب به يجتاب المجد ، ويكتسب الحمد ، وضده الكبر وهو أقبح وصف يسلب من الإنسان الفضائل ، ويكسبه النقائص والرذائل

كيف لا وإن أقبح ما يرى عليه الإنسان أن يكون متكبراً لأنه بذلك ينسب لنفسه ما لا يصح أن ينسب إليه ، ويدعى ما ليس فى الإمكان أن يناله ، وهذا ضرب من الخلل ، ودليل واضح على الجنون وبرهان ساطع على الغرور ، ومن غره السراب تقطعت به الأسباب قال عليه الصلاة والسلام (لا يتواضع إلا كل رفيع ، ولا يتكبر إلا كل وضيع) على أن التكبر عنوان الجهل

٢٣٤ — ﴿ طاعة أولياء الأمور مقياس رقى الأمم ﴾

الطاعة هى الحرم الأوفى ، والعروة الوثقى ، والكهف الحصين والملاذ الأسمى ، من تمسك بحبالها سلم ، ومن لجأ إليها غنم ، وهى أس الدين ، وأصل اليقين ، ومنهاج السيادة وطريق السعادة ، وأساس النظام الذى عليه مدار حسن الأعمال ، والسبب القوى لإصلاح الأمور وتحسين الأحوال ، بها تسعد البلاد والأوطان ، ويعم بها النفع وتتسع دائرة العمران ، فحق على كل فرد أن يمتثل لولى أمره ، ويحفظ له الحق فى احترامه وتعظيم قدره ، وأن يقوم بما عهد إليه من الأعمال بالكمال وأن يهتم بتأديته على أتم نظام وأحسن حال — فان المرء إذا

اتخذ الطاعة شعاراً ، والامتثال دثاراً ، يرى رؤساؤه تقديمه على غيره ويفضلونه على أمثاله من أبناء عصره ، فينال منهم حسن الرضا وقت الغضب ، ويفوز منهم بجميل النعم إذا طلب ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأَمر منكم) فقد قرن وجوب طاعة الرؤساء وولاة الآمور بطاعة الله ورسوله لانها عبارة عنها ، ونيابة منها ، إذا سلك الرئيس الطريق الجادة ولم يتعد الحدود المحدودة — وقال عليه الصلاة والسلام (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى) . وقال الشاعر

إن شئت تحظي بالسعادة والمنى فأطع ولاة الامر فى حسن امتثال

٢٣٥ — ﴿ أهمية التربية لدى الامم الراقية ﴾

التربية طريق النجاح ، وسبيل الهدى والفلاح ، بها يرتفع الانسان من حضيض الهمجية ، إلى ذروة المدنية ، وبها تستنير الافهام . ويعلم الحلال من الحرام . بها يعرف الانسان ماينفع ومايضر . ويحزن ويسر . بها يعلم المرء ماعليه وماله . وهى التى تصلح شأنه وتحسن حاله . بها يعلم الخيرفيقتنصه ويحرزه . والشرفيجتنبه ويتجاوزه وهى زينة الشباب وحلية المشيب ، بها يزدان المرء فى جميع أدوار عمره . ويتحلى بها فى صغره وبعد كبره . فكلما وجد فى الامة دعاة نصبوا أنفسهم لنشر الفضائل بين بنيها . وخصصوا عين أوقاتهم لغرس

بذور التربية فى مروج أذهانهم ، وعرجوا بهم عن مناهج أضداد الكمالات الانسانية ، من حيث هي مبادىء إلهية ، كلما ركزت فيهم الملكات الفاضلة ، وانطبعت فيهم الغرائز الكريمة ، ومالوا عن الشرور إلى الخيرات — وكلما تقوى هذا المبدأ الشريف بين أفراد الشعب كلما أخذوا فى الارتقاء إلى معارج الفلاح ، وتدرجوا إلى أعلا مراتب النجاح . قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) فما أطيب ثمار التربية والتعليم وما أحسن غرس بذور العلم فى نفوس الناشئين والناشئات ، أما إذا انفصمت عرى هذا المبدأ وتداعت قوائمه . وتناسى القائمون بالدعوة شأنها ، وأهملوا أمرها فأغفلوا النداء لأمهات الأخلاق السامية وغضوا النواظر عن تقويم الافكار وتثقيف العقول وتهذيب النفوس بالتربية والآداب أسرع الفساد إلى أفراد الأمة وتمكنت من نفوسهم الرذيلة وتغلبت عليهم الشهوات السافلة فتجنح ميولهم دائما إلى الشرو وتحل النقيصة منهم مكان الفضيلة وتنحل جامعتهم فيكونون قلوباً شتى لا رابطة تربطهم ولا جامعة تجمعهم — وهنا تنحط الأمة إلى أسفل السافلين

فسعادة الأمم والمجتمع الإنسانى إنما يكون بالتربية الفاضلة وتهذيب النفوس ودعوتها إلى الخير ودربتها على الكمالات الانسانية حتى تصير لها ملكات وغرائز — وأنه يستحيل أن تتوجه أمة من

الأمم إلى الوجهة المثلى وجهة الفلاح إلا بطريق التربية التي هي تثقيف عقل الابناء بالمبادىء الفاضلة « من العلوم والمعارف » وتروض روحهم بالأخلاق الطاهرة ، وتعود نفسهم على العادات النافعة وتهذب أفكارهم بالآداب السامية وآداب الشريعة والدين ودستور البلاد ذلك هو منهاج الفلاح ، ومعراج النجاح ، هذا هو سر استواء هذه الامم على عروش السعادات ، هذا هو الينبوع الذى سوغ للغربى ان ينتحل لنفسه حق الرآسة على الشرقى

وبالجملة — فالتربية رأس مال لا يفنى وهي نوعان نفسية وجسمية فتربية النفس تكون بقلع الرذائل منها وغرس الفضائل فيها ، وهى من الاسرار التى عليها مرقاة السعادة الدنيوية والأخروية ، وإنما تفيد ببث روح العقائد الدينية فى قلوب الناشئين وعدم إكراههم على تحمل الأذى حتى يشب المرء على حسن الخلق وصفات الكمال كالمروءة والشجاعة . والصدق . والكرم . ويكون بعيداً عن المنكر والشرور لا يكدر وجه الآداب كى يصبح مألوفا محبوبا يهدى إلى الهدى ويصد عن الهوى

وعوامل التربية كثيرة منها الأم والأب والمؤدب والمكاتب والمدارس وهى أهمها — ولذا تجد التربية تتفاوت إلا أنها أعظم من التعليم — إذ بصلاح التربية تصلح الامم وبفسادها يفسد الكون

فويل لأمة لم تمتن بها ، ووالله ما امتلأت السجون ، ويتمت الأطفال واستحكمت حلقات الجهل وعمَّ الضلال إلا بترك التربية — وإن الشخص الذى يهمل ايكون من أشد الوحوش الضارية ، وأحط من البهائم — ومن تربى تربية صحيحة خليق به أن يقود الامم ويرفعها إلى أوج السماكين ، ويكون من الداعين إلى إعلاء كلمة الحق ورفع منار الاسلام ببيان أسراره وأوامره ونواهيه وزواجره التى هى أس كل عدل ، وناموس كل عصر ، ونظام كل ملة

والتربية أنجع ما تكون فى الصبا الذى بفواته يفوت المرء مايؤمله من طاب السعادة — ولذا كانت فيه من أهم المطالب فان المرء فى صغره كالغصن فى أوانه ، يقبل التقويم والتعديل

ولذا قال محي الدين بن العربى

لا تسه عن أدب الصغـــــير وإن شكا ألم التعب
وذر الكبير فانه كبر الكبير عن الأدب

لأنه متى أخذ فى مبدئه بالتهذيب والتطبع بالأخلاق الفاضلة والمقاصد الشريفة إنقاد إلى ما يوحى إلى فطرته الأولية ، ونشأ على ما تعود وجبل وسهل عليه فيما بعد صنيعة الخير بقدر بُعده عن الشرور والرذائل — ومعلوم أن التربية النفسية أفضل من التربية الجسمية إذ أن الاولى راجعة إلى الروح — والثانية راجعة إلى الجسم

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
انهض إلى النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

٢٣٦ — ﴿ لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب ﴾

من دلائل الحكمة ، وأفضل الفضائل المهمة ، الصمت وقلة الكلام ، إحترازاً عن الوقوع فى الآثام ، لان من كثر لغطه كثر سقطه ، ومن تكرر مقاله سئم ، ومن كثر سؤاله حرم ، فكلام الانسان بيان فضله وترجمان عقله ، وكل يعرف بقوله ، ويوصف بفعله ، ورب قول أنفذ من صول ، وطعن اللسان أنفذ من طعن السنان ، وجرح الكلام أوجع من جرح الحسام

فالاولى فالانسان صون اللسان وهو صغير الجِرم كبير الجُرم

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فالكلام دواء إن قلّ نفع ، وإن زاد وكثر صدع

إن القليل من الكلام بأهله حسن وإن كثيره ممقوت
مازل ذو صمت وما من مكثر إلا يزل وما يعاب صموت
إن كان ينطق ناطق من فضله فالصمت در زانه ياقوت

الخطأ بالصمت يختم والخطل بالكلام لا يكتم — قال عليه الصلاة والسلام (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يصمت)

الصمت يكسب أهله صدق المودة والمحبة

والقول يستدعى لصا حبه المذمـة والمسبة

وقال بعض الحـكماء : الزم الصمت تعد فى نفسك فاضلا ، وفى جهلك عاقلا ، وفى قدرتك حليما ، وفى عجزك حكيما ، وإياك وفضول الـكلام فإنها تظهر عن عيوبك ما بطن ، وتحرك من عدوك ما سكن

وقال آخر : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه أو كلمة تفسرها ، أو حكمة تنشرها

الصمت زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
فلئن ندمت على سكوتك مرة فلتندمن على الـكلام مرارا

٢٣٧ — ﴿ إذا أراد الانسان السفر براً فما الذى يستخدمه من الحيوانات الجمل أم الحصان ؟ ؟ ﴾

إن المولى سبحانه وتعالى كرم بنى آدم حيث جعل له السلطة العامة على جميع الحيوانات ، وسخرها كيفما أراد ، فسخر الخيل للركوب ولحمل الأسلحة عليها فى الحروب تسبق السيل فى السير معقود بنواصيها الخير ، وراكب ظهورها فارس ، وهى أجل حافظ وحارس ، وزينة وعز ، وكنز وحرز ، قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وسخر أيضا الجمال لحمل الأحمال الثقال وقطع المراحل الطوال ، مع مكابدة الـكلال والصبر على مر النكال ولا يعتريها من ذلك ملال ، تسير فى الفيافى والصحراوات ، وتتكبد

الآلام والمشقات ، زهداً وفقراً وجلداً وصبراً على العطش والجوع حتى تحل فى أعطانها

وحينئذ فالجمال أفيد فى المواصلات كما أشار المولى إلى ذلك فى الآيات (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) فهى مطية الصحراء ، ومركب البيداء ، يتمكن راكبها من النوم عليها ، وتنقاد لمن بين يديها ، بخلاف الخيل فإنها وإن كانت تقتحم الطريق اقتحام السيل ، وتحوز قصبات السبق فى ميدان السباق إلا أنها ليس لها طاقة على المشاق والصبر على الجوع والعطش بضع ساعات كما تصبر الجمال جملة أيام معدودات

٢٣٨ — ﴿ الطب والأطباء فى الهيئة الاجتماعية ﴾

الطب علم تحفظ به صحة الأبدان ، وهو كنز ثمين لما فيه من الفوائد الجليلة ، والمنافع المديدة ، التى تعود على الهيئة الاجتماعية بالخيرات والبركات المفيدة ، وواسطة لقطع دابر الأمراض الوبائية واستئصال جرثومة الأوبئة الردية ، التى تكاد أحيانا تفتك بالنفوس فتكا سريعا ، وتزهق بأرواح العباد زهقا مريعا ، وحينئذ صناعة الطب تهم كل طبقات الناس ، والطبيب هو مطمح أنظار كل إنسان ، رفيعا كان أو وضيعا والانسان من حيث إنه يميل بالطبع إلى البقاء ويخشى الفناء ، كان مدفوعا بالطبع أيضا إلى الحرص على الصحة التى هى دعامة الحياة وقوامها

والحرص على الصحة يتوقف على الأطباء الذين هم ركن عظيم فى انتظام حال البشر — كيف لا وبعلومهم ينال المرء الهناء فى عيشه ، والتمتع بصحته ، والصحة من أكبر النعم على الإنسان ، بعد الوجود والإيمان

وقصارى القول — أن الطب مهنة سامية ، وحرفة شريفة عالية وأن الطبيب رجل الشعب ، تتوقف عليه أرواح العباد ، ولا يستغنى عنه فرد من الأفراد ، فله المقام الأسمى ، والدرجة الرفيعة فى المجتمع الإنسانى ، مادام متصفاً بمكارم الأخلاق ، وأمهات الفضائل ، مبتعداً عن قبائح الصفات والرذائل

بالطب صحت جسوم الناس من سقم وبالأطباء أضحى الكون معموراً

٢٣٩ — ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾

المال روح تحيا به أجسام الممالك ، وسراج يضىء به ظلام الخطوب الحالك ، وسلطان قوى الشوكة والبطش ، شديد العزيمة والبأس عليه قوام الصنائع ، وإبراز مكنونات العلوم ، ونجاح الاختراعات والمشروعات ، وقضاء الحاجات فى جميع المهمات ، فأى شخص رزق مالا لحظته السعادة ، وامتدت عليه غصون السيادة ، فللمال الأفضلية والأولوية فى المنفعة على البنين

وبديهى أن الحامل للمرء على جمع الاموال والسعى وراء اكتسابها ، إنما هو الحصول على ما يقوم به أود حياته ، من مأكل

ومشروب وملبس ، وكل ذلك مقدم على أمر التناسل وحب الابناء

وكيف يكون للبنين فضل على المال ، وأنهم بدونه لا يصلح لهم حال ، ولا يستقيم لهم شأن ولا بال — قال بعض الحكماء : العاقل يتخذ المال قبل العيال ، والجاهل يتخذ العيال قبل المال — وقيل إنى أعجب ممن له عيال وليس له مال — وقيل العيال سوس المال

وقال الشاعر

شيئان لا تحسن الدنيا بغيرهما　　المال تصلح منه الحال والولد
زين الحياة هما لو كان غيرهما　　كان الكتاب به من ربنا يرد

يعنى قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)

وقصارى القول — أن الطبيعة البشرية لا ترى أفضل من المال ولا أعز منه ، لا يماثله شيء فى الوجود ، فمقام صاحب المال ليس كمقام صاحب الأبناء

٢٤٠ — ﴿ وصف اللسان ﴾

اللسان أداة يظهر بها البيان ، ومخبر يخبر عن مكنون الجنان وحاكم يحكم بفصل الخطاب ، وناطق ينطق بالصواب ، وهو أعظم واصف تعرف بوصفه الاشياء ، وأكبر واعظ يأمر بالعرف وينهى عن الفحشاء ، وأصدق شاهد يستدل به على الغائب ، وأعز شافع تدرك به المطالب ، وأحسن سمير يسر به الخاطر ، وألطف مؤانس

لمحاسن الاخبار ذاكر ، أرق نديم يرتاح إليه الخليل ، وأجل مادح يشكر فعل الجميل ، وهو زارع ينبت الوداد ، وحاصد يذهب الضغائن والأحقاد ، به تنكشف الحقائق ، وتتبين الدقائق ، به يعرف مقدار العقل . وتتضح نتيجة المرء فى الفضل : فاللسان للمرء كمرشد أمين وترجمان للكلام . إذ به يفصح عما فى ضميره . ويحفظ الروابط والعلائق مع غيره . ويكفيه شرفاً أن ليس من الاعضاء شيء ينطق بذكر الله غيره . فالإنسان بدونه كبهيمة سائمة أو صورة ممثلة

قال بعضهم : ما الانسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو ضالة مهملة أو بهيمة مرسلة — وقال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده　　فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ومضار اللسان لا تحتاج إلى برهان فمن لم يسجنه أوقعه فى الذل والهوان . ـ فأعقل الناس من كف فكه وفك كفه ـ وشر الناس من كف كفه وفك فكه — وقد قيل : (مقتل الرجل بين فكيه)

وقال بعض البلغاء : اللسان أجرح جوارح الإنسان — وقال الشاعر

يصاب المرء من عثرة بلسانه　　وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعثرته فى القول تذهب رأسه　　وعثرته بالرجل تبرا على مهل

٢٤١ — ﴿ عز من قنع وذل من طمع ﴾

القناعة من أوثق أركان العبادة . وأقوى أصول الديانة المؤدية

إلى السعادة ، وهى ذخيرة لا تبلى مدى الأيام ، وكنز لا يفنيه مر الدهور والأعوام ، بل هى جنة عالية ، قطوفها دانية ، فمن طلب العز طلبه بالطاعة ، ومن طلب الغنى طلبه بالقناعة . قال عليه الصلاة والسلام (القناعة شرف المؤمن فى الدنيا ، ومنزلته فى الآخرة) وقال بعض الحكماء : من قنع بماله استراح وأراح . وقال الشاعر

أفادتنى القناعة كل عز ... وهل عز أعز من القناعة

والطمع رق مؤبد ، ووثاق ذل موطد ، ومن يكن هذا شعاره يكن الجشع دثاره ، قال عليه الصلاة والسلام (خيار المؤمنين القانع وشرارهم الطامع) وقال الشاعر

طمع الفتى ذل وعزة نفسه ... عز وكم شره يجر إلى شرك

وقصارى القول — أن القناعة رأس الصلاح ، وأس الفلاح ومصدر الفوز والنجاح ، والطمع من أقبح الخلائق ، وأذم العلائق يدل على الأخلاق البهيمية ، والغرائز الرديئة الدنية ، لا يزال صاحبه أبداً مذموماً ، وبأقبح الصفات موسوماً ، قد تملك الجشع طباعه ، فلا تعرض له القناعة ، ولو كانت الدنيا بأسرها متاعه ، بل شأنه أكل الدنيا خضماً وقضماً ، ولو استطاع ما استوجب فيها أحد سهماً

اقنع بأيسر رزق أنت نائله ... واصبر ولا تتعرض للإرادات

فما صفا البحر إلا وهو منتقص ... ولا تعكر إلا فى الزيادات

٢٤٢ – ﴿لا نجاح لأمة نبذت آثار أسلافها﴾

إن أفضل ما استدل عليه الخلف على أعمال السلف ، الآثار المصرية التى هى من أهم الماديات فائدة وأعمها نفعاً من جهة العلوم والفنون فإنها ترشد إلى الوقوف على فن التاريخ وتهدى إلى قديم عهد الأمة المصرية وما لها من الذخائر التى انتفع بها من بعدها وما وضعته من الأساس الذى انبنى عليه التقدم لمن تأخر عنها ، فقد كان لها اليد الطولى على أهل القرون الأولى ، يشهد بذلك ما بقى بعدها من الآثار وما نقل عنها فى كتب الأخبار من الأبنية الجليلة والصنائع الجميلة فان ذلك يعرب عن مزيد قدرتها وشدة مهارتها وعلو أفكارها — هذه الأهرام من الآثار الجليلة التى جعلها المصريون محلا لمعارفهم وأثراً يستدل به من أتى بعدهم من الأمم على ما كان لهم من الأبهة والفخار والعظمة والاعتبار — فهو أثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا اليه من العلوم الهندسية وعلم جر الأثقال وفنون أنواع العمارة ، ويدل بوضعه الذى هو عليه وتوجيه زوياه على أنه أثر فلكى تعين به الجهات وتعرف الفصول والانتقالات فالمصريون كانوا بالغين النهاية فى الفنون الهندسية ، وكل من دخل أرض مصر وتأمل ما بقى فيها من الآثار التى هى من أغرب العجائب يقف متحيراً ويطرق متفكراً ، فلذا اعتنت الحكومة

المصرية بشأن تلك الآثار والحرص عليها وحفظها من أن تتولاها يد التلف والضياع أو يعتريها التغيير والتبديل

وقصارى القول أن بقاء الانسان بالآثار ان خيراً فخيراً وإن شراً فشراً

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار

٢٤٣ — ﴿مضار الغيبة وقبائحها﴾

إن الغيبة أذم الأفعال مقصداً وأخبث الأقوال معتقداً وأسوأ الأخلاق مذهباً وأصعب الاحوال مركباً بل هى الداء العضال الوبائي الفاشى — قال تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) وقال عليه الصلاة والسلام (الغيبة أشد من الزنا ومن شرب الخمر) وقال بعض الحكماء (من عاب وضيعاً فقد رفعه ومن عاب رفيعاً فقد وضع نفسه) فالغيبة (وهى ذكر إنسان آخر بما يكره) شيمة الأوغاد ، وهى مجلبة للخراب والفساد ، وجهد العاجزين وسمار الفاسقين — وليت شعرى — كيف يأكل الانسان لحم أخيه بحية فيه فإن كان من وصفه فيه ما ذكره فقد اغتابه ودحره ، وأظهر قبيحا كان مستوراً وهتك سترا كان مسدولاً وفضح سترا مكتما وأحل أمرا محرما وما رعى ذمة ولا حفظ حرمة ، وإن كان بريئا مما أبان فإفك وبهتان ، وكلاهما تمزيق

أعراض ، وآثام وأمراض وهذا إذا كان الموصوف تقياً لافاسقاً جهنمياً وإلاحلت غيبته واسقطت درجته وهيبته لتهتكه بالمنهيات والمعصيات

ما أقبح الشيم المخلة بالفتى   وأشد منها شيمة الكذاب
وأشد من هذا وهذا أن يرى   لهج اللسان بغيبة الغياب

٢٤٤ - ﴿ مضار الحسد وأسبابه ﴾

ان الحسد أصل كل عداوة وأساس كل بلية ورأس كل خطية وسبب كل ملامة ، وجالب كل ندامة ، بل هو نداء دوى ، وعرض خبيث دنى ، يدل على فساد الدين ، وقلة اليقين ، وما زال صاحبه كدر النفس ، نكد العيش قليل الأنس ، قد فارق القناعة ، وخزل الطاعة ، فهو حليف هموم وغموم ، ظالم فى زى ظالم - قال تعالى (ومن شر حاسد إذا حسد) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال الشاعر

كل العداوة قد ترجى إزالتها   إلا عداوة من عاداك بالحسد

فالحسد (وهو تمنى زوال نعمة المولى عن أحد خلقه) وصف مذموم ، وصاحبه من الخيرات محروم ، وكيف لا وهو كبيرة من الكبائر ، وجرثومة الفساد ، ومجلبة السوء بين العباد ، يجمع خصالاً مذمومة ، ويقتضى أحوالاً منكرة وأسباباً مشئومة ، منها بغض المحسود لغير سبب ، والحقد عليه دون ذنب وجب ، ومنها انكار

الحق وإن ظهر ، وإظهار الباطل وإن استتر ، ومنها الاعتراض للفضيحة ، والتجافى عن النصيحة ، والتصدى لكل قبيحة ، ومنها الامتناع عن جميع ما عند المحسود من الخير وإن كان مفتقراً اليه قال بعض الحكماء : حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها ، ولا يشفيه إلا انتقالها — وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال عند الشرع إلا شدة وهولا ، ولا ينال عند الموقف إلاَّ فضيحة وهواناً ونكالاً

وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً   لمن بات فى نعمائه يتقلب

٢٤٥ — ﴿ العاقل يعول على أدبه . والجاهل يعتمد على نسبه ﴾

أيها الفاخر جهلا بالحسب   إنما الناس لأم وأب
إنما الفخر بعقل راجح   وبأخلاق حسان وأدب

الأدب كلمة جامعة لمحاسن الأفعال ، وأحاسن الأقوال ، وهو أكرم الخصال ورافع الأحساب ، به يحصل المرء على الرغائب الجليلة ويتوصل إلى نجاح المقاصد الجميلة ، يرفع العبد المملوك ، ويجلسه فى مجالس الملوك ، وهو زيادة فى الفضل ، ودليل على العقل ، وصاحب فى الغيبة ، وأنيس فى الوحدة ، وجمال المحافل ، وزينة الأفاضل ، ومن لم يكتسب بالأدب مالا ، اكتسب به جمالا ، ومن قعد به نسبه

نهض به أدبه، والمرء من حيث يثبت، لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد، لا من حيث يولد، وبآدابه لا بثيابه، وبفضيلته، لا بفصيلته. وبعقله لا بعقائله. وبأنبائه لا بآبائه. وبكماله لا بجماله

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى

قال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالنسب ألا ترى أن أخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرف من الآخر. ولو كان ذلك من جهة النسب لما كان لأحد منهما فضل على الآخر. لأن نسبهما واحد: ولكن ذلك من قبل الافعال. لأن الشرف إنما هو بالفضل لا بالنسب

أبوك أبى والجد لا شك واحد ولكننا عودان آس وخروع

وقصارى القول — أن من الناس من يتكل على حسب آبائه فيفتخر به لدى جلسائه وأخلائه. فى صباحه ومسائه. ولا ينهض لمأثره ولا يصبو إلى مخفره بل شأنه أن يقول فى كل مجال. إن أبى كان ذا فضل وجاه. وجود وإحسان حتى سارت بحمده الركبان. وشدا بمديحه كل قاص ودان. وهكذا يبنى أوهامه. ويضيع لياليه وأيامه ومن الناس من يقر بخسة أصل أجداده. حتى ولكنه يفتخر بجده واجتهاده حتى يحاول أن يستر بفضله. ما بدا من عيب أصله. فإذا ذكر لأحد

حسب ، قال لا حسب إلا الأدب ، ولا فخر للمرء إلا بنفسه ، لا بأصله وجنسه ، وهذا القول فى نفس الأمر صواب ، وهو الذى يعتمد عليه كثير من ذوى الآداب ، وهو رأس مال الذين لا حسب لهم ، وعليه يجعلون معولهم ، إلا أنه لا ينكر أن للاصول تأثيراً فى الفروع عظيما فلا تكاد ترى ذا أصل زكى إلا وتتوسم فيه خلقاً وسيماً ، وشأناً كريماً فاذا اجتمع الأصل والفعل واقترنا ، كان ذلك غاية المنى ، وإلا فان الثانى خير من الأول ، وأكرم منه وأفضل

وبالجملة — ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس دون طائفة ولا بأهل حرفة دون حرفة ، بل الفضل صفة تكون بالانسان على قدر ما يحوز من العلم والأدب ، فكما تكون فى المهندسين والحكماء وكما تكون فى التجارة وأهل الصنائع ، تكون فى آحاد الخلق من الفلاحين والصناع ، فليس الإنسان بأصله وحسبه . بل بكمال عقله وحسن أدبه — فكم من امرىء مقطوع النسب . وصل بأدبه إلى أعلى المناصب والرتب . وكم من ذى نسب وأصل هوى به جهله إلى درك الهوان . والذل . وكم من حقير أزال بكمال عقله دناسة أهله وأصله

لكل شىء زينة فى الورى ... وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بآدابه ... فينا وإن كان وضيع الحسب

فالأدب مصباح النجاح وراح الأرواح وظرف اللسان . ولطف الجنان

٢٤٦ – ﴿أيهما أفضل فى بلادنا المصرية الصيف أم الشتاء ؟؟﴾

الصيف خفيف المؤونة . جليل المعونة . كثير النفع . قليل الضر راحة الفقراء والمساكين . ناشر زهور الرياحين . ونبات البساتين

مصيف له ظل ظليل على الورى ومن حلا طعماً وحلل أخلاطاً

يعالج أنواع الفواكه مبدياً لصحتها حفظا يعجز بقراطا

فالصيف فصل الخيرات والبركات . وموسم ضم المحصولات التى هي أرزاق المخلوقات . وأوان تكاثر المعاملات

والشتاء كأس الهناء . فيه تبرد المياه . التي هى مادة الحياة ويتميز الفقير وصاحب الجاه . وينقطع الذباب والبعوض والهوام ويؤمن على الطعام والشراب والأجسام — طول لياليه فرصة الكتاب والأدباء . وسمار الأصحاب والاحياء . وغالباً يتمالك الإنسان صحته في فصل الشتاء

ليت الشتاء يعود لى بنعيمه ان الشتاء غنيمة الكتاب

قصر النهار وطول ليل ممتع فيه يلذ بقينة وشراب

وحيث إن بلادنا المصرية فى أعظم نقطة متوسطة فى القارة الافريقية معتدلة الهواء فى فصل الشتاء . تقصدها السياح من جميع الانحاء . ويحلو للكل فيها كاس الصفاء . لايكاد أحد ينكر فوائد الشتاء فى هذه البلاد — ولا يجهل فرد مضار الصيف الذى تكثر فيه

الأمراض الوبائية لجميع العباد ، وينتشر فيه البلاء المصور ، والهواء الأصفر ، الذى أورث الحكماء الحيرة ، المسمى عندهم بالكوليرة قال بعض الحُكماء : لا مرحباً بالصيف من ضيف ، فهو عون على الحيات والعقارب ، وناشر للذباب والخنافس والمصائب

يتمنى المرء فى الصيف الشتاء   فان جاء الشتاء أنكره
ليس يرضى المرء حال واحد   قتل الإنسان ما أكفره

٢٤٧ — ﴿ صغار الامور يولد كبارها ﴾

ترق إلى صغير الأمر حتى   يرقيك الصغير إلى الكبير

لا يخفى أن الجزئيات أساس المركبات ، والأمور الصغيرة مصدر الكبيرة ، وبقدر الاعتناء بالشىء تكون الثمرة ، فالمعتنى بصغائر الأمور ، يجنى من كبارها الفرح والسرور ، والمهمل لصغائر الاعمال يلعق كأس الذل والوبال — لأن المبنى على الصحيح صحيح ، والمبنى على الفاسد فاسد

لا تحقرن صغيراً فى مخاصمة   ان البعوضة تدمى مقلة الاسد
وفى الشرارة ضعف وهى مؤلمة   وربما أضرمت ناراً على بلد

فيلزم العاقل الاعتناء بالاشياء الصغيرة قبل استفحال الامور الكبيرة الخطيرة ، ولا يسول له الشيطان أنها أمور حقيرة ، فكم آفات طامة كبرى ، ومصائب مدلهمة عظمى ، نشأت من عدم

الا كـترات بصغائر الأمور ، فأمطرت عليهم الخطوب مدرار الشرور

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر

وأعظم شاهد برهان العيان ، الذى لا يختلف فيه اثنان

فكم شاهدنا حروباً خطيرة ، كانت لاسباب صغيرة ، وكلمة بسيطة جرت دماراً ، وخربت دياراً ، وشرارة ضعيفة ، أضرمت ناراً

ولا غرو أن الاستهانة تجلب الندامـة ، ولا ينفع الندم ، حيث زلت القدم ، وإن الاعتناء حصن منيع ، وحرز رفيع ، يتقى به العاقل صدمات الشرور ، ويحفظ نفسه من مخالب الدهور

وبالجملة — إن الحياة مؤلفة من أمور صغيرة شأن كل عظيم فى الدنيا — ولا نجاح فى مطلب من المطالب إلا باعتبار دقائقه الصغيرة ولو لم يكن لها قيمة فى نفسها ، والذين يقصرون نظرهم على كبار الأمور ويهملون صغارها لا يسلمون من الفشل

أى أمر أقل اعتبارا فى عين السياسى المحنك والفيلسوف النقريس ، من تنظيف البيت وما فيه ، ولـكن نظافته تجيد صحة ساكنيه وتحسن أخلاقهم — وأى نفع أعظم من هذا من كل ما ألفه البشر فى السياسة والفلسفة ، واهتمام الناس بصغار الأمور يدل على إهتمامهم بكبارها قال حكيم : محك الرجال صغائرهم الأعمال

٢٤٨ — ﴿ النميمة مصدر الضلال والفساد ﴾

النميمة من أقبح الخلال الذميمة ، تدل على نفس سقيمة ، وطبيعة لئيمة ، مشغوفة بهتك الأستار ، وإفشاء الأسرار ، وربما أدت إلى سفك الدماء ، وانتهاك المحارم ، وهى جامعة بين النم والغيبة

فكل نمام مغتاب ، وليس كل مغتاب نماماً — قال تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين همّازٍ مشّاءٍ بنميم) وقال عليه الصلاة والسلام (شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث) وقال بعض الحكماء . لم يمش ماش، شر من واش وقال الشاعر

تنح عن النميمة واجتنبها ... فان النم يحبط كل أجر
يثير أخو النميمة كل شر ... ويكشف للخلائق كل سر
ويقتل نفسه وسواه ظلما ... وليس النم من أفعال حر

فمن أوجب الأشياء على العاقل الحازم ، أن يحترس من النمام جهده ، ويجتنب مخاطبته ، ويعاف مجالسته ، ويزهد فى صحبته ، ويرغب عن ممازجته ، ولا يثق به فى حال من أحواله ، ولا يأتمنه فى شىء من أقواله وأفعاله ، فان صحبته ضلال ، ومخاطبته خطر

وقصارى القول أن النميمة (نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجه الافساد بينهم) من أعظم الذنوب عند الله تعالى

كيف لا تكون النميمة من أعظم الذنوب ، وأقبح العيوب وهى المفرقة للقلوب ، والباعثة للخطوب ، والمنزلة للكروب

٢٤٩ — ﴿ فوائد البريد « البوستة » والأسلاك البرقية « التلغراف ﴾

المخترعات فى الدنيا كثيرة ، وقد صارت سهلة بعد أن كانت خطيرة وأحسن عظيم اخترع وأفيد شكل غريب ابتدع « البريد » فقد قرب البعيد ، (وجمع شمل الأحباب ، وحفظ روابط الألفة بين الأصحاب ، وبه وقف التجار على حقيقة تجارتهم ، مما راج وكسد ومما هبط وصعد ، لا سيما ما أنجمه السلك البرقى من سهولة تعاطى الأخبار وايصال نتائج الأفكار ، إلى جميع القرى والأمصار ، على تنائى البلاد والديار وبعد المزار ، فاصبحت به البلاد المتنائية وأقطار الأرض الشاسعة والأماكن القاصية متصلة ببعضها حتى تيسر للانسان أن يخاطب صاحبه فى كل جهات الأرض ويخابره ويحادثه مواجهة مشافهة وقربت الصلات التجارية والسياسية ، وسهل على التجار معرفة الأسعار فى جميع الاقطار ، بأقرب من لمح الأبصار

حقاً إنه بواسطة البريد والاشارة الكهربائية فى البر والبحر صارت جميع بقاع الارض متصلة ببعضها ، والأخبار واردة من جميع جهاتها — ففى الاربع والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع جهات المعمورة فما أعظم مخترعات هذا العصر وما أجمل فوائدها

٢٥٠ — ﴿ السباحة فى الماء تبعث على الرياضة والشجاعة ﴾

ان مما يفيد الشبان صحة فى الجسم ونشاطاً وقوة فى الأعضاء والعضلات « السباحة » إذ هى كافلة بالاستحمام وتقوية الأعصاب والأجهزة البدنية ، فإن حركة الذراعين توسع الصدر وتقوى الرئتين لذى الشهيق والزفير — وقد اعتنى بها الأمم القديمة والحديثة بتعليمها للأبناء فكان الرومانيون يجعلون السباحة من جملة العلوم التى تأخذ بها الابناء ، وبلغ شغفهم بهـــا إلى أنهم كانوا يضربون المثل للجاهل الذى لا يعرف شيئاً بقولهم : هو لا يعرف القراءة ولا السباحة وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الأمصار بتعليم الأبناء العوم والفروسية

وترى أغلب سكان أوربا يأمرون الأبناء بتعلمها

فسكان السواحل يقيمون على البحار حمامات مخصوصة للسباحة وأما سكان المدن التى لم تكن على البحار فيقيمون ضمن حماماتهم محلا متسعاً أشبه بميضأة عميقة ومستطيلة لتعليم السباحة أمام معلمين ومعلمات وقد قال أحد فلاسفة اليونان : الصلاة للاديان والنجوم للأزمان والسباحة للأبدان

٢٥١ — ﴿ آثار الرياضة البدنية فى الأمم ﴾

قد ألف جل شأنه بين الجسم والنفس فكل يشارك الآخر فى

أحواله من السرور والحزن والقوة والضعف ، فلا تكاد ترى من ضعفاء الجسم قوة النفس وخفة الروح ومضاء العقل ودوام العمل ومن انصاع إلي الدعة والسكون ، وأجاب داعى الكسل والخمول عاش ولا ريب كثير الأمراض لا يفرح بالوجود ولا يلذ بالحياة .

والحركة البدنية داعية إلى صحة الجسم وإلى نشاطه حيث تبعث فيه قوة على تحمل التأثيرات الجوية ليكون بعيداً عن الأمراض وتكسبه رشاقة القد ، وحسن القوام ، وجمال الأعضاء ، وتحفظ من إرادة الإنسان وتضبط من تخيله ، وتوليه نفوذاً وسلطاناً على الجسم وميلاً إلى العمل والدوام عليه وسروراً بقبول الآثار الظاهرية وارتياحاً إلى مصادمتها . وقد قررت الأطباء أن عمل العضلات يدعو إلى دوران الدم وسيره فى سائر الأعضاء فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنية ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم ، وأن عدم الانتظام فى سير الدم يوقع الجسم فى الأمراض ويضعف أعضاء التحليل وبذلك يجد الانسان من نفسه ميلاً إلى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة ، ويؤدى ذلك إلى عدم القدرة عليها فيما بعد ، وتستولى عليه السوداء ويصير قليل الصبر قلق الخاطر كثير الهواجس ويلحظ الدنيا بعين ملؤها سخط وكراهية إلى غير ذلك من الأمراض الجسمية والعقلية التى تكدر صفو المعيشة وتجعل الحياة مرة .

وكانت الرياضة البدنية لدى الأمم القديمة ولم تزل الآن فى أمم أوروبا أهم موضوع لتربية الأبناء فكانت هى والموسيقى الأساس الوحيد للتربية لدى اليونان ، فالموسيقى لتهذيب نفوسهم وترويحها وتربية ذوقهم الأدبى — والرياضة البدنية لتقويم الجسم حتى تكون صورته مشخصة للنفس المهذبة فى جسم صاحى الحواس نشيط الأعضاء

وكانت العرب كثيرى الرياضة والألعاب دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار ، والزود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وحب النشاط وسرعة إجابة المستغيث ثم إن للرياضة البدنية أنواعا كثيرة كالعدو (أى الجرى السريع) وتسنم الجبال وحمل الاثقال والرمى إلى الهدف ولعب الكرة وركوب الخيل والسباحة والتجذيف وأعمال الفلاحة والصناعة وحركة الجمباز

٢٥٣ — ﴿ تأثير السياحة ماديا وأدبيا وصحيا فى نفوس السياح ﴾

سح فى البلاد اذا أردت تعلما   إن السياحة فى البلاد تفيد

ان ميزان الاخلاق ، ومنهل الارزاق ، ومحيى الأموات في جميع الأوقات ، هو السفر إلى بعيد الاماكن ، ومفارقة المساكن

بلاد الله واسعة الفضاء   ورزق الله فى الدنيا فسيحُ
فقل للقاعدين على هوان   إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

إذ أول مزايا السفر ، معرفة المرء طوائف الرجال واكتساب

حميد الخصال ، فيقارن المرء أخلاقه بأخلاقهم ، وعاداته بعاداتهم فما باين أخلاقهم الفاضلة هجره ، وما شذ عن عاداتهم الكاملة كفره فتنسج أخلاقه على منوال الفلاح ، وتوزن بميزان النجاح وتتحلى بزينة الفضائل ، وتتخلى عن وصمة الرذائل

سافر إذا حاولت قدراً سار الهلال فصار بدراً

وثانى مزاياه أن يعرف أساليب الارزاق ميسورة الوفاق قريبة المنال ، كثيرة النوال ، بعيدة المواقع ، جليلة المنافع ، فالسفر أحد أسباب العيش التى بها قوامه ، وعليها نظامه ،فبالأسفار ترى العجائب وتجلب المكاسب ، تزيدك علماً بقدرة الله وحكمته ، وتدعوك إلى شكر نعمته .

وإن نبت بك أوطان نشأت بها فارحل فكل بلاد الله أوطان

وثالث مزاياه أن يرى الإقرار بفضائله ، وحسن شمائله ، لانه فى بلده مهجور ، وفى غيرها مشهور كما هى سنة الإنسان ، فى كل مكان وزمان ، وفى محله لا تعزى اليه فضيلة ، ولا تنسب اليه جميلة فإذا جاوز الانسان بلاده ، نال ما أراده .

وما بعض الاقامة فى ديار يهان بها الفتى إلا بلاء
وبعض خلائق الاقوام داء كداء البطن ليس له دواء
ولم أركامرىء يدنو لخسف له فى الارض مكث وانثواء

فالماء العذب إن ركد خاب ، وإن جرى طاب

الماء ينتن إن أقام وإن جرى　　　خلصت جواهره من الأقذار

٥٢٣ — ﴿ ورق النصيب ومضاره ﴾

أمر النصيب معروف عند العامة فضلاً عن الخاصة ، وهو بالحق فكرة إبليسية يقصد بها ابتذاذ الأموال بإغراء وإغواء ، فمن الناس الذين لا عقل ولا دين لهم يطلبون السعادة من يد البخت والنصيب لا من يد الكد والتعب ، ولا يلتفتون لقول الشاعر العربى

ليس الحياة بأنفاس نرددها　　　إن الحياة حياة الفكر والعمل

ويعتقدون أن القدر أضمر لهم حظوظهم : فيفحصون عن هذه الحظوظ إن سعادة أو شقاء فى أوراق النصيب وغيرها من أنواع القمار

ومعلوم أن العيش لا ينال إلا بعرق الجبين ، لأنه يستحيل أن يحصل كل إنسان رزقه من أرباح النصيب وإلا فمن يقوم بالأشغال الأخرى ، التي عليها مدار البقاء وبها حركة المجتمع الانسانى وبالجملة — فتحريم (ورق النصيب) كتحريم (الميسر) واتخاذها وسيلة لجمع الصدقات عمل غير مأجور ولا مبرور ، ولا مقبول عند الله تعالى ، والذنب فيه على المتصدق مضاعف ، لأنه يتصدق بحرام ويطعم المتصدق عليهم حراماً وهم لا يعلمون (ليتها لم تزن ولم تتصدق)

٢٤٥ ـ ﴿ الاستقامة من أقوى أسباب النجاح ﴾

الاستقامة هى الاعتدال فى جميع الأمور ، من الأقوال والأفعال والمحافظة على جميع الأحوال ، التى تكون بها النفس على أفضل حالة وأكملها ، فلا يظهر منها قبيح ، ولا يتوجه اليها ذم ولا لوم ، وذلك إنما يكون بالمحافظة على الشرع الشريف والتمسك بالدين والوقوف عند حدوده والتخلق بالأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة كاجتناب المحارم والتعفف عن المآثم ولين الجانب والصدق وإنجازالوعد و بذل النصيحة والشفقة على مخلوقات الله وأداء الأمانة لمن ائتمنه منهم وكف اليد واللسان عن أذيتهم و بذل الشفاعة والعفة والورع وغير ذلك ـ قال تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فهى من أفضل الخصال وأجمل الخلال فيها كمال المروءة وتمام الإيمان وبها تكسب الفضائل وتسلب الرذائل وتحمد السيرة وتحسن السريرة قال تعالى (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) فما أحسن الاستقامة وأجلبها للخير وأدرها للرزق . قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

حيثما تستقم يقدر لك اللّـــهُ نجاحا فى غابر الأزمان

فالاستقامة قاعدة نظام الاعمال ، فاذا انتفت اختل ذلك النظام

وعلى مبدئها الصحيح تروج تجارات التجار ، وتجرى أعمال جميع العمال وأصحاب الأعمال فى سبلها — ومهما كان المرء شريراً وكان مستقيما فى معاملته دار دولاب عمله .

وبالجملة — إن آمن طريق يسير فيها من يرمى إلى العلا هى طريق الاستقامة والقيام بالواجبات ، طريق الهدى والابتعاد عن اللهو واللعب — هى الطريق التى سار فيها الذين سادوا بحق — هى الطريق التى نزلت بها الشريعة الغراء .

٢٥٥ — ﴿ الفحم من لوازم الحياة الضرورية ﴾

الفحم جسم صلب هش سهل السحق أسود اللون ، ويكون إما بتقطير الخشب أو إحراقه فى الهواء المطلق إحراقا غير تام ، كما هي عادة تحضيره ، وإما بتكليس أى إحراق العظم فى إناء مغطي ويكون الفحم ثقيلا متى كان متحصلا من الخشب الصلب الكثيف وخفيفاً متى حصل من الخشب الأبيض الخفيف ، ويختلف احتراق الفحم باختلاف خفته وكثافته ، فكلما كان خفيفا سهل احتراقه والتهابه ، وبضد ذلك إذا كان كثيفا ، ولذا يستحسن استعمال الفحم الخفيف لعمل البارود .

وأما المضار التى تتسبب عن احتراق الفحم ويجب التحرز منها فهى إذا أحرق الفحم فى حفر النار أو فى المناقد تولد عن ذلك غاز

يسمى أوكسيد الكربون — وذلك إن كان مقدار الفحم المتقد زائداً أو تولد عنه غاز حمض الكربونيك إن كان مقداره قليلا أو تولدا معاً وكلاهما سم قتال ، فإن بهما أو بأحدهما تحدث آلام فى الرأس وثقل ودوخان ، وابتداء اسفكسيا (أى اختناق) وذلك كله إن كان إيقاد الفحم فى محل محبوس الهواء ، وليس الهواء متجدداً فيه ، وإنا نرى كثيراً من أرباب البيوت يستعملون الفحم وقوداً فى بيوتهم للتدفئة فى زمن الشتاء خصوصاً فى المحال المحبوسة الهواء كالخزائن الصغيرة والمناظر والحمامات — فالذى ينبغي لهم في هذه الحالة أن لا يدخلوا الفحم المتقد فى موضع من المواضع المذكورة إلا بعد أن يلتهب جميعه فى الهواء المطلق ويصفو بحيث ينقطع دخانه وبذلك يكون الإنسان آمناً على نفسه من مضراته الهائلة وغازاته القاتلة .

وأما منافع الفحم فعديدة — منها استعماله وقوداً فى البيوت وفى الصنائع ، ومنها دخوله فى تركيب أنواع البارود ، ومنها امتصاصه المواد الملوّنة والغازات (خصوصاً الفحم النباتى) بواسطة مسامه أى أخليته الكائنة بين جزئياته وهذه الخاصية صيرته نافعاً فى الصنائع لإزالة المادة الملونة من بعض المحاليل كما فى صناعة السكر وكما فى الأعمال الكيماوية ولإزالة العفونة من السوائل والأطعمة ، فإذا وجد الماء منتناً وأريد زوال عفونته واستعماله للشرب أو خلافه

يرشح على طبقة من الفحم . وإذا أنتن الطعام وجعل الفحم فى خرقة نظيفة وأغلى مع الطعام أزال عفونته وصيره صالحاً للأكل ، وكذلك ينفع الفحم لحفظ المـاء من التعفن — ولذا تجد البراميل المعدة لحمل المـاء فى السفر يطلى باطنها بالفحم خفيفاً لتحفظ المـاء من التغير زمنًا طويلًا ومن منافعه أيضًا حفظ المواد العضوية من التعفن . وله استعمالات طبية باطنية وظاهرية وغير ذلك والله أعلم .

٢٥٦ — ﴿ الهواء حق مكتسب لجميع العالم ﴾

بديهى أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بدون الحصـول على مقدار معلوم من الهواء ، فهو غذاء ضرورى به تنعش القوى وتتنبه الحواس ، وضرورته كضرورة الطعام والشراب بل أهم لأن الإنسان يمكنه المكث من غير أكل أياما ولا يمكنه الاستغناء عن استنشاق الهواء لحظة — قال بعض الحكماء : كيف يكن الهواء يكن الدم وكيفما يكن الدم تكن الصحة . وقال بعضهم : إن زهرة الإنسان أحوج الأزهار إلى الهواء والشمس — ألا ترى أن سكان الأرياف مع عدم جودة غذائهم أصح من سكان المدن أبدانًا وأقوى أعضاء وما ذاك إلا لجودة الهواء الذى يعيشون فيه .

نعم إن الهواء من أجل النعم التي أنعم الله بهـا على جميع المخلوقات ، لشدة لزومه للحيوانات والنباتات ، إذ مدار حياتهما عليه

بحيث لو انقطع عنهما مدة وجيزة لمات الجنسان بلا توان .

ومعلوم أن الانسان قد يعيش أكثر من شهر بلا تناول طعام وبضعة أيام بلا شرب ماء ، ولكنه لا يعيش أزيد من خمس دقائق تقريبا إذا انقطع عنه الهواء — ولما كان الهواء من الضروريات الشديدة اللزوم حياة كل ما أوجده الله تعالى من حيوان ونبات ، جعله عاما منتشراً فى جميع المحال ، فلا يخلو منه موضع ، حتى ما نظنه فارغا مثل الإناء الذى ليس فيه ماء ولا غيره فانه فى الحقيقة ليس فارغا بل مملوءاً بالهواء .

ومن كرمه سبحانه وتعالى أن جعل وجوده سهلا لا ندفع له عوضا ولا نبذل له ثمنا .

٢٥٧ — ﴿ تأثير التمثيل الجدّى فى المدنية والحضارة ﴾

التمثيل مرآة ترينا أطوار الأقدمين ، فى أشباح المتأخرين ، وتاريخ يطلع فيه الخلف ، على عوائد السلف ، بل حلم فى يقظة ، نرى فيه أحوال الأجيال الغابرة ، في الآونة الحاضرة ، وعظة بأغرب العبر ، لقياس ما يأتى على ما عبر ، بل هو صورة تظهر فيها العواطف والأخلاق مرسومة بمداد الملامح والأحداق — ففى المشهد يتجسد ملاك الحب وتتآنس آلهة الجمال ، متسربلة بحلل الكمال ، وفى المشهد تتجسم الفضيلة والرذيلة وتتناظران . ويشخص الوفاء والاخلاص والعفاف وكل سجايا الانسان فما التمثيل الجدّى إلا معرض تستعرض فيه العواطف

والفضائل والرذائل والعوائد والأخلاق ، فكما يبتهج النظر باستعراض المناظر الجميلة هكذا تبتهج النفس باستعراض العواطف الواضحة فى صور الملامح البدنية — ولا يخفى أن العواطف تتفاهم بلغة الملامح ، فبقدر ما يجيد الممثلون فى إظهار إحساساتهم وانفعالاتهم المقتضية أدوارهم يتأثر المشاهدون وتتحرك عواطفهم تبعاً للملامح الممثلين — فالتأثر من التمثيل غير متناه لأن الإجادة فيه غير متناهية أيضاً ، ولهذا لا نعجب إذا رأينا الحاضرين فى الملعب يذرفون الدمع مدراراً إشفاقا على الممثل ، إذ يمثل دوراً محزنا ، أو يطرقون فرحاً مع الممثل إذا كان فرحا مسروراً لأن العواطف تحاكي نظراءها — ألا ترى أنك تبكى مع الباكين وإن لم يكن الداعى إلى البكاء لا يعنيك ، وترثى للتعساء وإن كنت سعيداً ، وتفرح مع الفارحين وإن كنت لست من ذوى الفرح .

وبالجملة — التمثيل الجدى من أعظم البواعث على تأديب النفس وحسن تهذيبها ، وبذلك كبرت فوائده ، وعظمت مزاياه التى لا تحصى ولا تستقصي .

٢٥٨ — ﴿ الاستمرار والثبات فى الأعمال سبيل النجاح ﴾

الثبات فى الأعمال يكون بالمثابرة عليها ، ومقابلة الأهوال والمشقات والصعوبات التى تعرض له فى أثناء سعيه وراء النتيجة المقصودة له من تلك الأعمال بقلب ثابت وعزيمة صادقة ، حتى يحصل

عليها ، وينال أمنيته منها ، فإذا عرض له ما يظن معه صعوبة الوصول إلى النتيجة المطلوبة له ، فلا يكون ذلك حائلا دون الاستمرار فى العمل ، فإنه لاصعب مع الاجتهاد ، وتوجه النفس والرغبة فى ذلك الشىء المطلوب ، كل ذلك مع تدقيق النظر والفكر ، والتؤدة فى العمل وتخير الوقت المناسب في الحالة المناسبة ، وعدم الميل إلى جانب الافراط فانه ممل ومتعب ، ولا إلى جانب التفريط لعدم نجاح العمل معه فمن لازم الثبات بهذه الكيفية وجعله أساساً فى سائر أعماله كانت السعادة إحدى خطيانه ، والنجاح أسير خطواته ، والفلاح قرينه والعز بيتاً هو قطينه ، ومن استفزته الأهواء ، وطوحت به الحوادث فاشتغل كل يوم بعمل وكد غير حكيم ، واجتهد غير عليم ، فلا شك أنه لا يجنى غير الشقاء ، والتعاسة والعناء بدون ثمرة تعود عليه ، أو فائدة ترجع إليه .

فالثبات هو الاستمرار فى العمل بلا انقطاع عنه إلى البطالة وفى الأقوال المأثورة (الثبات عنوان النجاح) ولا شك فى أن الذين نجحوا هم الذين ثبتوا فى أعمالهم ولم يضيعوا أوقات العمل فى اللهو والبطالة

وبالجملة — فالدنيا ميدان تتسابق فيه الهمم ، وتتبارى عليه الأمم فمن سبق فاز بالحسنى — وكانت يده فى هذا الوجود هى العليا ، ومن قصر وونى ، كانت يده هى الدنيا ، وعاش عيشة الأذل الأدنى ، وإنما

ينال السبق بالثبات والصبر ، وعدم التقلب والضجر ، وليس فى الوجود عمل إلا ويحتاج إلى الثبات بنسبة ما فيه من المشاق ، ولا يحول دونه من العوائق التي لا يزيلها إلا المثابرة عليه والثبات له — وفى الحقيقة والواقع ، ما أفاض نور العقل على نفس الإنسان من هدى ، وما حرك الآمال ، فدفع بالرجال إلى جلائل الأعمال ، فتناولوا أسرار الطبيعة من كبد السماء ، واستخرجوا كنوز الغنى والثروة من بطون الأرض وما عمر الأرض وأحياها ، وشيد دعائم المدنية وبناها ، وما مكن فى النفوس رغائب الحياة ، فتنافست بمحاسن الأعمال ، واستمسكت بعروة الجد ، فبلغت منتهى الكمال إلا بالثبات الذى هو قوة فى النفس تحتاج إلى سبق الإرادة وصدق العزيمة مع التصميم الذى لا يشوبه التردد فى الرأى

وما قام لوجود البشر وجود ، وقرب طريق السعادة للانسان كالثبات — وفى المثل : من ثبت نبت ومن صبر ظفر .

والمتصفح صفحات التاريخ يجد أن الثبات من أهم دواعى سيادة الأمة الإسلامية على الأمم ، وترقيها فى معارج المجد .

وهكذا الحال أيضاً فى كل أمة كان الثبات رائدها ، وقوة العزيمة سندها ، وهل ظهر أفراد الرجال إلا بالثبات ، وهل خدمت المدنية قوة كالاختراع والتفنن بالابتداع ، وإنما هي قوة لا تصدر عن غير أهل الثبات لما يلاقونه فى سبيل العمل من المصاعب والمتاعب التى لو خالطها

شيء من الملل والتردد لما نجح أربابها ، ولخاب عمل أصحابها ولكن بالثبات بلغوا أقصى الغايات .

ولقد بلغ الثبات عند الأمم الغربية مبلغا عظيما ، به خدموا بلادهم ، وأخرجوها من ظلمات الجهالة إلى نور المدنية ، وتحملوا لأجله المكاره والمشاق وأنواع العذاب ، وسوقهم إلى السجون وإذاقتهم كأس المنون .

٢٩٥ — ﴿ القمار معول الخراب والدمار ﴾

القمار مصيبة عظمى ، وطامة كبرى ، وهو داء عضال ، سرت سمومه فى عروق كثير من الرجال فأضاعت نعمتهم ، وسلبت ثروتهم فاضمحل أمرهم ، وسقطوا عن مراتب الجاه إلى أسفل درجات الذل والهوان ، وأصبحوا على قوارع الطرق يتسولون — قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) .

أخسر خلق الله منا صفقة   من يطلب اليسر بلعب الميسر
يجنى حراماً ان جني وقلما   يبلغ الا حسرات المعسر
فغنمه جرم وأما غرمه   ففقد ميسور وفقر موسر

فالميسر مهلكة للأمم ومضيعة للدين ، فكم خرب من قصور وكم التهم من أموال — كيف لا وأن المقامرة تقود إلى كثير من الرذائل لأن الرابح يستفزه الربح إلى امتطاء متون الشهوات فيخوض عباب اللهو والبطالة ، ويندفع إلى حمأة الرذائل ، فيخسر صيته وصحته وصلاح أخلاقه وإسراف أمواله .

فالمقامر سواء ربح أم خسر لا بد له من الانفاق من ماله الحرام ومال الحرام أثقل من الزئبق إذا وضع فى الجيوب فلا يلبث أن يفتقها وينتثر منها — وهكذا مال المقامرين تراه يجول بين جيوبهم .

ففى الصباح ترى أكياسهم ملأى بالأصفر الرنان حتى إذا تتبعتهم فى بحر النهار وآناء الليل تراهم يحسبون دنانيرهم وإذا هى فى الأكياس كالثمالة فى الكاس ، فتأخذك الدهشة ويستوقفك العجب ، ويجول فى ضميرك سؤال (أين ذهب الذهب) ومما لا شك فيه أن القمار معول الخراب ، الذى لا يحب ولا يستطاب ، فهو رسول الفاقة الذى ينزع البركة ، ويعطل الحركة ، بل هو الموت الأحمر ، والعار الأكبر ولاعبه فى الهيئة الاجتماعية لا يذكر ، لأنه عار من الآداب والفضائل ملبس بالجرائم والرذائل ، ساقط المروءة والهمة ، عديم الشرف والذمة

لكل نقيصة فى الناس عار وشر معائب المرء القمار
هو الداء الذى لا برء منه وليس لذنب صاحبه اغتفار

وبالجملة — إن لكل داء دواء إلا المقامرة فإنها أعيت من يداويها وذلك لأن الانسان يميل بالطبع إلى اللهو على شغفه بتحصيل المال والثروة عفواً — فإذا لاح له بارق الأمل من خلال البخت والنصيب وكان فى يده ما يسعفه على إجابة سؤال النفس الأمارة بالسوء ارتطم فى هذه الورطة — وسواء ربح أو خسر فهو لايزال مواظبا على اللعب ، آملا تعويض الخسارة أو زيادة الربح حتى تصير المقامرة فيه ملكة راسخة متمكنة لاتقوى عليها نصائح الناصحين ونواهى الشرائع والدين ، فهى كالداء العضال لاينجع فيه دواء حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وجنون المقامرين فنون ، وقصصهم عجائب وغرائب وهم منتشرون فى كل مكان ، معروفون فى كل زمان ، مقذوفون بكل لسان ، محكوم عليهم فى كل الشرائع والأديان ، وهم مع ذلك لايرعوون ولا يزدجرون فان القمار كان من قبل منتشراً كثيراً بين الرومان .

فالمقامرة تخلب العقول فلا يبصر المقامر الهاوية تحت أقدامه لأن بريق الذهب يبهر نظره فهو كالظمآن فى الفلاة يرى السراب فيظنه ماء فيجد السير اليه ولا يزداد إلا ظمأ وكلما قرب منه ابتعد عنه حتى يعتريه الكلال فيهلك — وعلى هذا النحو يجد الذى يحضر اللعب من نفسه دافعا يحمله على اقتفاء أثر غيره والتحدى بأصحابه ، وهو

يرى من خلال الأمل بريق الثروة والسعادة فكم من رجال حضروا مجالس المقامرة لمجرد رؤيتها فعادوا من أكبر المقامرين — ومن لعب مرة اضطرمت فيه محبة اللعب حتى لا يعود يقوى على دفعها ، ولذلك قيل « المقامرة لجة يغرق الغائص فيها لامحالة لأنها لاقرار ولا ساحل لها — ومما نقش على باب أحد بيوت القمار « لهذا الكهف بابان باب الأمل وباب الإثم والهلاك يدخل اليه من الأول ويخرج من الثانى » فالمقامرة لاسبيل إلى اجتناب ضررها إلا بالابتعاد عنها وأفضل طرق الوقاية منها مجانبة الكسل والبطالة والبعد عن بيوت المقامرة ومصاحبة المقامرين — وهذه ذكرى للغافلين وتبصرة للعاقلين

٢٦٠ — ﴿ فوائد الاجتهاد ومضار الكسل ﴾

الاجتهاد حياة البلاد وأس نجاح الأعمال الوسيلة إلى ارتقاء درج الكمال فكم وضيع باجتهاده صار رفيعا وكم أمير بكسله أصبح وضيعا فمن اتخذ الاجتهاد شعاراً وواظب عليه وتعوده دثاراً توج بتاج السعادة ورزقه المولى الحسنى وزيادة .

وإذا هممت بأى أمر فاجتهد فيه فان لكل مجتهد نصيب

والكسل والترفه والتعود على كثرة القعود وترك العمل مضر بالجسم ووظائف أعضائه ومؤد إلى ضعف العصب واسترخاء العضل لأنه موجب لضعف الحركة العضوية وانحطاط القوة الحيوية فيكون

سبباً لبلادة الذهن وخمود وظائف البدن

على كل حال فاجعل الجد عدة تقدمها عند النوائب فى الدهر
فان نلت حظًّا نلته بعزيمة وان قصرت عنك الحظوظ فعل عذر

وإن الكسل سبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيبة للأمل

لبس البطالة والكسل بالجالبين لك العسل
فاعمل فان الله قد حث المطيع على العمل

ومنشأ الكسل عدم تربية الأبناء بتحسين أحوالهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وتعويدهم من الصغر على الأشغال ، والتجلد على المشاق وتدريبهم على اكتساب فضائل الرجال ، وهمة الأبطال ، وتنوير عقولهم ، وإرشادهم لما فيه صحة أبدانهم ، وحفظ أمور دينهم ، خصوصاً بترك محبة شهوة البطن ، ولا يتمع صاحبها بالعيش الهنىء وتكون سبباً لضعف الهمة وقلة المروءة ، إذ لا يخفى أن العدد الأكثر من الكسالى ، إنما جاءهم الكسل من الافراط فى المأكل والمشرب ولذا قال عليه الصلاة والسلام (لا تميتوا القلوب بكثرة الأكل والشرب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء)

فنحن كسالى فى أعمالنا ، وفى أقوالنا ، وفى أفكارنا ، وفى رياضتنا نحن كسالى فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها — نحن كسالى فى الجد وكسالى فى الهزل ، وكسالى أمام المصائب وأمام الأفراح وتلقاه

النافع وإزاء الضار — نحن كسالى فى الصباح وفى المساء — نقوم من النوم كسالى، ونذهب إلى النوم كسالى ونعيش بين هذين الوقتين كسالى — انظر إلى تاريخ حياة كل فرد منا تجده مملوءا بالأكل والشرب والنوم والأقوال الفارغة — وقد لا تجد فى صحيفة واحدة من صحف أحدنا عملا يذكر

وليس المقصود أن نعمل ما فوق الطاقة ، أو أن نأتى بالعجائب والغرائب ، بل أننا نعمل الأعمال العادية التى بدونها لا يمكن الحفاظ على سلامة الجسم وصحة العقل — فعيبنا الكبير الذى يشاهد بوجه التقريب عاماً بيننا ، ويكاد لا يخلو منه أحد ، وإن كان يختلف قلة وكثرة هو الكسل

وقصارى القول — أن الاجتهاد استفراغ الطاقة فى تحصيل أمر مستلزم للكلفة والمشقة — والعمل والاجتهاد فى كفتى ميزان

إذا خف الاجتهاد هبط العمل ، ومتى أصيب المرء بداء الكسل ضعفت همته ، ووهنت عزيمته ، وأصبح لا يستطيع العمل الحقير ، بعد أن كان يتقاعد عن العمل الخطير فقط ، وأصبح آخر القوم فى سبيل الحياة وعاش مرذولا

شمر وجد لأمر أنت طالبه إذ لا تنال المعالى قط بالكسل

٢٦١ — ﴿ خزان اصوان وما جلبه من المنافع العامة للزراعة ﴾

إن أرض مصر من أهم الأراضى الزراعية . فلذا منحها المولى تبارك وتعالى ماء عذباً (ماء النيل السعيد) وحفظاً لهذه الميـاه من ذهابها سدى فى البحر الأبيض المتوسط شيد خزان عظيم فى أصوان ليعم الرى جميع أراضى القطر المصرى ، وحينئذ سهل زرع الأراضى العالية مرتين بعد أن كانت تزرع مرة واحدة فى كل سنة — ولتحفظ البلاد من الشرق والغرق ، وتـكثر الفائدة وتنمو الخيرات ، وتنشر البركات ، وتزيد المحصولات ، وتقدم التجارات ، ويرتقى الشعب ويمحق اسم السلب والنهب ، ويعيش كل فرد سعيداً ، يودع عيداً ويستقبل عيداً .

وفى الحقيقة والواقع لما كان النيل الذى هو قوام الحياة فى هذه البلدان عليه مدار الخصب والعمران ، اعتنت به ولاة الأمور وسجنته بقناطر هائلة تنزله بقدر مقدور فى أوقات مخصوصة بانتظام ، كفلت الراحة للخاص والعام .

أخزان مصر أنت أم هرما مصر ... أجل وأسمى فى المـكانة والقدر
وهيهات ما اهرام مصر وان سمت ... بأرفع رأساً من حضيضك لو تدرى
وما أنت خزان المياه وطميها ... وأبليزها بل خازن الدر والتبر
تدفقت بالخيرات من كل جانب ... وجمعت أقطار المنافع فى قطر

وحينئذ تسنى للحكومة بذلك أن توزع مياه النيل الذى هو روح حياة مصر وسبب سعادتها توزيعاً عادلا ، وأن تحفظ مازاد من حاجاتها فى وقت الفيضان إلى أيام انخفاط مياهه وقصوره عن رى ما ارتفع من واديه ، وبذلك أمكن المصريون أن يزرعوا أراضيهم عدة مرات فى السنة الواحدة وأن ينتفعوا بثمرات جهات ما كانوا ينتفعون بها من قبل — فازدادت ثروتهم واتسعت تجارتهم وغنيت حكومتهم — ولعمر الحق أن واحداً من تلك الخزانات التى تتدفق مياهها بالخيرات عند أولى الالباب لخير من ألف هرم ، فشتان ما بين آكام ضيع فيها نفيس الزمن ، وقوى الرجال، وقناطير الاموال ،وبين كنوز الذهب وعيون النشب ومواحق الجدب وطلائع بشائر الخصب

٢٦٢ — ﴿ تأثير المطابع فى انتشار العلوم والمعارف ﴾

الانسان يفتقر إلى ثلاثة أغذية — غذاء النفس وهو العمل الصالح وتقوى المولى تبارك وتعالى ـ وغذاء الجسد وهو ماطاب وحل من نبات وحيوان ـ وغذاء العقل وهو العلم والمعرفة . وهذا الغذاء الاخير مفضل على الغذائين السابقين إذ به يمهد السبيل اليهما ويقتدر المرء على إتقانهما فضلا عما يستفيده من رفعة الشأن وحسن الحال فى المبدإ والمآل

ولم يتيسر العلم للانسان ولا عمت منافعه حتي تمكن من إثبات

خواطره على القرطاس و نقل مايكنه صدره إلى ما بين أيدي الناس وكان لأول عهده فى الكتابة يقاسى المشاق فى حفظ ما يكتب وادخار مايقتبس من شوارد المعارف وشتات العلوم، وكان القدماء إذا أرادوا أخذ علم من العلوم طووا البيد والقفار ، وتجشموا الأخطار تقرباً ممن أحرز العلم وامتاز به . ولم يكن من سبب يدفعهم إلى مقاساة عناء الاسفار إلا قلة الوسائط التي تساعد على نشر العلم وبثه فى جميع أنحاء المعمورة ليستفيد منه كل قاص ودان ، واستمرت الحال على هذا المنوال ، إلى أن حنت دواليب المطابع حنين الناقة على الفصيل ،وأخذت تدر للانسان أَلبان العلوم والمعارف

ان المعارف للرقي وسائل — لا تبصر الاشياء بلا أعيان
واذا المعارف أشرفت فى أمة — نالت أمانيها بغير توان
ان المطابع للعلوم وسيلة — والشمس لم تحتج الى برهان

وقصارى القول — أن للمطبعة أياد تذكر فتشكر . وللخط مساوى لا تغفر ، اذ الخط يعتريه التحريف لغير جناس ، والطبع ينتج الصحة بدون قياس ، والناسخ أسير النقل ، وذو الطبع ينسج على منوال الفضل ، والمطبعة تعمل فى بضع أيام . مالا يعمله الكاتب فى أعوام ولعاب القلم يمحوه اللسان ، وأثر الطبع لا يغيره الزمان ، فذاك كالنقش على التراب ، وهذا أثبت من الوحى فى الصم الصلاب ، وثمرة الخط

تجنى بيد المال الكثير ، وزهرة الطبع يشمها الغنى والفقير والخط لو كان أنفاً لكان أجدع ، والطبع لو كان شكلا لكان مربعاً والخط لو كان جماداً لكان حجراً صلداً ، والطبع لو كان جوهراً لكان جوهراً فرداً

٢٦٣ — ﴿الحديد أنفع أم الذهب ؟؟﴾

الحديد فيه منافع للناس ، على اختلاف الأجناس ، منه تصنع السكك الحديدية والأسلحة والآلات الحربية والأدوات الزراعية والسفن البخارية ، بل متوقفة عليه كافة المنافع العمومية — كيف لا هو الحافظ للارواح البشرية ، والقاهر للاعداء ، والحاكم بين الملوك والامراء — قال تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وحينئذ فهو أنفع من الذهب الذى يستعمل فى الحلى للزينة ، ويستعمل نقوداً للمعاملة ، ويمكن أن يستغنى عن ذلك بعملة الورق المستعمل الآن وخلافه — بخلاف الحديد فلا يمكن لاحد ما الاستغناء عنه بحال من الاحوال ، إذ منه الكبارى والجسور وآلات الحرث والرى والزرع والحصد والطحن وسقوف المنازل وهلم جرا من كل ما تتوقف عليه مصالح العباد فى كل زمان ومكان

٢٦٤ — ﴿الحلم أشرف الاخلاق الطاهرة﴾

الحلم من أكرم الخلال ، وأتم الخصال ، وأفضل شمائل الرجال

وأعلى مراتب الكمال ، وهو أصل من أصول الدين ، وحصن من حصون الإيمان حصين ، وركن من أركان الشرع متين ، من استند إليه ، وتمسك به ، واعتمد عليه ، استنارت له الظلم ، وأمن عثار القدم وعصم من مواقع الندم ، وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس و بعد الهمم ، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم ، يسمو بصاحبه فى الدارين إلى أرفع الرتب ، ويطفىء من الانسان جمرة الغضب

قال تعالى (إن ابراهيم لحليم أواه منيب) وقال عليه الصلاة والسلام (تعلموا الحلم قبل العلم فما جمع شىء لشىء أحسن من علم إلي حلم)

ألا إن حلم المرء أكرم نسبة ... يسمو بها عند الفخار حليم
فيارب هب لى منك حلماً فانني ... أرى الحلم لم يندم عليه كريم

والسفه من الشيم المبغوضة ، والخلال الرديئة المرفوضة ، الدالة على خسة الطباع ، وشمائل الأوضاع . وصاحب السفاهة لا يثبت على حال ، ولا يقف على حقيقة من الأقوال والأفعال ، قال تعالى (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه) وقال بعض الادباء من غرس الغضب فى أرض السفاهة شجراً ، وأرسل عليها العجلة مطراً ، اجتنى منها الندامة ثمراً ، ولم يعدم فى عواقبها ضرراً ، وقال الشاعر

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
حلمت على السفيه فظن أنى ... عييت عن الجواب وما عييت

وبالجملة — فالحلم (وهو سكون النفس عند دواعى الغضب مع ترك الانتقام) من أشرف الأخلاق وأكرمها ، وأعلى مراتب الكمال وأعظمها ، يبلغ صاحبها ذروة المجد ، ويكسبه جميل الحمد ، به يصون الإنسان عرضه ، ولا ينال منه السفيه غرضه ، ولا يكون الانسان حليما — إلا إذا كان عالما عاقلا صبوراً جامعاً بين عظم القدر ، وسعة الصدر ، مترفعا عن السباب ، فإن ذلك يدل على شرف النفس وعلو الهمة ويدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف ، واحتمال السفيه خير من مشابهته والإغضاء عن الجاهل خير من مناضلته ، به تكثر الأنصار ، وتدفع الأشرار ، فمن غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم — قال الأحنف ابن قيس : ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث : إن كان فوقى عرفت له فضله ، وإن كان مثلى تفضلت عليه ، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه .

٢٦٥ — ﴿ لا تكن لينا فتعصر ولا يابسا فتكسر ﴾

لكل إنسان غرائز شتى مختلفة كالحلم ، والجود ، والبخل والسرور والحزن ، والغضب ، والرضا ، واللين والشدة ، وهلم جرا والمتصرف فى تلك القوى والحاكم بينها بالقسط واضعا كلا موضعه هو « العقل » فيه تدرك مواضع « اللين والشدة »

فاللين سهوله الأخلاق فى جميع المعاملات . والشدة قسوة

القول والفعل فى كافة الصفات ، ومن بنى جميع أعماله على إحداهما ألقى بنفسه إلى الهلاك والضلال ، وباء بالخسران والدمار والوبال ، ومن قرأ التاريخ يرى العجب العجاب ، ويقف على أسباب التغير الناتج من إحداهما والانقلاب . هذا الحاكم بأمر الله الفاطمى اتخذ الشدة عادته فى جميع أعماله ، وسائر أحواله ، فوقع فى ارتباك شديد

وهذا المنتصر بن الظاهر الفاطمى اتخذ اللين ديدنه ، والسهولة شيمته ، ولذا كان لا يبالى بما يقع فى الدولة من الأخطار الجسيمة فانتشر الفشل فى الرعية ، ووقع النزاع بين جيشه ، وقامت الحروب فى البلاد ، واشتد القحط ، وأكل الناس بعضهم بعضاً ، حتى ابتاعوا الكلاب والقطط بعشرات الدنانير — وقلما كانت توجد .

وهذا اسكندر ذو القرنين وضع الشدة فى موضعها ، واللين فى موضعه ، فبشدته غلبت فئة اسكندر القليلة فئة (دارا) الكثيرة وملك البلاد ، وقهر الأجناد ، وبلينه ملك القلوب واستقام له الملك

فما أحسن من وضع كلا فى موضعه ، وأنزل كلا فى درجته وموقعه

أرى اللين ضعفاً والتشجع هيبة ومن لا يهب يحمل على مركب وعر
وما كل حين ينفع الحلم أهله ولا كل حين يدفع الجهل بالصبر

ومن قصرت بصيرته ، وزاغت عقيدته ، فلم يهتد للصواب ، ولا يعرف من أين يطرق الباب ، ولم يميز بين من يقومه الحسام ، وبين من

يصلحه الكلام ، فالاولى به سلوك طريق اللين فقط ، اتقاء من شدة الاخطار ، والوقوع فى المصائب والمضار . ولذا نرى كثيرين اتبعوا خطة اللين لانه أقوى تأثيراً فى النفوس ، ولانه خير الامرين ، وأقوم الطريقين ، وأعدل الحكمين . قال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذوحظ عظيم) وقيل الماء مع رقته ، فتت الحجرمع شدته

ولى فرس للشر بالشر ملجم ولى فرس للخير بالخير مسرج
فمن ام تقويمى فانى مقوم ومن رام تعويجي فانى معوج
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتى إلى الحلم أحوج

٢٦٦ — ﴿ما هو الغرض من قدوم السياح إلى بلادنا المصرية﴾

بلادنا المصرية أحسن البقاع تربة وهواء ، وأصفاها سماء وماء وأوسعها مرتعا وفناء ، وأقدمها فخراً وآثاراً ، وأشهرها معارف وأفكاراً ، وأكبرها رجالا ، وأفضلها أبطالا ، تركوا بعدهم الآثار التى تدهش الابصار . لهذا نرى السياح يجوسون خلال ديارنا وينسلون إلى هذه الآثار من كل حدب أفواجا فى فصل الشتاء ترويحا للنفس واستنشاقا للهواء الجيد وفراراً من البرد القارص فى بلادهم الذى يكاد يقضى على حياة كثير منهم واستكشافا لآثار بديعة الصنع محكمة الوضع ، بقيت على الدهر وقد بادت قرون وهلكت عصور

ومن نظر إلى الاهرام التى مضت عليها القرون الطوال ، وهى شباب يندهش لبه ، ويتحير عقله فى كيفية بنائها وقطع أحجارها ورفعها إلى ذروتها — ويشهد لهؤلاء ببراعتهم فى الهندسة وقوة اختراع الآلات المتينة الصنعة كما أنهم شادو المعابد العجيبة الوضع ، والأسبلة العميمة النفع

وقد يستغرب المرء أن يكون من هذا الأثر الصامت كل هذه الفوائد والمزايا ، ولكن من ينظر إلى معنى الآثار بعين الإمعان يطلع على خفايا ثمينة ، تتجلى للباحث المستقرىء الذى لايعبأ بزخارف الأمور ، ولا يقف عند حد النظر السطحى

ولم تنشأ المتاحف الأجنبية ولم يبذل الأوربيون النفس والنفيس فى جمع الآثار القديمة لمجرد وضعها فى البيت أو المتحف زينة أو أثراً جليلا ، بل هم يتوخون من وراء ذلك فوائد جمة

وكثيراً ما كشفت لهم الآثار المصرية غوامض العلوم وخفايا الصناعات وكانت مورداً للعلماء ونموذجا للصناع ، أولئك يدونون منها تاريخ الحضارة القديمة وهؤلاء يحاكونها فى طريف المصنوعات فعادت هذه الآثار على العلم والصناعة بأفضل فائدة ، وأجل عائدة

والفوائد التى تعود على بلادنا من قدومهم رواج التجارات ، ونشر الصناعات ، بل اتساع دائرة المعاملات وربح الفنادق وغير ذلك

وقد يتوهم كثير أن متاحف أوربا غاصة بآثار أجدادهم المتقدمين أو ملوكهم السابقين ، وما هى إلا مشحونة بآثار المصريين والشرقيين فهم يفاخرون بما يهون لدينا

يقصد الأجنبى مصر من بلاده السحيقة لينظر آثارها النائية ويحمل من كنوزها ما يظفر به ، فيعـــود إلى بلاده فرحاً مسروراً يحدث الناس بما لاقاه وما شاهده وما اشتراه ، فيسخر مواطنوه من جهلنا وإهمالنا ، وعدم اكترائنا بالصنائع والفنون

ولقد جبلنا معشر الشرقيين على عدم الاهتمام بالمفيد ، فلا نعبأ بالدر داخل الصدف لأن فى فتح الصدفة لاستخراج الدرة مشقة وعناء

والآثار — إما بناء كالمعابد . والمساجد . والمدارس . والجوامع والاهرامات . و الرباطات . والزوايا . والبيوت . والأبراج . والقلاع والقناطر . والأسبلة . وما شاكل ذلك — أو نقوداً كالدنانير والدراهم ونحوها — أو نقوشاً كالتى فى جدران المعابد وما أشبه ذلك أو صناعات كتطعيم أوانى النحاس من الذهب والفضة . وكتطعيم الخشب بالعاج والأبنوس والصدف ، وخلافه — أو صباغة كدهان السقوف والجدران وغيرها — أو كتباً ككتب الطب والصناعة والتاريخ والمصاحف الشريفة — إلى غير ذلك من العلوم والفنون

٢٦٧ — ﴿ فوائد تعلم اللغات الأجنبية ﴾

بقدر لغات المرء يكثر نفعه وتلك له عند الشدائد أعوان
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً فكل لسان فى الحقيقة إنسان

تعلُّم اللغات حفظ للذات ، من جميع الآفات ، فمن تعلم لغة قوم أمن من مكرهم ،ووقف على خيرهم وشرهم ، وعرف أخلاق ذويها وسيرتهم ، وماهم عليه من الآداب والمحاسن الإنسانية ، فيأخذ منها مايكون صالحاً لأمره ، نافعًا لقومه مفيداً لوطنه ، ويصير بمنزلة كثيرين من الافراد وإن كان واحداً فى نفسه — كيف لا وأنه يكون جامعاً أوجه الانتفاع ماديًا وأدبيًا لبنى جنسه

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة
فليس يحفظ دين إلا بحفظ اللغات

وبالجملة — إن الالمام باللغات الأجنبية يعرف الانسان ماهم من طول الباع فى المخترعات ، وإتقان الصناعات ، ومن أين تجاب التجارات ، وكيفية الطواف حول الارض فى السياحات ، ويدرك بماذا تقدمت هذه الامة وتمشت الحضارة والمدنية فى نفوس افرادها وبم تأخرت تلك الامة وأضاعت بلادها ، وخسرت رجالها ، وفقدت شريعتها ، واتحادها ونخرها ومجدها ، وبذلك يتمكن حب الوطنية فى قلبه ويذب عن حوضها بسلاح شرفه

وما الوطن المحبوب إلا يتيمة وباقى المعالى كالدرارى التوائم

٢٦٨ ﴿ هل الرزق بالسعى أو بالحظ ؟ ﴾

السعى حركة الإنسان فى ظروفه الزمانية والمكانية ، لإصابة الرزق والراحة والجاه — فإذاً لا مرية فى أن بقاء الإنسان وارتقاءه يتوقفان على سعيه أولا ، وعلى عمله ثانياً ، لأن العمل خاتمة السعى الذى هو ناموس للبقاء والارتقاء — وما من أحد إلا وهو فازع إلى سعادة يطلبها بجهد ، ومن طلب شيئاً وجدّ وجد ، ومن قرع الباب ولجّ ولج قال تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) ومن سعى رعى ، ومن جال نال — قال تعالى (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وجاء فى الحديث النبوى عن الاعرابى الذى أراد دخول مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وناقته بيده فقال يا رسول الله : أأرسل ناقتي توكلاً على الله عز وجل أم أعقلها — فقال النبى صلى الله عليه وسلم (أعقلها وتوكل)

ألم ترى أن الله قال لمريم وهزى إليك الجزع يساقط الرطب
ولو شاء أدنى الجزع من غير هزها جنته ولكن كل شىء له سبب

وقال تعالى (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقال عليه الصلاة والسلام (ما أكل رجل طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يداه وان نبى الله داوود كان يأكل من عمل يده)

بقدر الكد تكتسب المعالى ومن طلب العلا سهر الليالى

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وأن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض)

وفى التوراة (ابن آدم خلقت من الحركة وأنا معك ، ابن آدم أمدد يدك إلى باب من العمل أفتح لك بابا من الرزق)

وفى بعض الحكم : هل يجوز في وهم ، أويتمثل فى عقل ، أو يصح فى قياس ، أن يحصد زرع بغير بذر ، أو تجنى ثمرة بغير غرس أو يورى زند بغير قدح ، أو يثمر مال بغير طلب ، وقد جعل الله طلب الرزق مقصوراً على الخلق كلهم من الانس والجن والطير والهوام منهم بتعليم ، ومنهم بالهام ، فأهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز ، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال ، ثم إذا نظر المتأمل إلى الحالة الأولى من الهمجية ، وما صارت إليه الحالة الحاضرة من التقدم والعمران بواسطة الجد والاجتهاد ، وما وصلت إليه أميركا من الاكتشافات والاختراعات ، بل وجميع الغربيين ما ارتقعوا إلا بالجد والكد

وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن ألق دلوك فى الدلاء
ولا تقعد على كسل التمنى تحيل على المقادر والقضاء
فان مقادر الرحمن تجرى بأرزاق الرجال من السماء

مقدرة بقبض أو يبسط وعجز المرء أسباب البلاء

ومن الجهالى الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم يعتقدون أن الأعمال والمساعى كلها عبث ، والرزق فى الدنيا بالقسمة الأزلية — ويستدلون بقوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا — والله خلقكم وماتعملون) وبقوله عليه الصلاة والسلام الرزق عين ساهرة لعين نائمة) وبقول الشاعر

ليس ما يحوى الفتى من عزمه لا ولا ما فات يوماً بالكسل

ويتعللون بألفاظ لا يفهمون تخريجها ولا تأويلها — فإذاً ما يسمونه بختاً وحظاً وسعداً ونحساً ليس إلا أضغاث أحلام

كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة وابتغاء فى الأمل
والمرء يغلط فى تصرف حاله فلربما اختار القعود على العمل

٦٦٨ — ﴿ مقارنة بين سكنى المدن والقرى ﴾

لا شك فى أن المدن مركز العلوم والمعارف ، ومعدن الظرائف واللطائف ، ومنبع التمدن والآداب ، وحصن الأمن والاستتباب ، فيها أسباب الراحة والرفاهية التامة والحرية لجميع الأفراد عامة ، فيها ما تشتهيه النفس وتقر به العين ، وتنشرح به الصدور ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، من أنواع الطرب والسرور — بخلاف القرى فإنها بعكس ذلك على خط مستقيم ، إذا الفرق بينهما ظاهر جلى

لأنه من البديهى أن القرى مأوى اللصوص ومجمع العصابات ،والدليل على ذلك القضايا الجنائية ، فإن أغلبها بل كلها مقام على أهل القرى والسبب فى ذلك تسلط الجهل عليهم ، وسوء تربيتهم ، وعدم تدينهم وغلظ طباعهم ، وفظاظة أخلاقهم — فلذا يروى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال لبعض أصحابه (لا تسكن القرى يضع علمك) ورب قائل يقول إن القرى هي المورد الوحيد الذى تستمد منه المدن جميع لوازمها الضرورية ، وأنها جنة الله فى أرضه ، إذ فيها الماء والخضرة والهواء ، ولذة العيش ، والصحة وبساطة الضمير — كما يقول الشاعر

تلك القصور وان راقتك زينتها ... دون التمتع فى بحبوحة القصب
فاربأ بنفسك أن تبقى مخـــلدة ... بين الستور وبين السجف والحجب
واقصد خلاء تسر العين فيه لما ... يروقها من نضير الجو والعشب
واترك غمار ذوى الحاجات في بلد ... يموج بالناس والسارى على القضب

حقاً إننا لا ننكر ذلك ، ولكننا نقول : إن ذلك حاصل فى المدن أيضاً زيادة على ما فيها من المزايا الكثيرة ، وأن جودة الهواء ليست مختصة بكل القرى ، كما أنها ليست ممتنعة عن كل المدن ، فكم قرية أردأ هواء من مدينة وبالعكس

٢٦٩ — ﴿ مقارنة بين القلم والسيف ﴾

القلم منبع العلم والحلم والحكمة ، وهو الرسول بين الملوك

والأمراء ، والصادق الأمين بين الأَحبة والأصدقاء ، وقرة أعين الأدباء والظرفاء ، وجليس العلماء والحكماء فهو اليد والساعد والعضد المساعد ، يترجم عما فى الجنان ، بأفصح بيان ، ويفهم الحاضر والغائب وتأثيره أشد من تأثير الجيوش والكتائب

قوم إذا خافوا عداوة إمرئ   سفكوا الدما بأسنة الأقلام
ولضربة من كاتب ببنانه   أمضى وأنفذ من رقيق حسام

وحق من علم بالقلم، أن فضله أشهر من نار على علم ، وكفاه فخراً أن الله أقسم به فى محكم كتابة ، فقال (نٓ والقلم وما يسطرون)

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم   وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب فخراً ورفعة   مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

بالقلم — علم الإنسان مالم يعلم ، وبه أدركنا أحوال من سبقنا من الأمم ، وبه كتبت كتب الله المقدسة ، وبه خرج الانسان من دائرة الهمجية إلى عالم الترقى والحضارة والمدنية ، به سطرت جميع العلوم والفنون ، وهو للملوك عين العيون ، ومنار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا

قلم يفل الجيش وهو عرمرم   والبيض ما سلت من الأغماد
وهبت له الآجام حين نشابها   كرم السيول وصولة الآساد

قال بعض الأدباء (القلم هو أحد اللسانين ، وهو المخاطب

للغيـوب ، بسرائر القلوب ، على لغات مختلفة ، من معان معقولة بحروف معلومة ، متباينات الصور ، مختلفات الجهات ، لقاحها التفكر نتاجها التدبير)

ولى قلم فى أنملى إن هززته   فما ضرنى ألا أهز المهندا
إذا صال فوق الطرس وقع صريره   فإن صليل المشرفى له صدا

والسيف آلة قاطعة مفرقة للأجزاء ، به تفتح البلدان ، وتنشر الأديان ، وسلاح القـوة الحاكمة ، ومنعتهـا وشرفها ، لولاه ما انتظم العمران ، ولا نشرت راية الراحة والأمان ، ولا استتب الأمن والاطمئنان في جميع الأمصار والبلدان

السيف أصدق أنباء من الـكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى   متونهن جلاء الشك والريب

ولـكن لا يخفى على المتأمل أن حرب الاقـلام أشد تأثيراً فى النفوس من حرب الحسام — والتاريخ أعدل شاهد ، كما حصل فى واقعة الملك (دارا) ملك الفرس مع مملـكة (التتار) حيث تغلبت هذه الاخيرة على مملـكة الفرس وهزمت جيشها بالحيلة بدون أن تشهر عليها سلاحاً — وهذه دولة انـكلترا فى الشرق ، وكـثيراً من الممالك والشرائع قد فتحت وتأسست بغير السيف الذى لا يحمل إلا على الشمال ، بخلاف القلم الذى يحمل على الرأس ويجلس على اليمين

فلامرية فى أنه جليل القدر، وهو أحق بأن يقول: أنا سيد السيف ولافخر

٢٧٠ — ﴿ الخمر وتأثيره فى العقول والأجسام ﴾

واهجر الخمرة ان كنت فتى   كيف يسعى فى جنون من عقل

الإنسان أكمل من سائر المخلوقات، وأحسن صورة من جميع الحيوانات، إلا انه ليس أسعد من غيره من الموجودات، لانه عرضة للتأثر بالمؤثرات الجوية وتقلبات الزمان، فهو مشترك معها فى اعدامه الحياة، وليست سلطنته ولا تدبيره لها فى الحقيقة ونفس الأمر إلا لما خصه الله به من الصفات المعنوية، التى هى أسرار الناطقية وأفضل ما فى الإنسان عقله ولسانه وحسن قوامه، فهو كما انه باعتبار خاصيته الحيوانية مجبور طبعاً بتغذية جسمه، كذلك باعتبار خاصيته الإنسانية يجب عليه تغذية عقله بالمعارف وتحليه بالآداب، ولكن لسوء الحظ لم يقتصر على هذه الأسباب النافعة، بل تجاوزها واتخذ أسباباً تماكسها ليست من ضروريات طبيعة الإنسان، بل هى من مضعفات الجسد والعقل — ومن أقوى هذه الأسباب تعاطى المسكرات التى هى متلفة للبدن، مفسدة للعقل، مذهبة للأموال جامعة لجميع العيوب والذنوب، مفتاح كل شر، طريق كل ضر، منبع كل خصلة شنيعة ورذيلة فظيعة، تورث الجنون لبعض الناس وتحدث مرض السل الرئوى واحتقان الكبد — قال بعض الحكماء: من السموم الخفية المشروبات

الروحية — وقال آخر : السكر رأس المعاصى

وبالجملة — فالسكر آفة الاستقامة ، وعدو الشرف والأمانة ومجلبة الذل والاهانة ، يدعو صاحبه إلى ارتكاب الموبقات ، والاقدام على جميع المحرّمات

من تقرع الكأس اللئيمة سنه ... فلا بد يوماً أن يسىء ويجهلا
ولم أر مطلوباً أخس غنيمة ... وأوضع للأشراف منها وأخملا

٢٧٢ — ﴿ فوائد ومضار الورق المستعمل بدل النقود ﴾

ان للأمم اصطلاحات غريبة كثيرة فى المواد المستعملة نقوداً

فالصينيون كانوا يستعملون مكعبات صغيرة من الشاى المضغوط عليه — وبعض قبائل أفريقيا يستعملون الأصداف البحرية ، وغيرهم المواشى ، وغيرهم ملح الطعام — أما الأمم المتمدينة لهذا العهد ، فيستعملون الذهب والفضة لسهولة حمله ، وقسمته وحفظه بدون نقص فى قيمته

وكثيرا ما تستعمل فى المعاملة قطع من الورق عليها وعد بالدفع بدل النقود ، ويستحسن ذلك فى حالة ما إذا كان المبلغ جسيا لأن الورق سهل الحفظ ، خفيف الحمل — فورقة البنك المرقوم عليها خمسة جنيهات تعهد البنك الذى وضعها بدفع هذا المبلغ لمن يحملها ولذا يقال إن الورق قابل للتحويل فيما لو أمكن مالكها استبدالها

بالنقود فى أى وقت يريده ، فنى هذه الحالة تكون بمثابة النقود ، بل أفضل ، وغاية مايخشى منه أن البنك الذى وضعها لربما يعجز عن ابدالها بالنقود فى بعض الأحيان — وكثيراً مايحدث ذلك للبنوكات فتتوقف عن الدفع ولا تفى بما تعهدت به .

ومع ذلك فقد تقوم الأوراق مقام النقود ولو تعسر وجود عملة أخرى ، وحينئذ يقال لهذه الأوراق أنها غير قابلة للتحويل ، أو أنها عملة فيقبلها كل انسان لعلمه أن غيره لا يقدر على رفضها لو عرضت عليه .

٢٧٣ — ﴿ حالة الأمة اذا فقدت لغتها ﴾

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أن فقد اللغة فقد للشعور ، وتضييع للدين ، وانحلال لعرى الفخر والمجد المتين ، وموت للاحساس والشرف والحرية ، واستئصال لما يجول فى عروق الشعب من الحضارة والمدنية

قال ابن خلدون (اللغة ملكة صناعية متقررة فى العضو الفاعل لها) وقال عبد الله النديم : (إضاعة اللغة تسليم للذات) وقال غيره (استقلال الأمة موقوف على حفظ لغتها) وقال آخر (اللغة هى عنوان الأمة) فحياة الأمة بلغتها طبعاً

واللغة آلة مادية تقوم بها مبادلة الأفكار بالمعاني بين أفراد

الإنسان عموماً وخصوصاً — فإذا أهملت اللغـة سادت الفوضى والإخلال بالنظام ، وعم الفساد بين كافة الأنام — والويل ثم الويل لأمة أضاعت لغتها ، والثبور ثم الثبور لأمة أضاعت منعتها وعزتها والشقاء ثم الشقاء من اضمحلالها ، وتقهقرها وانحطاطها وتأخرها وتصير فى عذاب أليم وتستمر طول الأبد فى شقاء جسيم ، هذه أمة اليهود مشتتة فى كل واد ، وعُرضة للاسترقاق والاستعباد ، وهدفاً لسهام التعصب والاضطهاد ، وما ذلك إلا لفقدها لغتها العبرانية ففقدت الشعور والإحساسات ، وأصبحت أمة فوضى لا تألفهم أمة من الأمم — وهكذا إذا أنعم الإنسان نظره فى كثير من الأمم الذين نبذوا لغتهم ظهرياً يجدهم فى اضمحلال .

٢٧٤

﴿ من عفا عمن يستحق العقوبة كان كمن حرم من يستحق المثوبة ﴾

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس يوماً بالذى لا يرحـم

من تأمل فى تاريخ العالم ، رأى أن الأعمال بنى آدم ، أقرب إلى الشر من الخير ، وإن كان الخالق سبحانه وتعالى أودع فيهم بصيرة ترشدهم إلى الخير ، وتنهاهم عن الشر ، إلا أن الشهوات والأغراض تستدعى مخالفة أمر البصيرة — وجعلهـم بالحقائق هو منشأ آخر للمصائب والخطايا والذنوب — وهذه الذنوب على أنواع شتى ، وضروب

مختلفة — فمنها ما يحسن الصفح عنها ، والعفو عن عقاب من وقع فيها .

من ذا الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وذلك لكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

ومنها مالا يحسن إهمال الضرب على أيدى مرتكبيها ، بل ينبغى زجر مقترفيها — ومنها ما يجب عقاب آتيها ، وإلا انتشر الفساد فى جميع البلاد ، وإزهاق أرواح العباد .

لعمرك ما تلك الحياة رخيصة فصنها فما بعد الحياة حياة

وقال تعالى (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب)

إذ المراد أن الانسان إذا علم أنه متى قتل امتنع عن القتل ، ويلزم من ذلك حياته وحياة غيره .

قتلنا لأجل النفس نفساً بفعلها وقد قادنا للقتل إذ ذاك قرآن

عدمنا إذاً نفسين حفظاً لأنفس وهذا لعمر الحق عدل وإحسان

وبالجملة — فلا بد من عقاب من يستحق العقوبة حفظاً لكرامة الهيئة الاجتماعية ، كما أنه لا بد من إثابة من أحسن صنعا مكافأة له وتنشيطا على عمل ما هو أنفع منه ، فيرغب غيره لمباراته ومنافسته فتعم المنافع — بخلاف التهاون فى المكافأة ، فينشأ عنه فتور الهمم والتقاعس عن الأعمال المفيدة ، فيجاب الكسل ، والفساد لا يقل عنه

الفساد الناشىء عن إهمال من انغمست يده فى الجرائم حتى طغي وبغى وانتهك المحارم

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

فحقيق وجدير بالحكام، الضرب على أيدى هؤلاء الأشرار اللئام

لا تلطفن بذى لؤم فتطغيه واغلظ له يأت مطواعاً ومعوانا
ان الحديد تلين النار قسوته ولو صببت عليه البحر مالانا

٢٧٥ — ﴿ فوائد التصوير الشمسى ﴾

إن هذه الصناعة من ألزم الأمور، لتقدم العلوم والفنون، ولإتقان فن الحرب، ولتشخيص بعض الأمراض، ومعرفة شكل النجوم وحجم الميكروبات، ولأمور أخرى كثيرة ملازمة للتمدن مرافقة لأشكال العمران — من ذلك أن تصوير الأَفلاك والنجوم والشمس والقمر (بالفوتوغراف) صار اليوم أكبر آيات التقدم فى معرفة الأَجرام السماوية وشكلها، واستنتاج النتائج عما فيها من الجبال والأَنهار، وغير ذلك مما يمكن معرفته بتكبير الصور — ومن فوائده أيضاً تصوير المجرمين نشر صورهم بين الناس، وبين رجال الضبط حتى يتعسر عليهم الهرب والفرار — وتصوير الخدمة وغيرهم، والفضل في ذلك لرجل فرنسى

من مدينة شالون يدعى « بيبيس » اكتشف بعد امتحانات عديدة بعض خواص الحجرة المظلمة ، وهي كناية عن خزانة أو صندوق صغير مغلق إغلاقاً محكماً ، لا ينفذ إليه النور إلا من نافذة صغيرة تدخل منها الأشعة الشمسية فتنعكس صور المرئيات الخارجية على لوح موضوع لهذه الغاية عند أسفل الخزانة — ثم أخذت فى التقدم شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى ما هى عليه فى عصرنا الحاضر

٢٧٦ — ﴿أيهما أنفع للانسان العزلة أو الاجتماع ؟؟﴾

ان الناس مدنيون بالطبع — أى لا بد لهم من الاجتماع والمخالطة لأن الفرد الواحد لا يمكنه أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة إلى الاجتماع والمبادلة — فلا مرية أن بقاء الإنسان لم يكن إلا بالإجتماع الانسانى ، وإلا فما الفرق بينه وبين الوحوش الضارية

والناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وان لم يشعروا اخدم

فطرة الله التى فطر الانسان عليها أليفاً أنيساً ميالا للمحادثة والمحاضرة ، مضطراً للانضمام إلى إخوانه لتبادل المساعدة والمنفعة وقد قيل : المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه — ولا بد للناس من الاجتماع الأدبى الذى عليه مدار الحياة والصفاء ، والسعد والهناء فيعود عليهم وعلى بلادهم بالتقدم والارتقاء — بخلاف العزلة فإنها

وأعن الحق مكسبة للهم والهوان ، ولو كان فيها نفع للانسانية لترك المولى آدم وحيداً فى الجنة — وقد قيل : الشيطان مع الواحد وهو عن الاثنين أبعد ، ويد الله مع الجماعة ، ويقال : إياكم والعزلة فإن فى لقاء الناس معتبراً نافعاً ، ومتعظاً واسعاً ، ومجالسة أفاضل الرجال تجلو البصر وتطرد الفكر

إذا لزم الناس البيوت رأيتهم   عماة عنى الاخبار خرق المكاسب

فحينئذ الاجتماع الأدبى أفضل من الوحدة والعزلة . وأما إذا كان الاجتماع لأكل لحم الناس ، وسب عرض الأحرار ، وانتهاك المحرمات ولثم الراحات بالراحات ، وارتكاب المنهيات والمعصيات فلا ريب فى أن العزلة أفيد ، والانفراد أولى وأسلم

وحدة الإنسان خير   من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير   من جلوس المرء وحده

فالعزلة والانفراد خير من مجالسة السوء ، لأن المعاشرة الرديئة تفسد الأخلاق الحميدة

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً   سوى الهزيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا   لاخذ العلم أو إصلاح حال

وبالجملة — الانقباض عن الناس مكسبة المداوة ، والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال

٢٧٧ — ﴿ الأَخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة ﴾

لو أنني خيّرت كل فضيلة ... ما اخترت غير مكارم الأَخلاق

إن ينبوع السعادة ومصدر السؤدد والسيادة وأنفس الأعراق حسن الأَخلاق ، فبه يشرف الانسان ، ويتميز عن سائر أفراد الحيوان في كل زمان ومكان ، وما زال صاحبه يستميل بحسن شيمته النفوس ويجذب بمكارم أخلاقه الأَفئدة والقلوب وينال من عدوه قبل صاحبه كل مرغوب ومطلوب

أحب مكارم الأَخلاق جهدى ... وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة — قال عليه الصلاة والسلام (أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً)

لا تقعدن عن اكتساب فضيلة ... أبداً وإن أدت إلى الاعدام

وفى الانجيل (سعة الأخلاق كنوز الأَرزاق) وقال بعضهم الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى أمن وسلامة ، والسيء الخلق من نفسه فى تعب ، والناس منه فى عناء وجهد وبلاء

إذا لم تتسع أخلاق قوم ... تضيق بهم فسيحات البلاد

قال سقراط : حسن الخلق يمنع من ارتكاب القبائح فإنه لا يشاكلها

ومن كلامه أيضاً : حسن الأخلاق يورث المحبة ، ويؤكد المودة ويقود إلى الفعل الحسن — وقال أرسطاطاليس : حسن الخلق حلية النفوس كما أن حسن الخلقة حلية الجسد

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم   إذا كانت الأخلاق غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى   فما كل مصقول الحديد يمانى

وبالجملة — حسن الخلق أعظم حلية يتحلى بها الانسان ويعيش عيشاً رغداً بين مواطنيه لأن (من أساء خلقه ضاق رزقه) وفى الحقيقة والواقع أن أخس صفة فى الشخص الخلق الدنىء ، واللسان البذىء ولا يخفى ان من واجبات الدين حسن الخلق والسخاء ، فالحسن الخلق من نفسه فى راحة ، والناس منه فى سلامة ، وتراه قد كثرت مصافوه وقلت معادوه ، وتسهل عليه الأمور الصعاب ، وتلين له القلوب الغضاب ، وأما السيء الخلق فتراه يا للعجب ، ويالضيعة الأدب ، قد جهل قدر نفسه ، ولم يفرق بين يومه وأمسه ، وهو من نفسه فى عناء ويعيش العمر فى شقاء ، وترى الناس منه فى بلاء

ومن أراد أن يجعل ذكره مدوناً فى صحيفة حسن الاخلاق فعليه أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة لا يستفزه تقلب الأحوال وجريان الاقدار ولا يغره غناه فيسوقه إلى ارتكاب الإثم ، وإذا كان متولياً أمراً فلا يجزع

ولا يستبدل حسن الخلق والصبر بالهلع والبـذاء لأى سبب عرض أو لأى أمر طرأ

٢٧٨ — ﴿وصف حريق هائل﴾

بينما كانت السماء مشرقـة بالأنوار ، إذ بدخان قـد ملأ الجو والفضاء ، وحجب كواكب القبة الزرقاء ، فتغيرت الأفراح بالأتراح وتبدل كأس الهناء بالشقاء ، وذهب الصفاء ضحيـة العناء ورأيت الناس فوق الديار يقولون النـار . النار ، فأسرعت إلى الخروج من المنزل لأستكشف هـذه الأخبار ، فوجدت لـكل إنسان شأنا يغنيه ، يوم يفر المرء من أبيه ، وأمه ، وأخيه ، وزوجته وبنيه ، وأصحابه وأهله ، والناس فى هرج ومرج ، ولا دخول ولا خروج ، وفى شدة وضجة ، ورعدة ورجة ، سكارى وما هم بسكارى ، بل من شدة النيران حيارى ، ولما وصلت محل الحريق رأيته منظراً يفتت الاكباد ويقطع شامخ الاطواد ، رأيت القصور الشاهقة ، قد أمست قبوراً والمنازل العامرة قد باتت قفوراً ، ومع ذلك كله فالنار زادت وتأججت كأن الجحيم قد سعرت ، وامتدت السنتها وطالت ، وتطاول لهيبها وصالت ، فاشتد بين جميع الناس الخطب ، واستغاثوا بجنود المطافى فحضروا وضربوا عليها الحصار ، وصاروا يخلصون المنكوبين من مخالب النار ، ثم أتوا بالمضخات ، وشنوا الإغارة عليها بالطلمبات

ورموها بالخراطيم والميازيب ، وقذفوا عليها المياه من فوهات الأنابيب وما تزداد إلا عتوًّا وفساداً ، وتلتهم الانسان والحيوان قسوة وعناداً فاستمرت الحرب بينهما مدة من الزمان ، وهى تكافحهم بأقوى جنان وأحدِّ سنان ، حتي فرقت أيدى سبا كل من حضر ، وبددت الأموال والأمتعة شذرمذر ، فعززت فرقة المطافئ رجالها بعدد عظيم من الجنود كأنهم أسود ، فشنوا عليها الغارة بكل شجاعة وجسارة ، وقاوموها مقاومة الأبطال ، وأخمدوا لهيبها فى الحال .

٢٧٩ — ﴿ وصف يوم شم النسيم ﴾

شم النسيم ، عيد قديم ، تخرج فيه الناس وحدانا وزرافات ، وقد سالت بهم الطرقات ، واكتظت أحشاء الفلوات ، ونزحوا إلى الحدائق والمنتزهات ، وغادروا المعاقل ، إلى حيث الربى والخمائل ، كأنهم مطر درّته الغمائم ، أو جراد زفته الرياح السمائم ، أو مجتمعوا أسواق لا يروج فيها إلا الفسوق ، تجتمع فيه الغوانى والرفاق ، والساق على الساق ، والفم قريب من الفم ، يتلاقون إلى جانب اليمّ ، يتبادلون التحيات بالحواجب ، ويشفقون على القلوب ، فيضمون الأيدى فوق الترائب ، يختلسون النظرات ، وتحتها سهام صائبات ، والغوانى بين تلك الشعاب ، يتهادين تهادى الحباب ، ويتراسلن بالعيون ، ويتحادثن والحديث شجون ، وتفنن القوم فى اللباس ، تفننهم فِي الأرجاس ، فمن

عمامة بيضاء ، فوق هامة سوداء .

ما كل من لبس العمامة سيد ما كل من لبس القباء أمير
ما كل ذى لب يدير مصالحا حتى يهذب بيتـه ويدير
ما كل ذى حسب شريف إنما شرف الرجال يسوقه التدبير
ما كل أفراد البرايا واحـد ولـكل فرد فى الحياة نظير

ومن طربوش أحمر ، على شعر أصفر ، ومن حلة خضراء ، على قامة سمراء ، واشرأبت البرانيط ، على قوم شماميط ، ثم دارت رحا الأفراح ، بين العقول والراح ، وتحكمت الـكؤوس ، فى الرؤوس ودبت الصهباء فى الأعضاء ، ويلثمون الراح بالراح ، ويأكلون ويشربون ، ويضحكون ويلعبون ، بين نغمة الحديث الرخيم ، ونشوة المدام النديم ، ونغمات الأوتار ، تدعو إلى اغتنام الأوطار ، تهدى الارتياح إلى الأرواح ، وتبدل الأفراح من الأتراح .

٢٨٠ — ﴿ لا ينجح الأمل إلا بالعمل ﴾

إن الطبيعة البشرية قد أودعت فى نفس كل امرئ أملا فطرته عليه ، فهو مجبول على حب الرفعة والعلاء ، يحدث نفسه دوما بالارتقاء إلى أسمى المناصب ، وأعلى المراتب ، ومدفوع لاقتحام الأهوال ، والأخذ بناصية الأعمال ، حبا فى الوصول إلى المرغوب ، والحصول على المطلوب وهذه الرغائب تختلف باختلاف الهيئات والمنازع التى يتطبع الإنسان

عليها ، ويترعرع فى مهد الميل إليها ، فقد تكون «مالا» يفرغ كنانة الجهد فى تحصيله أو «علماً» يحث مطايا الجدّ فى إحرازه أو «سؤدداً» يشحذ غرار الكد فى نيله — وقد تكون تلك الرغائب بعيدة عنه حين شروعه فى معاطاة أسباب تحصيلها ، فما الذى يقصر مسافاتها المترامية ويسهل صوب مسالكها المتنائية ، ويطوى بينها و بينه مشقة البين ويجعلها منه معقد الإزار ، وأقرب من الحاجب للعين بل أدنى من قاب قوسين ، ويصير حصولها متحققا كمضى أمس ، أو كطلوع الشمس هو « الأمل » تلك العاطفة التى أنار بها الحق جل جلاله نفس الانسان وجعلها له فى وادى الاتعاب خير عزاء ، وأعظم سلوان — فالأمل مدعاة الإقدام ، ومجلب الجرأة والبأس ، ومزيل القنوط ومبدد اليأس والحافظ بناء الأعمال من السقوط ، ومساعى الرجال من الحبوط والماحى من الأفكار ظلمات القنوط — فبه تنتعش القلوب وتحيا النفوس ويشد العزائم ويقوّى الهمم .

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ولكن هل ينال الغنى بالمنى ، أو يجنى الثمر من غير زرع الشجر وهل تأتى الأرض بالأثمار بدون حرث أو بذار ، أو تنسج الثياب بدون يد أو دولاب ، حاشا — فلا ينجح الأمل إلا بالعمل .

وإلا كيف يتأتى للمؤمل من الدهر الارتقاء إلى المناصب العليا أن

ينال آماله بفتوره وإهماله — تالله لو ظل طول الدهر على هذا الحال لما أدرك شيئاً من الآمال .

فعلى الانسان أن يقرن الامل بالعمل — بحيث لا يألو جهداً فى ذلك واصلًا ليله بنهاره غير مكترث بالمشقات والاتعاب ، ولا مبال بما يقتحمه من الصعوبات والأهوال ، فإن من كان ديدنه العمل وشيمته الصبر لا بد أن يدرك مناه ، ويحظى بما يتمناه .

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

٢٨١ — ﴿ حياة الامم برجالها العاملين ﴾

لا ريب فى أن كل أمة حياتها موقوفة على الاعمال النافعة التى تؤدى بها الحقوق الوطنية ولا يكون ذلك إلا إذا صدرت الاعمال من رجالها الحقيقيين الذين تبعثهم الطبيعة إلى القيام بها .

فالامة لانجاح لها فى الحال إلا إذا كان الماضى قد أعد لها رجالا يديرون أعمالها ، فإن لم تكن كذلك اضطرت إلى استعمال رجال من غير بنيها ، وهم وإن قاموا رسميا بالواجب عليهم نحو وظائفهم فلا يقومون إخلاصا بالواجب عليهم نحو الوطن والامة .

وعلى هذا يكون الغرض من الاعمال فاقداً صفة الكمال ومسؤولية هذا النقص عائدة على الماضي ورجاله ، يعاتبهم عليه التاريخ وليس فى الامكان تدارك هذا النقص حالا ، بخلافه استقبالا فانه

يمكن أن يتدارك بتهيئة الرجال الاكفاء من الآن ، والمسؤولية في ذلك عائدة على الحاضر و بنيه ، فلا يكتفى فى مؤاخذتهم بالتاريخ لأن المسؤول حى قائم تطالبه الأمة والوطن والتاريخ ، فلا يخلصون من هذه التبعة إلا بالاهتمام بالاعمال الحالية ، وتنظيم إدارتها فى الدوائر على اختلاف فروعها ، مع إقامة قسطاس العدل ، وهو آفة الجور ومراعاة الأعمال وتطهيرها بالتربية ، لينزع من القلوب الحقد والتحاسد والتباغض ، فيموت من الأمة الانشقاق والاختلاف ، وتعقد الضمائر على الولاء والمحبة ، ليطرد من بينها العدو الباطن الذى هو أشد فتكاً بالجامعة من العدو الظاهر ، لان ذلك العدو يتخذ المماراة والمداراة والنفاق حبائل لغاياته ، فيخدع بظواهره البسطاء ، بخلاف الثانى فهو مجاهر ظاهر يسيل الاحتراس منه ، فإن تم لها ذلك وجد الاتحاد الذى هو روح حياة الاعضاء ، وداعية التعاضد والتكاتف الواجبين لغاية الاصلاح ، وهذه كلها معدات لتهيئة الرجال القادرين على استلام زمام الاعمال فى المستقبل ، والساعى فى ذلك إنما يعمل لحياة الامة ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا — وانظر ماقدر هذا العمل المبروو ، وما جزاؤه عند الله وعند الناس والتاريخ

كفانى فخراً أن أموت مجاهدا   وحب بلادى قائدى منذ نشأتى

وعلى الضد من ذلك من يسعون فى تبديد هذه المعدات وإضاعة

تهيئة الرجال للمستقبل ، فإنهم بذلك يحاربون الله ورسوله والأمة والوطن ، ويجنون أعظم الجرائم وشر الجنايات ، فما جزاء هؤلاء إلا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم

ولقد أخطأ من يظن أن مجد الأمة وسلامة المملكة بالمال والحرية لأن المال لا ينهال من السماء ، والحرية لا تنبعث من الينابيع والجداول ، وكلاهما لا يأتى إلا من طريق العزم والحزم ، ولا ينغرس فى الأمة إلا بأيدى كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متحليا بجلباب السعادة والرفاهية فى أعين الشعوب

وهذا مما يوجب على أفراد الأمة التمسك برجالها أصحاب المبادىء الصحيحة الذين يحبون البلاد وسعادة أهلها ويسعون فى جلب الخير إليهم ، وفتح أبواب الأعمال لهم ، لأن إخلاص الأمة لكبار رجالها موجب لتقوية الرابطة الوطنية لما فيه من فضيلة الشكر على محاسن الأعمال — ولقد قالت الحكماء : إن أعظم شىء تسود به الأمة محبة كبار رجالها والإخلاص لهم إذا عملوا ما يجب عليهم

وسبب ذلك أن من يعمل الخير ليحمد يجب أن يحمد ليوفى حقه ، وأما من يعمل الخير لأنه خير فيجب أن يضاعف له الحمد والأمة التى تعرف قدر الأفراد وتعرف لهم ما يعملون تختط بذلك

طريقاً إلى تكثير رجالها ، وتقوية روح الارتباط فيهم ، وتستجاب بذلك مرضاة أعاظمهم ، وبذلك تتحد إرادة جميع الأفراد ، فيعمل الواحد صورة يتمم بها عمل الآخر ، وهذا هو الغاية التي تتمناها لنفسها مع رعاياها الحكومات المنتظمة

ولا يخفى أن توحد الادارة من أهم الأمور لنجاز الأعمال العظيمة الشريفة التي يصعب على أكبر الأمم القيام بها — وهذا لايحتاج إلى بيان ، فان العاقل يعرف أن عشرين رجلا تختلف إرادتهم في نقل حجر صغير لا يتسنى لهم نقله مهما أضاعوا من الزمان — بخلاف مالو اتحدت إرادة سبعة منهم مثلا على نقله إلي محل معين فانهم ينقلونه

ولو استعمل كل واحد منهم واسطة ، لأن الغاية واحدة ، والارادة متحدة ، وهذا من أعظم المبادىء التي يجب على الأمة الالتفات إليها وتعويد نفوس النشء عليها ، فاذا اتحدت ارادتهم مع ارادة كبار رجالهم اتجهت بهم تلك القوة العظيمة إلى الاعمال النافعة وسعدوا بأنفسهم وفازوا فوزاً عظيما

وحيث كنا مما نرمى الى غرض   فحبذا فاضل منا ومفضول

ولأجل أن يتعلم الانسان هـذا المبدأ يجب عليه أن يحرص على جميع أعمال كبار الأمة الذين أخـذوا على أنفسهم القيام بعظائم الأعمال ، وسعوا جهدهم إلى نفع بلادهم وبنيها فيجعله درسه حتى يتبين

منها اتجاه قوى إرادتهم الصالحة — وحينئذ لا يألو جهده عن السير على مقتضى تلك الخطة التى تشيد لوطنه الفخر والمجد وتمنحه السعادة والخير مهما اعتوره من المخاطر والأهوال ، متمثلا بقول من قال

ولست أبالى حين أقتل مؤمنا   على أى جنب كان فى الله مضجعى

٢٨٢ — ﴿ هل الانفع لمن عنده مال أن يصرفه فى تعليم أولاده أو يبقيه ميراثا لهم بعد مماته ﴾

المال مادة الحياة وقوام ضروريات الإنسان وحاجياته وكمالياته من المطاعم والملابس والزينة ، فلولاه ما بقى للحياة عين ولا أثر — وكما أن عليه مبنى وجود الجسم ، كذلك به يحصل حياة الروح وكمالات النفس ولذة العقل ، وهو الواسطة لتحصيل لوازم تعليم الفنون والعلوم النافعة ، ومتى تعارض على المال خطة صرفه فى سبيل التعليم فى الحال أو إبقائه فى المآل وجب صرفه فى الوجهة الأولى ، إذ العلم غذاء العقل وهو أشرف من الجسم ولنعم العوض — على أن مافات من ادخار المال يناله أضعافا مضاعفة بواسطة العلم — وناهيك بمنافع دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ولذة عالية ، وآثار باقية ، ورفعة قدر ونباهة شأن ، وشرف منزلة — وهل يقاس ما يتناهى وهو المال بما لا يتناهى وهو العلم ، وما شرف الماديات فى جانب المعقولات ، وهل يذكر الدينار فى جانب الافكار ، أو يقاس الصامت بالناطق والميت بالحى

بل مثل ماينفق فى سبيل التعليم كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم

على أن العلم يجرى من المال مجرى الروح من البدن ، والحاكم من المحكوم والحارس من المحروس ، بل والفارس من المفروس ، وهل خلد التاريخ فى صفحاته إلا أهل العلم وأرباب الجدّ فى الأدب وأنصار البحث فى الحقائق ، فمنهم السياسيون والملوك العادلون ، وبهم استقامت البلاد وانتظمت الدول واستتب العدل ، ومنهم العلماء والحكماء والمخترعون والمكتشفون ، هدى للناس ونوراً ، وهل رأيت لاحد منهم فيه ذكراً ، أو سمعت له قط فيه شكراً

ففز بعلم تعش حياً به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وبالجملة — فنحن بالطبيعة نشعر بالسرور التام ، حينما يرى الواحد منا أن له ولداً يؤمل فيه النجاح ، ويرى عليه دليل الفلاح ، فينفق ما استطاع أن ينفق ، وذلك لان النفوس من طبعها تميل إلى العلا ولو كان كما يقول بعض الناس إن ميول الانسان إلى الشر أكثر منها إلى الخير ما كنا نشعر بهذا الشعور وما كان لدينا هذا الاحساس ولكانت الأزمنة الهمجية باقية الى الآن

علم الله أن المال الكثير الوافر ليس بشيء بجانب نجاح الاولاد وتهذيبهم ، بدليل أنه يهون على الرجل أن يكون صفر اليدين

بجانب نيل هذا المبتغى، كما نجد أن صاحب المال الذى لا أولاد له منكود الحظ منغص العيش

وأكثر من هذا حزنا على الشخص الذى له أولاد لا بركة فيهم ولا نجاح لهم فيحسب لانحطاطه ألف حساب ويتمنى لو مات هؤلاء الاولاد حتى يستريح فؤاده ويحفظ شرفه — والحقيقة أن لا عار أعظم من فساد الاولاد

إذاً الرجل الذى ينبغي أن يعيش سعيداً فى أولاه وأخراه يجب أن يبذل كل نفيس وغال فى تهذيب أولاده حتى يموت آمنا على بيته من الخراب ، وعلى عرضه من أن يثلم، وسيرته من أن تقبح هذا من جهة — ومن جهة أخرى يضمن بقاء العز لأولاده وجميل الذكر لنفسه إذ الناس يثنون عليه ويطلبون له الرحمات كلما نالهم خير من أولاده — كما أن المال الذى أنفقه عليهم يأتى بأضعاف أضعافه : وكلما طالت حياتهم زادت ثروتهم — ولو كان كل رجل يعتنى بتربية أولاده لكانت الامة راقية حية إذ كل واحد يعرف حقوقه ويمكنه أن يدافع عن نفسه وعن أمته فان الامة ما هي إلا الأفراد فان كانوا أحياء كانت الامة حية وإن كانوا أمواتا كانت كذلك

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

٢٨٣ — ﴿ الكفاف مع العمل أهنأ أم الثروة مع البطالة ؟ ؟ ﴾

خلقنا لنعمل لطلب الخير ، ونتحرك للحصول على الرزق ، لأن الله أوجدنا لحكمة ، وهى أن نعمل فنعبده ونعظمه ، شكراً له على نعمة الوجود ، وعلى بقية النعم الجليلة التى تفضل بها علينا ، حتى يكون هذا العمل سبب سعادتنا فى الدنيا والآخرة — وأمرنا أن نسعى فى طلب الرزق بقوله عز شأنه (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) بأن نشتغل فندرس العلوم ، ونفلح الأرض ، وندير التجارة ، ونحسن الصناعة ، لتكون هذه الأعمال سبب سعادتنا وراحتنا فى هذه الدنيا ونكون قد أدينا الثمرة المطلوبة منا ، والغاية المفروضة علينا ، وهى العمل والشغل — تأمل تجد أن الله خلق الاشياء وجعل فيها ثمرة تؤديها فثمرة النباتات حبوبها وأزهارها ، وثمرة الاشجار فواكهها وثمارها وظلالها وأخشابها ، وثمرة الحيوانات ألبانها وأصوافها وأشعارها وأوبارها ، ولحومها ونتاجها وركوبها وجر الأثقال ، وثمرة الطيور بيضها وريشها ولحومها — وليس للإنسان ثمرة من تلك الثمار ، وإنما ثمرته شغله وعمله ، فاذا لم يعمل ويشتغل كان أحقر الحيوانات وأصغر النباتات ، وأخس الطيور خيراً منه — أنظر إلى النحلة التى هى من أصغر الحيوانات تعلم أن الله أمرها أن تشتغل وتتخذ لها البيوت من الجبال والاشجار ، وتأكل من كل الثمار لتؤدى المنفعة المطلوبة منها

وهى العسل — فهل يليق بالإنسان سلطان المخلوقات أن يكون أقل شأناً منها أو من غيرها — كلا .

وصفوة القول أن الله خلق الإنسان ليعمل ويسعى ، وناط بعمله قوام الوجود وأساس النظام ، وجعل أكثر الأمم غلبة فى الأرض أحسنهم عملا وأدومهم سعياً فى مرافق الحياة ، فالعمل روح الحياة ، ومصدر الغنى ومنشأ العمران — فالذى يعمل ويجد طالباً عظائم الأمور وأسمى المراتب — واضعاً نصب عينيه « السماك أو الهلاك ، العلاء أو الفناء النصر أو القبر » فلا بد أن ينال ما يطلبه ، ويبلغ ما يؤمله ، ويجد الراحة مع الهناء ، ويعيش محترماً محاطاً بكل أنواع العز والصفاء

وغنى البلاد نوابغ يهدونها نعم الحياة ويدرؤون شقاءها

وما المثرى الذى لا يعمل شيئاً إلا عضو فاسد فى المجتمع الإنسانى يجب بتره وقطعه قبل تفاقم الداء ، فيعسر الدواء .

وما للمرء خير فى حياة إذا ما عُدَّ من سقط المتاع

٢٨٤ — ﴿ الإحساس والشعور دليل رقى الأمة ﴾

الإحساس — إما ظاهرى وهو شعور النفس بالآثار الظاهرية عند وصولها من الجسم إليها — وإما باطنى وهو شعور النفس بآثارها الباطنية .

والشعور الباطنى هو أثر ينشأ عن هبوط أو صعود التصورات الحاصلة والمشعور بها فى النفس .

وبعبارة أخرى — الإحساس أثر تبادل وتوارد التصورات صعوداً وهبوطاً ، فالأثر الحاصل على الصعود يسمى إحساساً ارتياحياً

وعن الهبوط يسمى إحساساً غير ارتياحى ، مثال ذلك لو أعملنا الفكر فى تذكر اسم شخص ، فإما أن تصعد فنتذكرها ، وحينئذ نجد من أنفسنا أثراً يرتاح إليه ، وإما أن تهبط فلا نتذكرها ، وحينئذ تشعر النفس بأثر لا تطمئن إليه

وبحكمة ارتباط الاحساسات النفسية بالتصورات يلزم من أراد أن يحدث إحساسات ارتياحية أو غيرها أن يولد لها تصورات

والاحساسات صورية ومادية — فالاحسات الصورية تنشأ عن الارتباط بين تصورين أو أكثر من جهة الصورة ـ وذلك كالانتظار والرجاء والكد والفزع والدهشة والشك والملل والأنس

والاحساسات المادية هى الشعور بكيفية التصورات ومادتها وتتنوع إلى إحساس بالحقيقة ، وإحساس بالحسن ، وإحساس بالآداب وإحساس بالدين

فالاحساس بالحقيقة : هو البحث عن نتائج الأعمال من جهة مادتها — والإحساس بها ارتياحى إذا حصل عليها ، وغير ارتياحى إذا حصل على الخطأ فى إصابتها ، أو كانت غير واضحة

والاحساس بالحسن أو القبح . هو الاحساس بالاستحسان

المطلق أو الاستقباح المطلق اللذين هما بمعزل عن الغرض الذاتى وموضوعهما الأشياء الطبيعية والصناعية من حيث مادتها وصورتها وما نستحسنه مطلقا نسميه حسناً ، وما نستقبحه مطلقاً نسميه قبيحا

والأشياء المحسوسة خاصيتها لا مادتها أو صورتها ، فإن كان الاحساس بها ارتياحياً سميت مقبولة أو لطيفة ، وإن كان غير ارتياحى سميت غير مقبولة أو غير لطيفة

والاحساس بالآداب : هو الشعور بالخير أو الشر — فجل أمانى الانسان أن الحسن والخير يلزم أن يحصلا ، وأن القبيح والشر ينبغى ألا يكونا ، ويحصل ذلك بواسطة التربية والتعليم والمعاشرة وترقب الانسان لأعمال نفسه وغيره — والغرض بالاحساس بالآداب أن تجتمع أفراد الانسان على إرادة واحدة

والاحساس بالدين : هو شعور الانسان بذات موجودة أزلية أبدية قائمة بنفسها — كيف لا — والدين هو الناموس الباطنى المرشد الهادى إلى خطة الفلاح فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، فحاجة البشر إلى الدين كحاجة الجسم إلى الغذاء ، فكما أن الغذاء حياة الجسم وقوامه فكذلك الدين حياة للنفس لا تطيب إلا به — وقد أثبت التاريخ ودلت الآثار على أن الدين مربى الانسان ، ومرشد الأمم إلى طرق المدنية منذ تكونت جمعيات البشر حتى أننا لا نرى الآن أمة على

وجه الأرض إلا ولها دين معروف وشريعة خاصة بها

فلا نجاح لأمة نبذت دينها ظهرياً ، ولا فلاح لقوم استعبدوا لشهواتهم

إذا سلم الدين القويم من الأذى   فكل أذى فيما سواه سلام

وعلى هذا ، فلا بد لكل أمة من دين ، ولو كان من وضع البشر كما هو حاصل عند بعض الشعوب الذى أهمل أمر دينه وفقد أصول الشرائع الآلهيه ، ثم رأى أن لا حياة إلا بالدين ولا اجتماع إلا على كلمته ، فاضطر إلى الوضع بأي وجه كان

فسبحان الله ما أعظم منته ، وأعدل عمله ، افترقت الشعوب فجمعها ، وتغالبت الأنفس فهذبها ، وتباينت المقاصد فوحدها، وافترقت القلوب فألف بينها ، فانضمت الأقوام إلى ما شرع من شرائع إرتبطت بها مصالح الأمم ، واتحدت كلمة الشعوب فذللوا المصاعب ومدوا ظلال العمران ، وشيدوا الممالك ، فوضحت لهم طرق السعادة فسلكوها ، وتوصلوا إلى نعيم الحياة فتمتعوا به — ولذا قال بعض الفلاسفة فى تعريف الانسان : إنه حيوان دينى ولم يكتف بالنطق لان التدين يستلزم النطق الصحيح ومن لا دين له قريب من البهائم (ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا — وصفوة القول ان النفوس لا بد لها من مقوم ، والعقول لا تكفى فى أن تسير أصحابها على

النمط الذى يرضى الخالق جل وعلا لأن من صفاتها الشر الغالب على الخير إن لم يكن هناك عون له عليه ولا عون أقوى مما كان من عند الله

فبهذه الجامعة العظمى ، والرابطة المثلى ، تألفت قلوب الأمم المتنافرة ، وتضافرت قوى الشعوب المتفرقة ، فاندفع الإسلام فى أطراف البسيط الأرضى ، يدوخ أهله الممالك ، وينشرون الدين واللغة والمدنية ويبسطون نور العلم والتربية والتهذيب — كل ذلك فعلوه فى أقل من قرن بواسطة « جامعة الدين » ورابطة الحق اليقين

٢٨٥ — ﴿ يد الله مع الجماعة ﴾

قد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون للإنسان السلطان والتصرف فى الأرض، لا لأن يكون ظالماً جباراً بل عادلاً يستعمل الكائنات فيما خلقت لأجله بالقدر الذى يقتضيه العدل وناموس الحكمة — وحيث إن الانسان نوع ذو أفراد تحتاج بالفطر إلى نمو المادة ، وأنه ليس فى طاقة الواحد الحصول على ما تنمو به مادته من الحاجيات اندفع بالطبع إلى طلب المساعدة والائتلاف بأبناء جنسه

والناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه وإجماع الأمة آية رضاء الله

وما المرء إلا بإخوانه   كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير فى الكف مقطوعة   ولا خير فى الساعد الأجذم

فالأمة التى يتحد أفرادها ، ويكون شعارهم (الواحد للجماعة والجماعة للفرد ، والفرد يفدى الأمة ، والأمة تحمى الفرد) تسلك سبيل السعادة والهناء .

كونوا جميعاً يابنىَّ إذا اعترى   خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسراً   وإذا افترقن تكسرت أفرادا

فإذا كان اجتماع أفراد العائلة قلباً وقالباً داعية القوّة والمنعة وعزة الجاه والجانب ، والظهور على المغالب ، والظفر بالعدو والمحارب فهو لا شك فى الأمم روح جثمانها ، ودعامة حياتها ، وسلم ارتقائها وسيف احتفاظها بنفسها وغرار فتوحها — بل تاج عظمتها وصولجان سلطانها — وما الوطن إلا عائلة كبيرة أعضاؤها عائلاتنا الصغيرة إذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعاً ، واذا نزل بهم بلاء اقتسموه فالوطن له حقوق على أبنائه ، له حق فى إخلاص كلى فى أمانة تامة فاذا هدّد له أن يطالبنا ببذل دمائنا وأموالنا فنترك عائلتنا ظهرياً ونخرج لحمايته ودفع مايحوطه من المكاره

ولست أبالى حين أقتل مؤمناً   على أى جنب كان فى الله مضجعى

فسحقاً لمن دخل العدو بلاده عنوة واقتداراً ولم يدفعه عنها إلى آخر نسمة من حياته مجاهداً فى استخلاصها من قبضة يده

كَفَانِى فَخْراً أَنْ أَمُوتَ مجاهِدًا   وَحُبُّ بِلَادِى قائدى منذ نشأتِى

والأمة النشيطة ذات النفوس الكريمة تصبر على القلة والجوع أكثر من صبرها على الهوان والخضوع - ان مثل من باع بلاده وخان وطنه مثل الذى يسرق من مال أبيه وأخيه ويطعم اللصوص فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه

وصفوة القول أن الاتحاد دعامة السعادة، وينبوع العزة والسيادة وهو اليد العليا فى الحياة الدنيا وبدونه تحل بالأمة الطامة الكبرى

- إذا رغبت فى شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير   كطعم الموت فى أمر عظيم

٢٨٦ - ﴿عدو عاقل خير من صديق جاهل﴾

العاقل إذا والى، بذل فى المودة نصحه ونصره، واذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيسعد مواليه بعقله، ويعتصم معاديه بعدله، ان أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر، وإن أساء اليه مسىء سبب اليه أسباب العذر، أو منحه الصفح والعفو - وأما الاحمق فضال مضل، ان أونس تكبر، وان أوحش تكدر، مجالسته محتقرة، ومعاتبته مبتذلة

ولأن يعادىَ عاقلا خير له   من أن يكون له صديق أحمق

وورد فى أمثال الأوائل، عدو عاقل خير من صديق جاهل لأن همة العاقل لا تتعلق إلا بطلب الكمال، فهو يقدر الامور حق قدرها، ويوقفها عند حدها اللائق بها، فانه ينظر بقلبه

وخاطره لا بمجرد عينيه وناظره ، فله من عقله رادع عن التسرع اذا أثيرت عواطفه بما يكدره من عدو تظاهر عليه بالعدوان ، معلقاً خاطره بأقوال النبهاء ، والافاضل الاذكياء ، وغير ذلك من النُّظم والقوانين التي يجعلها دائماً نصب عينيه دواء لغضبه — اما الأحمق فليس عنده نظر فى العواقب وهو مجهول بالشرائع ، فالاقتراب منه ندامة ، والبعد عنه سلامة

يقول لك العقل الذى يزن الفتى   اذا لم تكن تقدر عدواً فداره
ولاقه بالترحيب والبشر والقرى   وبارك له مادمت تحت اقتداره
وقبل يد الجانى التى لست قادراً   على قطعها وراقب سقوط جداره

ذو العقل فى معرك الأقدار مقتدر   لكن ذا الجهل مغلوب ومغلول
وعقل ذى الحزم مرآة الأمور بها   يرى الحقائق والمجهول مجهول

٢٨٧ — ﴿ فوائد رجال الشرطة « البوليس » ﴾

لا بد لكل أمة من حكومة ، ولكل حكومة من نظم وقوانين تسير عليها وتعمل بها ، والا اختل نظامها وانفرط عقدها

والامة هى مجموع الافراد القاطنين فى قطعة معلومة من الأرض والخاضعين لحكومة واحدة

والحكومة هي جسم اجتماعي يعتبر كأنه شخص واحد — له ماله من الارادة والفكر والعمل — وكل جمعية إنسانية خاضعة لقوانين

ونظام عام ، تكون جسما اجتماعياً يسمى بالأمة

وكما أن الجسم الانساني يحتاج لفكر يفتكر به، ونفس يريدبها وأعضاء يعمل بها ، كذلك يجب أن يكون فى هذا الجسم الاجتماعى إرادة وفكر ، وأعضاء مادية ، ويتعين على كل حكومة النظر فى أعضاء الجسم الاجتماعى ،وهم عبارة عن أفراد تلك الأمة ،ولهذا يجب أيضاً على كل حكومة أن تحافظ على أن تكون العلائق بين أفرادها مؤسسة على العدل الذى يجده كل إنسان فى نفسه ، ولا يجوز لها أن تترك القوى يظلم الضعيف وغير ذلك

وكل فرد فى المجتمع الإنسانى لا بد وأن يشتغل بعمل مّا ، ولهذا احتاج إلى القوة والمهارة والعلم — وعليه واجبات يؤديها لنفسه والمولى سبحانه وتعالى ولعائلته ولوطنه ، ولا يتسنى له القيام بذلك إلا بقوتين قوة قضائية ، وقوة تنفيذية — فالأولى ماتقوم بها رجال الشرطة والقصد من إيجاد الثانية توطيد الأمن والنظام والحرية العمومية

ويدخل فى اختصاص الشرطة أمور كثيرة

منها مراقبة مجارى المياه التى ليست من الأملاك الخصوصية فلكل إنسان الحق فيها على حد سواء ، وليس لأحد أن يستعملها استعمالا مضراً بالصالح العام

ومنها مراقبة القنص والصيد بحيث تكون تحت قواعد مخصوصة حتى

لا ينشأ عنه ما يكدر راحة سكان الارياف ، أو يكون سببا فى إتلاف الزرع والغيطان — وكذا صيد البحر يجب أن يكون على نظام واحد حتي لا يتأتى منه إهلاك الحيوانات المائية .

ومنها مراقبة الصناع فى المعامل والمناجم والمصانع فلا يجوز أصلًا أن تنهك قوى العمال خصوصا النساء والأطفال .

ولذلك وجب أن تكون مدة الشغل فيها محدودة

ومنها مراقبة المكاييل والموازين والمقاييس حتى لا يتأتى للبائع غَبن المشترى .

ومنها مراقبة الأَشياء الذهبية والفضية لأَن المشترى لا يكون معه فى العادة ما يتمكن به من تحقيق ما إذا كانت الأَشياء التى تباع إليه نقية أو خالطا من معادن حقيرة تقلل قيمتها .

ومنها مراقبة المواد الغذائية التى تباع فى الأَسواق بحيث تكون من نوع جيد خالية من الغش حفظا لكل إنسان .

ومنها مراقبة منع انتشار الأَمراض المعدية بالتقويات الصحية .

ومنها مراقبة بيع الحيوانات وصحتها ودواب النقل للرفق بها .

وصفوة القول أنه يجب على رجال الأَمن العام أن يبذلوا النفس والنفيس فى جلب الراحة والأَمان والاطمئنان والسعادة فى ربوع عموم المدن والقرى والبلدان — فبهم يبلغ الوطن من حسن نظام

المعيشة الغاية ، ومن الحضارة والمدنية النهاية .

٢٨٨ - ﴿ فوائد الشجاعة ومضار الجبن ﴾

الشجاعة من الفضائل الجوهرية ، لأنها من الوسائط العظيمة الضرورية ، لحفظ الذات ونوال الغبطة والسعادة — فالرجل القوى النفس الشجاع الباسل يأبى الضيم ، ويذب عن حياته وشرفه ودينه ووطنه بكل ما أوتى من قوة : ويأنف أن يأتى الظلم .

ليس المروءة أن تبيت منعما وتظل معتكفا على الأقداح
ما للرجال وللتنعم إنما خلقوا ليوم كريهة وكفاح

ثم إنه بشهامته وعلو نفسه فى عمله يحصل على رزقه من وجوهه الشريفة المشروعة ، ويعيش بسلام مطمئن الخاطر قرير العين غير هيّاب ولا وجل ، وإنه لقوة إيمانه وشجاعة نفسه إذا نابته النوائب التى لا يقدر على دفعها قابلها بالصبر الجميل ، واحتال للخلاص منها بتؤدة وحكمة حكيم .

فالشجاعة من هذا القبيل من أعظم الفضائل ، ولهذا جعلها القدماء من أمهاتها ، وهى غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده (إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية) قال بعض الحكماء : الرجال ثلاثة فارس وشجاع وبطل فالفارس الذى يشد إذا شدوا — والشجاع الداعى إلى البراز والمجيب داعيه — والبطل الحامى لظهور القوم إذا ولوا

ولو أن الحياة تبقى لحى ... لوددنا مكانها الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تكون جبانا

أما الضعف والجبن فهما رذيلتان من شر الرذائل ، لأنهما قد تصاحبهما فى نفس صاحبهما آلاف الأوهام والخزعبلات .

يرى الجبناء أن الجبن عقل ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

فالجبن الضن بالحياة ، والحرص على النجاة .

يفر الجبان من أبيه وأمه ... ويحمى شجاع القوم من لايناسبه

فالرجل الضعيف الجبان ، يعيش فى الأوهام والمخاوف الدائمة فيضنى صحته بالفزع والوجل من لا شىء — وهذا الخوف أو الوهم والوسواس إنما هو آفة له قد يكون بها أسير أوهامه ، ورفيق كل من يريد هضم أعماله ، وهو استعباد قواه وإذلالها فينتقص شأنه ويفسد عليه عيشه ، حتى إنه ليجعل حياته طوع إرادة وهوى من يخافه ويتملقه .

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

الجبن عار وفى الإقدام مكرمة ... والمرء بالجبن لاينجو من القدر

على أن أكثر هذه الصفات قد تكون وراثية أى أنتجتها أحوال سابقة للامم والأفراد — غير أن التربية قد تصلح من تلك الصفات على تمادى الأجيال ، متى ما قصدت الأمم إليها ، وعرفت ما

ينقصها منها — لأن كثيراً ما يتعلق إرادة البشر إصلاح أحوالهم وإنما تعوزهم العزيمة والثبات ، لأننا بمعرفتنا ما ينقصنا من الأخلاق وشعورنا بالنقص فيها يمكننا أن نسعي إلى إحيائها فى نفوسنا بحيث نهيئ ذرارينا لها بإصلاح أحوالنا على قدر الطاقة .

وصفوة القول — أن الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك، فهدم منارها وقطع روابط الأمم فحل نظامها وأوهن عزائم الملوك ، فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم — هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية على أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال المذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ، ويوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والاحتمال والتجلد — الجبن يلبس الناس عاراً دون احتماله موت أحمر عند كل ذى روح ذكية ، وهمة علية — يرى الجبان وعر المذلات سهلًا ، وشظف العيش فى المسكنات رهفاً ونعيماً ، لا : بل يتجرع مرارة الموت فى كل لحظة ولكنه راض بكل حال ، وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء ، ولا ترى الأحياء ، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس لا يلم به إلا الأذلاء ، هذه حياته أضاع كل شيء فى القناعة بلا شيء ، وهو يظن أنه أدرك الغاية وحصل على النهاية — كيف لا والجبن الخذال فى النفس عن مصادمة كل عارض

لا يلائم حاله ، وهو مرض من الأمراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية .

٢٨٩

إن الشباب والفراغ والجِدة   مفسدة للمرء أيّ مفسدة

الشباب مطية الجهل ومركب الذنوب ، وشعبة من الجنون — ولهذا قيل : سكر الشباب أشد من سكر الشراب . قال النابغة الذبياني :

وإن يك عامر قد قال جهلا   فإن مطية الجهل الشباب

والمال فتنة — قال الله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

فالمال ميال للهوى ، بل سبب حتف الانسان ، كما أن الطاوس قد يذبح لحسن ريشه .

ألم تر أن المال يهلك ربه   إذا جمّ آتيه وسدّ طريقه

فمتى وجد الشاب مالاً كثيراً وثروة عظيمة ، بلا تعب ولا كدر ، وكان وقته خلواً من الأعمال ، لم يلبث أن يتطرق إليه الفساد من حيث لا يدرى ولا يشعر ، ويلحقه الدمار والوبال من حيث لا يفهم ولا يعقل ، تأمره نفسه الدنيئة بالسوء والرذائل ، فيخضع للشهوات واللذات ، ويسبح فى بحار الضلال ، ويتيه فى وديان الغواية والظلام ، ويصرف نفيس وقته فى التفنن بضروب المفاسد ، طوعاً لأوامر الشباب وخضوعاً لسلطان الغرام ، ويضيع تلك الأموال

الطائلة ، ويبدد تلك الثروة الهائلة ، في غير مصارفها المباحة ، فتفسد أخلاقه ، ويرتكب أخس الدنايا ، ويحمل ذميم السجايا ، ويتجاهر بالفسق والفجور ، ويتباهى بالزنا وشرب الخمور ، ويجتمع حوله كثير من إخوان السوء وأعوان الشيطان ، الذين لا حظ لهم فى مجالسته ومصاحبته ، سوى اختلاس أمواله وإضاعة ثروته ، فلا يلبث أن تنفد تلك الثروة وتذهب أدراج الرياح ، ثم يلتفت يميناً وشمالاً لينظر أصحابه فلا يبصر أنيساً ولا جليساً ، ويصبح خالى الوفاض بل يكون الحزن حليفه ، والكدر أليفه ، والفقر قرينه ، والذل دثاره والهوان شعاره .

هذا الذى إن عاش لا يعتنى به   وإن مات لم تندب عليه أقاربه

ويصبح من أموات الأحياء عالة على المجتمع الانسانى كئيب الحال كاسف البال .

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً   كاسفاً باله قليل الرجاء

فالشخص الذى لا يعمل عملاً ينفع به نفسه ووطنه ما هو إلا عضو فاسد فى المجتمع الانسانى يجب بتره قبل تفاقم الداء ، فيعسر الدواء ، ويتسع الخرق على الراقع .

عدوى البليد إلى الجليد سريعة   والنار توضع في الرماد فتخمد

كيف لا وإن وأن الإنسان لم يخلق ليلعب ويمرح ويلهو — ويترك ما خلق لأجله وهو العمل

صدقت أن الرزق يطلب أهله ... ولكن بسيرة متعب مكدود

وصفوة القول أن الشباب والمال والفراغ دعائم الفساد ، ورأس الضياع وطرق الوقوع فى الحفر البعيدة الغور — فان الشاب الغنى الذى كثر ماله وعظمت ثروته ، ولم يتقيد بعمل من الأعمال لا يتطلع إلى شيء من معالى الأمور — فان الفراغ منشؤه عدم تقويم نفسه فى صغره وعدم تعليمه وبث روح العمل فيه ، فينشأ كارهاً له غير مدرك قيمته ومن نشأ على شيء صار عادة له ، والعادة طبع ثان والطبيعة تصعب محاربتها

وقائد الإنحطاط لذلك الشاب الذى لا عمل له وجود المال عنده فلا يحجم عن أى عمل تسوله لهُ نفسه الأمارة بالسوء ، ولا يزال يتحرك طوع شياطينه حتى تلتجىء نفسه إلى مالم تكن تعهده من الذل والهوان .

وإن رأيت الشغل يوماً مجهده ... فإنما الفراغ قطعاً مفسدة

(٢٩١)

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا

تهدى الأمور بأهل الرأى ماصلحت ... فان تولت فبالأشرار تنقاد

ولاة الأمور من أعظم واجبات الحياة ، فهم قوام الدين والدنيا

وعليهم فى حركة الأعمال ،مدار البركة العليا، وبدونهم يختل نظام العالم فلولا ولى الأمر لما قدر العالم على نشر علمه ، ولا الحاكم على تنفيذ حكمه ، ولا العابد على عبادته ، ولا الصانع على صناعته ، ولا التاجر على تجارته ، ولولاهم لانقطعت السبل ، وتعطلت الثغور ، وكثرت الفتن والشرور ، ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس ، وطمع بعضهم فى بعض واستولى الأقوياء على الضعفاء ، وتمكن الأشرار من الأخيار ، فيضطرون إلى التشرد والتفرد ، وفى ذلك خراب البلاد ، وفناء العباد فالملك كالروح ، والرعية كالجسد — ولا قوام للجسد إلا بروحه

ونظام العمران محتاج إلي قوانين — إحداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد — وثانيهما القوة المحكومة وهى القوة الأهلية التى لا تسود ولا تنمو إلا بالقوة الحاكمة التى تكون من العلماء العاملين الذين تدربوا وتمرنوا وتعودوا الإصابة فى الرأي ، والاجادة فى الحكم ،والنظر فى العواقب ،والرفق بمخلوقات الله تعالى — وحينئذ فلا ينبغى أن يكونوا جهلاء ، فان الجهل هو العقبة الـ ؤود فى تقدم الأفراد ، بل فى تقدم الأمم ، ولم يوقع الناس فى الأزمان الغابرة فى العداء والشقاء ، والتفرق والظلم والاستبداد إلا هو — ولم يلههم عن البحث فيما يقدمهم وعن الخيرات التى لم تخلق إلا ليتمتعوا بها سواه وقد قيل (الناس على دين ملوكهم) فاذا كان الملك جاهلا خائر .

المزعة كانت أمته كذلك وإن لم يكن الملك عارفاً واجباته ، دارساً سياسة ملكه ، فلا يلبث أن يضيع من يده فيقعد ملوما محسوراً وقد قيل (جهل الرئيس يضل المرءوس)

واحتياج الملك للعلم ليس بأقل من احتياجه للعدل ، فانه أساس الملك وإن لم يكن متوجاً به تألبت عليه الرعية وأسقطته من فوق عرشه وكذا التدبير والحزم — وإلا تداخل أعداؤه فى شؤونه وأفسدوا عليه أموره

نعم — يجب أن يكون الملك نموذجا للرعية ، ومثالاً للكمال والاستقامة من كل وجه حتى ترغب فيه أمته وترجو له عمراً طويلاً وملكا كبيرا وتحرسه وتفديه بأرواحها وأموالها

٢٩٢ — ﴿ وصف نهر النيل وفوائده فى مصر ﴾

نهر النيل من أعظم أنهار الدنيا طولاً ، وأعذبها ماء ، وأعمها نفعاً وأرواها — يأتى الديار المصرية كل سنة من بلاد السودان والحبشة ، فيفيض عليها بدائع الخيرات وأجمل البركات بما يأتى معه من الزبد وطين الطمى ، وهو مكون من أمطار غزيرة ، ولولاه لما عاش فى مصر إنسان ولا حيوان ، يزيد عند الحاجة وينقص كالرجل المدبر ، فيأتي إلى الأرض فى اشتداد الحر ويبس الهواء وجفافها فيسقيها ويرطب الهواء

كأن النيل ذو عقل ولب لما يبدو لخير الناس منه
فيأتى حين حاجتهم اليه ويمضى حين يستغنون عنه

فهو سلطان الأنهار، وحياة هذه لديار، وروح جسمانها، وإنسان عين إحسانها، إذ لولا وجوده لما كان لها وجود، ولولا وجوده لما اخضر لها عود

فرح الأنام بنيلهم إذ صار أحمر كالشقيق
وتبركوا بشروقه فكأنه وادى العقيق

وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم، وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، ولا يطغى على البلاد بالفساد ويأتى من جهة الجنوب إلى الشمال، فيكون فعل الشمس فيه دائما، وتأثيرها على إصلاحه متواصلا، فأكسب أرض مصر الخصب والنماء، وأهلها الراحة والهناء، حتى صارت منبع الخيرات وأم الثمرات

٢٩٣ — ﴿ وصف يوم ذهبت أنواره وكثرت أمطاره ﴾

بينما كان الجو صافياً والغزالة مشرقة بأنوارها، مضيئة نهارها إذا كفهر وجه الأفق، واشتدت العواصف فى الشوارع والطرق وتوارت الشمس بالحجاب، وتلفعت السماء بأذيال السحاب، والرعد يزجره ويسوقه بين يديه، فإذا قصر صاح به وزجر عليه، والبرق

يلمح ويلمع ويمنح ثم يمنع، وقوس الغمام للجو نطاق، لا بل تاج على مفارق الآفاق، يزهو بلجينه وعسجده، ويفخر بياقوته وزبرجده فلبس ذلك اليوم حلة السواد، وتسربل بثوب الحداد، عبوس قمطرير، كشر عن ناب الزمهرير، أرضه مفروشة بالقوارير اللامعة وهواؤه كالزنابير اللاسعة، تراكمت فيه السحائب والغيوم، وأسبلت الستور على النجوم، ووضع عليها أعظم غطاء، من الصباح لغاية المساء، وما نشعر إلا وقد اغرورقت مقلة السماء، فأرسلت الأمطار أمواجاً، والامواج أفواجاً، فسالت به الأودية والصحاصح، كما سالت بأعناق المطى الأباطح، فبتنا بليل ماطر، وأصبحنا بين ماء غامر، فلازمنا المنازل ثلاثة أيام بلياليها، حتى عادت المياه إلى مجاريها

٢٩٤ - ﴿ فوائد النار ومضارها ﴾

إن أعمال الانسان متوقفة كل التوقف على النيران التي لولاها لما نضجت أطبخة، ولا تركبت أشربه، ولا صيغ ذهب ولا فضة ولا نحاس ولا رصاص ولا قزدير، ولا غير ذلك مما يتوقف عليه منافع العباد، كالحلى والأوانى وآلات الحروب والطبع والغزل والحرث والحصاد والرى والتجارة والسفن البخارية والسكك الحديدية ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة والمعدن نقوداً ولا زينة ولا منفعة. قال الله تعالى (أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها

أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم)

كيف لا — والحياة للانسان بدونها غير ممكنة فى الأقطار الباردة كبلاد سبرية ومعظم بلاد الروسيا وأميركا الشمالية فيدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ، ويستضاء بها فى غسق الليل ويهتدى بنورها ولما علم المولى سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها فى العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت — وينبغى الاحتراز دائماً منها لأنه يحصل بسببها مصائب عظيمة ، وأخطار جسيمة (ومعظم النار من مستصغر الشرر)

٢٩٥ — ﴿ رب قول أنفذ من صول ﴾

لما كان اللسان آلة للتفاهم بين الناس ، كان مصدر كل تأثير سواء كان فى الخير أو الشرر ، ولهذا حذر الحكماء من فضول القائل ونددوا بحصائد الألسنة ، واستعاذوا من السلاطة والهــذر ، كما استعاذوا من العى والحصر ، لأن الصمت والسكوت خير من القول بالجهل ، والتكلم بالشر — والقول مع العلم والتكلم بالخير هو غاية المنافع القصوى ، ودرجة المآثر العليا ، وعليه حث العلماء والمحققون قال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا خير فى الصمت مع الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل — وقال أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب رضى الله عنه ترك الحركة غفلة ، وطول الصمت يفسد اللسان — وقيل إذا ترك الانسان القول ماتت خواطره ، وتبدلت نفسه وفسد حسه وذوقه — وما إخالهم أرادوا بذلك إلا لأن النطق من لوزم العقل بما جعل اللسان مترجماً عن الضمير ، وضابطاً للفكر ومقيداً للخواطر ، وان شأن المعانى التى تختلج فى النفس وتتصل بالفكر أن يتحيزها النطق فيبرزها إلى عالم التفاهم ، ليؤتى على الغاية المقصودة من اجتماع بنى الانسان ، وتحصل الفائدة المودعة فى جوهرة هذا اللسان

كذلك لو قصر الانسان على التكلم فى موضوع من المواضيع دون غيره — أو حظر عليه الكلام الا فى معنى خاص ، بحيث يحال بينه وبين ما حرم عليه بحجاب كثيف ، فتوصد فى وجه أبوابه وتتصرم معه أسبابه ، وتنقطع عنه مواصل الاطلاع من جهة ذلك المعنى ، فحكمه بالعلم به حكم من عاش وحده لا يفقه ولا يعى إلا بقدر ما يتاح له من استطلاعه غفلة ، واستشرافه خلسة مما يسفل عن رتبة العلم ، وينحط عن درجة المعرفة ، بخلاف ذلك تراه فى الموضوع الذى منحت له حرية التكلم فيه ، وقد اختبر أمره وأكنه سره ، وقلب بطنه وظهره ، ووقف على سره ومكنونه ، ودرى أصوله وفروعه ، وأحاط بأطرافه بما يتفرغ له من المفاوضة بشأنه واستعمال

أداة التفاهم التي تقفه على رأى غيره ، وتريه منزلة رأيه عندهم ، بحيث تكون له مرآة عقلية يرى فيها ما لنفسه وما لغيره

ولا يخفى أن الانسان إذا أتقن العلم بشيء من الأشياء فحيث كان لهذا الشيء اتصال بعالم التصرف وكان العلم هاماً بالعمل ، رأيت المرء أحذق فى شأنه وأعلم باتيانه — ولو نظرنا فى حال الرجال المشاهير بحسن سيرتهم وسداد أعمالهم ونبل أفعالهم لرأينا فى كلامهم الخاص من البلاغة والاحاطة والدليل على شدة امعانهم فى أسرار الأمور وتعمقهم فى بواطن الأشياء ما يقصر عنه وصف الواصفين وتشهد به أذواق العارفين

وبديهى ان اتقان العلم باعث على اتقان العمل ما وجدت الهمة وتوفرت العزيمة

وإذا كان هكذا حكم الفرد من الأشخاص فهو حكم الأمة التى هى بمجموعها على حد الفرد بلا فرق سوى الزيادة فى النتيجة انظر إلى حال الأمم التى أطلقت فيها حرية الخطابة واتسع عندها مجال القول كيف عم فيها العلم ، وشاع الفهم ، وتنورت العقول واستضاءت الألباب بما اتصل بها من المعانى الرفيعة والمواضيع العالية ، والمقاصد السامية ، وما تيسر بذلك من وسائل الارشاد وطرق التبليغ ، وأسباب الدعوة ، وما انفتح به أبواب الاشارة

والاستشارة والمشاركة فى ثمرات العقول ونتائج الأفكار — ولاسيما فى الأمور العامة، والخطوب الطامة، حتى شقة الخطبة من الخطب لأنها ما يقال عند الأمور العظيمة — وإذا كانت الأمة على هذه الدرجة من سهولة الاطلاع والكشف كانت على غاية من الانتباه والحذر والتيقظ لمصالحها، والتبصر بحوائجها، والتحفز على درء مضارها بحيث تكون أسبق الأمم قدماً إلى منازل العز. وألمحها بصراً إلى معالى الأمور، وأسدّها تدبيراً فيما تباشره من الأعمال ومن ثم تحرز الغبطة والبسطة والجاه والثروة وتحوز الغلبة على من سواها

وحسبنا شاهداً فى كل زمان الأمم التى اشتهرت بالرئاسة والسيادة والسداد والقوة والجاه والحكمة — منها أمة اليونان فى الأزمان القديمة بلغت ما بلغت من الشهرة فى العلوم والحكم وحسن السياسة وتثقف العقول وأدب الطباع، بما كان فيها من حرية التكلم وتعميم العلم بالخطابة، ولقد كان مشاهيرها أساطين الحكمة وسلاطين الكلام وملوك المقال والمتمكنين من أزمة البيان — ومنها أمة العرب إلي عهد السلام وما بعده بقليل بلغت حدّ الاعجاز من البلاغة، وتجاوزت طور الأمم فى البيان، وفى لسانها من التعابير والتراكيب والأمثال الدالة على شدة تسلطها على المعانى وقبضها على المواضيع واحرازها لظواهر الأشياء ما يقضى بالعجب العجاب

ومن أنعم النظر فى خطب عمر بن الخطاب ، أو على بن أبى طالب مثلاً أو غيرهما من أمراء الجيوش وعمال الأقاليم الذين عاشوا فى صدر الاسلام وعلم أن مثل تلك البلاغة الشاهقة والحكمة السامية مما كان مألوفاً عند أفهام العوام فى تلك الأيام ، وهى مما يعجز عنه اليوم مدارك الخواص ، تمثلت له حالة البيان فى ذلك الزمان ولم يعجب لباهر تدبير هؤلاء الرجال وشدة نفاذهم على الأمور ، فانهم سطوا على الأغراض فأحرزوها ، وتمكنوا من الحقائق فأبرزوها وذلت لأفهامهم المشاكل ، وخضعت لأفكارهم المقاصد ، وانقادت لخواطرهم الشوارد ، ومن كان هذا شأنه من الفهم والتفهيم بين أحوال العالم وأموره ، فقد بلغ به العقل السعادة التامة ، والحكمة العامة والمنزلة الخاصة دون البشر

ومن هذا القبيل الشعوب الأوربية ، لهذا العهد أدركوا الغاية القصوى من النجاح ، وتسنموا المعرفة العليا من الفلاح ، وصاروا الأشد طولا ، والأوفر حولاً ، والأغزر مادة ، والأكثر بضاعة من كل صنف من أصناف المعالى والمراتب ، والمنافع والمكاسب وذلك بعد أن أطلقت عندهم الحرية ، وأجيز القول بكل نوع من أنواع النصيحة ، والتنبيه لكل فرد من أفراد الأمة ، فعمّ عندهم مشرب الحب الوطنى ، وصارت كل أمة منهم بمثابة الشخص الواحد

تتطرب بكليتها المصلحة ، وتتجه بأجمعها إلى المقصد — ويتم هذا الاتحاد فى الرأى والعمل حتى تكون الامة كلها على نبإ من خطبها فتتهيأ لتلقيه بالتى هى أحسن ، ولا يكون ذلك إلا باتخاذ المجالس والنوادى والمحافل السياسية ، ومنابر الخطابة ، والجرائد والصحف والأجزاء المنشورة ، وسائر وسائل اللسان والقلم فترى الامة إذا أصابها خطب أو دهمتها نازلة من النوازل ، قامت قائمتها من كل جهة لاسترجاع الحق ودفع الأذى ، فصعدت الخطباء إلى المنابر ، وصعدت الكتاب بالجرائد ، وانبسطت المسألة الواقعة للجميع ، بما يستعرض الأفكار ، ويستدرج الآراء ، ويستورى زناد الروية ، ويستمطر سحاب القريحة للعمل بالأولى ، واتخاذ الخطة المثلى ، فتندفع المملكة كلها فى مداركة الخطب وملاقاة اليأس ،ولا يزال العويل قائما ، والنفير متلاحقا ، وأصداء المحافل متجاوبة بالمناقشة والمحادثة ، وأوراق المطابع متزاحمة بالمجادلة والمباحثة ، حتى تتمحص جميع الوسائل والأدوية وينتهى الأمر باختيار الأنفع وارتضاء الأنجع — وأما الرأى العام المعروف فلا سبيل إلى انعقاده إلا هذا الطريق — وهذه الحالة هى الآخذة بطرفى المنفعة المادية والأدبية ، الماسكة بناصيتى المصلحة العمومية والخصوصية ، وذلك فضلا عن تحرى السداد ، والفوز بالنجاح فى انتهاج هذه الطريقة فى أمور المملكة ، يصبح كل واحد

من الأمة ، عالما بالشأن الذى ينبغى له ، ضليعاً فى الأمر الذى عين عليه — وأنه ليقوم الخطيب فى القوم مرتجلاً إرتجالا ، فتأتيه المعانى إرسالا ، فيأتى على موضوعه كله ، لا يدع وجها إلا قلبه ، ولا رأيا إلا كاشف به ، ويجىء الكاتب لإنشاء فصل من الفصول ، فلا يتناول القلم إلا وقد تداعت عليه المعانى من كل جانب ، وكل عندهم يخمد ويضرم ، وينقص ويبرم ، إذا اشرأبت إلى رأيه الأعناق وارتاحت إلى رشده النفوس ، ولهذا صاروا أبصر الجميع فى لوازمهم وأنجحهم فى مطالبهم ، وأنشطهم إلى مصالحهم ، فشمروا عن ساق الجدّ ، وانصلتوا فى السير إلى المجد ، ونالوا الحظوظ الوافرة وأصبحوا على مانراهم فى حالة تبهر العيون ، وتملأ الصدور

وكثير من الشعوب بفساد أمرائهم ، واستبداد رؤسائهم وتحكم ملوكهم ، وتخونهم لحقوق عامتهم ، مما نشأ عنه سوء تربية الأشخاص وتعطل أخلاقهم ، وانقلاب فطرهم ، وانعكاس خلقهم قد حرموا منفعة الخطبة ، والتكلم فى الأمور العامة ، مما ينور عقولهم من جهة ، ويسدد أعمال دولهم من جهة أخرى ، فهم لا ينشطون لمقالة ولا ينشطون من عقال ، وذلك أنه جرت العادة عند الملوك القدماء المستبدين أنهم متى فسدت طباعهم ، وأرخو العنان لاهوائهم ، فجروا فى الاغتصاب والانتهاب كل مجرى ، وذهبوا فى الحيف والجور كل

مذهب ، لم يطيقوا سماع منذد بأهوائهم ، معدد لأسوائهم ، ذاكراً لقبيح صنيعهم تعجرفاً وكبراً منهم عن أن ينظروا قبائحهم بأعينهم أو ضعفاً عن إصلاح سيرتهم ، فضربوا بين رعيتهم وبين الحرية ستاراً ، حتى إذا حولوا الأبصار عن النظر فى أعمالهم وصرفوا الخواطر عن التأمل فى حركاتهم ، انطلق بهم جماح الشهوة إلى حيث شاءوا بلا معارض ولا منازع ، واعتنوا بتضييق الواسع على رعاياهم ليتمادوا في الغباوة ، ويرتكسوا فى الضلالة ويسقطوا فى الظلمات فيستضيمون حقوقهم ويتحكمون فى أعناقهم وأرزاقهم وهم صاغرون ولهذا أخلوا دولهم من المجالس الشورية الدستورية ، وانحصرت الأمور العمومية التى عودتها على ألوف الألوف بل الملايين من البشر فى رأس شخص واحد أو اثنين ليس لغيرهما حق فى أن يعلم ما هو مصيره وأمته ، ولا أن يبحث فى شأن من الشؤون العامة أصلا فترى الأهالى وقد كبحتهم حكمة القهر عن التكلم فى مصالح المملكة وغمست عنهم الأخبار السياسية ، وطويت المسائل المهمة فى أدراج السكوت فى أسوأ حالة من الجهل بأمورهم ، والغفلة عن مصالحهم وقلة الاستعداد لدرء الملمات ، وإزاحة الكروب ، والقصور عن الجدّ فى منفعة وطنية ، بما غلّ أيديهم من سلاسل الاستعباد وارتفع على أعناقهم من نير الاستبداد ، ولما صار إلى هذه الدرجة

جهلهم بأنفسهم ، بما حجب عنهم من العلم ، وأطيل من ذلك الحجاب سكنت هممهم ، وماتت نفوسهم .

٢٩٦ — ﴿ هب أنك وُلِّيت الملك فبماذا تعامل أمتك لتكون محبوباً عندهم ﴾

إى — والله أكون الملك العادل ، قوّام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف — وأكون كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والبرد ، وكالأم الشفيقة ، البرّة الرفيقة بولدها تفرح بعافيته وتغتم بشكايته ، وكالأب الحانى يسعى لأولاده صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

وما المرء إلا ذكره وفعاله وكل مقام غيرهن حقير

أيرضى الوالد الرحيم أن يأكل ويشرب أطيب المأكول والمشروب ويلبس الكسى الفاخرة وأولاده يقتنعون من دهرهم بالخسيس من المطعم والملبس — أيرضى أن ينام على فرش وثير وأبناؤه يتوسدون الثرى .

ولذة ساعة ذهبت وولت وأبقت بعدها حسرات دهر

وأكون موجهاً نظرى فى عمارة الأرض قبل توجيه نظرى إلى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل « فالعدل أساس الملك » ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلًا .

فما ابن آدم إلا ذكر صالحة ‏ ‏ أو ذكر سيئة يسرى بها القلم

فالملك الذى يسلب أموال رعيته ويثقل كاهلها بالضرائب ، مثله كمثل من يأخذ الطين من أصول حيطان بيته فيطين به سطوحه فيوشك أن يقع عليه البيت .

وليس يمين الظالمين بظلمهم ‏ ‏ سوى أدنياء تستلذ المثالبا
فهم مثل كلب الصيد يتبع ربه ‏ ‏ ليلتذ لا نفعاً جنى بل متاعبا
ومن آثر الدنيا على حسن سمعة ‏ ‏ وذكر له يبقى ويبقى المناقبا
فذاك كمن عاف النعيم مخلداً ‏ ‏ بلذات دنيا برقها كان خالبا

وإنى أخاف الله تعالى فلا أسلك بأمتى سبيل الظالمين ولا أسلط المستكبرين على المستضعفين ، ولا أنظر إلى قدرتى الدنيوية ، ولكن أنظر إلى قدرتى الأخروية ، وأنا مأسور فى حبائل الموت وموقوف بين يدى ملك الملوك الأعلى سبحانه وتعالى .

غداً توفى النفوس ما كسبت ‏ ‏ ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ‏ ‏ وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وأكون موجها نظرى إلى نشر العلوم والمعارف فى أنحاء المملكة فقد قال فيكتور هوجو (علموا الجهال ما استطعتم فإن أعظم جرائم الحاكمين أنهم لايجعلون التعليم مجانا ، والجهل ظلمة وإن تبعة الذنوب التى تجرى فى هذه الظلمة عائدة عليهم ، وليس المجرم من يقترف الذنب بل المجرم من ينشر الظلمة على الأرض) .

ولا أسلب أمتى الاستقلال والحرية فإنه لا سعادة إلا بالحرية ولا معنى لحياة العبودية ، فالحرية فطرة طبيعية مغروزة فى قلب كل حى — قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (أتريدون أن تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!) .

فعلىّ عهد الله وميثاقه أن أواصل الليل بالنهار فى إصلاح شؤون أمتى ما استطعت — وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ تم ﴾

﴿ يقول مصححه فى مسك ختامه ﴾

تم الكتاب مصححاً فى طبعه بعونة الربّ الجليل الباقى

عبد الوصيف محمد

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة